كتاب

آثار ابن باديس

المجلد الأول

تفسير وشرح أحاديث

اعداد وتصنيف

دكتور عمار الطالبي

الشركة الجزائرية

لصاحبها

الحاج عبد القادر بوداود

24 ، شارع باب عزون ـ الجزائر

الشركة الجزائرية
لصاحبها
الحاج عبد القادر بوداود
24 ، شارع باب عزون - الجزائر

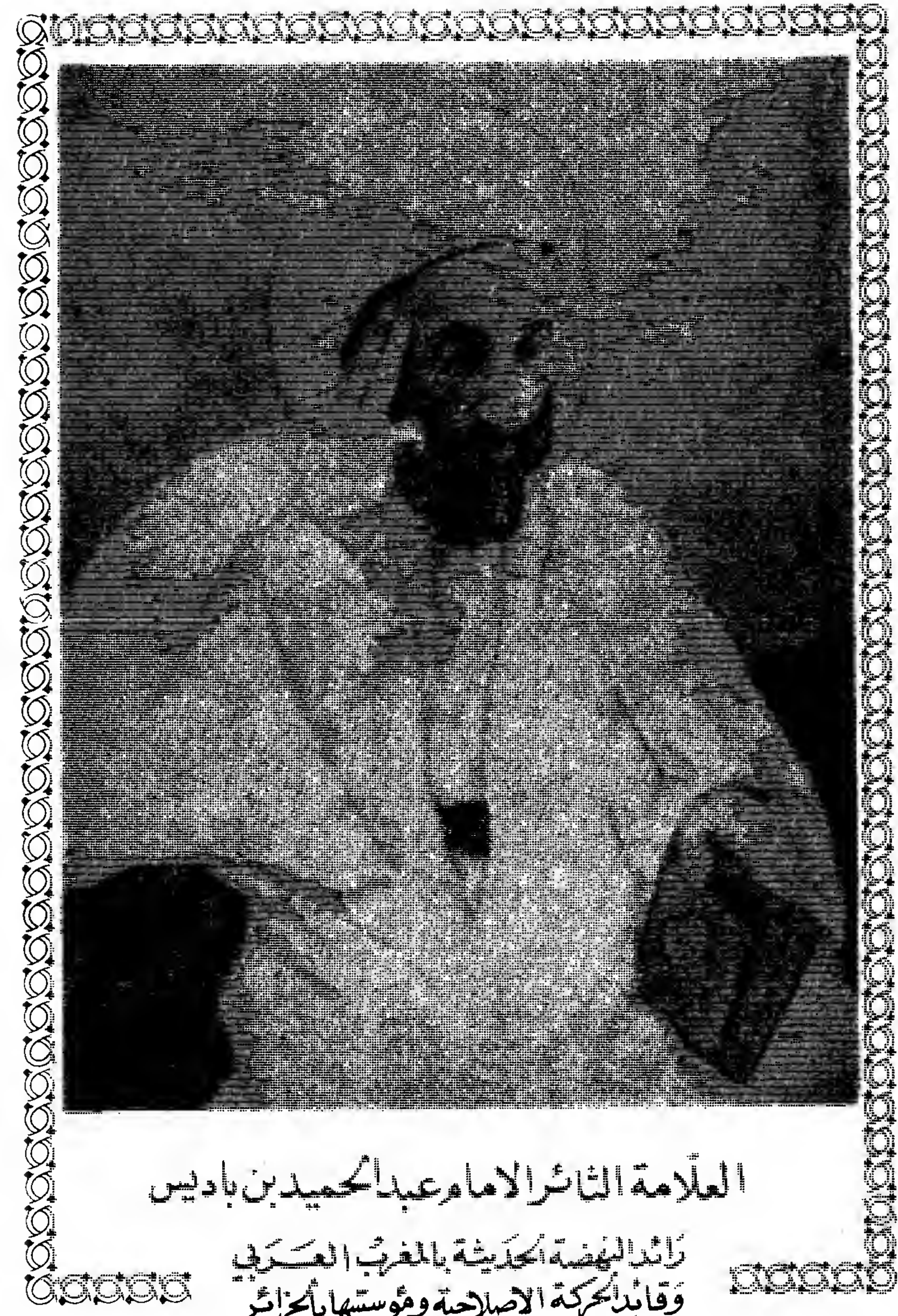
الطبعة الأولى ١٣٨٨ هجرية = ١٩٦٨ ميلادية
الطبعة الثانية ١٤٠٣ هجرية = ١٩٨٣ ميلادية
الطبعة الثالثة ١٤١٧ هجرية = ١٩٩٧ ميلادية





آثارِ ابن بادیس





العلّامة الثائر الامام عبد الحميد بن باديس

رائد النهضة الحديثة بالمغرب العربي
وقائد الحركة الإصلاحية ومؤسسها بالجزائر

يشتمل المجلد الأول من هذه الطبعة على مدخل للحياة العقلية والثقافية للمغرب الاسلامي ، وعلى حياة ابن باديس وآثاره المتعلقة بالتفسير ، وشرح الحـديث ، ويشتمل المجلد الثاني على المقالات الاجتماعية والتربوية والاخلاقية والدينية والسياسية التي دبجها يراع الشيخ الامام‌الاستاذ عبد الحميد ابن باديس .

وقد كلفت دار اليقظة العربية لجنة من كبار علماء دمشق للقيام بتصحيح آثار ابن باديس أثناء طبعها ، وذلك حرصاً منها على أن يصدر هذا الكتاب الذي له اهمية بالغة في النهضة الاسلامية العربية الحديثة في المغرب الاسلامي سليماً من الأخطاء ، خالياً من التحريف .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم المفكر الجزائري مالك بن نبي
مدير التعليم العالي بالجزائر

عرفت مؤلف هذا الكتاب ابان دراسته في جامعة القاهرة ، وكنت أعتبره في جملة أصدقائي ومستمعي من بين طلاب البلدان الاسلامية المختلفة الذين يزورون الندوة التي تعقد في منزلي يوم الجمعة من كل أسبوع .

فحين أقدم هنا لدراسة عن ابن باديس أشعر بلذة مزدوجة .

فما كان أشد اغراء مثل هذا الموضوع في بلد ما يزال من شاهد حياة الشيخ وأثره كثيراً عددهم ، ولكن ما أصعبه من موضوع اذ الحقيقة انه لا يمكن أن يخلو حكم معاصر على أحداث عهده ورجاله ، من نظرة ذاتية ، الا نادراً .

وأنا نفسي أشعر بشيء من الحرج حين أقدم كتاباً يحوي ـ بالضرورة ـ أفكاراً وأحداثاً كنت نصيراً لها أو معارضاً .

غير أن شخصية الشيخ تجمع في طياتها جوانب بلغت من التنوع والغنى مبلغاً يجعل في قدرة الباحث ـ دوماً ـ أن يتطرق الى دراستها من زاوية تحرر الفكر من الظروف العرضية النسبية .

لقد كان ابن باديس مناظراً مفحماً ، ومربياً بنّاءً ، ومؤمناً متحمساً ، وصوفياً والهاً ، ومجتهداً يرجع الى أصول الايمان المذهبية ، ويفكر في التوفيق بين هذه الأصول توفيقاً عزب عن الأنظار ، ابان العصور الأخيرة للتفكير الاسلامي .

وهو كذلك وطني مؤمن تصدّى عام ١٩٣٦ لزعيم سياسي نشر مقالاً عنوانه : « أنا فرنسا » فردّ عليه رداً حامياً قوياً .

وعندما انفجرت حوادث قسنطينة الدامية في شهر آب من سنة ١٩٣٤ وحاولت الادارة أن تعيد الهدوء والاستقرار كان نصيراً لها ، ولكنه لم يقبل هجوماً على الاسلام قام به يهودي منتهكاً حرمة مسجد .

والشعور الوطني المتدفق يغـدو لديه فيضاً شعرياً عندما ينظم قصائده التي قدّر لها أن تعيد الى الشعب الجزائري أبعاده الحقيقية في التاريخ الاسلامي ، في فترة كان أطفال الجزائر يدرّسون ويعلّمون تاريخ « أجدادنا الغاليين » .

وفوق ذلك فقد كان ابن باديس مصلحاً اقترن اسمه وأثره بتاريخ هذا البلد في مرحلة سياسية كانت تعده « للثورة » ، وفي هذه الكلمة من المعاني أكثر مما تعودنا أن نفهم .

انه المصلح الذي استعاد موهبة العالم المسلم كما كانت في عصر ابن تومرت بافريقيا الشمالية .

فقد كان المغرب يعيش على صورة ما حياة فترة العصر الذي وضعت له حداً نهائياً دعوة مهدي الأطلس المغربي ، وسيف عبد المؤمن .

نحن نعلم أن عصر المرابطين شهد انزلاق الضمير الاسلامي نحو النزعة الفقهية .

فجاء ابن تومرت ارتكاساً لروح الفقهاء الضيقة ، ووضعت دعوته الضمير الاسلامي في شريعة القرآن وطريق السنة .

أما ابن باديس فقد جـاء في فترة جددت فيها النزعة الصوفية (المرابطية أو الطرقية) دورة المرابطين •

وهنا موضع الخطورة ، ذلك أن الحلقة لم تستأنف بالفقه والرباط ، بل بالتميمة والزاوية •

ولم يستطع المصلح الجزائري أن يطمح الى تأسيس امبراطورية تحرر الضمير •

لقد تغير الزمان : فالاستعمار والقابلية للاستعمار غيّرا كل المعطيات في الجزائر كما فعلا ذلك في سائر العـالم الاسلامي •

كانت الظروف تقتضي الرجوع في الاصلاح الى السلف ادراجاً : اذ لم يكن القيام بأي عملٍ في النظـام السياسي أو الاجتماعي ممـكناً قبل تحرير الضمـائر •

وكل مذهب الاصلاح الجزائري الذي تجده في ابن باديس كان لا بدّ أن يصدر عن هذه الضرورة أو عن هذه المقتضيات الخاصة •

والمبدأ الأساسي القائل « انّ الله لايُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » الذي كان أول خطوة فيالاصلاح ، يمكن أن يعتبر — من زاوية مّا — ترجمة لهذه الضرورة في صيغة مذهبية •

ومن هنا نرى التقلبات التي كان يمكن أن يتعرض لها مبدأ كهذا المبدأ لدى وضعه موضع التطبيق ، عندما يجد المرء نفسه — أو يظن — أنه مضطر الى أن يتنازل للسياسة على حساب كمال المذهب ومتانته •

ونقد الحركة الاصلاحية الجزائرية كله يمكن أن يوجه نحو هـذه النقطة •

ولنقل — كي نبقى ضمن موضوعنا — : اننا لم نعمد الى الحكم على أثر ابن باديس بالمتانة العلمية التي تضع النتائج في أعقاب المقدمات ، والمقدمات نفسها في مواجهة قوانين التاريخ ، وعلم الاجتماع •

على أي حال فان هذا الاثر نفسه غني في جميع جوانبه ، غنى شخصية صاحبه ، ويمكن أن يقفالقارىء على هذا التنوع الغنيّ . وهو يقرأ الدّراسة التي يعرضها عمار الطالبي .

ولقد يكفي في هذه المقدمة أن نركّزاهتمامنا في جانب من أكثر الجوانب تمييزاً لفكر ابن باديس .

أريد أن أتكلم عن الافتتاحية التي كانت ترد في مطلع كل عـــدد من مجلة « الشهاب » تحت عنوان « مجالس التذكير » .

كان الشيخ يكتب هذه الافتتاحية دائماً : وانها لأثر العالم الداعية ، المصلح الفذ .

ولا يفوتني أن أذكر أنه عندما كان ابن باديس يتغيَّب عن قسنطينة لسبب ما ، كانت المجلة تظهر بدون هذه الفاتحة التي تكوّن حقاً أمّ كل عدد من أعدادها .

ولقد دامت هذه الفاتحة من عدد كانون الثاني ١٩٢٩ م الى عدد ايلول من سنة ١٩٣٩ م على أبواب الحرب العالمية الثانية .

ولكي نستطيع الحكم على أهميته المذهبية والتعليمية يجب أن نحلّل مجلساً من مجالسه . ويجب علينا ألا ننسى بأن الشيخ علاوة على دوره في توجيه الرأي الجزائري العام ــ كان كذلك المعلم الذي يدرّس في معهد تكوّن فيه كلّ قادة تعليمنا الحر ، وحتى شعراؤنا ، مثل محمد العيد آل خليفة .

بل ان الشيخ نفسه يقدم هذا التحليل في العناوين الفرعية التي كان ينفحها كل مجلس من مجالسه ، فتحت العنوان يقدم الموضوعين الأساسيين : الآية ــ أو الآيات ــ والحديث موضوعي المجلس ، تليهما بعــد ذلك العناوين الفرعية الخاصة بكلا الموضوعين ، وهكذا نجد

ـ على سبيل المثال ـ في عدد حزيران ١٩٣٥ م الآية :

« يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ الى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ الى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١) .

وهي موضوع التفسير ، ويستخلص الشيخ من هذه الآية خمسة عشر عنواناً فرعياً كما يلي :

١ ـ أدب واقتداء .
٢ ـ بيانه لهم ، حجته عليهم .
٣ ـ تمثيل .
٤ ـ أدب واقتداء .
٥ ـ نعمة الاظهار والبيان بالرسول والقرآن .
٦ ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن نور وبيان .
٧ ـ استفادة .
٨ ـ اقتداء .
٩ ـ الهداية ونوعها .
١٠ ـ بماذا تكون الهداية .
١١ ـ لمن تكون الهداية .
١٢ ـ الى ماذا تكون الهداية .
١٣ ـ الاخراج من حالة الحَيرة الى حالة الاطمئنان .

---

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .

١٤ ــ الاسلام هو السبيل الجامع العـــام •
١٥ ــ الرجوع الى كتاب الله وسنة رسول الله لازم دائم •

واذا طبقنا تحليلنا الخاص على هذا الموضوع رأينا أن الشيخ قد أمدّنا من خلال تفسير هذه الآية ، بصورة ما ، بطيف ذاته : فالذي يتكلم انما هو الذاتُ عن الدين ، والناقد الاجتماعي ، والعالـم المحقق ، والمصلح ، والصوفي ، كلٌ بدوره • ولا يفوتني أن أذكر أن غنى هذه الذات ليس محصوراً كله في فعل واحد من أفعال هذا الفكر وهذه السيرة اللذين بعثا الحياة في فترةٍ ما من تاريخنا الوطني •

وعلى القارىء ألا ينسى أن ابن باديس مثقف يعيش مأساة مجتمع وحضارته على طريقته الخاصة •

فعندما قام بطبع كتاب « العواصم من القواصم » لأبي بكر بن العربي (٤٦٨ ــ ٥٤٣ هـ) على نفقته كانت هذه الطبعة ــ رغـم ثغراتها[1] ــ تأكيداً لشخصية تعمل على الصعيد التاريخي لحضارة ما •

الجزائر ١٦ ذو الحجة ١٣٨٥ هـ
٨/٤/١٩٦٦ م
مالك بن نبي

(١) اشار محب الدين الخطيب الى هذه الثغرات في مقدمته لمبحث الصحابة الذي اقتطعه من هذا الكتاب (من الجزء الثاني ص ٩٨ ــ ١٩٣) وطبعه بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٥ هـ ولكنه لم يشر الى المخطوط الذي اعتمد عليه وهذا ما جعل الكتاب أبتر .

مدخل

الى الحيـاة العقلية والنهضة الحديثـة بالجزائر

— ١ —

بوادر النهضـة

لا يمكن أن تدرك أبعاد النهضة الحديثة في الجزائر قبل معرفـة الأصول النفسية والاجتماعية للنهضة الحديثة في المغـرب الاسلامي بعامة ، وفي المغرب الأوسط « الجزائر » بخاصة . لقـد كانت أبرز الحركات الاصلاحية والثورية ، وأكثرها حيوية وأعمقها جذوراً ، وأشدها اتصالاً بالفكر الاسلامي ، وبمباديء الاسلام والسلفية .

تتسم الحياة الفكرية في المغرب الاسلامي بالتأثر بالأفكار التي تظهر في المشرق الاسلامي عبر التاريخ وهذا دليل على الوحدة الفكرية ، والثقافية ، واللغوية التي تأصلت جذورها وبقيت حيةً مدى الدهر ، بالرغم من عوادي الزمن ، وفجائع التاريخ ، ومحاولات الفصل ، والمحو ، وافتعال الفروق .

وما زال الفكر الاسلامي في الجزائر يتطلب الدراسة والتنقيب ، ولا شك في أن البحث عنه يكشف عن كنوز يمكن الافتخار بها .

وتعتبر محاولة الامير عبد القادر[1] الفكرية من أهم المحـاولات

(١) ولد في سنة ١٢٢٢ — ١٣٠٠ هـ (١٨٠٧ — ١٨٨٣ م) .

الجزائرية الحديثة في ميدان النهضة ، وهذا ما حمل جرجي زيدان على أن يجعله في كتابه « بناة النهضة العربية » من القادة والساسة ، بل كان أول شخصية تحدث عنها في كتابه هذا [1] . والواقع ان الأمير عبد القادر أول من آثار الضمير الشعبي الجزائري ، وبذر بذوراً بقيت تنمو في القلوب ، وتمتد جذورها في الارض الطيبة التي يجدر بالعالم الاسلامي أن يفخر بها ، ويسميها بحق « أرض الشهداء » وبجانب ما للأمير من ثورة سياسية فانه أضاف اليها ثورة فكرية ، تتمثل في تلك الأبحاث الدينية والتاريخية والفلسفية والكلامية[2] والصوفيـة[3] التي قام بها ، وحاول أن يفسر قول الامام الغزالي (٥٠٥ هـ — ١١١١ م) : (ليس في الامكان أبدع مما كان) يقول : « ان الآثار الكونية دلت على المعاني الالهية،والحقائق الربانية،والمعاني الالهية دلت على وجود ذات الاله المعبود ، فما في العالم حقيقة كونية كلية أو جزئية تقابلها هي مستندها وعمدتها ، والحقيقة الكونية هي معينها ومظهرها ، فالنسخة الكونية مقابلة للنسخة الالهية ، ولا يلزم من تقـابل النسختين واستناد احداهما الى الاخرى المساواة في الحقيقة والنسبة ، ومن علم هـذا علم صحة قول حجة الاسلام الغزالي رضي الله عنه » [4] .

---

(١) جرجي زيدان : « بناة النهضة العربية » ، دار الهلال ، القاهرة (دون تاريخ) ص ١٢ — ٢٢ .

(٢) « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » الفه في سنة ١٢٧١ هـ طبع للمرة الاولى بدمشق (وبدون تاريخ) وجاء في ١٣٢ صفحة .

(٣) كتاب « المواقف » في التصوف نحا فيه منحى ابن عربي يقف عند آيات قرآنية معينة ويفسرها تفسيراً رمزياً صوفياً فيه نزعة افلاطونية محدثة على غرار المواقف للنفري . انظر تعليق شكيب ارسلان على حاضر العالم الاسلامي القاهرة ١٣٤٣ هـ ، ج ١ ، ص ٧٣ — ٧٩

(٤) حسن صعب ، الوعي العقائدي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٩ ص ١٠٢ .

وبعد اخفاق الأمير في معاركه ضد المستعمرين وخروجه من الوطن عاد الفكر الجزائري الى جموده ، وتحجر ، وتحنطت الأخلاقية الاسلامية، والجهاد ، في صورة زوايا وطرق ، وأصنـام .

ورغم بعد الأمير عن الوطن فانه كان يقوم بنشاط في سبيل الاصلاح والنهضة بدليل انتسابه الى الجمعية السرية السياسية التي أسسهـا جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ــ ١٣١٤ هـ / ١٨٣٩ ــ ١٨٩٧ م) والتي تسمى بالعروة الوثقى[1] وهو نفس اسم الجريدة المعبرة عن آرائها. يقول رشيد رضا : (وقد كان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري ومن اختار من انجاله ورجاله)[2] . كما انه انضم الى الجمعية الماسونية في الاسكندرية سنة ١٨٦٤ م[3] ، وكان جمال الدين الافغاني نفسه عضواً فيها ثم انسحب منها . ودعا الأمير الى رفض التقليد واستعمال النظر فقال : (والمتبوعون من الناس على قسمين : قسم عالم مسعد لنفسه ، ومسعد لغيره ، وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد ، ودعا الناس الى معرفة الحق بالدليل لا بأن يقلدوه ، وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره ، وهو الذي قلد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ، ودعا الناس لتقليده ، والأعمى لا يصلح أن يقود العميان ، واذا كان تقليد الرجال مذموماً غير مرضي في الاعتقادات ، فتقليد الكتب أولى وأحرى بالذم وان بهيمة تقاد أفضل من مقلد ينقاد ، وان أقوال العلماء والمتدينين متضادة متخالفة في الاكثر ، واختيار

(١) صدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ ــ ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ . صدر منها ١٨ عدداً آخرها صدر في ١٦ اكتوبر ١٨٨٤ م .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام مطبعة المنار ١٣٥٠ ــ ١٩٣١ ج ١ ص ٢٨٣ .

(٣) جرجي زيدان ، بناة النهضة العربية ص ٢٢ .

واحد منها واتباعه بلا دليل باطل ، لانه ترجيح بلا مرجح فيكون معارضاً بمثله) [1] .

لقد سيطرت الطرق الصوفية على الفكر الاسلامي ، والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ، سيطرة مذهلة ، فبلغ عدد الزوايا في الجزائر ٣٤٩ زاوية وعدد المريدين أو الاخوان ٢٩٥٠٠٠ مريد . والفقهاء الذين عرفوا بمعارضتهم الصوفية أصبحوا بدورهم « طرقيين » فساد الظلام ، وخيم الجمود ، وكثرت البدع ، واستسلم الناس للقدر ، وأصبحوا اذا سئل أحـدهم عن حاله أجاب : « نَأكُلْ الْقُوتْ وَنَسْتَنَّى في الْموتْ » [2] وهذه الظاهرة الاجتماعية أدت الى تعطيل الفكر وشلّ جميع الطاقات الاجتماعية الاخرى .

رد الفعل :

أدّى انتشار البدع والاعتقاد بالخرافات ، وطغيان الطرقية الى ارتكاس — رد فعل — من طرف جماعة من الفقهاء المسلمين ، والعلماء السنيين السلفين الذين آلمتهم الحال الراهنة،وأقلق ضميرهم سوء الحياة الاجتماعية ، وكثرة الضلال ، والانحراف الى الجاهلية ، وهؤلاء كانوا هم الرواد الأوائل لحركة الاصلاح الديني والأخلاقي ، والاجتماعي في أرض الشهداء .

وهذا الداعي — كما ترى — نبع من صميم المجتمع الجزائري عاملاً مناقضاً للحياة العقلية والاجتماعية المجمدة ، وهناك دواعٍ سواه وعوامل أخرى اندفعت من خارج المجتمع وهي النهضة في المشرق وعودة الاتصال الفكري والثقافي بينه وبين المغرب عن طريق الصحافة والكتب والمجلات

(١) ذكرى العاقل ص ٦ — ٧ . طبعة قديمة وصفحة ٣٤ — ٣٥ طبعة حديثة .

(٢) عبارة عامية معناها : نطعم الطعام وننتظر الموت .

والحج الذي تقع فيه مؤتمرات واجتماعات للنظر في أزمة المسلمين [1] ، وعن طريق الطلبة الذين يسافرون الى القرويين والزيتونة ومصر للدراسة ومن أهم العوامل التي أدت الى وجود حركة ادبية وعلمية انشاء السيد قدور بن مراد التركي الرودوسي المكتبة الثعالبية سنة ١٣١٤ هـ ـ ١٨٩٦م ثم مطبعته التي طبعت كثيراً من الكتب التاريخية والدينية [2] .

من العلماء الذين حاربوا البدع ، وحاولوا تحريك المجتمع ، وبذروا الحركة الاصلاحية : الشيخ صالح بن مهنا[3] فان مناجاته للضمير كادت توقظ أهل قسنطينة كلها حوالي سنة ١٨٩٨ م فعملت الحكومة الفرنسية على أبعاده ، وصادرت مكتبته التي لا تقدر بثمن [4] وله مؤلفات كثيرة . والأستاذ الشيخ عبد القادر المجاوي [5] الذي ألف كثيراً من

(١) وهو ما كان يخشاه الاستعمار الفرنسي فيراقب الحجاج المسلمين مراقبة شديدة .

(٢) سعد الدين بن أبي شنب ، النهضة العربية في الجزائر في النصف الاول من القرن الرابع عشر للهجرة ، مجلة كلية الآداب العدد الاول ١٩٦٤م ص ٤١ وما بعدها .

(٣) توفي في ربيع الاول ١٣٢٥ هـ وقبره معروف بمقبرة قسنطينة .

(٤) مالك بن نبي ، شروط النهضة ومشكلات الحضارة ، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي مطبعة دار الجهاد القاهرة : ١٩٥٧ ص ٢٢ .

(٥) ولد سنة ١٢٦٦ هـ أو ١٢٦٧ هـ (١٨٤٨) م بتلمسان من أب يدعى محمد بن عبد الكريم وهو من الفقهاء والقضاة قرأ المجاوي في كتاب بتلمسان فحفظ القرآن وأتمه بعد ما ارتحل ابوه الى طنجة وتطاوين ثم فاس واكمل دراسته بالقرويين انظر الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ج ٢ ص ٤٤٩ والتقويم الجزائري لعمر بن دالي لسنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) ص ١٠٥ ـ ١٠٧ وبحث الاستاذ سعد الدين بن شنب المذكور آنفا ص ٥١، ونهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة للاستاذ محمد على دبوز دمشق ١٩٦٥ ج ١ ص ٨٢ ـ ١٠٥ وشروط النهضة للاستاذ مالك بن نبي ص ٢٣



صورة الشيخ عبد القادر المجاوي هي التي يشير اليها السهم

الكتب المدرسية والتربوية مما يدل على أنه ذو اهتمام بالغ بالتربية وعلى أن الاصلاح في نظره انما يتم عن طريقها ٠ ألف : « ارشاد المتعلمين »[1] و « المرصاد في مسائل الاقتصاد »[2] وشرح منظومة في انكار الفساد الاجتماعي[3] وقدم لشرحه بمقدمة ذات أهمية في بيان ضرر البدع ، وضرورة النهضة العلمية وقرر أن السبب الرئيسي في النهضة انما هو العلم وتشتمل المقدمة على مبحث في الحكمة والعلم ،

---

(١) طبع مصر .

(٢) طبع بمطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر .

(٣) منظومة في انكار البدع الفها الشيخ المولود بن الموهوب وشرحها المجاوي بشرح أسماه « اللمع على نظم البدع » مطلعها :

صعود الاسفلين بـه دهينا   لانا للمعارف ما هدينا

طبع بالجزائر سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) به ١٩٨ ص قرظها محمود كحول واحمد بن الشيخ باش عدل محكمة سيدي عقبة .

ومبحث في التربية يقول فيه « وما كثر الفساد في أمة الا بعدم تربية الأولاد فاننا نرى الأولاد مهملين يتعلمون الفساد ... واننا نرى الامم الحية انما حصل لها الرقي بتربية أولادهم وتعليمهم العلوم النافعة ، والمعرفة المفيدة ، فيجب التبصر لمثل هذا ، وفي الغالب ان اهمال الأولاد من الأمهات الجاهلات أو المتعلمات تعلماً ناقصاً » [1] وتحدث الشيخ عن تعليم المرأة وضرورته[2] لأنه أساس التربية ، ووضع أصلاً في هذا الشأن يعتبر من الاصول العلمية في مناهج التربية والتعليم وهو مبدأ دراسة الأخلاق وعلم النفس : (لا بد من دراسة علم الأخلاق وعلم النفس)[3] وتعرض لنقد طرق التعليم في ذلك العهد فقال : (التعليم القديم غير نافع في زماننا لنقصانه اذ تعليم القرآن وحده على الكيفية المألوفة عندنا بهذه الاقطار لا يفيد المتعلم ولا أباه ، فلا بد من معرفة العلوم النافعة في الدين والدنيا ، أما اذا اقتصرنا على أحد العلمين ضاع ما يفتقر لذلك العلم المجهول ، ولكن أهل زماننا تركوا العلمين معاً ولا حول ولا قوة الا بالله نعم انه يوجد بعض العلماء ولكن صاروا لقلتهم كالعدم)[4] . ولنترك للقارىء أن يستنتج الحياة الثقافية في ذلك العهد من هذا النص . ولم يغفل المصلح عن جانب مهم من الحياة الاجتماعية وهو خطبة الجمعة فدعا لاصلاحها [5] وأشار الى الحضارة الاسلامية وتاريخها واستشهد بأقوال الأجانب [6] مما يدل على اطلاعه على دراساتهم .

---

(١) اللمع في نظم البدع ص ٢٧ .

(٢) اللمع في نظم البدع ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٣) ص ٣٠ .

(٤) ص ٣٠ .

(٥) ص ١٧٣ .

(٦) ص ١٧١ .

ومن أهم رسائله رسالة في علم الكلام (القواعد الكلامية) [1] فيها مقدمة وعشرة فصول وخاتمة جعلها على حد قوله : نموذجاً كفيلاً (باستفادة القارىء السبيل الذي تتلقى به أصول الدين على الوجه الملائم لروح الوقت ، والمساعد لملكات تلامذة هذا الزمن) [2] وهو يرجو بعمله هذا ان ينخرط في « صف السلف » وهذا يبين لنا نزعته السلفية الصافية ، وادراكه روح عصره ، ومحاولته تغيير مناهج التأليف تبعاً لمقتضيات نفسية الطلاب من جهة ، ولمقتضيات التطور من جهة أخرى ، ومن أهم آرائه في نشأة علم الكلام أنه علم قرآني ، لأن القرآن ذكر العقائد الأساسية مع أدلتها كالادلة على وجود الصانع ، من خلق السموات والأرض والنفوس وغيرها كما أشار القرآن الى مذاهب المبطلين ، والطبائعيين والى الاجوبة عن شبه المبطلين وأول من ألف فيه الامام مالك ثم توسع فيـه أبو الحسن الأشعري ، وأبو منصـور الماتريدي [3] ويرى أن العقل والدين متفقان[4] وفي كلامه عن تاريخ علم الكلام [5] ما يشير الى أنه تأثر بابن خلدون في مقدمته وتعرض لنظرية المعرفة [6] ويرى بطلان القول بالحلول والاتحاد [7] اللذين يقول بهما بعض المتصوفين ومما يبين أن له اطلاعا على كتب الفلاسفة والمتصوفة انه يستشهد بأقوالهم ، استشهد بقول الفارابي في « فصوص

---

(١) طبعة فونتانة ــ الجزائر سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١) بها ١٥٧ ص ، قرظها الشيخ محمود كحول .

(٢) القواعد الكلامية ص ٣ .

(٣) ص ٧ .

(٤) ص ٢٨ ــ ٢٩ .

(٥) ص ١٣ ــ ١٩ .

(٦) ص ١٩ ــ ٢٢ ، ٢٨ .

(٧) ص ٣٣ .

الحكم » : «الذات الأحدية لا سبيل الى ادراكها»[1] كما أنه استشهد بابن تيمية [2] وهـذا له أهمية من حيث النزعة السلفية التي يمثلها محمد بن عبد الوهاب النجدي أول الثائرين المصلحين في العصر الحديث كما يذكر محيي الدين بن العربي[3] ويسميه امام الصوفية • وقـد بين لنا آراء الفلاسفة المختلفة في نظرية المعرفة [4] وتحدث عن مناهج المتكلمين والفلاسفة [5] وعن الحريـة أو خلق الافعـال [6] وعـن الكسب [7] وما الى ذلك من المشكلات الميتافيزيقية والكلامية •

والى جانب أفكاره النظرية قام عملياً بتطبيق ما يراه من مناهج الاصلاح وطرق التربية فابتدأ التدريس بقسنطينة منذ أن حلّ بها سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) [8] مدرساً حراً ثم عين مدرساً بجامع سيدي الكتاني بقسنطينة سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م)[9] وبعـد ذلك تولى التدريس بالمدرسة الكتانية سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٧ م) ثم نقلته الحكومة

---

(١) ص ٣٤ •

(٢) ص ٣٤ •

(٣) ص ٣٧ •

(٤) ص ٧٨ •

(٥) ص ٨٣ •

(٦) ص ٨٦ •

(٧) ص ٩٠ •

(٨) انظر اللمع على نظر البدع ص ٤ ويوجد بهذا الكتاب ترجمته وصورته ص ٢ ، ٣ •

(٩) ويروى أن ذلك كان في سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) انظر تعريف الخلف ج ٢ ، ص ٤٤٩ ونهضة الجزائر ج ١ ص ٩٦ ويقول ابن شنب انه رجع من فاس في سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٦ م) ولا ندري من أين اخذ هذا انظر بحثه ص ٥١ .

الفرنسية الى عاصمة الجزائر في سنة ١٨٩٨ م فدرس في المدرسة الثعالبية [١] التي تم بنـاؤها سنة ١٩٠٣ وابتدأت فيها الدراسة سنة ١٩٠٥ وقد أعجب الناس بطريقته في التدريس واشربوا حبه لصدق لهجته ، وصفاء سريرته ، ولوقع تعاليمه في القلوب التي يخاطبها ويربيها واستطاع بذلك أن ينفذ الى أرواح الطلبة وان يؤثر فيهم •

توفي بمدينـة قسنطينة [٢] في شهر ذي القعـدة سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٣ م) ولقد ترك الشيخ عبد القادر المجاوي من يواصل الرسالة الاصلاحية من بعده ممن أخذ عنه وتتلمذ عليه أمثال الشيخ حمدان لونيسي نزيل المدينة المنورة ودفينها وهو استاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس المصلح الكبير ، والشيخ احمد لحبيباتي ، والشيخ المولود بن الموهوب مفتي قسنطينة المالكي •

ومن غريب المصادفات انه في السنة نفسها التي توفي فيها عبد القادر المجاوي ابتدأ عبد الحميد بن باديس حركته التعليمية بمدينة قسنطينة ، فاتصلت حلقات الاصلاح متطورةً الى مرحلة القوة والنضج •

كان عبد القادر المجاوي مصلحاً تقليدياً سلفياً ، لم يأت بجـديد سوى مقاومة البدع ، واشعار المجتمع بساعة الخطر ، وقد لاقى في

---

(١) التقويم الجزائري السنة الاولى (١٩١١ م) ص ٤ ونهضـة الجزائر ج ١ ص ٩٦ وابن شنب كتب ان ذلك كان بتاريخ ١٢٩٥ هـ (١٨٧٩) م وفي تعريف الخلف انه كان في سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٦ م) .

(٢) كتب سعد الدين بن ابي شنب انه توفي في سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) والواقع ان هذا التاريخ هو تاريخ وفاة ابنه مصطفى كما هو مكتوب على قبره بمقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي وهو كما يلي : — هذا قبر المرحوم المجاوي مصطفى بن المرحوم العلامة سيدي عبد القادر ابن عبد الله المتوفى يوم السبت ١١ جمادى ٢ — ١٣٥٠ هـ — ٢٤ اكتوبر ١٩٣١ م) ودفنت هناك أيضا ابنة مصطفى المجاوي زليخة المتوفاة في ٣ أفريل سنة ١٩٥١ م وعمرها سبعون عاما انظر بحث ابن شنب ص ٥١ .

سبيل ذلك اهانات من بعض الناس كما لقي مقاومات وصعاباً من السلطة الاستعمارية التي طفقت تنقله من مكان الى آخر ، حتى قيل انه مات مسموماً [1] .

والى القارىء الكريم صورة من خطه يرد فيها على من أهانه وهو في غاية الغيظ والألم[2] . ويكفي انه بث روح الاصلاح ، وبذر بذرة النقد الاجتماعي . ومما اشتهر به : الدقة العلمية في الاسناد ، والشغف بالعربية وبأصولها ، وقوانينها النحوية ، يدل هذا على ما قاله فيه الاستاذ المجاهد سليمان الباروني باشا (١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م) حين التقيا في قسنطينة :

سيبويه العصر من هذبه   أدب العلم فأروى من وَرَدْ
ذاك عبدالقادر الطودالذي   لا يقـول القول الا بسند[3]

وتدلنا الوثيقة التي عثرنا عليها انه كان يبغض اليهود ، ويقـاوم العنصر الصهيوني وقد شعر بخطره على المسلمين .

ومن الدوافع التي أدت الى الاصلاح كذلك وساعدت عليه — الى جانب المجلات والجرائد والكتب التي كانت تصل الى الجزائر — زيارة الاستاذ محمد عبده (١٩٠٥) الى تونس والجزائر سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣) في الصيف وقد مهد لتأثير هذه الزيارة ، مجلة المنار ، ومن

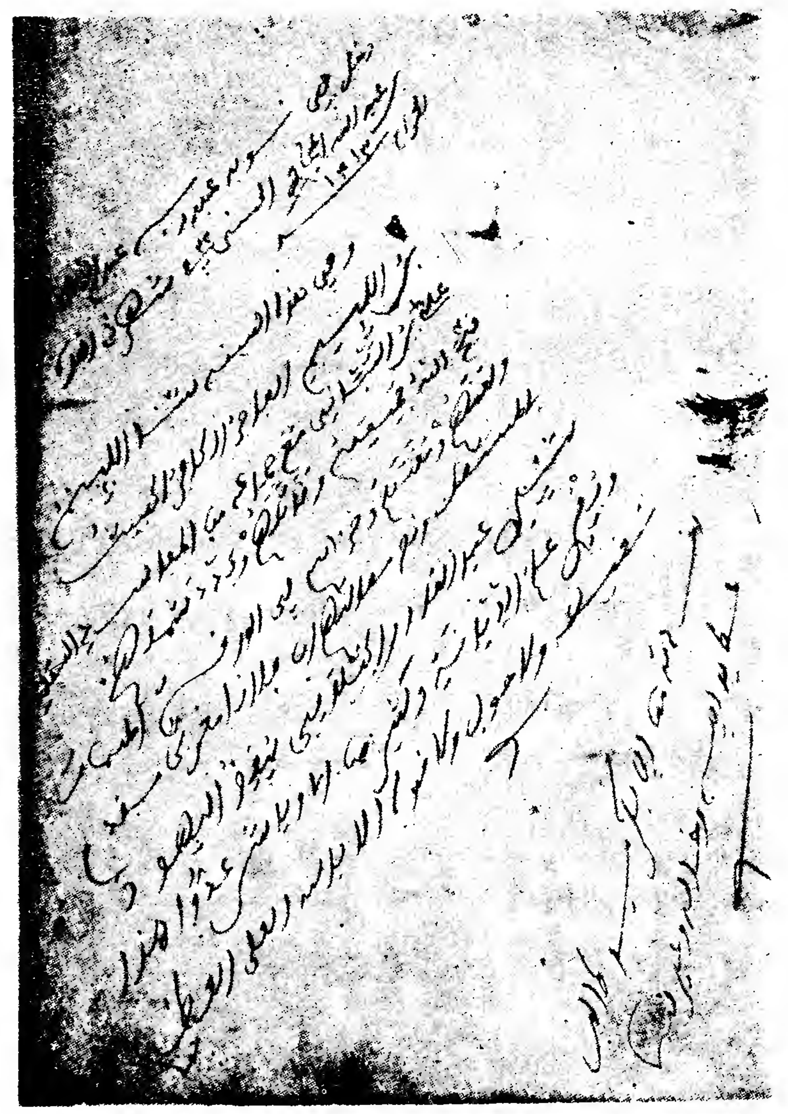
---

(١) في رواية الشيخ المرحوم ابراهيم اطفيش وهو من تلامذته كما انه صديق الشيخ محمد اطفيش . انظر نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة للشيخ محمد علي دبوز ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) عثرت على ذلك في ورقة من أوائل رسالة الامير عبد القادر « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » في مخطوط استعرته من الفاضل الشيخ علي بن طبال الامام بمسجد بو رواقية .

(٣) المصدر السابق ص ٩٥ .

قبلها العروة الوثقى ، فكان الطلبة والشيوخ يطالعون هذه الصحف ويتداولونها • ففي الجنوب الجزائري عرف الشيخ ابراهيم مكي بقيمة كتب ابن تيمية ، وكانت اعداد العروة الوثقى تصل الشيخ علي بن



صورة من خط الشيخ عبد القادر المجاوي

ناجي الزاهري ، والسيد علي بن العابد السنوسي الزاهري يتداولها الطلبة في عهد صدورها بباريس من منطقة بسكرة على الزاب الغربي (طولقة) الى الزاب الشرقي (الخنقة واليانة) • والشيخ المولود الزريبي[1] • العالم الازهري كان من رواد الاصلاح في منطقة اوراس وقد التجأ الى حيلة طريفة ، حين دوّن آراءه الاصلاحية في شرحه على عقائد « المرشد المعين » المشهور عند العامة والخاصة ولما له من تأثير ودراسة الناس له لتتسرب أفكاره اليهم عن طريقه وكان له زميل أزهري جزائري هو الشيخ عسول العبيدي يعارضه في فكرته الاصلاحية مما أدى الى وقوع مناظرات بينهما امام الشيخ علي بن ناجي وجماعة من طلبة « اليانة » وكان موضوعها « محدثات الامور في الدين » ولما جاء الشيخ الطيب العقبي الى الجزائر وقعت بينه وبين المولود الزريبي خصومات وشرح وجهة نظره في الجريدة التي كان يحررها « جريدة الصديق » بينما لم يجد العقبي مجالا ينازل فيه خصمه[2] •

ان زيارة الاستاذ الامام محمد عبده أكدت الاتصال الفكري السابق لها وزادته رسوخاً وسيأتي الكلام عليها بالتفصيل •

---

(١) هو المولود بن محمد بن عمر الزريبي نسبة الى زريبة الوادي وهي قرية تبعد عن بسكرة ٨٢ ميلا . بعد حفظه القرآن ودراسته على الشيخ حامد العبيدي سافر الى مصر ودرس على الشيخ محمد بخيت ثم رجع الى الجزائر وعلم في مسقط راسه . ثم انتقل الى اوراس ثم الى العاصمة حيث تولى تحرير جريدة « الصديق » التي يديرها محمد بن بكير الميزابي ، تولى التدريس في الجامع الاعظم بالعاصمة ثم التحق ببو فاريك حيث توفي سنة ١٩٢٥ وله من المؤلفات : كتاب الاخلاق لم يتمه ، وشرح على المرشد المعين ، وشرح على قدسية الاخضري ، وشرح على كتاب البيوع من مختصر خليل . انظر شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمؤلفه الهادي السنوسي الزاهري مطبعة النهضة تونس ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م ج ٢ ص ٩٩ ــ ١٠٤ •

(٢) حدثني بهذا الاستاذ الهادي السنوسي •

ولا يمكن بهذا الصدد ان ننسى الحركة الصوفية الاصلاحية الثورية وهي حركة محمد بن علي السنوسي (١٨٤٣) التي اعتقد صاحبها ان الدعوة الاخلاقية والتجديد الروحي هما الاساس للتحرر من السلطة الاجنبية [1] فلقد تركت أثراً بعيد المدى في المغرب الاسلامي ، وهي حركة متصلة بالثورة الوهابية [2] وبتعاليمها رغم أن مؤسسها صوفي ، ولكنه ليس كالصوفية الآخرين الذين وجدوا في عصره .

ومن الشيوخ الذين كونوا هذه المدرسة الرائدة في الاصلاح الاستاذ عبد الحليم بن سماية [3] حفظ القرآن ومختلف المتون معتمداً على نفسه وبمساعدة والده وتتلمذ على شيوخ كبار أمثال الشيخ بن عيسى الجزائري ، والمكي بن عزوز وابي القاسم الحفناوي والسعيد بن زكري، وعلم في المدرسة الكائنة بشارع السفراء ، بباب الوادي في سنة ١٨٩٦ م مع الشيخ عبد القادر المجاوي وهي مدرسة خاصة بتعليم اللغة العربية [4] .

كما أنه علم جيلاً من الطلاب في المدرسة الثعالبية حفظوا العربية

(١) لثروب ستودارد حاضر العالم الاسلامي ج ٢ ص ١٠٥ .

(٢) اخذ محمد بن علي السنوسي عن الشيوخ الوهابيين حينما حج بيت الله الحرام وهناك في مكة وضع خطة الاصلاح . المرجع السابق ١٠٥

(٣) هو عبد الحليم بن علي بن سماية ولد بالجزائر سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٦٦ م) هاجر أبوه مع جده لامه الشيخ الكبابطي الى مصر في عهد محمد علي وهناك تكون واصبح ذا ثقافة واسعة ثم عاد الى الجزائر مدرساً في الجامع الجديد بالعاصمة . انظر نهضة الجزائر الحديثة ج ١ ص ١١٨ حفظ عبد الحليم القرآن على الشيخ حسين ابي شاشية واخذ العربية والفقه والتوحيد عن والده ، والمنطق والبلاغة عن الشيخ طاهر تيطوس ، والحساب والفرائض عن صهره علي بن حمودة ، انظر مجلة التلميذ العدد ٣ ـ ٤ سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٣ م) ص ١٠ ـ ١٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٨ وبحث ابن ابي شنب (سعد الدين) المشار اليه سابقا ص ٤٦ ومجلة التلميذ العدد ٣ سنة ١٩٣٣ م .



الشيخ عبد الحليم بن سماية المتوفى سنة ١٣٥١ هـ

في العاصمة الجزائرية فترة من الزمن وتمسكوا بعقائد الاسلام ، وكان متصلاً بالحركة السلفية الاصلاحية في العالم الاسلامي ، مراقباً الأحداث في الصحف العربية والفرنسية ، كان يعتمد الكتب الاصيلة في الدين والعربية في تدريسه ، يقرىء رسالة التوحيد لمحمد عبده ، وهو أول من درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز[١] لعبد القاهر الجرجاني،

(١) طبع الاول سنة ١٣٢٠ هـ والثاني في ١٣٢١ هـ وحققه الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد محمود التركزي « الشنقيطي » .

وهذان الكتابان اهتم بهما محمد عبده ، لانهما يمثلان الدراسات الادبية النقدية التي من شأنها تربية الملكات ، وتكوين الاذواق لطلاب الفصحى، في الأزهر وغيره • ولا شك ان الشيخ عبد الحليم الذي درس الموسيقى ، وتعلم الضرب على العود ، ووعت ذاكرته حظاً وافراً من التوشيحات الجزائرية ، لا يفوته أن يختار لطلابه كتب الادب الرفيع ، وأصـول النقد العربي وان يبعد عنهم البلاغة المنطقية الباردة ، التي يمثلها السكاكي



يرى الشيخ عبـد الحليم بن سماية مع الشيخ محمد عبده حين زيارته للجزائر وما ذكره أحمد أمين في كتابه « زعماء الاصلاح » من أن هـذه الصورة مأخوذة من تونس غير صحيح

وأضرابه ، ممن أفسدوا البلاغة العربية والأساليب الأدبية فذهب ماؤها ، وفقدت جمالها وروعتها •

كان يدرس في القسم الرابع من المدرسة الثعالبية ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل أو شرح الأشموني ، والعقد الفريد أو نهج البلاغة وديوان الحماسة ، وفي القسم الخامس المفصل للزمخشري ، وشيئاً من السلم في المنطق ، وأحياناً يدرس التلخيص وقد يستعيض عنه بدلائل الاعجاز أو اسرار البلاغة ، كما يستعيض عن « السلم » بكتاب التهذيب أو البصائر النصيرية ، وهما كتابان درسهما محمد عبده في الأزهر وعلق على الثاني منهما ولما أسند اليه تدريس التفسير والتوحيد ، كان يدرس كتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » للامام الغزالي و « رسالة التوحيد » لمحمد عبده وكان طلاب الفلسفة أو طلاب المدرسة الثعالبية الذين يحضرون دروساً في الفلسفة بكلية الآداب في جامعة الجزائر ، يعرضون عليه بعض الشبه بوحي من بعض مدرسي الفلسفة ، فكان يرد عليها ويدحضها ، وهذا ما أدى به الى تأليف رسالة مهمة في التوحيد والرد على شبه المبطلين والملحدين [1] وتوفي الشيخ عبد الحليم في ٧ رمضان (١٣٥١ هـ ٤ جانفي ١٩٣٣ م)[2] وكان قد مرض مرضاً عقلياً لشدة

(١) كتب أحد تلاميذه من غير ان يذكر اسمه في مجلة التلميذ العدد ٣ ، ٤ السنة الثانية من شهر رمضان ـ شوال ١٣٥١ هـ جانفي ـ فيفري ١٩٣٣ ص ١٠ ـ١٣ مقالا أخذت منه هذه المعلومات والجدير بالذكر انه ذكر في المقال ان للشيخ ابن سماية رسائل جليلة كما وعد بنشر رسالة التوحيد وهذه المجلة مجلة شهرية انتقادية أخلاقية لسان حال الطلبة المسلمين بالجزائر . ادارتها كانت بنادي الترقي كما كتب أحد تلامذته ابو العباس التجاني مقالا في هذا العدد بعث به من المغرب يرثي به شيخه الراحل .

(٢) كتب على قبره الموجود بمقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي العبارة التالية : (ضريح المرحوم العلامة سيدي عبد الحليم بن سيدي

ويلات الاستعمار واضطهاده اياه ، كما كانت له نوادر يتناقلها الناس الى اليوم .

والواقع أنه ألف بعض الكتب منها كتاب « فلسفة الاسلام » وقد قرأ الفصل الأول منه في مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع عشر الذي انعقد في الجزائر ١٩٠٥ وحضره عبد العزيز جاويش ومحمد بن أبي شنب والمستشرق الألماني كارل فولرس[1] وله عدة مقالات كتبها في الصحافة العربية الجزائرية خصوصا جريدة كوكب افريقيا للشيخ محمود كحول (١٩٣٦) . ولما زار ملك المغرب عبد العزيز الجزائر سنة ١٣١٩ ه استدعى الشيخ عبد الحليم بن سماية للغذاء مع الوفد وهو حين ذلك مدرس بالجامع الجديد ، واستاذ بالمدرسة الثعالبية فاعتذر وكتب أبياتاً من الشعر بعث بها للسلطان منها :

أمولاي شمس الفضل والعلم والنهى	واجدر من يجري اللبيب ثناءه
سلام عليكم عاطر متضرع	كمسك ذكا بل لا يكون بواءه
وأفضل تكريم وأزكى تحية	يقيمان للقدر العظيم وفاءه
ويرأب كل منهما نأي عبدكم	بغيبته عما اليه دعاءه
علمت بأن المشي عن جفني واجب	اليكم ولكن لي اعتذار وراءه[2]

وأغلب الظن انه لم يرد ان ينضم للسلطة الفرنسية التي كانت تمثل الجزائر وان يحضر معهم في موقف رسمي .

علي بن اسماعيل المتوفي في ٧ رمضان ١٣٥١ ه الموافق ٤ جانفي سنة ١٩٣٣ م) وقد ارخ الاستاذ محمد علي دبوز وفاته سنة ١٩٣١ انظر نهضة الجزائر ج ١ ص ١٢٦ .

(١) انظر ابن شنب ص ٤٤ ــ ٤٥ .

(٢) وهي ٢٤ بيتا مثبتة في رسالة « عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر » التي طبعت سنة ١٣١٩ ه (١٩٠٢ م) بمطبعة فونتانا الجزائر وبها ١٦ ص .

كما نظم قصيدة بمناسبة زيارة محمد عبده للجزائر (١٣٢١ هـ) ١٩٠٣ م منها :

وتلوي الى تلك المجالس[١] فكرتي | فتترك قلبي بالخيال ممتعا
محافل كان العلم فيها مجالسي | اسامر بدراً بالجلال تقنعا
فأسمع فصلا من حكيم وحكمة | اذا مابدت خرت ذرى الزور ركّعا

...

لسان متى يوماً تألق برقه | يسبّح رعد السامعين لما دعا

...

أتى بكتاب في الكلام[٢] بيانه | يغادر من صم الجنادل خشّعا
براهينه في النفس والكون والحجى | وليست لرسطاليس أو من تصنّعا
يقودك للبرهان غير مقيد | يريك حدود العقل مهما تطلعا[٣]

ومجلة المنار[٤] تعتبر عند ابن سماية ومحمد بن مصطفى بن الخوجة

(١) مجالس محمد عبده أثناء اقامته في الجزائر .

(٢) يقصد رسالة التوحيد لمحمد عبده وهي رسالة اعجب بها الشيخ عبد الحليم فكان يدرسها في المدرسة الثعالبية وهو هنا يبين مزايا هذه الرسالة التي يأخذ المؤلف براهينها من النفس والكون والعقل غير مقيد بآراء اليونان (ارسطو) بل كان حراً في عقله وبرهنته .

(٣) نهضة الجزائر المباركة ج ١ ص ١٢٥ نقلا عن المنار مج ٦ ص ٩١٧ .

(٤) صدر العدد الاول من المنار كصحيفة اسبوعية ذات ثماني صفحات في ٢٢ شوال سنة ١٣١٥ هـ/١٧ مارس ١٨٩٨ وآخر ما طبع منها ج ٢ من م ٣٥ في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٥٤ هـ/١٩٣٥ وغرضها نشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية واقامة الحجة على أن الاسلام باعتباره نظاماً دينياً لا يتنافى مع العصر الحالي ويعتبر المنار خلفا للعروة الوثقى انظر كتاب عدد ٣٣ من سلسلة اعلام العرب ص ١٣٥ وهو كتاب للدكتور ابراهيم احمد العدوي طبع سنة ١٩٦٤ م بالقاهرة .

« مـَدَّد الحياة » وكان بينه وبين الشيخ محمد عبده مراسلات يقول رشيد رضا[1] : (ومن خيار العلماء الشيخ محمد بن الخوجة صاحب المصنفات والشيخ عبد الحليم بن سماية وقد عهد هؤلاء الفضلاء الى الشيخ محمد عبده ان يوصي صاحب المنار بأن لا يذكر في مجلته دولة فرنسا بما يسوؤها لئلا تمنع المنار من الجزائر وقالوا له : « اننا نعده مـَدَّد الحياة لنا فاذا انقطع انقطعت الحياة عنا » [2] .

وأما محمد بن مصطفى بن الخوجة[3] فهو أكثر الأساتذة حرصاً على مطالعة كل ما يرد من المشرق من الكتب والجرائد والمجلات[4] وخاصة كتب محمد عبده ورسائله أخذ عليه محمد عبده لبّه واستولى مذهبه في الاصلاح على نفسه ، يطالع العروة الوثقى والمنار وغيرهما ، كما يقرأ للشيخ رشيد رضا مقالاته في المجالس ويشرحها . ولما وصله تفسير سورة (والعصر) درّسه عشر مرات وشرحه لمن يتتبعون حركات الاصلاح في الجزائر من العلماء والطلبة والاعيان فاستحسنها هؤلاء وأثنوا عليها وكتب بهذا الى الشيخ محمد عبده يخبره به[5] ، ولما عزل

---

(١) ولد رشيد رضا في قرية القلمون بطرابلس الشام ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ هـ/١٨٦٥ م وتوفي في ٢٢ اغسطس سنة ١٩٣٥ م .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٨٧١ .

(٣) ولد بعاصمة الجزائر في سنة ١٢٨١ هـ ١٨٦٥ م وتوفي في ٧ شوال ١٣٣٣ هـ سبتمبر ١٩١٧ كتب في جريدة « المبشر » من سنة ١٣٠٤ الى ١٣١٩ هـ (١٨٨٦ الى ١٩٠١) درس في مسجد سفير ابتداء من سنة ١٣١٢ هـ ١٨٩٥ م كما اشتغل وكيلا لمقام سيدي عبد الرحمن الثعالبي سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٩) انظر بحث سعد الدين بن ابي شنب المذكور سابقاً ص ٥٢ وكتاب صفحات في تاريخ مدينة الجزائر تاليف نور الدين عبدالقادر قسنطينة ١٩٦٥ ص ١٧٤ .

(٤) المصـــدر السـابق .

(٥) المنـــار مج ٦ ص ٩١٧ .

من عمله لصلته بمحمد عبده وبمحمد فريد اخذ يلقي الدروس في جامع حي بلكور ، قال المرحوم عمر راسم : « الشيخ محمد بن مصطفى شاعر الجزائر في وقته وأفصح علمائها وأعلمهم بتراجم علماء الجزائر كثير الاطلاع ولوع بالكتب العصرية شغوف بمحبة الشيخ عبده وهو الذي ادخل مذهبه الى الجزائر وعرف الناس به وبجمال الدين الأفغاني وأصحابهما يعرف الشرق كأنه عاشره مائة سنة ، حلو الكلام ، كان اذا خطب يستدل بالآيات والاحاديث كأن القرآن وكتب الآثار مرآة أمام عينيه »[١] انه شاعر وكاتب وصاحب تجديد ولقد خسر الأدب الجزائري أثراً فنياً رائعاً من آثاره ، وهو ديوانه الذي فقد مع مقدمة له ، كما ان له رسالة في تراجع علماء جزائريين[٢] . اهتم بالحياة الاجتماعية والاخلاقية وبوضع المرأة المسلمة الجزائرية فكتب كتاب « الاكتراث في حقوق الاناث » [٣] وكتاب « اللباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب » [٤] وكتاب « اقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الاسلام » [٥] ، كما حقق ونشر تفسير عبد الرحمن الثعالبي من أهل القرن التاسع المسمى بالجواهر الحسان مقابلاً له على سبع نسخ[٦] وله رسائل أخرى مفيدة في مختلف الموضوعات الاجتماعية والصحية . وأهم ما يسترعي الانتباه انه عمل على نشر

---

(١) محمد علي دبوز المصدر السابق ص ١٣١ نقلا عن مخطوط ، في تراجم علماء الجزائر للشيخ عمر راسم موجود عند الشيخ النعيمي بقسنطينة .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٢ .

(٣) طبعة سنة ١٣١٣ هـ/١٨٩٥ .

(٤) طبع سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٧ في الجزائر بمطبعة فونتانا .

(٥) طبع سنة ١٣١٩ هـ/١٩٠٢ بمطبعة فونتانا بالجزائر .

(٦) انظر ابن ابي شنب في بحثه المذكور ص ٤٢ .

مخطوط نادر يدعو فيه صاحبه الى الاجتهاد وهو كتاب : « الرد على من أخلد الى الارض وجهل ان الاجتهاد في كل عصر فرض » للشيخ السيوطي • وهذا ينم عن نزعته الاجتهادية ومعارضته التقليد الاعمى • ومما يؤكد هذا الاتجاه لديه انه كتب لكتاب « مجموع مشتمل على قوانين مفيدة وتنظيمات سديدة »[1] مقدمة في الشريعة وملاءمتها لكل زمان ومكان ومن جملة الآراء التي يؤيدها ما أورده من قوله : « لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأيام »[2] ويدعو في هذه المقدمة المهمة الى الاستفادة من تجارب الآخرين ولو لم يكونوا مسلمين[3]• ويضرب لذلك أمثلة تاريخية مستمدة من تفاعل الحضارات فذكر الغزالي الذي أخذ المنطق اليوناني وأدخله في تيـار الفكر الاسلامي[4] ونصح في هذه المقدمة بالرجوع الى كتاب « أقوم المسالك » لخير الدين التونسي المتوفى في سنة ١٣٠٧ هـ وكتاب « السياسة الشرعية » لجمال الدين قاضي مصر ، وكتاب « نهاية الايجاز » للشيخ رفاعة ، وكتاب « علم الدين » للشيخ علي باشا مبارك •

ولما اطلع ملك المغرب عبد العزيز حين جاء على رأس الوفد المرافق له ــ في زيارةٍ للجزائر[5] ــ على كتب محمد بن مصطفى بن الخوجة

---

(١) كتبه لجلالة عبد العزيز ملك المغرب مترجما له عن التراتيب الادارية والعسكرية الفرنسية بطلب منه .

(٢) ص ٨ ينسب هذا القول لغيره . وقد وردت هذه الجملة في مقدمة مجلة الاحكام العدلية كأصل من الاصول العامة وقاعدة من القواعد الكلية .

(٣) ص ٩ .

(٤) ص ١٠ .

(٥) كانت زيارة عبد العزيز العلوي الحسني سلطان مراكش يوم الثلاثاء ٢٢ شعبان ١٣١٩ هـ في باخرة حربية فرنسية قدمت من طنجـة ←

أهدى اليه ساعة ذهبية فكتب رسالة : « عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر » [1] .

وحين قضى الامام محمد عبده رثاه ابن الخوجة بقصيدة رائعة تعتبر نموذجاً جيداً لشعره جاء فيها :

مصاب جسيم عمّ كلّ العشائر — وأسلمنا قهراً لحكم المقادر
رمينا بخطب لا يقاس بغيره — فجئنا برزء ما له من مناظر
وأكبادنا ذابت أسى وكآبة — وأعيننا مثل العيون الهوامر
على موت مفتي المسلمين وفخرهم — ومن كان للاسلام نور البصائر
بكت مصر والدنيا جميعاً لفقده — وأبناؤها من كل بادٍ وحاضر
وأبدى جميع الناس حزناً وحسرة — وأجروا دموعاً كالغيوث المواطر

...

مميزات تآليفه :

تآليفه تنسيك ما حيك قبلها — وتغنيك عن جلّ الطروس الكبائر
أفادت من التحقيق كل يتيمة — تقاصر عنها كابر اثر كابر
وحلت بتدقيق عويصاً ومشكلا — بحيث غدا كالبدر يبدو لناظر
عليك بها ان رمت تجني هدايةً — وتصبح أستاذ العلوم الغزائر

الى مرسى الجزائر يتكون هذا الوفد من القباصي وابنه محمد والشيخ محمد بن عبد الواحد والسيد محمد الهواري والزبير اسكرج واحمد الجبلي وعبد القادر بن غبريط مترجم السفارة الفرنسية بالمغرب وبهذه المناسبة خطب الشيخ عبد القادر المجاوي مساء الثلاثاء ٢٩ شعبان سنة ١٣١٩ هـ وأقرأ احد التلاميذ الجزائريين درسا في القرآن وهو عبد العزيز الزناقي وحضر الوفد ختم محمد السعيد الزواوي لصفرى السنوسي بجامع سيدي رمضان .

(١) بتاريخ ١٨ رمضان ١٣١٩ هـ ونشرها في ١٧ شوال سنة ١٣١٩ هـ قرظها عبدالقادر المجاوي وحمو بن احمد الدراجي قاضي الحنفية بالجزائر .

كتابتــه :

وانشاؤه قد زاد حسنا وبهجـة ... على الدر بل زهر الدراري السوافر
اذا خط أعيا الكاتبين وكـم أتى ... بسحر بيان في معـان زواهـر
« فعروته الوثقى » تريك بلاغة ... يدين لهـا قس وعبـد لقـاهر

آهاته عليــه :

فواها على شمس المعارف والتقى ... وواها على التذكير فوق المنـابر
وواها على التدريس في كل مذهب ... وواها على الأقلام بعـد المحابر
وواها على التوحيد والفقه واللغى ... وواها على التفسير أصل العناصر
وواها وواها ألف الف ٍ ولن أفي ... ولو أنني نمَّقت كل الدفـاتر
وأنى لنا الصبر الجميل وقد هوى ... منار الهدى واندك طود المفاخر
ورضى الاماني والمكارم قد زوى ... وقد كان للعافين احدى الذخائر
وغيض عباب العلم والجود في الثرى ... كذا فليكن غيض البحور الزواخر

أعمالــه :

فمن لكتــاب الله يكشف سـره ... ويشرحــه وفق الفنون الحواضر
فقدنا امـاماً كان حجـة عصره ... وقـدوة أربـاب النهى والمظاهر
حكيما سما فوق السماك بهمـة ... هماماً جليل القـدر حر الضمائر
فيأمر بالمشروع في كل محفـل ... وينهى عن المحظور طبق الاوامر
ويصدع بالقول الصحيح نصيحة ... ولا يرهبنَّ في الحق أقسى الجبابر
وكم ذب عن دين النبي محمد ، ... ودافـع عنـه بالردود البواتـر
فضـائله سارت الى كل وجهة ... وأخلاقه مثل الريـاض النواظر
وما دأبه الا اتخـاذ صنيعـة ... وكسب معـال وابتناء مآثر
وانفاق مال في سبيل مبرة ... واسداء معروف لبرٍّ وفـاجر
وارشـاد ضلّيل واصلاح فاسد ... وابـداء مستورٍ واحياء داثر
وتقـويم منآد وتوضيح منهجٍ ... موارده مـأمونة كالمصـادر

مناقب لم يبلغ مداهن ناثر فصيح ولم يستوفها نظم شاعر
عليه سلام الله ما عبرة همت ، وما فاه بالتأبين عبد جزائري [1]

..... الخ .

ان هذه المرثية تعبر عن معرفة صاحبها بمحمد عبده وخبرته به خبرة مَن لازَمه ، ودرس آثاره وكتبه ، وتتبع نشاطه ، تتبع المعجب بمن أعجب في خصائص فن الكتابة ، ومعالجة القضايا العقلية والشرعية وحل المشكلات وطريقة التدريس والتفسير وفقاً للحياة العلمية والثقافية المعاصرة :

فمن لكتاب الله يكشف سره ويشرحه وفق الفنون الحواضر

كما أن هذه القصيدة تدل على أن الشاعر درس العروة الوثقى :

فعروته الوثقى تريك بلاغة يدين لها قس وعبد لقاهر

وعلى أنه اطلع على رسالة التوحيد وعلى ما كتبه محمد عبده في اللغة والفقه والتفسير :

وواهاً على التوحيد والفقه واللغى وواها على التفسير أصل العناصر

وقرأ أيضاً رده على هانوتو وزير الخارجية الفرنسية الذي طعن في الاسلام :

وكم ذب عن دين النبي محمد ودافع عنه بالردود البواتر .

والحقيقة ان هذه القصيدة أكبر برهان على أن محمد عبده له مدرسة في الجزائر وعلى رأسها محمد بن مصطفى بن الخوجة وهذا عنصر من أهم العناصر في النهضة الاسلامية الحديثة في الجزائر .

---

(١) رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام ط ٢ (دار المنار) القاهرة ١٣٦٧ هـ ج ٣ ص ٣٤٩ ـ ٣٥١ تحت عنوان : مرثية الجزائر : من نظم الاستاذ الفاضل الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة المدرس بجامع سفير بمدينة الجزائر وصاحب التصانيف المشهورة .

ومن أعضاء هذه المدرسة الشيخ محمد بن القائد علي الذي كان اماماً بالجامع الجديد وقصيدته التي بكى بها محمد عبده تشير الى آنه اطلع على تفسيره وعلى كتابه في التوحيد وعبر فيها أيضا عن تأثير زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر في نفسه واخوانه الذين كانوا معه •

يقــول :

غاض بحر العــلوم أين العــزاء وعيون الانــام سحب دمــاء
فبكى المسلمون حزنــاً عليــه وبكى الدين والتقى والحيــاء

••••

عبده الفيلسوف أحيــا قلوباً ميتـــات أماتهـــا العلمـــاء
حجــة الله والرسول بعصــر جــاء يهــدي أقوامه فأساؤوا
فسَّر الذكر الحكيم بفهــم عجــزت عن أدائــه البلغاء
وكتــاب التوحيــد فهو لدينــا مغنطيس القلوب بل كهربــاء

••••

ومنهــا :

عبــده، كنت بالجميل تربي صبية العــلم والعلوم غذاء
عبــده كانت المحــافل تزهــو والنوادي وأنت فيها سمــاء
عبــده أين من يروم صــلاحاً لأنــاس غــووا وعزَّ الدواء

قال مشيراً الى زيارة محمد عبده للجزائر :

قد سعــدنا بزورة منــه جاءت بسعود يفــر منهــا الشقاء
كم سهرنا ومنــه نلنــا علومــاً ما سمعنا بهــا ولا الآباء (١)

فمحمد عبده عنده فيلسوف ، محي القلوب الميتة ، وحجة العصر ،

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٠٤ تحت عنوان : وقال معدن الاخلاص والفضل الاستاذ الشيخ محمد ابن القائد علي الامام بالجــامع الجديد في مدينة الجزائر .

ومفسر القرآن بما يعجز عنه البلغاء ، ومربي الشبان ، وزينة المحافل ، وسماء النوادي ، وكتابه التوحيد مغنطيس القلوب وكهرباؤها وانه سهر معه الليالي ونال منه علوماً ما كان يسمع بها وهذا أكبر برهان على مدى تأثير محمد عبده في الحياة العلمية والعقلية بالجزائر والغريب أن امـام مسجد يعبر عن محمد عبده بأنه فيلسوف كما وصفه محمد بن مصطفى ابن الخوجة بالحكيم . وهذا الوصف كان يعتبر عند الفقهـاء مرادفاً للالحاد والكفر . والظاهرة التي تلفت النظر أن الشاعر الجزائري ينسب موت القلوب للعلماء باعتبارهم مسؤولين عن خمودها وموتها وبذلك أشار الى محور مذهب محمد عبده في الاصلاح وهو « النفس » . ورثاه أحد الجزائريين نثراً ولكنه لم يصرح باسمه وانما رمز له بـ (ع . ز) وصفه بأنه فيلسوف الاسلام ومما جاء فيها : « وها نحن حامدون الله حمداً لا غاية لحدّه ، ولا حصر لعدّه على أن منّ الله علينا برؤية حضرته الغراء وطلعته الزهراء في السنة الماضية في أيام الراحة في فصل الصيف ومكث عندنا عشرة أيام وحاضرناه وشافهناه وظللنا معه في تلك الايام كل يوم ، وسامرناه ومسارح الأشبـاح نابغة بالفرح والسرور ، ومخاوف القلوب يانعة بالابتهاج والحبور ، ونلنا منه في تلك الأيام القلائل ما شاء الله أن ننال ، وخاطبنا بخطـب أشهى من طعم الضَرَب بأفصح كلام العرب ، ترى الدر يقطر من عذوبة لسانه فيبريء الانسان من أحزانه ، وكشف لنا عن دقائق المسائل والناس من حوله بين مصغٍ وسائل »[1] وتعرض لأثر موت محمد عبده في الجزائر فوصفه قائلاً : « حتى كاد يقع لبعض الجزائريين ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب في موت خير الانام حيث قال للناس : « مَن قال منكم مات محمد أضرب عنقه »[2] .

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج ٣ ص ٢٩٧ – ٢٩٨ .

(٢) ن. م. ص ٢٩٨ .

وذكر أن بعض العلماء الجزائريين ينكر موته لغاية ارسال التعزية وفي آخر الرسالة اقترح : « أن تنشر محرراته وجميع ما فاه به في حياته لتتم فائدة الجميع »[1] ولم يكن تأثير محمد عبده مقتصراً على الجزائر من بين أقطار المغرب الاسلامي بل ربما كان تأثيره على تونس أكثر ، ويعتبر الشيخ محمد النخلي القيرواني رائد النهضة الثقافية وأحـد مدرسي جامع الزيتونة الناقد الذكي المتوفى في رجب من سنة ١٣٤٢ هـ والشيخ الطاهر بن عاشور من أبرز ممثلي آرائه في الاصلاح • ولما توفي محمد عبده رثته صحافة تونس ومن بينها جريدة « الحاضرة » [2] للسيد علي بوشوشة كتب فيهــا محمد بن الخوجة المتوفى ١٣٢٥ هـ مقالاً يرثيه وما ورد في هذا المقال يدل على وجود صلات شخصية بينه وبين أتباعه في تونس قال : « كنا على وجل الاشفاق من أخبار صحته التي أخذت في الانحطاط من أربعة أشهر فارطة واضطرته للانتقال من القاهرة للاسكندرية بنية السفر لتغيير الهواء خارج القطر المصري فكنا نستطلع أحواله آناً فآناً ونجدد معه عهود المودة الوثيقة ونستمد من أنوار علومه على بعد الدار فكان الرشيد المرشد لمن قرب أو نأى ، وآخر العهد به ورود مكتوب منه على أحد اصحابنا ممن لهم معه علقة علمية ورابطة وداد »[3] ويقول صاحب المقال : « ولدينا في الحوادث العرابية رسالة من انشائه كنا أخذناها منه عند زيارته الأولى لتونس»[4] ومحمد عبده زار تونس وألقى بها محاضرة في التربية والتعليم كان لها

---

(١) ن• م• ن• ص•

(٢) تأسست تحت اشراف سالم بو حاجب في ذي القعدة سنة ١٣٠٥ ـ ١٨٨٨ م وهي أول جريدة عربية غير رسمية بتونس انظر كتاب أركان النهضة الادبية بتونس للاستاذ الفاضل بن عاشور ص ٣٦ .

(٣) رشيد رضا تاريخ الاستاذ الامام ج ٣ ص ١٢٠ .

(٤) ن• م•

أثرها البالغ . ورثته صحيفة أخرى تونسية تدعى « الصواب » يصدرها السيد محمد الجعايبي[1] وكتب أحد أساطين الزيتونة الشيخ الاكبر الأستاذ الطاهر بن عاشور تعزية الى الشيخ رشيد رضا [2] يقول فيها : « عرفت الاستاذ الامام معرفة شهود بتونس في سنة ١٣٢١ هـ فعرفت من ملاقاته الأولى رجل العزم والارادة والفكر وبلاغة القول وشدة الفراسة وتكافئ القوى العملية والفكرية حتى لقد كان من سكون نفسي اليه والفتها به واعتلاق صداقته في أمدٍ وجيز ما يكون مثله في السنين الطوال فصارت ذكراه تفعل في نفسي فعل ذكرى والد رحيم ... يقابلني تمثال الأستاذ في منزلي مرات وأذكر كلماته وتفسيره مهما قرأت سورة في صلاتي »[3] واقترح فيها على الاستاذ رشيد رضا أن يجمع آثار محمد عبده ويطبع جميع تآليفه ورسائله الأدبية والعمرانية ، كما سأله عن وجود أعداد جريدة العروة الوثقى في مصر لأنه لا يملك الآن عدداً واحداً منها ويود جمع بقية الأعداد . وطلب منه أن يخبره هل كتب الشيخ محمد عبده شيئاً عن رحلته الى الجزائر وتونس والآستانة وغيرها من البلاد[4] . وأرسل الشيخ محمد شاكر من صفاقس الى الشيخ رشيد رضا رسالة تعزية أخرى وصف فيها محمد عبده بالحكيم ، والمصلح وانه هو الذي « زحف بجيش اقدامه على البدع والأوهام »[5] .

والواقع أن الاستاذ الامام زار تونس مرتين الأولى كانت سنة ١٣٠٠هـ ودامت أربعين يوماً ، والثانية كانت سنة ١٣٢١ هـ . ومن الذين عرفوا

---

(١) العدد ٦١ الصادر في ٢٥ جمادى الاولى ١٣٢٣ هـ ١٩٠٥ م .

(٢) مؤرخة في ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ هـ ١٩٠٥ م انظر تاريخ الاستاذ الامام ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٤) ن. م. ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

(٥) ن. م. ص ٢٩٦ .

الأستاذ محمد عبده البشير صفر والشيخ سالم بو حاجب (١٢٤٣ ــ ١٣٤٢) والشيخ محمد بيرم ١٣١٤ م يعتبر من أعضاء الجمعية السرية الاسلامية العالمية التي أسسها جمال الدين الأفغاني وهي جمعية العروة الوثقى[١] وكتب الشيخ سالم بو حاجب تقريظاً لرسالة التوحيد أرسله الى محمد عبده بتاريخ ٧ شوال ١٣١٧ هـ [٢] .

وأما المغرب الأقصى ، فانه وجدت فيه بذور الاصلاح منذ محمد بن كنون (١٣٠٢ هـ ــ ١٨٨٤ م) . وتأثر أيضاً بالحركة الاصلاحية العبدوية. ذكر لنا شكيب أرسلان أن الشيخ ابراهيم التادلي من أكابر علماء المغرب حينما أدى فريضة الحج مرّ على بيروت والاستاذ الامام بها فذهب شكيب ومحمد عبده والشرتوني [٣] لزيارته والسلام عليه ، ومن بين الأسئلة التي وجهها اليه محمد عبده : هل في المغرب اليوم مؤلفون في أصناف العلوم المختلفة ؟ فأجابه التادلي : نعم يوجد مؤلفون في المغرب الا أن العلم لا ينتشر بقوة التأليف وانما ينتشر بقوة التدريس وكثرة المذاكرة الشفوية . وعلق الاستاذ الامام على قوله : بأنه أحسن ما سمعه من كلامه . ولكن يبدو أن الشيخ التادلي عالم تقليدي لم يكن مطلعاً على أحوال عصره لأنه ــ فيما يقص شكيب أرسلان ألقى درساً في الجامع العمري الكبير في البسملة وما تتضمنه من العلوم والمعارف والفنون [٤] وكان الناس ينتظرون منه أن يلقي محاضرة في أمراض العالم الاسلامي ووسائل علاجه .

(١) الفاضل بن عاشور ، اركان النهضة الادبية بتونس ، مطبعة النجاح ، تونس (دون تاريخ) ص ٢٤ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٧٨٤ .

(٣) هو سعيد الخوري الشرتوني لبناني مسيحي قرظ رسالة التوحيد لمحمد عبده وكتب اليه في ذلك بتاريخ ٦ ربيع الاول سنة ١٣١٦ هـ

(٤) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٤١١ ــ ٤١٢

ولا شك أن المنار أثر في الحياة الثقافية في المغرب الأقصى مما جعل بعض وزراء مولاي عبد العزيز سلطان المغرب يكتبون الى السيد رشيد رضا طالبين منه أن يرسل اليهم رجلاً مصلحاً يجمع بين الشريعة والسياسة ويعرف شؤون الادارة ليكون وسيلة لاقناع السلطان بضرورة الاصلاح السياسي والاجتماعي والديني الذي يدعو اليه المنار . وأخبر رشيد رضا أستاذه محمد عبده بالأمر فمال الى السفر بنفسه ولكنه عرف الصعوبات التي تحول بينـه وبين الاتصال بالسلطان لأن الانكليز والفرنسيين والأوربيين بصفة عامة يعارضون ذلك ويتربصون الدوائر بالمغرب الأقصى وهم قد شرطوا أن يكون الأمر سراً فقرر السيد رشيد رضا ارسال السيد عبد الحميد الزهراوي ولكن لم ينفذ شيء من ذلك[1] . ومن المغاربة الذين لهم صلة بالشيخ محمد عبده : الشيخ ادريس بن عبد الهادي ، والمهدي الوزاني وأكثرهم تأثراً بمحمد عبده انما هو الشيخ شعيب الدكالي الذي زار الشرق ورجع لقيادة الشبان نحو الدعوة الاصلاحية سنة ١٣٢٥ هـ [2] وواصل العمل الاصلاحي من بعده الشيخ المجاهد محمد بن العربي العلوي (١٩٦٤ م) الممثل الحي للسلفية في المغرب الأقصى .

وهناك نوع آخر من خدمة المجتمع يعتبر من عوامل الاصلاح الثقافي ونشـر الوعي بماضي الأمة وهو يتمثل في عمـل ابي القاسم الحفناوي [3] الذي قام بتأليف كتاب يحوي تراجم العلماء الجزائريين

---

(١) م. س. ص ٨٧٠ .

(٢) انظر « التعاشيب » لعبد الله كنون .

(٣) ولد سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٥٢) كان من محرري الجريدة الحكومية الرسمية (المبشر) ومدرسا بالجامع الاعظم بالجزائر كما تولى منصب الافتـاء توفى ١٣٦١ هـ (١٩٤٢) انظر بحث بن شنب ص ٤٨ نقـلا عن التقويم الجزائري لسنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢) ص ١٦٩ ــ ١٧٠ .

فرغم أن هذا الكتاب ليست له صبغة علمية فانه مفيد لأنه جمع مادة غزيرة يمكن للباحث أن يدرسها دراسة علمية .

وأهم شخصية خدمت اللغة العربية والثقافة الاسلامية وتاريخ الحضارة الاسلامية في المغرب الأسط انما هو العلامة الدكتور محمد بن أبي شنب[1] وعمله يتسم بطابع علمي مما جعله ينتخب للتدريس بكلية الآداب بجامعة الجزائر ولعضوية المجتمع العلمي العربي بدمشق ويمتاز بمعرفته عدة لغات حيّة وميّتة من لاتينية وألمانية وفرنسية وايطالية واسبانية وفارسية وتركية[2] .

من الكتب التاريخية التي حققها ونشرها كتاب « الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية » لأبي العباس أحمد الغبريني[3]. وكتاب « البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني[4] ومن أهم الآثار التي أخرجها الاستاذ ابن أبي شنب كتاب: « طبقات علماء افريقيا » لأبي العرب التميمي[5] مع كتاب « طبقات علماء تونس » لمحمد الخشني [6] كل ذلك في مجلد واحد . ومنها

(١) ولد سنة ١٢٨٦ هـ بمدينة المدينة كان مدرسا بالمدرسة الثانوية بقسنطينة وبالمدرسة الثعالبية .

(٢) سعد الدين ابن ابي شنب بحثه المذكور سابق ص ٥٥ وانظر « ذكرى الدكتور محمد ابن ابي شنب » تاليف عبد الرحمن الجيلالي .

(٣) توفي في ١٢ ذي القعدة سنة ٧١٤ هـ .

(٤) لا نعرف تاريخ وفاته وانما نعلم انه اتم كتابه المذكور سنة ١٠١٤ هـ انظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية تاليف محمد بن محمد مخلوف طبع القاهرة ١٣٥٠ – ص ٢٩٦ .

(٥) توفي بالقيروان سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٥ م) .

(٦) توفي ٣٦٠ هـ (٩٨١ م) .

كتاب « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية » لمجهول . وغير هذا كثير مما يتعلق باللغة والأدب والتراجم والرحلات . وقد كتب في مجلة « الشهاب » لابن باديس بحثاً ولما توفي[1] قال فيه : « لمـا عرفناه فقـدناه » .

ومن الذين شاركوا في هذه الحركة التاريخية الشيخ مبارك الميلي الذي ألف كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث في سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩) وقرظه الشيخ عبد الحميد بن باديس برسالة مؤرخة بـ (١٥ ــ ١ – ١٣٤٧ هـ)[2] والشيخ أحمد توفيق المدني الذي ألف كتاب الجزائر في سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١) وكتاب « محمد عثمان باشا » الذي أهداه[3] الى الشيخ عبد الحميد بن باديس وكتب الأخير تقريظاً له في مجلة الشهاب[4] أيضاً .

– ٢ –

والحياة الاجتماعية والدينية كانت في تدهور وخمود مما دعا الى رد الفعل ونشوء الحركات الاصلاحية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين . يقول المؤرخ الجزائري اسماعيـل حامت : « كان للالحاد الغربي مبلغ كبير من التأثير في جمهورٍ ليس بالقليل من مسلمي الجزائر الذين وان كانوا ما برحوا مسلمين في الظاهر

---

(١) توفي بالجزائر في ٢٤ شعبان سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) وقبره معروف بمقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي .

(٢) نشرت في ج ٢ ص ٧ طبعة بيروت ١٩٦٣ م .

(٣) الاهداء مؤرخ ١٥ محرم ١٣٥٦ هـ ص ٢ من الكتاب المذكور .

(٤) ش : ج ٧ م ١٣ ص ٣١٩ ــ ٣٢١ شعبان ١٣٥٦ سبتمبر ١٩٣٧ م .

فهم يجهلون حدّ ما وصلت اليه روحهم الدينية من التلاشي . ان هؤلاء لا ينكرون الاسلام دينهم ومعتقدهم غير أنهم قد أضحوا من فتور الغيرة الدينية في نفوسهم بحيث غدوا لا يبالون البتة بنشره في الناس وبالدعوة اليه في غير المسلمين فالاسلام عندهم انما هو مقصور على من يأتي بعدهم من الأولاد والأحفـاد فحسب وليس يتناول أحداً سواهم من الخلق أجمعين . فالحق ان الاسلام لبراء ممّا هم فاعلون . وليس ذلك هو الحرية الفكرية على ما يزعمون بل انما هو الفتور فالتلاشي[1] » هذا ضمير جزائري يأسى ويأسف للحالة التي أصبح عليها المسلمون الجزائريون من الاتجاه الالحادي ومن القعود عن الدعوة الاسلامية

وهذا رحالة بلجيكي يصف الجزائر قبيل الحرب العالمية مشيراً الى الأفكار الغربية التي اخذت تتسرب الى الجزائريين وخصوصاً طبقة العمال : « ان الاسلام ليرى متمزقاً تمزق « الثوب البالي » على أرصفة الجزائر ، فعمال المرفأ ونقلة الفحم وساقة الآلات البخارية على اختلاف جنسيتهم عادوا لا يبالون بالاسلام ، بل ترى فيهم صبغة آداب العمال الأوربيين راسخة وهم يشتركون مع زملائهم العمال الغربيين في السعي وراء الغرض ونيل الغاية اشتراكاً قائماً على أساس واحد هو وجوب مقاومة أرباب رؤوس الأموال ونزاعهم نزاعاً اقتصادياً ، فلو كان في الجزائر معامل مثل تلك التي في أوروبا لاختفى الاسلام السني من تلك الديار

---

(١) لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الاسلامي القاهرة ١٣٤٣ هـ ج ١ ص ٥٤ نقلا عن كتاب :

Ismail Hamet — les musulmans Français du Nord de l'Afrique, Paris 1906

والمؤلف (اسماعيل حامت) وهو صاحب تلك الكلمة القيمة : « لا تقاس حضارة أمة بما في كتبها الدينية من السطور والعبارات بل بما تقوم به تلك الامة من الاعمال » وهو رأي استشهد به لو ثروب الامريكي في كتابه المذكور ووصفه بأنه مصلح مسلم جزائري ووصف له قوله بالسداد ج ١ ص ٤٨ .

المغربية اختفاء الكاثوليكية القديمة من ديارنا أمام تيار الصناعة وثورتها الكبرى » [1] ولا يخفى على القاريء كيف حاول هذا السائح الأوروبي تصوير الجزائر تصويراً متأثراً فيه بتاريخ المسيحية في بلاده وبالصراع الطبقي الذي نشأ فيها لوجود التقدم الصناعي ، وعمّم ما رآه في مرسى الجزائر على المجتمع الاسلامي الجزائري كله . ومهما يكن من أمر فان المسألة لا تعدو أن تكون شهادة عابرة لسائح ابن سبيل .

والواقع أن السياسة الاستعمارية الفرنسية فيما يتعلق بالناحية التربوية التعلمية كانت ترمي الى تكوين جماعات منفصلة عن مقومات الشخصية الاسلامية العربية والى تحويل الشعب الجزائري كله وادماجه في الحضارة الأوروبية والثقافة الفرنسية عن طريق نشر اللغة الفرنسية ، ومقاومة الشريعة الاسلامية التي ترى أنها هي العقبة الوحيدة التي تحول دون الاندماج ولذلك فانها تشترط فيمن يتمتع بالحقوق الفرنسية أن يتجنس . ويتضمن التجنيس عدم الارتباط بالقانون الاسلامي ، بل أكثر من ذلك فان كثيراً من الحقوق لا ينالها الا النصراني ، فأصبح التنصر بذلك طريقاً الى التمتع ببعض الحقوق ، ولم يرق الجنرال يوسف رتبة جنرال الا على هذا الشرط [2] .

ورسمت السياسة الفرنسية وسيلة أخرى تعتقد أنها ستربح بها اللعبة وهي بثّ الخلاف بين عناصر المجتمع الجزائري ، بين العرب والبربر . وحاولوا أن يقنعوا البربر بأنهم من سلالة أوروبية وأن لهم لغة خاصة لا ينبغي التفريط فيها ، وأن يمنعوا تعليم العربية للبربر .

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢) تعليق الامير شكيب أرسلان على « حاضر العالم الاسلامي » ج ١ ص ٨٦ .

يقول أحد المختصين [1] بهذه المسألة : « ان العالم المختص في أمور البربر المسيو دوتيه » الذي جال بين قبائل البربر نوّه بمحاسن سجايا هذا الشعب البربري وقال : ان به مناط الآمال في افريقيا ... انه شعب يظهر عليه الميل من نفسه الى المدنية الفرنسية [2] لذلك يجب علينا قبل كل شيء أن لا نعرّبه أكثر ممّا هو ولأجل بلوغ هذه الغاية يجب أن يحمل البربر على الثقافة الفرنسية أو أن يتكلموا بالفرنساوي قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربي اليهم ، وعلى هذا الشكل يتحقق بلا ريب — أكثر ممّا هو مظنون — خيالنا العظيم بمراكش فرنسية ... وفي النية تأسيس مكاتب فرنسوية بربرية في الجهات التي لم تستعرب من بلاد البربر ، وهذا تصور حسن جداً ... فاذاكانت بلاد القبائل من الجزائر ليس فيها الا بعض أقوام من البربر ، فان قسماً عظيماً من أهل المغرب الأقصى ، لا يعرفون العربية ، أو يتكلمون اللغتين البربرية والعربية ، وليس لنا أدنى مصلحة أن ننشر بينهم اللغة العربية ، لغة الجامعة الاسلامية ، بل بالعكس » [3] وقصة الظهير البربري [4] أشهر من أن نفصل القول عنها بالاضافة الى مئات الكتب باللغة البربرية بجميع لهجاتها . والمستشرق الفرنسي ماسيينون نفسه ألقى محاضرة في سنة ١٩٢٧ م بمعهد كوليج دي فرانس : تحت عنوان « الوحدة البربرية »[5] .

---

(١) هو فيكتور بيكي Victor Piquet مستشهدا براي مختص آخر هو (دوته Douté) .

(٢) انظر هذا الزعم العلمي !

(٣) انظر ترجمة هذا النص في حاضر العالم الاسلامي ج ١ ص ٨٧
Victor Piquet - Le Maroc - Paris 1818 P. 302

(٤) صدر في ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ .

(٥) عثمان الكعاك ، البربر ، تونس ١٩٥٦ ص ١٢٩ .

وأسس الفرنسيون بالمغرب الأقصى ، معهد البحوث العليا المغربية ، للدراسات البربرية وخصصوا لذلك مجلة « هيبريس » والواقع أن هذه المحاولات لتمزيق الشعب الواحد لم تقتصر على المغرب الأقصى ، بل شملت الجزائر وتونس وطرابلس من طرف ايطاليا — واكتست المحاولات طابعاً علمياً في ظاهرها • ففي تونس قام طبيبان بتأليف كتاب ضخم في مقاييس جماجم البربر وأوصافهم وسماتهم العضوية العرقية ، مع مقارنة بسمات ومقاييس جماجم الغاليين[1] وفرض الاستعمار على أبناء المدارس المسلمين الجزائريين أن ينشدوا : « كان أجدادنا من الغالبن وكانت بلادنا في القديم تسمى غاليــا » ، وأن يتشرفوا بالانتساب اليهم ! والغرض من هذه المحاولات انما هو الادماج ، كما أشرنا الى ذلك من قبل • وفعلاً فقد نبتت طائفة من هذه المدارس تدعو اليه ، وتتحمَّس له بالرغم من معارضة الغــلاة من الاستعماريين لهذا الادماج الذي يجعل المسلمين متساويين في الحقوق مع الفرنسيين ، وهــذا ما لا يمكن أن يتصوروه في عقولهم •

في الربع الأول من القرن العشرين تطورت ردود الأفعــال على الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية والسياسية التي تحياها الجزائر •

الاتجاهات الاصلاحيــة :

ظهرت جماعة صغيرة لائيكية « علمانية » مفرنسة بصحافتهــا وجمعياتها وصداقاتها وبمطالبها التي تعتبرها « تقدمية » واعتمد هؤلاء الشبان الجزائريون على بعض الأحرار من الفرنسيين أمثال بول بورد : Paul Bourde والبان روزي Albin rozet [2]وكانت هذه الفئة لا تطالب

---

(۱) ن• م• ص ١٣٤ •

(۲) CH. Robert Ageron, Histoire de l'Algérie Contemporaine, Presses Universitaires de France, Paris, 1964 P. 71 et la Naissance du Nationalisme Algérien, par André Nousalie P. 20.

بمجرد المساواة مع الفرنسيين بل وبالاندماج التام[1] ثم انقسمت هذه الفئة الى قسمين : قسم يطالب بالمواطنية الفرنسية دون الارتباط بالقوانين الاسلامية الشخصية ، وقسم يطالب بالمساواة السياسية مع بقاء التعامل بالقانون الاسلامي • ويمثل القسم الأخير حفيد الامير عبد القادر الامير خالد بن الهاشمي[2] الذي عرض برنامجه في جريدة « الاقـدام » وبصفة عامة ، فان هذه النزعة تهدف الى فصل الدين عن الدولة مقلدة في ذلك تركيا الفتاة التي كان لثورتها صدى في الجزائر، ويقود هذه الحركة ويمثل هذه النزعة معلمون في المدارس الابتدائية وطلبة في المدارس الفرنسية وموظفون لدى الحكومة الفرنسية ومن النواب وغيرهم ممن يجيدون اللغة الفرنسية ويستعملونها وسيلة لصحافتهم • وأشهر الصحف التي تعبر عن أفكارهم هي :

١ ـ الصوت الاهلي تصدر في قسنطينة ويديرها ربيع الزناتي : La Voix Indigène.

٢ ـ صوت المتواضعين تصدر في الجزائر العاصمة ويديرها عمر قندوز[3] • La Voix des Humbles.

ويحلو للمستشرق ماسينيون أن يذكر لنا أن اللغة الفرنسية أصبحت أداة للفكر الاسلامي لا في الناحية السياسية فحسب بل وفي الناحية

---

(١) هذه جملة من الكتاب الاخير تصور مطلبهم :

« L'assimilation la plus complète, c'est - à - dire l'entrée dans la cité française ».

(٢) توفي ٩ يناير سنة ١٩٣٦ م ـ ١٣٥٤ هـ بدمشق بعد محاكمته في باريس وخروجه منها رثاه احمد توفيق المدني وكتب عنه في مجلة الشهاب ج ١١ ، م ١١ ، ص ٦٣٠ كتب الامير خالد مقالا في جريدة النجاح تحت عنوان : مسألة الخلافة في المؤتمر الاسلامي العام عدد ٢٨١٨٤ نوفمبر ١٩٢٤ م •

(٣) وجهة الاسلام (افريقيا لماسينيون) القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٦٠

الدينية • ويضرب لنا مثلاً بما قام به الأستاذ أحمد ليميش من ترجمة القرآن الكريم الى اللغة الفرنسية ترجمة يحوطها التقديس والشعور الاسلامي الصادق رغم انها لم تبلغ غايتها من الجودة [1] كأنه يعد هذا انتصاراً للحضارةالأوروبية• ومنهم من كتب قائلا : « الجزائر أرض فرنسية • نحن فرنسيون مع الاحتفاظ بقانون الأحوال الشخصية الاسلامي ••• لا يوجد في الكتاب المقدس ما يمنع جزائرياً مسلماً من أن تكون جنسيته – فرنسية ـــ ••• الخ [2] بل انه عبر عن الوحدة الوجودية بينه وبين فرنسا فقال : « أنا فرنسا » !

كما كان هناك أتباع الطرق الصوفيـــة وترجع في أغلبها الى طوائف ثلاث[3] :

أ ـــ الطائفة العليوية التي يرأسها الشيخ أحمد بن عليوه في مستغانم• وهي طائفة متشعبة عن الطريقة الدرقاوية ، ولهذه الحركة الصوفيـــة صحيفة تعبر عن أفكارها المعارضة للحركة الاصلاحية التي يمثلها الشيخ عبد الحميد بن باديس وهي جريدة « البلاغ » •

ب ـــ طائفة درقاوية أخرى يرأسها غلام الله في مدينة تيارت يدعو صاحبها الى سياسة الاتفاق الديني بين الاسلام وفرنسا[4] •

---

(١) م• ن•

(٢) هو السيد فرحات عباس الذي كتب ، « الشباب الجزائري » :
« L'Algérie est terre française. Nous sommes des français avec le Statut Personnel musulman (......) Il n'y a rien dans le Livre Saint qui puisse empêcher un algérien musulman d'être nationellements un français, aux bras forts, à l'intelligence éveillée, au cœur loyal conscient de la solidarité nationale. Il n'y a rien, sinon la colonisation. » Voir la Naissance du Nationalisme algérien, P. 63.

(٣) وجهة الاسلام ص ٦١ .

(٤) وضع « الاتفاق الديني » سنة ١٩٣٠ .

جـ ــ طائفة التيجانية تتكون من كبار الموظفين والاغنياء والتجار وقامت بدعاية بلغ نشاطها باريس وأقامت هناك مسجدا ، والواقع أن هذا الفرع قوي في مراكش أكثر من الجزائر . وأما الطريقة السنوسية [1] فقد أضعفتها المجازر التي سلطتها عليها ايطاليا وكادت أن تودي بها . والحقيقة ان الحركة الاساسية التي تمثل آمال الشعب الجزائري وتعبر عن شخصيته هي الحركة السلفية . التي يمثلها ابن باديس وزملاؤه ويصفها المستشرق ماسينيون بأنها حركة متشددة نصف وهابية ويعتبرها فرعاً أو شعبة من الحركة التي تمثلها « المنار » في القاهرة . ويذكر أن ابن باديس وثيق الصلة بالحركة في مصر مترسم لخطاها ويعترف بان لهذه الحركة السلفية تأثيراً لما ينطوي عليه برنامجها من الرجوع الى تعاليم القرآن بالرغم من أنه يقلل من شأنها من ناحية أخرى فيقول : « ان هذا الحزب لا ينتمي اليه حتى الآن الا شرذمة قليلة في مدن المغرب » والظاهرة التي تلفت النظر أنه يذكر لنا وهو المتتبع لحركات المسلمين وسكناتهم أن حركة ابن باديس لها أتباع في الرباط من أعمال مراكش فيقول : (ومن أتباع هذا الحزب جرثومة صغيرة ولكنها مترعرعة في رباط من أعمال مراكش) [2] ولسان حال هذا الحزب أو هذه الحركة هو مجلة « الشهاب » الصادرة بقسنطينة ويديرها الشيخ عبد الحميد بن باديس . وسيأتي تفصيل القول في ذلك .

---

(١) وكان للسنوسية في الجزائر الف تابع . وأكبر الطرق عددا هي الطريقة الرحمانية التي أسسها سيدي محمد بن عبد الرحمن واتباعها ١٥٦ الف رجل و ١٣ الف امراة . واتباع التيجانية التي يقيم شيخها في عين ماضي ٢٦ ألف . والطريقة الدرقاوية المشهورة بالشدة والاشتراك في جميع الثورات التي ثارت على الفرنسيين لها ٩ آلاف . والشيخية أولاد سيدي الشيخ ١٠ آلاف .

(٢) وجهة الاسلام ص ٦٠ ــ ٦١ .

دور الصحـافة العربية :

وبهذا نرى أن الصحافة لعبت دوراً كبيراً في النهضة فلا بد من أن نقول عنها كلمة :

أن أول جريدة عربية صدرت لا عن مصدر حكومي [1] بل بمجهود صحافي جزائري حر هي جريدة « الجزائر » التي أصدرها الفنان الأستاذ عمر راسم سنة ١٩٠٨ وصدرت جريدة « الحق » سنة ١٩١١ م في وهران وهي أول جريدة فتحت الاكتتاب للهلال الأحمر العثماني أيام حرب طرابلس[2] ثم « الفاروق » وصدرت في سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) أسسها عمر بن قدور وهو مؤدب يقرىء القرآن الكريم ، ويعتبر هذا الرجل من المدرسة الاصلاحية المتأثرة بمحمد عبده وبالمنار ، فعزم على مقاومة الخرافات والبدع واستعمل هذه الصحيفة للقيام بمهمتـه وشعار صحيفته :

« قلمي لساني ثـلاثة بفؤادي ديني ووجداني وحب بلادي »

ويستعين بما تنشره مجلة المنار فينقل بعض مقالاتها في هـذه

(١) أول جريدة عربية صدرت عن الولاية العامة هي المبشر وكانت تنشر باللسـانين الاوامر الادارية والتشريعات وتحاول ان تبث الدعـاية ضد الوطنيين الذين هم في نظرها شياطين مشوشون . صدرت في سبتمبر ١٨٤٧ (٥ شوال ١٢٦٢ هـ) ثم ملحق جريدة الاخبار الفرنسية ١٩٠٣ م (١٣٢٠ هـ) وكانت قبل ذلك تصدر بالفرنسية فقط ابتـداء من ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) ويتولى ذلك فيكتور باروكان . ثم جريدة المغرب اصدرها مدير مطبعة فونتانا وهي راجعة الى مصدر حكومي صـدرت ١٣٢١ هـ ــ (١٩٠٣ م) وجريدة كوكب افريقيا أصدرها محمود كحول ومصدرها حكومي صدرت سنة ١٩٠٣ وأصدر كذلك التقويم الجزائري مدة ثلاثة سنوات من ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) الى ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) فيها آثار أدبية جزائرية لتلك الفترة .

(٢) احمد توفيق المدني كتاب الجزائر ص ٣٦٩ .

الجريدة ويهتم بأخبار العالم الاسلامي • ولم تعش هذه طويلاً[1] وأبعد صاحبها الى الاغواط سنة ١٩١٥ م كتب فيها أحمد توفيق المدني مقالاً تحت عنوان : « القرآن الشريف وكيف يجب أن تتعلمه » سنة ١٩١٤ م وهو أول مقال يكتبه في حياته •

ثم عاد الاستاذ الفنان عمر راسم واصدر جريدة أخرى تحت اسم مستعار وهي « ذو الفقار » [2] وأسمى نفسه ابن المنصور الصنهاجي ووسم صحيفته المصورة بأنها « عمومية اشتراكية انتقادية » ونشر في هذه الصحيفة (في عددها الثالث) صورة الأستاذ الشيخ محمد عبده وكتب عمر راسم تعليقاً عليها وهو ان الشيخ محمد عبده « مدير الجريدة الديني » [3] •

والغريب أن مؤسسها هو الذي يحررها ويكتبها بخطه ، ويرسم صورها الرمزية ويطبعها طبعاً حجرياً وحده ، فمن صورها الرمزية في العدد الثالث فارس عربي على باب مدينة الجزائر وشمس مرسلة أشعتها مكتوب في وسط قرصها : « الاصلاح » وهذا يرمز الى العودة الى الدين والشخصية الجزائرية العربية ، كما نشر في هذا العدد قصيدة حماسية لعنترة بن شداد ومقالاً بعنوان « الاسلام والمسلمون » مفاده أن سبب تأخر المسلمين يعود الى انفصالهم عن الشريعة الاسلامية ومقالاً آخر نقله عن المنار يعالج مشكلة المقلدين للافرنج وفسادهم الاخلاقي ، ورسم صورة ترمز الى رجل مقلد للغرب يطلب من زوجه ان تخلع

---

(١) لم تزد على عام وبضعة أشهر .

(٢) صدر أول عدد منها في ربيع الثاني (١٣٣١ هـ) افريل (١٩١٣)

(٣) سعد الدين ابن ابي شنب (النهضة العربية بالجزائر في النصف الاول من القرن الرابع عشر للهجرة) مجلة كلية الآداب العدد الاول ١٩٦٤ ص ٦٢ ــ ٦٣ صورة الغلاف والتعليق عليها كانا في يوم الاحد ٢٠ رجب ١٣٣٢ هـ ١٤ جوان ١٩١٤ م ، ص ٨ .

لباسها العربي لتتعلم الرقص ولتتمدن فاجابته بأن لباسها القومي لا يكون عائقاً لها عن التمدن[1] • وبما ان اليوم الذي صدرت فيه الجريدة كان يوم ١٤ جوان فانه كتب عن الحوادث المحلية : « في هذا اليوم نزل الجيش الفرنسي في شبه جزيرة سيدي فرج وفي هذه السنة (١٩١٤ م) تشكلت جمعيات لاحياء هذا اليوم والاحتفال باستيلاء فرنسا على أكبر وأغنى مستعمراتها : الجزائر • سنذكر في العدد الآتي الأسباب التي أدت الى الحرب وكيفية دخول الفرنسيس الى عاصمة الجزائر »[2] وكانت هـذه الصحيفة أول من نبه النـاس الى الخطر الصهيوني ، وأول من اكتشفه[3] ولما جاءت الحرب العالمية الاولى ، القي القبض على مديرها عمر راسم[4] بتهمة الاتصال بالعدو والاتفاق معه فحوكم عسكرياً وصدر ضده حكم بالأشغال الشاقة ثم بعـد الحرب صدر العفو عنه[5] •

وفي سنة ١٩١٩ أصدر الامير خالد صحيفة « الاقدام » باللغتين كما أصدر الحزب المعارض له صحيفة « النصيح » •

وفي السنة نفسها أصـدر الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي جريـدة « النجاح » التي كانت حرة واشترك عبد الحميد بن باديس في تأسيسها ثم انفصل عنها ، ثم انحرفت هذه الجريدة وارتبطت بالحكومة الفرنسية وأصبحت في سنة ١٩٣٠ جريدة يومية يطبع منها ٥٠٠٠ نسخة في اليوم • وفي سنة ١٩٢٤ أصدر عمر بن قدور الجزائري جريدة « الفاروق » من جديد وكانت أسبوعية ثم اشترك مع محمد بن بكير في اصـدار

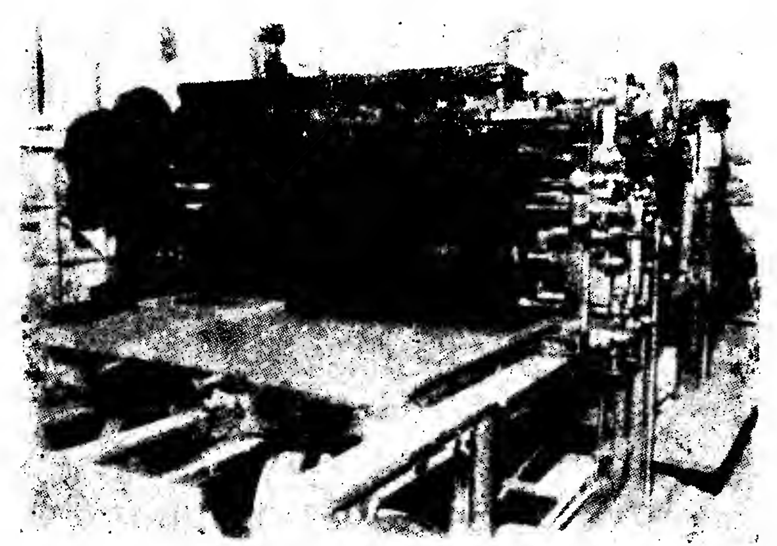
(١) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٤ .

(٣) أحمد توفيق المدني كتاب الجزائر ص ٣٦٩ .

(٤) توفي سنة ١٣٧٩ هـ وعمره ٧٩ عاما حافظ للقرآن مجوّد له .

(٥) المصدر السابق ص ٣٦٩ .



المطبعة الجزائرية الاسلامية التي كانت تطبع جريدة ومجلة الشهاب ، تأسست هذه المطبعة سنة ١٣٤٣ ــ ١٩٢٥ في نفس التاريخ الذي صدر فيه الشهاب . وتقع في نهج عبد الحميد بن باديس ــ قسنطينة

جريدة « الصديق » • وصدر « لسان الدين » جريدة أسبوعية دينية سياسية سنة ١٩٢٣ أصدرها مصطفى حافظ وابن عبد العزيز حسن •

وفي سنة ١٩٢٥ صدر « المنتقد »[١] فتوقف بعد صدور ثمانية عشر عدداً منه ، ثم خلفه « الشهاب » في نفس السنة وكان أسبوعياً ثم انتقل في سنة ١٩٢٩ الى مجلة شهرية[٢] ومؤسسها معاً هو الاستاذ

(١) جريدة تمثل لسان نخبة الشباب صدرت في يوم الخميس ١١ ذي الحجة ١٣٤٣ هـ (٢ جويلية ١٩٢٥ م) .
وقد نقلت هذا من العدد الاول من المنتقد ولم تصدر في سنة ١٩٢٤ ولا في سنة ١٩٢٦ كما يذهب الى ذلك البعض . انظر كتاب الجزائر لاحمد توفيق المدني ص ٣٧٠ فانه جعلها صادرة في سنة ١٩٢٦ م وتاريخ الجزائر المعاصر لروبير اجيرون ص ٨٨ حيث جعل صدور الشهاب سنة ١٩٢٤ م .

(٢) بتاريخ رمضان ١٣٤٧ هـ فيفري ١٩٢٩ م .

عبد الحميد بن باديس واستمرت الشهاب في أداء رسالتها الى الحرب العالمية الثانية فتوقفت في سبتمبر ١٩٣٩[١] . وفي نفس السنة أصدر الشيخ محمد السعيد الزاهري جريدة « الجزائر » وعطلتها الحكومة . وأصدر الشيخ العقبي والشيخ أحمد العابد جريدة « صدى الصحراء » ثم صدرت جريدة « البرق » سنة ١٩٣٧ وأصدر العقبي أيضاً جريدة « الحق » في بسكرة سنة ١٩٣٦ م .

كما أصدر الشيخ العلامة الصحفي أبو اليقظان جريدة « وادي ميزاب » في سنة ١٩٢٦ فعطلتها الحكومة بعد نحو عامين ونصف ثم أصدر بعدها جريدة « ميزاب » فصودرت ، فأصدر من بعدها «المغرب» ثم « النور » ثم « النبراس » وأسس الشيخ العقبي كذلك جريدة « الاصلاح »[٢] وفي هذه الأثناء أصدرت الزاوية العليوية جريدة « البلاغ الجزائري » معارضة بها حركات الاصلاح ، ورغم كونها تقاوم بعض عادات المتصوفة ، فانها تدافع عن التصوف ولها مطبعة خاصة . ولم يكن في الجزائر قبل الحرب العالمية الألى من المطابع الا مطبعة رودوسي مراد ، ثم وجدت فيها أربع مطابع أخرى : المطبعة الاسلامية وهي مطبعة الشهاب ومطبعة النجاح بقسنطينة ، والمطبعة العربية لأبي اليقظان بالعاصمة ، ومطبعة البلاغ الجزائري بعاصمة الجزائر أيضاً[٣] . والواقع أنه توجد هناك مطابع أخرى لكنها تابعة للفرنسيين كمطبعة فونتانا الشرقية[٤] مثلاً .

---

(١) العدد الاخير الذي هو عدد سبتمبر لم نجد منه الا ملزمة واحدة كتب فيها عبد الحميد مقالا عنوانه (أولو الامر) تعليقا على مقال كتبه الشيخ الخضر الحسين شيخ الازهر وصاحب مجلة الهداية الاسلامية .

(٢) انظر احمد توفيق المدني في كتاب الجزائر ص ٣٧١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٣ .

(٤) تطبع باللسانين العربي والفرنسي .



ادارة الشهاب سابقاً واقعة في نهج الشيخ عبد الحميد بن باديس

وهذه الصحافة كلها تدل على النشاط الفكري ، وعلى ظاهرة القلق التي هي علامة على اليقظة والوعي بالمسؤولية ، وخطوة في سبيل تغيير المظاهر الاجتماعية ، ومحاولة لاعادة المجتمع الى أداء وظيفته التاريخية وادراكه نفسه التي نسيت التاريخ أو نسيها التاريخ ! !

- ٣ -

يلاحظ المستشرق الفرنسي ماسينيون على الاتجاه الفكري في المغرب الاسلامي أنه مصطبغ بالصبغة العملية وأن الناحية العقيدية محتفظة بصلابتها الموروثة عن صدر الاسلام[١] وأن أصحابه من أنصار الخوارج وأتباع مذهب الامام مالك ، كما وصف المغاربة من الناحية العقلية بأنهم ذوو عزيمة وجدٍّ ، وهو يحاول بهذا أن يجعلهم أقرب ما يكونون الى الاوروبيين يقول : « ان لمسلمي المغرب عقولاً عملية من الطراز الأوروبي »[٢] ويجعل ذلك سبباً في عدم وجود شخصيات بارزة كثيرة على حدٍّ تعبيره أو رجالات نابغة كالذين نجدهم في المشرق ، وهو بذلك يجعل فوارق بين مسلمي المغرب ومسلمي المشرق فيقول : « واذا قارنا هذه البيئة الاجتماعية الاسلامية في المغرب ، بنظيرتها في المشرق وجدنا فوارق ليست ظاهرية فحسب ولكنها تتغلغل في الصميم »[٣] ، وهو بهذا يحاول أن يفرق أبناء مجتمع واحد واتجاه عقيدي واحد كما يحلو له أن يفعل ذلك في كل مناسبة ، ولكن نجد للمستشرق ملاحظة دقيقة وصحيحة في آن واحد ، وهي أنه يسود الشعورَ الاسلامي — في الجزائر بصفة خاصة — عاطفة غريبة جدّاً ، وهي طموح المسلمين لأن يدخلوا الاسلام ويشقوا له طريقاً في عقول الفرنسيين وأرواحهم أنفسهم. ويضيف الى ذلك ملاحظة أخرى تشير الى أن في الجزائر كتاباً مسلمين يجيدون الفرنسية أيما اجادة ، ويستخدمونها في بث الدعاية في فرنسا[٤]

(١) وجهة الاسلام ص ٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ن. ص.

(٣) ن. م. ن. ص.

(٤) ربما يشير بهذا الى الاستاذ مالك بن نبي وجماعة اخرى معه خصوصا كتابه « الظاهرة القرآنية » الذي ألفه بالفرنسية ثم ترجم فيما بعد الى العربيـــة .

ولا يقتصرون في هذه الدعاية على الجالية الاسلامية المقيمة في فرنسا التي ربما تتعرض لخطر الخروج عن أصول الدين ، وانما يطمحون الى أبعد من ذلك مما أدّى فعلاً الى اسلام بعض الفرنسيين من الرجال والنساء[1] . ومن ناحية أخرى يزعم أن « هناك حقيقة لا يمكن انكارها وهي أن بين فرنسا والمغرب اتصالاً روحياً يتمثل في أذهان بعض المفكرين ضرباً من التجاذب العقلي يشبه ما نشأ بين انجلترا والهند »[2] والواقع ان هذا لا يصدق الا على شرذمة قليلة تفسخت ، وذابت في شخصية الغالب وانفصلت عن صف الشعب المغربي الاسلامي . ويرى أن روح « المحافظة الصلبة » التي تسيطر على الفكر الاسلامي المغربي لا تجيز لأحدٍ أن يفكر في تحقيق الهدف الاستعماري ألا وهو استعمال الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية ، كما ان السلفيين « المتشدّدين » لايقبلون استعمال اللهجة العامية التي يروج لها المستشرقون ، في الوقت الذي نجد فيه المشارقة يقبلون فيهما النظر[3] . والواقع ان هذا يعود الى وجود عناصر مسيحية عربية في المشرق ، بخلاف المغرب فانه يخلو من العرب المسيحيين الذين يرتبطون بالثقافة اللاتينية من حيث المعتقد والوجدان ، وبالرغم من اعتراف ماسينيون بتأثير المغاربة بالمشارقة فيما يختص بالجامعة الاسلامية والعربية تلك الجامعة التي يدعو لها شكيب أرسلان وفريد وجدي ، فانه يقرر أن « تيار التطوّر يزداد انحرافاً نحو باريس واليها لا الى المشرق ، نجد جمهور أهل المغرب يولون وجوههم نحوها »[4] يريد ان يثبت أن باريس أصبحت قبلة المغاربة المسلمين . والغريب أنه جعل الجمهور هو الذي انحرف نحو باريس ، فلو اقتصر

---

(١) م. س. ص ٥٩ .

(٢) ن. م. ن. ص.

(٣) ن. م. ص ٦٦ .

(٤) ن. م. ص ٦٧ .

على ذكر طائفة قليلة لصدّقناه ، ولكنه جازف في القول ولم يزنه • واني أشكره[1] من ناحيــة أخرى حيث عبر عن ذلك بكلمة « انحراف » فهذا هو التعبير الطبيعي في مثل هذا المقام •

ولم يعالج أحد من المسلمين في النصف الأول من القرن العشرين ــ فيما أعلم ــ مشكلة الفكر الاصلاحي في المغرب الأوسط الا استاذنا مالك بن نبي ، فانه تناول هذه النهضة الحديثة وحللها تحليلاً علمياً نقدياً ، ودرسها دراسة اجتماعية تكتسي طابعاً موضوعياً مع أنها أشد ما تكون امتزاجاً بذاتيته ، وبالرغم من المراقبة الشديدة التي مارسها الاستعمار على مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي فانه تمكن في ظروف قاسية من اخدار كتابه « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » [2] فالاصلاح قد شغل اهتمامه منذ طفولته كما يحدثنا في كتابه الأخير : « مذكرات شاهد القرن » • كما شغله منظر ابن باديس وهو يمر أمام مقهى « ابن يمينة » ذاهباً الى مكتبه في « نهج الأربعين شريف » [3] وهو أول من أدخل العدد الأول من جريدة الشهاب الى افلو[4] جنوب

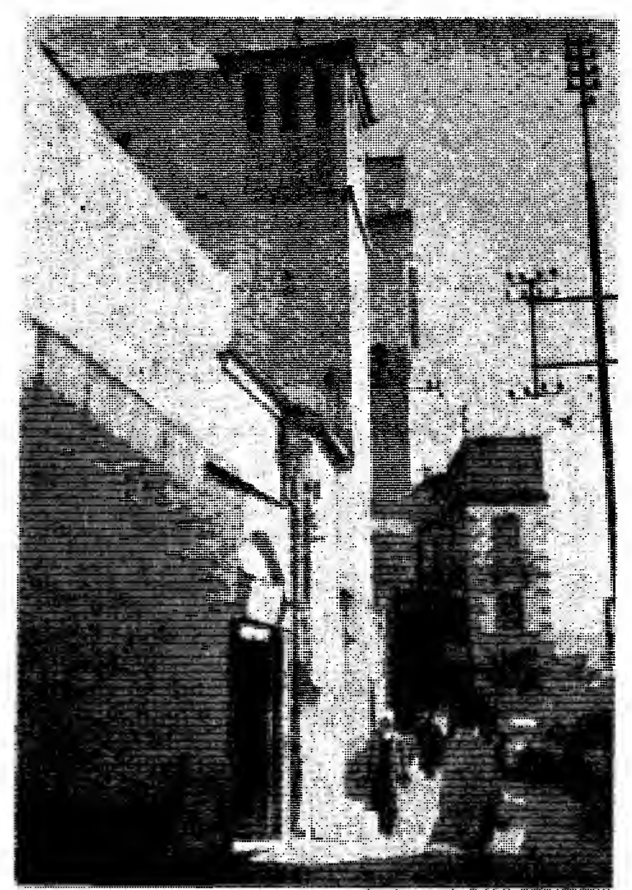
---

(١) أو اشكر المترجم لأني لا أملك النص الانجليزي الــذي ترجم الى العربية .

(٢) صدر في سنة ١٩٤٨ وقدم له الدكتور عبد العزيز خالدي بمقدمة حلل فيها الكتاب ووصف المؤلف بأنه « رجل شعر في حياته الخاصة بمعنى الانسان في صورتيه الخلقية والاجتماعية » وترجم الكتاب وطبع بالقاهرة أثناء الثورة سنة ١٩٥٧ وصف المترجم الكتاب بأنه « في فلسفة الحضارة وفن التوجيه » .

(٣) يسمى الآن بنهج عبد الحميد بن باديس وهو النهج الذي توجد فيه مطبعة الشهاب ومدرسة التربية والتعليم وادارة الشهاب ومدرسة سيدي بو معزة انظر مذكرات شاهد القرن ص ١٥٨ .

(٤) مذكرات شاهد القرن لمالك بن نبي طبع في المطابع الوطنية الجزائرية (فونتانا سابقا) الجزائر ١٩٦٥ ، القسم الاول ص ٢٢١ .



صومعة ومسجد الأربعين شريف

وهران حيث يقوي نفوذ الطرقيين ، واتصل بالشيخ عبد الحميد في مكتبه ليبثه ما يجده في نفسه من بعض الأفكار المتصلة بالمجتمع في قرية أفلو خصوصاً ما يتعلق بمشكلة الأرض بجبل لعمور [1] .

والفكرة الأساسية في كتابه « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » تتلخص فيما يلي : « ان مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة

(١) ن. م. ص ٢٢٦ .



مسجد سيدي بومعزه أول مدرسة أسسها للتعليم تحت اسم « المكتب » ، وهو بمثابة مدرسة ابتدائية ، وقد اشترى هذا العمل الفاضلان : العربي وعمر بن مفسولة

حضارته ، ولا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته أو يحلها ما لم يرتفع بفكرته الى مستوى الاحداث الانسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها »[1] فالاصلاح والنهضة في

(١) شروط النهضة ص ١٧٨ .



مدخل جامع أربعين شريفاً ، وهو الآن مقر المحكمة المالكية ، ويسمى مسجد سيدي علي مخلوف ، وهو واقع بنهج عبد الحميد بن باديس

نظره انما يُدْرَكان في اطار فكرة شاملة وجوهرية هي فكرة الحضارة التي تعتبر من أهم المشكلات التي تتناولها الآن الدراسات الفلسفية والتاريخية وخاصة الدراسات الاجتماعية ، في شتى المدارس العلمية في الشرق والغرب ، ولكن ينفرد من بين المفكرين المسلمين بهذه الفكرة التي طالما نبه اليها أذهان الشبان المسلمين ، وتفكيرهم فيها على غير نمط

الغربيين والشرقيين لأنه ينظر اليها بمنظار آخر مستمداً شواهده من المجتمعات المتخلفة الممتدة على خط طنجة ــ جاكارتا • يقسم الاستاذ مالك بن نبي الفترة الحديثة الى قسمين ما قبل ١٩٢٥ وما بعــدها • أما الفترة الأولى فتتمثل فيها البطولات الجزائرية في صورة أفراد ، وفي قوة رجال يمرون كأطياف أحلام في نوم تاريخي عميق •

وأما الفترة الثانية فتتمثل في حركة مجتمع ، وتصارع أفكار ، ومحاولة تغيير للحياة الأخلاقية والعقلية والاجتماعية والسياسية والدينية، وبعبارة أخرى فان الشعب في هذه الفترة استأنف رسالته ، وبدأ تاريخه الجديد « أما في الماضي فقد كانت البطولات تتمثل في جرأة فرد ، لا في ثورة شعب ، وفي قوة رجل لا في تكاتف مجتمع ، فلم تكن حوادثها تاريخاً بل كانت قصصاً ممتعة ، ولم تكن صيحاتها صيحات شعب بأكمله وانما كانت مناجاة ضمير لصاحبه ، لا يصل صداه الى الضمــائر الأخرى فيوقظها من نومها العميق »[1] ويعتبر أنه كان صوت جمال الدين الأفغاني أثر في انبلاج فجر النهضة الجزائرية ، ومعجزة الحياة في الجزائر بدأت بصوت الشيخ عبد الحميد بن باديس وندائه فأيقــظ المعنى الجماعي ، وحول مناجاة الفرد الى حديث الشعب[2] ويصور لنا حركة الأفكار وانتشار النظريات الاجتماعية في أوساط الشباب فيقول : « فهذا يرنو الى المذهب الكمالي ، وذاك يأخذ بالمذهب الوهابي ، وذلك ينزع الى التمدن الغربي ، ومنهم من انحدر بفكره الى مذهب المادة ••• ونرى من بين هؤلاء وأولئك عمائم الاصلاح تدلنا على منهاج آخر يقوم على عقيدة صحيحة ، ورجوع الى السلف الصالح ، وتغيير ما بالنفس من آثار الانحطاط »[3] ويجعل حركة العلماء

(١) ن• م• ص ٢٢ •

(٢) ن• م• ص ٢٣

(٣) ن• م• ص ٢٤

المسلمين أقرب الحركات والقيادات الى النفوس ، ولكنها ما لبثت أن انحرفت منهجياً عن أهدافها ، وأعطت القيـادة للانتهازيين السياسيين في سنة ١٩٣٦ في المؤتمر الجزائري الاسلامي [١] فأخفق المؤتمر ودب الشقاق في صفوف الجمعية كأن مركب النقص هو الذي جعلهم يسلمون الزعامة لرجل اللغة الأجنبية فسايروا قادة السياسة[٢] ، في تلك الفترة ظناً منهم أنهم سيحمونهم ويدفعون عنهم شر الحكومة الفرنسية ، باعتبار أن التغيير الاجتماعي الذي يبدأ في تغيير النفس هو الأساس في المشكلة ، لا الذهاب الى باريس والتعلق بسراب وعود الجبهة الشعبية ، وهذا ما تأكد لهم فيما بعد حيث عبر ابن باديس عن ذلك بوجوب « الاعتماد على أنفسنا والاتكال على الله »[٣] .

ويوجه من ناحية أخرى نقداً للحركة الاصلاحية في العالم الاسلامي التي وان أخذت بفكرة الاصلاح الديني الذي يعتبر نقطة انطـلاق في كل تغيير اجتماعي[٤] الا أنها ابتدأت بمرحلة علم الكلام التي هي المرحلة الفكرية او العقلية ، وتخطت المرحلة الأخلاقية الروحية التي تؤدي الى أول تغيير للقيم الاجتماعية فهذا يعتبر «مزلقة لا تؤدي الى الوعي بقدر ما تؤدي الى تعلم جدليات الكلام» . انه خطأ منهجي أدى الى عدم تسجيل هذا الاصلاح في نسق الأحداث التاريخية التي تقرر مصير الجماعات الانسانية[٥] ولكنه يستثني حركة الاصلاح في الجزائر ، ويعود الفضل في ذلك في

---

(١) وقع في ١٧ جوان ١٩٣٦ بنادي الترقي بالجزائر العاصمة .

(٢) ن. م. ص ٢٦ ــ ٢٩ .

(٣) وذلك في سنة ١٩٣٧ .

(٤) وجهة العالم الاسلامي لمالك بن نبي ط. القاهرة ١٩٥٩ الترجمة العربية ص ١٧٤ .

(٥) ن. م. ن. ص.

رأيه الى شخصية الشيخ عبد الحميد بن باديس العظيمة ، لانه استطاع أن يجعل اشعاعه ينفذ الى اعماق الضمير الشعبي ، هذا في بداية الأمر حيث كانت الحركة تنطوي على جذوة روحية ، وروح صوفية . ولكن ما لبثت ــ كما أشرنا من قبل ــ أن أضحت تكوّن متخصصين بارعين أكثر مما تعمل على تكوين دعاة مخلصين [١] !

ويقول بهذا الصدد : ان مخلفات انسان ما بعد الموحدين ، وما تنطوي عليه من أعباء وتقاليد من ذَرِّبةٍ في التفكير ، وتزمت ونزوع الى المدح ، والجدل والحرفية والتحليق في الخيال ، هذا كله يحتاج الى فكر ثوري كفكر جمال الدين يهدّم ويبني على أساس منهج مرسوم. ويرى أستاذنا مالك بن نبي أن الشيخ عبد الحميد بن باديس قد قام بتلك الثورة الفكرية على أحسن وجه ، وبدّد ما كان مخيماً على الجزائر من تقاليد ثقيلة تتمثل في تلك الطرق الجامدة المخدرة للشعب[٢] .

ومن الملاحظات الدقيقة التي سجلها على الحياة العلمية والفكرية في الجزائر أنها تعتبر بمثابة الزينة والترف ، ومن ثمّ فان الفكر لم يكن ايجابياً ذا فعالية وحركة[٣] وفكرة الفعالية من الأفكار الأساسية في فلسفة مالك بن نبي الاجتماعية . وهناك أمراض نفسية أصيبت بها النخبة في شمال افريقيا ، منها مرضان أساسيان وهما : اما النظر الى الأشياء على أساس أنها في غاية « السهولة » واما النظر اليها على أنها « مستحيلة » وكلا النظرتين تؤدي الى نتيجة خطيرة هي اما الشلل واما السلوك الأعمى[٤] .

---

(١) ن. م. ص ١٧٥

(٢) ن. م. ص ٥٩ .

(٣) ن. م. ص ٩٣ .

(٤) ن. م. ص ٩٤ .

لم يغفل المستشرق الانجليزي جيب في كتابه « الاتجاهات الحديثة في الاسلام » الحركة السلفية الاصلاحية في الجزائر فتحدث عنها ، وجعلها بمثابة التابعة لمباديء أصحاب مجلة المنار العاملة على نشرها ، وعلى معارضة أصحاب الطرق ، ويقول بصفة خاصة : « وذهب الجزائريون الى أبعد مما ذهبت اليه جماعة المنار لأنهم بدأوا بالاضافة لدعايتهم المطبوعة والشفوية ، في احياء المدارس القرآنية « البدائية » في جميع أنحاء البلاد للتأثير على الجيل الصاعد ، وقد تكللت مساعيهم بالنجاح الكبير ، اذا أخذنا بعين الاعتبار الحواجز التي صادفوها في طريقهم [١] ولكن جيب يلاحظ بهذا الصدد أن « مستقبل الجمعية [٢] أصبح مظلماً بعد وفاة عبد الحميد بن باديس عام ١٩٤٠ » [٣] .

والعملية النقدية ضرورية في أية حركة تقوم على منهج ونظام ، يهدف الى تحقيق أهداف معينة ، والى تسجيل غايات في الواقع التاريخي، وهذا ما عمل أستاذنا لتنبيه الأذهان اليه ، لأنه اكتشف عيوباً منهجية في داخل الحركات الاسلامية الحديثة ، أدت في كثير من الاحيان الى الفشل . فرغم توفر الطاقات والامكانيات النفسية والعقلية ، الا انها تسطو عليها عملية التبديد ، لعدم وجود عنصر التوجيه والضبط الذي يتيح لها ويضمن بلوغ الغاية المرسومة .

وأغلب من يكتب عن تاريخ الحركات الاصلاحية أو عن تاريخنا الحديث لا يحاول أبداً أن يوجه نقداً وانما يسلك مسلكاً أقل ما يقال

---

(٣) هـ. أ. جيب ، الاتجاهات الحديثة في الاسلام بيروت ١٩٦١ ص ٦٤ من الترجمة العربية .

(٤) جمعية العلماء المسلمين التي تأسست ٥ ماي ١٩٣١ في نادي الترقي بعاصمة الجزائر واتفق المجتمعون على ان يتولى عبد الحميد بن باديس رئاستها وهو غائب عن ذلك الاجتماع .

(٥) ن. م. ص. ن. ص

فيه انه عاطفي ساذج وهذا ما يزيد في الطين بلة . واخفاء الداء يزيده تمكناً وانتشاراً دون شك .

لان جوهر التغيير الاجتماعي أو الاصلاح النفسي والخلقي ، يقوم على أساس النقد . والحركة الاصلاحية في الجزائر قامت على الصراع بين ظاهرتين : ظاهرة النقائص والعيوب التي تتمثل في الطرقية ، وظاهرة الفضائل والاستعداد النفسي لتقبل الحقيقة[1] ، وللتغير الذي يوجد في الشعب . ولا بد من وجود عامل من نوع عقلي تنظيمي ، يجعلُ احدى الظاهرتين تتغلب على الأُخرى ، وفعلاً فانه قام صراع بين مخطط الاستعمار الذي يهدف الى تغليب ظاهرة الخمود ، وبين المنظمات الاصلاحية التي تبذل جهدها للقضاء على هذه الظاهرة وايجاد نوع من الحركة الاجتماعية التي تهدم الفاسد وتنمي الصالح ، وهكذا يقوم في داخل المجتمع نوع من الجدل بين السكون والحركة ، ولكن المهم في المشكلة هو أنه اذا وجدت الحركة فكيف نعمل على ضمان استمرارها من ناحية وما هي الشروط اللازم توفرها لتصيب الهدف من جهة أخرى؟

— ٤ —

ان المحاولات التي سبقت الشيخ ابن باديس كلها جزئية فردية غير شاملة للوطن كله كما أشرنا من قبل ، وتاريخ الثورات في الجزائر كان على هذا النحو حتى جاءت ثورة نوفمبر ١٩٥٤ فعمت ، والثورة الفكرية انما حاولت أن تكتسب الصبغة العامة في عهد ابن باديس ، ففترته فترة ذهبية خصبة من فترات الصراع الفكري ، والعمل على تغيير المجتمع في تاريخ الجزائر المعاصر ، فابن باديس هو الذي ادخل الجزائر في حركة النهضة الاسلامية العــامة .

(١) هذه الفكرة سجلتها في الندوة التي يعقدها الاستاذ في محله مساء السبت من كل أسبوع بتاريخ ١٩٦٦/٣/١٢ بالجزائر .

ابن باديس

ألقينا بعض الأضواء على العناصر الأساسية للحياة العقلية والاجتماعية في الفترة السابقة لعهد ابن باديس وأشرنا اليها أيضاً في عهده ، ومن ثم فان تلك اللحظات التاريخية كانت تنتظر شخصية كشخصية ابن باديس تقوم بدور ثوري ، يعبر عما يختلج في النفوس من قلق وأمل ، ويضيء الطريق أمام الحائرين ، ويجمع الشتات ، ويوجه الطاقات ، ويحيي الشخصية الاسلامية التي أتاها البلاء من كل مكان ، وأصابها القرح ، وتكالبت عليها ذئاب الغرب ، وهكذا جاءت الأيام بالمولود الجديد ، منقذ الأمة وقائدها لصنع مصيرها ، وخلق تاريخها .

ترجمته :

ولد عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس في سنة ١٣٠٨ هـ (ديسمبر ١٨٨٩)[١] فكان الولد البكر لأبويه ، وأسرته أسرة قسنطينية مشهورة بالعلم والثراء والجاه ، وكانت منذ القدم ذات نفوذ ، ومسيرة للسياسة والحكم في المغرب الاسلامي ، ونبغ من هذه الأسرة شخصيات تاريخية لامعة منها بلكين بن زيري والمعز بن باديس [٢] الذي كان يفتخر به الشيخ عبد الحميد ولا عجب في ذلك فهو بمثابة خليفة له في مقاومة البدع والضلال اذ كان جده يناضل الاسماعيلية الباطنية ، وبدع الشيعة في افريقية ، ومن أسلافه المتأخرين

(١) ورد في الاعلام للزركلي ج ٤ ص ٦٠ انه ولد في سنة ١٣٠٥ - ١٨٨٧ وهو غير صحيح وهذا نفسه ورد في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ج ٥ ص ١٠٥ .

(٢) لقبه المعز لدين الله بابي الفتوح ، وسيف العزيز بالله وسماه يوسف توفي في ٢١ ذي الحجة سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٤ م) وكانت ولايته من سنة ٣٦٢ - ٣٧٣ هـ (٩٧٢ - ٩٨٤) .

قاضي قسنطينة الشهير أبو العباس احميده بن باديس ومكي بن باديس القاضي بها أيضاً .

وأمه من أسرة مشهورة في قسنطينة كذلك هي أسرة « عبد الجليل » تدعى « زهيرة » بن جلول (لقب) بنت علي بن جلول . وأبوه عضو في المجلس الجزائري الأعلى والمجلس العام[1] كما هو عضو في المجلس



منزل الشيخ عبدالحميد بن باديس ، ويقع في زنقة جورج كنستن رقم ٨ ، بنهج السادس والعشرين دولينيو ــ قسنطينة

(١) ٤٠٦ ــ ٤٥٣ أو ٤٥٤ هـ واستقبل بالامر سنة ٤١٧ هـ .

العمالي . وعرف دائماً بدفاعه عن مطالب السكان المسلمين بالعمـالة القسنطينة[1] وأسرته كانت تنتمي الى الطريقة القادرية .

حفظ ابن باديس القرآن على الشيخ محمد المداسي ، وأتم حفظه في السنة الثالثة عشرة من عمره ، ومن شدة اعجاب المؤدب بذكائه وسيرته الطيبة قدّمه ليصلّي بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير[2] وفي سنة ١٩٠٣ دخل الشاب في طور جديد من أطوار دراسته فخيره والده بين أن يسلك طريق أجداده أو طريقاً آخر ، فاختار طريق سلفه وهو طريق العلم والجهاد فانتخب له أبوه أحد الشيوخ الصالحين من ذوي المعارف الاسلامية والعربية وهو الشيخ أحمد ابو حمدان لونيسي الذي كان منتمياً الى الطريقة التيجانية سالكاً منهجها فأخذ يعلمه بجامع سيدي محمد النجار [3] مبادىء العربية والمعارف الاسلامية ويوجهه وجهة علمية أخلاقية . وكان ابن باديس يعترف له بالفضل ، وبما كان له من تأثير في نفسه ، ثم هاجر حمدان لونيسي الى المدينة المنورة متبرماً من الاستعمار الفرنسي ، وسلطته ، مجاوراً ، بها ، مدرساً للحديث الى أن توفاه الله . وحين عزم على الهجرة تعلل لدى السلطات الاستعمارية بأنه يسافر لمعالجة بصره ، ورغب ابن باديس أن يسافر معه ولكن أباه منعه وصرفه عن ذلك .

وحين بلغ الخامسة عشـر من عمره (١٩٠٤) زوّجـه والده وانجب ولـداً اسماه عبـده اسماعيل توفي وعمـره سبعة عشـر

---

(١) Conseil supérieur de l'Algérie et Conseil général, voir La Naissance du Nationalisme Algérien,, Par André Nouchi, P. 64.

(٢) ن. م. ن. ص .
مجلة افريقيـا الشمالية (نشأة ابن باديس لمحمـد الصالح رمضان العدد ٤ السـنة الاولى ماي ١٩٤٩ ص ٤٣) .

(٣) واقع بجنب جامع سيدي عبد المؤمن بقسطنطينة .

عاماً (1) وهـذا الاسم له دلالـة ، لأن هـذا الابن ولـد تقريباً في السنة التي توفي فيهـا محمد عبده ، أو في التي بعـدها ، والشيخ محمد عبده زار الجزائر العاصمة ومدينة قسنطينة سنة ١٩٠٣ وعمر ابن باديس أربعة عشر عاماً فمن الممكن أن يكون قد اتصل به أو سمع عنه ، ولا سيما اذا أخذنا في الاعتبار تردد ابن باديس الشاب على الجـامع الكبير ، وامامته بالناس في صلاة التراويح ، وهو المسجد الذي زاره محمد عبده في قسنطينة .

ثم جاء دور الرحلة في حياة الشاب فسافر الى مدينة تونس في سنة ١٩٠٨ وسنه اذ ذاك تسعة عشر عاماً وانتسب الى جامع الزيتونة ، وعرف في دراسته بالجد والنشاط ، فأخذ يتلقى الثقافة الاسلامية العربية ، ويأخذ عن جماعة من أكابر علماء الزيتونة أمثال العلامة المفكر الصدر محمد النخلي القيرواني المتوفى في رجب سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م) وكان قد قرظ الرسالة التي ألفها عبد الحميد بن باديس في الرد على بن عليوة الصوفي(2) والشيخ محمد الطاهر بن عاشور(3) الذي كان له تأثير

---

(١) مدفون بجوار ابيه توفي في ١٥ رمضان ١٣٣٧ هـ كما هو مكتوب على قبره .

(٢) اسم الرسالة : جواب سؤال عن سوء مقال اتم تاليفها في ٢٧ ذي الحجة عام ١٣٤٠ بها ٢٠ ص طبعت بالمطبعة الاسلامية الجزائرية بقسنطينة دون تاريخ . تقريـظ النخلي يوجد في ص ٢١ وهو أول تقريظ ورد اليه مؤرخ بـ ٥ صفر سنة ١٣٣٤ هـ .

(٣) ولد بتونس سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩) تولى منصب قاضي القضاة سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣١ م) ومشيخة الجامع الاعظم فرفع من شأن الجامعة الزيتونية واقام بها نهضة علمية استفادت منها كثير من البلدان الافريقية وهو عضو بمجمع اللغة العربية بالقاهرة وبالمجمع العلمي بدمشق انظر كتابه : أصول النظام الاجتماعي في الاسلام المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية سنة ١٩٦٤ طي الغلاف الداخلي له كثير من المؤلفات والدراسات العربية والاسلامية .

كبير في تكوين عبد الحميد بن باديس اللغوي وفي الشغف بالأدب العربي والاعتزاز به .

وقرظ بدوره رسالته المذكورة[1] ومن أساتذته الشيخ الخضر بن الحسين الجزائري الأصل[2] الذي درس بجامع الزيتونة وحضر عليه عبد الحميد دروساً في المنطق من كتاب « التهذيب » للسعد بجامع الزيتونة ، كما أخذ عنه دروساً في التفسير في أوائل كتاب البيضاوي بدار الاستاذ : شارع باب منارة تونس[3] ومنهم أبو محمد بلحسن ابن الشيخ المفتي محمد النجار الـذي تولى الافتاء سنة ١٣٤٢ هـ [4] وهو من بين الذين قرظوا رسالته أيضاً ، ومنهم محمد الصادق النيفر وسعد العياض السطايفي المصلح المجدد ، ومحمد بن القاضي ، والبشير صفر المؤرخ المجدد ، وغيرهم كثير . وتخرج بشهادة التطويع في سنة ١٩١١ ــ ١٩١٢ وعمره ثلاث وعشرون سنة وعلم سنة واحدة في جامع الزيتونة على عادة المتخرجين في ذلك الوقت . ولا شك فان البيئة الثقافية والاجتماعية التي احتك بها ، والعلاقات التي كانت له مع بعض العلماء أثّرت في تكوينه وشخصيته ، واتجاهه العقلي ، وأكثر ما كان اتصاله قوياً وعميقاً ومؤثراً انما كان بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، والشيخ محمد النخلي ، اللذين يعتبران زعيمي النهضـة الفكرية والعلميـة والاصلاحية في الحاضرة التونسية لانهما كانا من أنصار أفكار جمال الدين ومحمد عبده الاصلاحية ، ويذكر لنا الشيخ عبد الحميد بن باديس ، أن الشيوخ الجامدين كانوا ينفرونه من الاتصال بهما ، وبقي

---

(١) انظر الرسالة ص ٢٣ وهي ضمن الجزء الثاني من هذا الكتاب في قسم « الاصلاح والثورة ضد البدع » .

(٢) أصله من طولقة جنوب الجزائر بعد مدينة بسكرة .

(٣) انظر مقال « أولو الامر » لعبد الحميد ج ٨ م ١٥ ص ٢ .

(٤) شجرة النور الزكية ص ٤٢٩ .

بعيداً عنهما تحت تأثير التقليد الى أن أتيحت فرصة الاتصال بمحمد الطاهر بن عاشور أولاً ، ثم مهّد له فتعرف على محمد النخلي وتأثر به ، وذلك في الفترة الأخيرة من دراسته العليا [1] .

عوامل تكون شخصيته :

مما تقدم تبين لنا العناصر الأساسية التي أدت الى تكوين شخصية عبد الحميد بن باديس وقد أكد لنا في كلمة قالها بمناسبة ختمه القرآن[2] هذه العوامل :

العامل الأول في تكوينه من الناحية العملية والعلمية وتوجيهه ذاك التوجيه يعود الى أسرته ، وخصوصاً أباه الذي رباه ووجهه وجهة أخلاقية وعلمية وحماه من المكاره صغيراً وكبيراً على حدّ تعبيره ، وكان أبوه من ذوي الفضل والخلق الاسلامي ومن حملة القرآن الكريم ولا يخفى ما لتأثير الأسرة في شخصية الطفل من أهمية بالغة .

والعامل الثاني يرجع الى بيئة الدراسة وتأثير المربين من المعلمين والشيوخ الذين نمّوا استعداده وتعهدوه بالتوجيه والتكوين ، وابن باديس يطيب له أن يذكر لنا فضل أساتذته عليه ، في تخطيط مناهج العمل في الحياة قال : « وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية ... حمدان لونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها ، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله [3] .

---

(١) اتصل بالشيخ الطاهر بن عاشور مدة ثلاث سنوات وبالشيخ محمد النخلي مدة سنتين دراسة عليهما .

(٢) يجدها القارىء في آخر تفسيره بهذا الكتاب ج ١ .

(٣) ج ٤ م ١٤ ص ٢٨٨ ـ ٢٩١ غرة جمادى الاولى ـ وربيع الثاني ١٣٥٧ هـ جوان ـ جويلية ١٩٣٨ والنص قد أشرنا الى موضع وجوده آنفاً في هذا السفر .

وله مع كل من هذين المربيين واقعة هي التي جعلته يتجه اتجاهاً معيناً سواء من الناحية العملية أو النظرية وهذا حديثه عن تينك الواقعتين قال :

« واني لأذكر للأول (حمدان لونيسي) وصية أوصاني بها ، وعهداً عهد به الي" • وأذكر أثر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله ، فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنّة لا يقوم بها الشكر ، فقد أوصاني وشدد علي" أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ، ولا أتخذ علمي مطية لها ، كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت • وأذكر للثاني (محمد النخلي) كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية ، وذلك أني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وادخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن ، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي : « اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة ، وهذه الاقـوال المختلفة ، وهذه الآراء المضطربة ، يسقط الساقط ويبقى الصحيح ، وتستريح •• فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها »[1] فهذا النص في غاية الأهمية من حيث دلالته على مدى تأثره في تكوينه بهذين الأستاذين ، ومن الأساتذة الذين أثروا فيه وكو"نوا جانباً من أهم جوانبه ، وهو جانب الأدب وتذوق الآثار الفنية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور زميل الأستاذ النخلي في نسبتهما الى البدعة والضلال اللذين كانا يوصفان بهما لأنهما يناضلان عن آراء محمد عبده وينشرانها في صفوف طلابهم ، يقول ابن باديس « وان أنس فلا أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور

(١) ن٠م ٠

وكانت أول ما قرأت عليه فقد حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب وبثت فيّ روحاً جديداً في فهم المنظوم والمنثور ، وأحيت مني الشعور بعزّ العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالاسلام » [1] .

ولم ينس الشيخ عبد الحميد رحمه الله أن يبين لنا عاملاً آخر من أهم العوامل وهو الشعب الجزائري ، وما ينطوي عليه من أصول الكمال ، واستعدادات عظيمة للخير ، وهو ما عمل على تنميته والنضال من أجل تغليبه على جوانب النقص وعوامل السكون ، كما سبق أن لوحنا الى ذلك . ويصف الأمة الجزائرية بأنها أمة معوانة على الخير منطوية على استعدادات الكمال وأنها ذات نسب عريق في المحامد والفضائل[2] ثم يبين عاملاً آخر وهم زملاؤه من العلماء الافاضل الذين ساعدوه منذ فجر النهضة وشدوا ساعده فورى بهم زناده ، وسطع نجمه أمثال الشهيد الشيخ العربي التبسي[3] والشيخ البشير الابراهيمي[4] والشيخ العقبي في أول أمره والشيخ مبارك الميلي وغيرهم .

والعامل الأخير الذي يفوق جميع العوامل الأخرى والذي كرّس له ربع قرن من حياته ، هو القرآن الكريم الذي صاغ نفسه ، وهزّ كيانه ، واستولى على قلبه فاستوحاه في منهجه طوال حياته ، وترسم خطاه في دعوته ، وناجاه ليله ونهاره يستلهمه ويسترشده ، ويتأمله فيعبّ منه ويستمدّ علاج أمراض القلوب ، وأدواء النفوس ، ويذيب نفسه ،

---

(١) البصائر السنة الاولى العدد ١٦ الجزائر الجمعة ٢ صفر ١٣٥٥ _ ٢٤ افريل ١٩٣٦ .

(٢) ن. م.

(٣) اختطفه المستعمرون الفرنسيون في مارس ١٩٥٧ أثناء الثورة وغاب عن الوجود من ذلك التاريخ رحمه الله .

(٤) توفي في ١٩ ماي ١٩٦٥ م .

ويبيد جسمه الهزيل في سبيل ارجاع الامة الجزائرية الى الحقيقة القرآنية ومنبع الهداية الاخلاقيـة والنهوض الحضاري . وكان همه ان يكوّن رجالاً قرآنيين يوجهون التاريخ ويغيرون الأمة ، ولذلك فانه جعل القرآن قاعدة أساسية ترتكز عليها تربيته وتعليمه للجيل قال : « فاننا – والحمد لله – نربّي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ، ونوجّه نفوسهم الى القرآن في كل يوم ... »[1] .

ولما رجع الشيخ من تونس عاد شعلة من الحماسة وشهاباً وارياً من الدين ، فقصد الجامع الكبير وأخذ في القاء الدروس وابتدأ بتدريس كتاب الشفاء للقاضي عياض ، ولكن المكائد حيكت له ، فعمل أعداؤه على اقلاقه ومنعه واطفأوا عليه الضوء وهو في الدرس فقرر السفر للحج الى بيت الله الحرام وللقاء شيخه حمدان لونيسي ، فاستأذن أباه وسافر وأتيح له أن يتصل في رحلته هذه بأطراف من العالم الاسلامي في المشرق وبجماعة من المفكرين والعلماء من مختلف أنحاء العالم الاسلامي . ومن الأعمال التي سجلها في الاراضي المقدسة أنه قام بالقاء درس في الحرم النبوي على مشهد كثير من المسلمين وبحضور شيخه حمدان لونيسي ، وعند رجوعه من مهبط الوحي ، سلم له حمدان لونيسي رسالة الى الشيخ بخيت[2] العالم الأزهري المصري زميل الشيخ محمد عبده والمدافع عنه ، فاتصل به في منزله بحلوان ، ولما بين له أنه مرسل من طرف أستاذه قال له معظماً اياه : « ذاك رجل عظيم ! » وحينما توفي ترجم له

---

(١) ن. م.

(٢) ولد بقرية المطايعة بمحافظة أسيوط بعد أن حفظ القرآن أرسل الى الأزهر سنة ١٢٨٢ هـ فدرس الفقه الحنفي والفلسفة على الشيخ حسن الطويل وعلى جمال الدين الافغاني ، نال شهادة العالمية سنة ١٢٩٢ وتقلب في مناصب كثيرة الى أن عين مفتياً للديار المصرية في ٣١ دسمبر ١٩١٤ له مكتبة عظيمة (٨٠٠٠ مجلد) توفي في سنة ١٩٣٥ .

عبد الحميد بن باديس في مجلة الشهاب[1] وكان قد أجازه . ومرّ كذلك على الشام (دمشق ولبنان) وهكذا فان ابن باديس أتم دراسته بالرحلة في البلاد الاسلامية ومحادثة العلماء وهو ما يعتبر من شروط العالم المتمكن من التقاليد العلمية ، والمناهج التربوية الاسلامية ، وبالطبع فان هذه الرحلة أطلعته على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية ، وفيها خبر أحوال الناس مما وسع أفقه وبصّره بطريق الخلاص والثورة الفكرية التي تعتمد على التربية في تكوين القادة من النخبة أو الصفوة المبدعة .

ولما نزل قسنطينة سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٣) شرع في العمل التربوي[2] وأخذ يعلم صغار الصبيان الذين يقرأون القرآن في الكتاتيب وخصوصاً كتاب سيدي فتح الله .

وحوالي سنة ١٩٢٢ م تبلورت في الأوساط الاصلاحية فكرتان تختلفان في المنهج ، وتتفقان في الهدف ، الفكرة الأولى ترى أن السبيل هو توجيه الطاقات والجهود نحو ناحية التربية والتعليم وتكوين نخبة من الدعاة مدربة على مناهج الدعوة ، مسلحة بالعلم والمعرفة ، مطلعة على أصول الدين وعقائده ، وكان من أصحاب هذه الفكرة في ذلك الوقت الشيخ البشير الابراهيمي [3] وكان الرأي الثاني يقوم على أساس

---

(١) ش : ج ١١ م ١١ ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧ غرة ذي القعدة ١٣٥٤ هـ ـ فيفري ١٩٣٦ م .

(٢) قمت بمحاضرة عالجت فيها عمله التربوي بقاعة المحاضرات الجامعية في ١٦ افريل ١٩٦٦ بالجزائر .

(٣) مقال للشيخ البشير الابراهيمي في « سجل مؤتمر جمعية العلماء قسنطينة (١٩٣٥) ص ٤٣ رجع الابراهيمي الى الجزائر من الحجاز حوالي ١٩٢٠ بعد ما مكث فيه سنوات فدرس في المدينة المنورة على الشيخ حسين أحمد الفيض آبادي الهندي صحيح مسلم ودرس

ثوري عنيف يزلزل سلطان البدع المستحكمة ، ويهدم العادات المتمكنة ، وهذا الرأي يمثله الشيخ عبد الحميد بن باديس ونخبة من الشبان وهكذا رجح الرأي الثاني ودخل في مرحلة التطبيق العملي ، فأسس عبد الحميد جريدة « المنتقد » التي يبين اسمها عن معنى النقد الذي كانت تخشاه أرباب الطرقية وتقاومه في مناهج تربيتها للمريدين وللجمهور بتلك العبارة المعروفة « اعتقد ولا تنتقد » وأول مقال في الصفحة الأولى عنوانه : خطتنا : مبادئنا وغايتنا وشعارنا « افتتح بهذه العبارة » : « باسم الله ثم باسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التي تتحملها فيه مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن اليها ساعون ، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون ... » (١) .

ثم تأتي ثلاثة عناوين أخرى :

١ ـــ مبدؤنا السياسي .

٢ ـــ مبدؤنا التهذيبي .

٣ ـــ مبدؤنا الانتقـــادي .

ومما جاء في مبدأ النقد أنه لا يتعرض للأشخاص ، فيما يختص بأحوالهم الشخصية وانما يتوجه الى سلوكهم ، الذي يمس شؤون الأمة وعدّد مَن يتعرض للنقد ، وبين أصنافه من الطبقات الاجتماعية فقال : « فننقد الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء والمقاديم وكل من

على الشيخ الوزير التونسي كتاب الموطأ للامام مالك كما درس في مصر لمدة ثلاثة أشهر وجالس العلماء والأدباء والشعراء أمثال الشيخ محمد بخيت المطيعي والشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ سليم البشري وحافظ ابراهيم وأحمد شوقي ... انظر مقال « محمد البشير الابراهيمي في ذمة الله » في المجلة : سجل الثقافة الرفيعة ، السنة التاسعة العدد ١٠٦ اكتوبر ١٩٦٥ ص ٩٤ .

(١) المنتقد العدد الاول ص ١ .

يتولى شأناً عاماً من أكبر كبير الى أصغر صغير من الفرنسيين والوطنيين ، ونناهض المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين ، وننصر الضعيف والمظلوم بنشر شكواه ، والتنديد بظالمه كائناً من كان ، لأننا ننظر من الناس الى أعمالهم ، لا الى أقدارهم ، فاذا قمنا بالواجب فلأشخاصهم منّا كل احترام »[1] والتزم صاحب المقال بأن يكون النقد هادفاً الى الحقيقة المجردة ، صادقاً ، مخلصاً ، نزيهاً وبأن يكون الكلام الذي يؤديه نظيفاً .

وشعار هذه الجريدة شعار جريء خصوصاً في تلك الفترة العسيرة التي أبغض ما كان فيها للاستعمار الفرنسي كلمة « الحق » وكلمة « الوطن » وهما الكلمتان الأساسيتان في الشعار : « الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء » والحقيقة ان صدور مثل هذه الصحيفة في مثل تلك اللهجة الصريحة الصادقة العنيفة لتعتبر مغامرة في ذلك العهد القاسي المظلم . والطريف أنه مهّد لهذا الشعار بعبارة غير رسمية عنده وهي : « سعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية » وجاء بعدها مباشرة ما يلي : « صارخين دائماً بشعارنا الرسمي » ثم ذكر الشعار المتقدم فالعبارات دقيقة في هذا المقال دقة متناهية. ولما كان هذا العدد صادراً في وقت كانت فيه الثورة الريفية التي قام بها الامير عبد الكريم الخطابي على قدم وساق فاننا وجدنا كلمة في الصفحة الثانية تحت عنوان : « الحرب الريفية » ومما جاء فيها : « وهو (عبد الكريم) في الحقيقة صاحب الحق الشرعي ، في أرض الريف »[2] ، وكتب الشيخ محمد النجار الحركاتي مقالاً في الصفحة الثانية تحت عنوان « حسن التعليم على أساس كل تقدم»[3] كما نقل فيه مقالاً لمنصور فهمي المصري

---

(١) ن. م. ن. ص.

(٢) ن. م. ص ٢ ع ٢ .

(٣) ن. م. ن. ص. ع. ع .

عنوانه « الكرامة »[1] وبه قصيدة بعنوان : « حديث الأدب وروضة الشعر ، من المنتقد الى الشعب المقدس » مطلعها :

أتيتك بالبشرى تهيا لاقبـــال وكبر على التشريق تكبير اجلال

بامضاء : « شاعر المنتقد »[2] ويحمل هذا العدد اعلاناً بانشاء مطبعة جزائرية اسلامية للشعب الجزائري وأن المؤسس لها نخبة من الشبيبة الجزائرية لنشر العلم والعربية وفن الطباعة بين أبناء الوطن [3] ولكن « المنتقد » لسان الفكر الثوري المعبر عن ارادة التغيير ، لم يلبث أن توقف [4] ومنعته الحكومة الفرنسية . ومن الاتفاقات الغريبة أنه صودر بعد ثمانية عشر عدداً منه كما وقع ذلك للعروة الوثقى التي صودرت بعد صدور ثمانية عشر عدداً أيضاً . والواقع أن الجريدتين تتشابهان في اللهجة الثورية ، وتوجيه النقد للأوضاع الاجتماعيـــة والسياسية ويصدران عن روح واحدة وارداة قوية ، وحماسة يقظة تؤدي رسالة اليقظة والوعي ، ولا نستطيع أن نقارن بينهما مقـــارنة كاملة لأننا لا نملك جميع أعداد « المنتقد » ولم نطلع الا على بعضها . ولم تتوقف الحركة باستشهاد « المنتقد » بل استمرت وأصدر الشيخ جريدة « الشهاب » التي تعتبر خلفاً له ، وجاء في العدد الواحـــد والثلاثين[5] مقال للشيخ الشهيد العربي التبسي عنوانـــه : « أزفت

---

(١) ن. م. ص٣ ع ١ و ٢ و ٣ .

(٢) وهو الشاعر العربي الاصيل الهادي السنوسي الزاهري نظمها بطلب من الشيخ عبد الحميد يبين فيها برنامج المنتقد ومنهجه .

(٣) ن. م. ص ٤ ومديرها ابن القشي خليل بن محمد وشعـــارها النظام والاتقان .

(٤) يبدو انه توقف في شهر نوفمبر ١٩٢٥ .

(٥) بتاريخ الخميس ٦ ذي القعدة ١٣٤٤ هـ ــ ١٧ جوان ١٩٢٦ م .

ساعة الجماعة وتصرم عصر الفرد » وذُكِر فيه أنه آخر الأعداد للسنة الأولى منه وأنه « والمنتقد » (صنوان أنشئا على مبدأ واحد ، ولغاية واحدة ، قضت طوارق الزمن على أحدهما فخلفه الآخر)[1] وفي العدد ٧٥ منه مقدمة للتفسير الذي كتبه المرحوم عمر راسم الصنهاجي يوم كان في السجن سنة ١٩١٦[2] وفي العدد ١٢٨ مسابقة في كتابة مقال في موضوع « كيف يكون اصلاحنا » ، دعا اليها الكاتب السيد شلابي عبد القادر من مدينة تلمسان وكانت الجائزة المخصصة للفائز مبلغ مائتي ألف فرنك (٢٠٠٠٠٠ ف) أو (٢٠٠٠ د) ونال الجائزة كاتب اسمه (ابن آدم) من أبناء حواء بلا شك ! ! [3] ونشر هذا المقال الذي نال الجائزة بالعدد الموالي[4] وبالعدد الأربعين مقال عن الوهابية[5] وفي العدد ١٦٤[6] مقال عنوانه : « الدعوة الاصلاحية هنا وهناك » يتحدث فيه صاحبه عن الدعوة الوهابية ونُقِل فيه أيضاً مقال عن مجلة المنار ، ورسالة عبد الوهاب النجدي الى عبد الله الصنعاني • وبصفة عامة فان « الشهاب » ومن قبله « المنتقد » يمثلان لسان الشباب الناهض بالوطن الجزائري واستمر « الشهاب » في صورة جريدة الى غاية رمضان ١٣٤٧هـ فيفري ١٩٢٩ م وفي هذه السنة تحول الى مجلة شهرية علمية تبحث في كل ما من شأنه أن « يرقي المسلم الجزائري » ومبدؤها في الاصلاح

---

(١) ص ٥ ع ٢ .

(٢) ص ٧ .

(٣) صدر العدد ١٢٨ في ٥ رجب ١٣٤٦ هـ ــ ٢٩ ديسمبر ١٩٢٧ م .

(٤) عدد ١٢٩ صدر في ١٢ رجب ١٣٤٦ هـ ــ ٥ جانفي ١٩٢٨ م .

(٥) صدر العدد ٤ الخميس ١٢ محرم ١٣٤٥ ــ ٢٢ جويلية ١٩٢٦ والمقال المذكور في ص ٢ ، ع ، ٣٢ .

(٦) صدر في ٦ ربيع الثاني ١٣٤٧ هـ ٢٠ سبتمبر ١٩٢٨ م

الديني والدنيوي هو : (لا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها) [1] و : (الحق والعدل والمؤاخاة في اعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات) وكتب هذا على غلاف المجلة ، كما كتب على أركانها الأربعة أربع كلمات : (الحرية ، العدالة ، الأخوة ، السلام) ، وكتب في أعلى الصفحة الأولى آيتان قرآنيتان هما :

« قُلْ هذِهِ سَبيلي أدْعو الى اللهِ عَلى بَصيرَةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَني وَسُبْحانَ اللهِ وَما أنا مِنَ المُشْرِكينْ »[2] وَ « ادْعُ الى سَبيلِ رَبِّك بِالحِكمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أحْسَن »[3] .

ورد في أول مقال له (تستطيع الظروف تكييفنا ولا تستطيع باذن الله اتلافنا) ونلاحظ أن هناك مبدأ من هذه المبادىء طرأ عليه تغيير وتطور بسبب المؤتمر الاسلامي الجزائري ، واليأس من وعود فرنسا والجبهة الشعبية بصفة خاصة وهو « الحق والعدل والمؤاخاة في اعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات » فأصبح مكانه شعار آخر يؤمن بأن الحقوق لا تعطى وانما تؤخذ غلاباً : « لنعول على أنفسنا ولنتكل على الله[4] وكان هذا التغيير في سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م[5] وصمدت المجلة تؤدي رسالتها مصدرة في الغالب بتفسير آيات من

---

(١) قول ينسب الى الامام مالك انظر كتابه الموطأ .

(٢) ١٢/١٠٨ يوسف .

(٣) ١٦/١٢٥ النحل . انظر مثلا ج ١١ م ٦ .

(٤) جاء في ج ٩ م ١٣ ص ٤٠٦ (فازاء هذا رأينا ان من الواجب علينا ان نعلن لشعبنا أن لا نعتمد الا على انفسنا ونتكل على الله) .

(٥) انظر ج ٨ م ١٣ .

القرآن الكريم ، وبشرح بعض الأحاديث الى آخر عدد منها الصادر في شعبان ١٣٥٨ هـ سبتمبر ١٩٣٩ م [١] .

وخلال هذه المدة التي كانت تصدر فيها مجلة « الشهاب » كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين [٢] تقوم بنشاط صحفي، يتمثل في جرائد أسبوعية فتأسست صحيفة : « السنة » في يوم الاثنين ٨ ذي الحجة ١٣٥١ هـ (١٩٣٣ م) ثم منعتها الحكومة الفرنسية ، وآخر عدد منها صدر في ١٠ ربيع الأول ١٣٥٢ هـ — ٣ جويلية ١٩٣٣ م فخلفتها جريدة « الشريعة » بتاريخ ٢٤ ربيع الاول ١٣٥٢ هـ — ١٧ جويلية ١٩٣٣ م ولم تلبث أن صودرت وصدر آخر عدد منها في ٧ جمادى الاولى ١٣٥٢هـ — ٢٨ أوت ١٩٣٣ م وخلفتها صحيفة أخرى سميت بـ : « الصراط » الصادرة بتاريخ يوم الاثنين ٢١ جمادى الاولى ١٣٥٢ هـ — ١١ سبتمبر ١٩٣٣ م فأصابها بعد مدة ما أصاب أخواتها من قبل ، فلقيت حتفها . وصدر العدد الأخير منها في ٢٢ رمضان ١٣٥٢ هـ — جانفي ١٩٣٤ م وبعد هذا أسست جمعية العلماء جريدة أخرى تسمى : « البصائر » وصدر أول أعدادها في يوم الجمعة ١ شوال ١٣٥٤ هـ — ٢٧ ديسمبر ١٩٣٥ م ثم انقطعت سلسلتها الأولى عند اقتراب الحرب العالمية الثانية وظهرت سلسة ثانية بتاريخ يوم الجمعة ٧ رمضان ١٣٦٦ هـ — ٢٥ جويلية ١٩٤٧ م [٣] واستمرت الى أن توقفت أثناء الثورة الكبرى ثورة أول

---

(١) لم نعثر منه الا على الملزمة الاولى أثناء زيارتنا لقسنطينة سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م ويبدو انه لم يطبع من العدد الأخير الا ملزمة واحدة ولم تكن مجلة الشهاب تابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

(٢) تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ٥ ماي ١٩٣٢ برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس .

(٣) بالعدد الاول مقال للاستاذ الابراهيمي عنوانه « استهلال » وقصيدة للشيخ أحمد بن سحنون بعنوان : « البصائر تتكلم » مطلعه :

نوفمبر سنة ١٩٥٤ م وذلك في ٦ افريل سنة ١٩٥٦ م • ومن هنا تتبين لنا حقيقة من الضروري أن نصرح بها وهي أن الشيخ عبد الحميد بن باديس يجمع بين النهضة الثقافية الاجتماعية ، وبين النهضة السياسية ، بين التربية الاسلامية وبين الصحافة ، ومما يؤكد لنا هذه الحقيقة أنه صرح في محاضرة ألقاها في تونس في ذكرى البشير صفر فقال : « لا بدّ لنا من الجمع بين السياسة والعلم ، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض الا اذا نهضت السياسة بحق » [١] •

فاتخذ النشاط الصحفي وسيلة للسياسة وللتهذيب ، كما اتخذ المؤسسات التربوية للتعليم والتربية ، وتكوين القادة ، وبث الوعي ، والواقع اننا لا نستطيع أن نفصل بين نشاطه العلمي والسياسي فهما متداخلان متكاملان في نظره وعمله •

وفكرة المؤتمر الاسلامي الجزائري هو الذي دعا اليها واقترحها وبثها على صفحات جريدة « الدفاع » La Défense التي كان يصدرها الأمين العمودي باللغة الفرنسية[٢] وفي أوائل سنة ١٩٤٠ م قبل وفاته كان قد صرح في اجتماع خاص مقسماً فقال : (والله لو وجدت عشرة

طال صمتي تحت أعباء ثقال   وعوادٍ اخرست كلَّ مقال

ويلاحظ انه حذفت الآية التي كانت في السلسلة الاولى شعاراً لها وهي : (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما انا عليكم بحفيظ) ٦/١٠٤ (الانعام) وحذفها كان في أواخر السلسلة الاولى .

(١) انظر البصائر ع ٧١ من السنة الثانية من السلسلة الاولى الصادر في ٩ ربيع الثاني ١٣٥٦ هـ ـ ١٨ جوان ١٩٣٧ م ص ٤ .

(٢) جريدة الدفاع La Défense العدد الثاني جانفي ١٩٣٦ انظر مقال (مع عبد الحميد بن باديس في ذكراه للاستاذ حمزة بوكوشة في مجلة المعرفة التي تصدرها وزارة الاوقاف الجزائرية العدد ١٠ ذو الحجة ١٣٨٣ افريل ١٩٦٤ ص ١٨ ثم تغير اسم هذه المجلة واصبحت تسمى « القبس » صدر العدد الاول منها في ذي القعدة ١٣٨٥ و مارس ١٩٦٦ م

من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على اعلان الثورة لأعلنتها)[1] وكان يرمي من وراء ثورته وعمله الى تحقيق الاستقلال فبمناسبة رجوع رئيس حزب الشعب « مصالي » من باريس واعلانه طلب الاستقلال التام سنة ١٩٣٦ م كان جماعة من أنصار حركته جالسين معه فقال : (وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف ، وما غايتنا من عملنا الا تحقيق الاستقلال)[2] وحينما حمي وطيس الحرب العالمية الثانية اجتمع به جماعة من أنصار حركته ومريديه فقال : « عاهدوني » • فلما أعطي له العهد بالمصافحة قال : « اني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها ايطاليا الحرب »[3] وروى تلميذ آخر من تلامذته أنه كان يريد الخروج على فرنسا الى جبال أوراس ليعلنها ثورة على فرنسا لو وجد رجالاً يساعدونه[4] وأكثر من ذلك فانه أعلن رأيه في الاستقلال وتنبأ به في ردّه على أحد « الزعماء » الذين تنكروا لوجود الأمة الجزائرية والوطن الجزائري وتاريخه ، واختاروا لأنفسهم الوطنية الفرنسية واتحدوا مع الوجود الفرنسي ، ولم يتحرّج ولم يخش الحديث عن الاستقلال فقال : « ان الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا ، وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم ، والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ، ويقولون ان حالة الجزائر

(١) في سهرة في بيته بمبنى جمعية التربية والتعليم الاسلامية بحضور الاستاذ علي مرحوم وعبد الحفيظ جنان .

(٢) روى هذه الكلمة الاستاذ المعاصر للحركة : علي مرحوم .

(٣) اجتمع به الاستاذ محمد الصادق الجندلي امام ووكيل ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر والشيخ حمزة بوكوشة انظر مقال الاخير في المعرفة المصدر السابق ذكره .

(٤) قال ذلك في محاضرة بمناسبة ذكرى الشيخ عبد الحميد بن باديس (٢٥) بقاعة ابن خلدون سنة ١٣٨٥ ــ ١٩٦٥ م والمحاضر هو الشيخ أحمد حماني .

الحاضرة ستدوم الى الأبد ، فكلما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أنها تزداد تقلباً مع التاريخ ، وليس من العسير بل انه من الممكن ، أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي ، وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة والفرنسية خاصة ... وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعاً ، تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحرّ على الحر »[1] .

والواقع ان هذا المقال الذي عنوانه : « حول كلمتنا الصريحة » بمثابة التراجع عن موقفه ازاء من أنكر الكيان الوطني ، والوجود الذاتي للشعب الجزائري ، في مقال له عنوانه : « كلمة صريحة » وهذه غلطة تاريخية سياسية تعود لأسباب نفسية وشخصية معينة ، ولتأثير الشيطان السياسي الذي يستغل طيبة الرجل وأخلاقه ، وتسامحه ، لأن المؤتمر قد قرب ، وحكم الأمة سيصدر ، وشهادة الشعب ستؤدى ولكن تمخضت الأيام بمؤتمر خيب الظن ، وأفسد المسعى ، وتنازل عن رئاسته من أجمعت عليه الأمة ، وألح عليه المؤتمرون فكان ما كان ، وهذه تضاف الى تلك والمعصوم من عصم الله .

— ٥ —

جوانب شخصية ابن باديس

ان شخصية الأستاذ عبد الحميد غنيَّة ومعبرة عن أزمة المجتمع الاسلامي لا تماثلها الا شخصية جمال الدين الأفغاني في ثرائها ، وشمولها ، وجرأتها ، وتعبيرها عن جميع جوانب المشكلات الاجتماعية ، والأخلاقية ، والدينية ، والعلمية ، والسياسية التي يتخبط فيها العالم

(١) ش : ج ٣ ، م ١٢ ص ١٤٥ — ١٤٦ ربيع الاول ١٣٥٥ هـ — جوان ١٩٣٦ .

الاسلامي . فعبد الحميد بن باديس مفسر للقرآن تفسيراً سلفياً يراعي فيه مقتضيات العصر معتمداً على بيان القرآن للقرآن ، وبيان السنة له ، وعلى أصول البيان العربي وسننه ، والنفاذ الى لغة العرب وآدابها ، وقوانين النفس البشرية وسنن المجتمع الانساني ، وتطور التاريخ والأمم وهو محدِّث من الطراز العالي لا يستشهد الا بالأحاديث الصحيحة المسندة الى الصحاح الست ، الى البخاري أو مسلم أو الموطأ الذي اهتم به واعتبر منهجه في الاستدلال خير المناهج ، فدرسه وختمه كما ختم القرآن في ربع قرن . والظاهرة الواضحة في الحياة العلمية التي نهض بها هي : الناحية النقدية المنهجية التي تردّ الفروع لأصولها ، والأصول لمستنداتها ، فأذهب ذلك الجوّ القاتم الساكن المستسلم الذي يسمع فيه الطالب ويسلّم معتقداً أن « سلّم تسلم » وأن « سلّم للرجال على كل حال » مبدأ لا ينبغي تحديه ، ولا تجاوزه ، وهو ما كان سائداً قبل حركته . وهو كاتب ذو سلاسة وعذوبة وسهولة ، وأسلوبه أسلوب سهل ممتنع لا يستعمل السجع ، ولا يتكلفه ، كيف لا ، وهو الدارس لكتاب الأمالي وديوان الحماسة ، وديوان المتنبي ، ومقدمة ابن خلدون، والعواصم من القواصم ، ودلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة ، ومن قَبل ذلك كله ، معجزة الأدب العربي ، وآية روعته : القرآن ، وجمال حديث صاحب جوامع الكلم ، وأفصح من نطق من بني يعرب ؟ وهو شاعر يفيض الشعر من قلبه ، وخطيب ينسيك سحبان وقس ، لا يتلعثم ولا يتردد ، يستولي على النفوس ويملك العقول . وهو فقيه مطلع على مدارك المذاهب ، وخاصة مذهب الامام مالك ، جامع بين الأصول والفروع ، وبين المآخذ الكلية وجزئيّاتها ، يفتي ويربط الحوادث بأحكامها ، وهو مصلح ديني واجتماعي يحارب التقليد والبدع ، ويدعو للنهضة والحضارة ، ويغرس الحب وأصول الاخلاق التي هي جوهر المدنية . يقول : « أنا زارع محبة ولكن على أساس من العدل والانصاف

والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ، ومن أي دين كان ، فاعملوا للأخوّة ولكن مع كل من يعمل للأخوّة ، فبذلك تكون الأخوّة صادقة »[1] . وهو صحفي قدير يقضي ليله في اعداد المقالات وقراءة الجرائد والمجلات العربية الآتية من جميع البلاد العربية والاسلامية ، والأجنبية المكتوبة باللغة الفرنسية [2] ويعلق عليها ويرد ، ويناقش ويكتب في أصول السياسة الاسلامية . وهو مؤرخ يحلل الحضارة ، وينقد مقدمة ابن خلدون ، ويدرس آيات القرآن وما تنطوي عليه من الدعوة الى النظر في تجارب الأمم وتطورات الأحداث ، وما تخضع له من سنن وقوانين لا تبديل لها ولا تحويل ، وهو صوفي زاهد لا كمتصوفة أهل زمانه وزهادهم ، متأثر بالغزالي ويسمى كتابه « احياء علوم الدين » بكتاب الفقه النفسي وبأبي بكر بن العربي الذي نبهه الى كتابه « العواصم من القواصم » شيخه اللامع محمد النخلي القيرواني فاستنسخه وحققه وطبعه . ويظهر تأثير أبي بكر بن العربي في كتابه « العقائد الاسلامية » الذي لم يسلك فيه مسلك الفلاسفة ولا منهج المتكلمين وانما نهج طريق القرآن في الاستدلال ، وأساليبه في الرد والحجاج ، ذلك المنهج الذي يتلاءم مع الفطرة الانسانية فتستجيب له وتطمئن اليه وتميل نحوه وتركن . يعتقد ان المدارك الانسانية التي تمتاز بقوة التحليل والتركيب هي التي تجعلها تتغلب على الطبيعة

---

(١) كلمات قالها في حفل اختتام تفسير القرآن للشباب الفني ولكشافة الرجاء ولجماعة التربية والتعليم الاسلامية في كلية الشعب بقسنطينة مساء الثلاثاء ١٣ ربيع الثاني ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م انظر ج ٧ م ١٥ ، ص ٣٤٦ .

(٢) كان يطالع الصحافة الفرنسية روى الاستاذ محمد الصالح رمضان انه كان يشتري جريدة لاديبيش دي قسطنطين وقيدت عنه هذا في محاضرة القاها في نادي اتحاد الطلبة الجزائريين احياء لذكراه بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٣٨٥ ــ ١٦ افريل ١٩٦٦ ومع ذلك فانه لا يتحدث بها .



قبره مع صورتي السيدين مرازقة وعمارالطالبي ،
وهو يقع في حي الشهداء في الروضة الخاصة
بأسرته ، قرب مقبرة قسنطينة

وتسخرها ، وأن الظواهر الاجتماعية تخضع لمبدأ الأسباب والمسببات ، وأنه لا ينبغي الوقوف عند مجرد المحسوسات ، قال : « وعلمّنا (الله) ألا ننظر الى ظواهر الأمور دون بواطنها ، والى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية ، بل نعبر من الظواهر الى البواطن وننظر من المحسوس الى المعقول ، ونجعل من حواسنا خادمة لعقولنا ، ونجعل

عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير [1] والجمع بين المشاهدة والعقل هو المنهج العلمي التجريبي الذي قامت عليه الحضارة الحديثة .

انه شخصية عجيبة ، مجدد للنفوس البالية وباعث للضمائر الخامدة ، والقلوب الهامدة ، باث للعلم ، محرك للعقول ، مرجع الثقة للناس ، زارع بذور الثورة ، مشيع فكرة الحرية ، مبين المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها ، فانكشفت به الغياهب الدكناء وانجابت الغيوم الكثيفة ، والضباب العاتم من سماء الجزائر . واستمر يواصل النضال العلمي والاجتماعي والسياسي يعلم ، ويرشد ويعظ ويحرر ويتنقل ويتعبد ويتأمل ويحقّق ، لا يهدأ له بال لا بالليل ولا بالنهار ، لم يشفق على



منظر لروضة أسرة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وهي واقعة في حي الشهداء (قسنطينة)

(١) انظر تفسير آية ٢٥/٧ (الفرقان) انظر مجلة « التهذيب الاسلامي » الصادرة بالجزائر محرم ١٣٨٥ هـ ماي ١٩٦٥ م السنة الاولى العددان ٣ و ٤ مقال للمؤلف ص ١١ ـ ١٤ والعددان ٩ و ١٠ ص ٧٥ ـ ٨١

نفسه ولا على جسمه ، ولم يبال بصحته في سبيل مبـدأ أعظم ، وأمـة يسوءه حالهـا ، ويدمي نفسه احتلالهـا ويدفعه للبـذل والسهـر مآلها ، وآماله وآمالها ، أفنى ذاته في سبيل عقيدة ، وقضى من أجل رسالة ، فجاءه الأجل المحتوم وانتقل للرفيق الاعلى في مساء الثلاثاء ٨ ربيع الاول ١٣٥٩ هـ ١٦ افريل ١٩٤٠ م فتحركت قسنطينة بأكملها لتشييع جنازته ، وكان يوماً مشهوداً في ظروف قاسية وأزمة عالمية تمثلها حرب طاحنة ودفن [1] في روضـة أسرته بحي الشهـداء قرب مقبرة قسنطينة .

---

(١) كتب على قبره ما يلي : س١ الله اكبر .
س ٢ هنا يرقد العـلامة الجليل الاستاذ الامام الشيخ عبد الحميد .
س ٣ ابن باديس باعث النهضة العربية في الجزائر وزعيمها المقدام توفي .
س ٤ مساء الثلاثاء ٨ ربيع الاول ، ١٦ افريل سنة ١٣٥٩ هـ
١٩٤٠ م
رحمه الله ورضي عنه .

شعر

يا قبر طبت وطاب فيك عبير — هل أنت بالضيف العزيز خبير
هذا ابن باديس الامام المرتضى — عبد الحميد الى حماك يصير
العالم الفذ الـذي لعلومه — صيت بأطراف البلاد كبير
بعث الجزائر بعدطول سباتها — فالشعب فيها بالحياة بصير
وقضى بها خمسين عاما كلها — خير لكل المسلمين وخير
ومضى اليك تحضه بثنائها — واليه من بين الرجال تشير
عبد الحميد لعل ذكرك خالد — ولعل نزلك الجنة حرير
ولعل غرسك في القرائح — مثمر ولعل وريك للعقول منير
لا ينقضي حزن عليك مجدد — وأسى له بين الضلوع سعير
نم هادئا فالشعب بك راشد — يختط لهجك في الهدى ويسير
لاتخش ضيعة ماتركت لنا سدى — فالوارثون لما تركت كثير
نفحتك من نفحات ربك نفحة — وسقاك غيث من رضاه عزيز

١٩٥٩ هـ



مشهد جنازتـــه

وبعـــد :

فاني قضيت ما يزيد على ثلاث سنوات في جمع وترتيب آثار ابن باديس مما جعلني أسافر الى بعض البلاد العربية للعثور على ما لا يوجد في الجزائر مما أتى عليه تخريب القوات الاستعمارية واحراقها لكنوز الفكر الانساني .

حاولت أن أصنّف هذه الآثار الى أقسام حسب موضوعاتها ، وأغراضها ، وان كان هذا التصنيف غير دقيق لتداخل الموضوعات ، والأغراض ومن ثم جاء تصنيفاً تقريبياً .

كما أني لا أزعم أنه قد أتيح لي أن أعثر على جميع آثار ابن باديس، لأنه قد أملى املاءات كثيرة على طلابه ، وما تزال مخطوطة أو مبعثرة أو مفقودة وحتى المطبوع من آثاره لم أجمعه كله فان أغلب أعـــداد جريدة المنتقد لم أعثر عليها ما عدا ثلاثة أعداد (١ ، ٢ ، ٧) .

والظـاهرة التي ينبغي التنبيه عليها هي أن الشيخ لا يمضي جميع ما يكتب ، ولهذا فان الباحث يضطر للاجتهاد اعتماداً على أسلوب المؤلف وروحه . وقد أتيح لي أن أطلع على جميع أعداد جريدة « السنة » و « الشريعة » و « الصراط » و « البصائر » وجميع أعداد مجلة « الشهاب » ابتداء من سنة ١٩٢٩ وعلى أغلب أعداد جريدة الشهاب قبل تحويلها الى مجلة وكان لا يكتب فيها الا نادراً .



من اليسار الى اليمين : الاستاذ الابراهيمي ، الاستاذ ابن باديس ، الاستاذ العقبي

وفيما يتعلق بمجلة الشهاب فاني لم أترك في أغلب الظن الا بعض ما يكتبه في السياسة والتعليق على الأحداث اليومية لصعوبة الاهتداء الى التفريق بين مقالاته ، وبين مقالات غيره ، وقد تعرضت لهذا حفاظاً على الأمانة العلمية ، كما أني قد تعمدت نقل بعض المقالات التي ليست

لابن باديس وانما نقلها هو واختارها للنشر ، وعلق عليها ، فنظراً لتعليقه عليها اخترت ضمها الى تعليقه ذاك .

وتصنيف آثاره وضعناه كما يلي :

الجزء الأول يشتمل على قسمين :

١ ـ تفسير القرآن . ٢ ـ شرح الحديث .

والجزء الثاني يشتمل على خمسة عشر قسماً :

١ ـ اصلاح وثورة ضد البدع . ٢ ـ تربية وتعليم . ٣ ـ سياسة . ٤ ـ احتجاجات وبرقيات . ٥ ـ اجتماعيات . ٦ ـ خطب . ٧ ـ شعر . ٨ ـ تاريخ . ٩ ـ العرب في القرآن . ١٠ ـ تراجم . ١١ ـ القصص الديني والتاريخي . ١٢ ـ رحلات . ١٣ ـ تطور الشهاب . ١٤ ـ الصلاة على النبي . ١٥ ـ فقه وفتاوى .

وفي الختام نوجه شكرنا لجميع الذين وفروا لنا بعض المصادر ، ولم يبخلوا علينا بما لديهم من الوثائق وخاصة فضيلة الشيخ خياري الدراجي والشيخ الفاضل علي شنتير وأخاه فضيلة الشيخ محمد الطاهر شنتير ، والله الموفق .

الجزائر في يوم الخميس : ٩ ربيع الثاني ١٣٨٦ هـ
٢٨ جويلية ١٩٦٦ م

عمار الطالبي
الاستاذ المساعد بكلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة الجزائر

عمل ابن باديس التربوي(١)

ان شخصية ابن باديس ثرية متعددة الجوانب لا يمكن لنا أن نتناولها من جميع جوانبها في مثل هذا الوقت القصير لذا رأينا أن نتحـدث عن جانب واحد من جوانبه وهو ابن باديس المربي ٠

أيها السادة :

يمكن القول بأن ابن باديس اتخذ التربية وسيلة للاصلاح الثقافي والاجتماعي والسياسي لأن الأهداف التربوية عنده تشمل ذلك كله وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد ٠

لقد عالج المصلحون في أوروبا خلال القرن التاسع عشر مشكلة الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، فذهب بعضهم الى أن السبب في التدهور يرجع الى فقدان الحرية السياسية ، وانعدام حق التصويت وهم البرلمانيون ٠ وذهبت طائفة أخرى الى أنه يرجع الى العوامل الاقتصادية واستغلال الانسان للانسان وهم الماركسيون ٠ ورأى المفكرون أمثل تولستوي وبركهارت أن السبب في تدهور الرجل الغربي يعود الى الفقر الروحي والخلقي ، وفرويد كان يعتقد أن المشكلة تعود الى المبالغة في كبت الغريزة مما ينتج عنه مظاهر شاذة ٠ وكل هؤلاء نظروا للمشكلة من جانب واحد ، لأن التعليلات الاجتماعية متشابكة متداخلة ، ولا ترجع الى عامل واحـد ٠

---

(١) محاضرة القاها المؤلف مساء السبت ١٦ افريل ١٩٦٦ تحت اشراف وزير التربية الوطنية ومدير التعليم العالي في قاعة المحاضرات الجامعية بالجزائر وقد حذف من هذه المحاضرة الجزء الخاص بترجمته .

ان النظرية الجزئية تكون دائماً عقبة في سبيل الاصلاح ، وما يصدق على الأسباب يصدق على أنواع العلاج التي يمكن لنا أن نعالج بها أمراض الانسان الحديث ، فاذا قررنا أن سبب المرض عامل اقتصادي ، أو روحي ، أو نفسي ، فان العلاج ينحصر في تلك الناحية المعينة ، وأما اذا نظرنا نظرة متكاملة ، وقررنا أن للظواهر المرضية نواحي متعـددة ، وأسباباً متنوعة ، فان الاصلاح يتناول ميادين التوجيه الأخـلاقي ، والاقتصادي ، والثقافي ، والسياسي ، والصناعي ، أما الانصراف الى اصلاح حالة واحدة فانه لا يؤدي الى نتيجة ، بل يؤدي الى الهـدم والتخريب ، فالاصلاح الاقتصادي دون تكوين الضمير الديني والخلقي ، يؤدي الى كوارث ، وقد ذهب الى هذا الرأي الأستاذ « أريك فروم » في كتابه المجتمع السليم [1] .

وأما فيما يتعلق بالمصلحين المسلمين المحدثين والمعاصرين ، أمثال محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده — ومحمد اقبال وابن باديس فانهم رأوا أن التدهور الاجتماعي راجع الى عدم تطبيق الاسلام ، والى انفصال الانسان المسلم عن الحقيقة القرآنية ، ومعنى ذلك أن السبب ليس واحداً بل هو مجموعة عوامل وأسباب ، لأن الحقيقة القرآنية ، حقيقة متكاملة تشمل الحياة الاخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية أو ما يعبر عنه بالدين والدولة أو الدنيـا ، وليس الاسلام كالمسيحية التي اهتمت اهتماماً بالغاً بالاصلاح الروحي ، وأهملت النظام الاجتماعي ، وهو ما أراد بعض الناس أن يطبقه على الاسلام أيضاً .

والشيخ ابن باديس من المدرسة التي ترى أن الاصلاح الاجتماعي يقوم على أساس أن الأخلاق تنبع من الداخل ، وأن الوسيلة هي تطهير

(١) ترجمة محمود محمود القاهرة ١٩٦٠ ص ١٨١ .

القلوب ، وتغيير النفوس ، وهذا يؤدي الى تغيير المؤسسات الاجتماعية. يقول ابن باديس : (ان الذي نوجه اليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا ، وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد ، وتقويم الأخلاق ، فالباطن أساس الظـاهر)[1] .

وهو يعتبر أن العناية الشرعية متوجهة كلها الى اصلاح النفوس ، وان صلاح الانسان وفساده انما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها ، مستشهداً بقول الله تعالى : « قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها » وهو على خلاف المدرسة الاصلاحية التي ترى أن الاصلاح ينبغي أن يبدأ بتغيير المؤسسات الاجتماعيه ، باعتبار ان الانسان صار الى ما صار اليه ، نتيجة للعوامل البيئية ، المختلفة . وهو لا يتطرف في هذا ، ويرى أن اصلاح المؤسسات الاجتماعية لا بدَّ أن يتساوق واصلاح النفس وتغييرها ، ولكن ينبغي البدء بالانسان ، الأمر الذي تجعله المدرسة الأخرى متأخراً عن المسائل المادية . والوسيلة الى تغيير الذات الانسانية وتوجيهها ، والى تحويل الباطن البشري ، الذي هو العامل الأخلاقي الأساسي في كل اصلاح عند ابن باديس ، انما هي التربية . لقد كتب مقالاً تحت عنوان : « صَلاَحُ التعليم أساس الاصلاح » يقرر فيه هذه الحقيقة فيقول :

« لن يصلح المسلمون الا اذا صلح علماؤهم ، لأنهم بمثابة القلب للأمة ، ولن يصلح العلماء الا اذا صلح تعليمهم » فالتعليم في نظره هو الذي : يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من عمله لنفسه ، ولغيره ، ولن يصلح التعليم الا اذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله ، وموضوعه ، في مادته وصورته ، فقد صحَّ عن النبي فيما رواه مسلم : « انما بعثت معلماً » وليس المقصود بالتغيير

(١) تفسير آية ٨٤ ـ ٨٥ من سورة الاسراء .

الداخلي ، وكون النفس هي أساس الاصلاح ذلك التأمل الباطني ، والانقطاع عن الحياة ، الأمر الذي يسخر منه الفيلسوف المربي « جون ديوي » في كتابه « تجديد في الفلسفة » فيقول : « وهكذا فبينما كان القديسون مشغولين بالتأمل فيما يجري في نفوسهم ، كان الخاطئون المستهترون يتولون تدبير شؤون العالم » [1] لان طبيعة الفكر الباديسي أو ميزته العقلية أنه يجمع بين الفكر والعمل ، بين النظر والتطبيق ، وهي ميزة النفوس القوية ، وطبيعة المفكرين المؤمنين . وحياته كلها مصطبغة بهذا الطابع ، ونموذج حي له ، وقد عبر لنا عن هـذه الحقيقة الحية بقوله : « العلم قبل العمل ومن دخل العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال » [2] ويعتبر أنه لا سبيل الى محو البدع والضلالات الا بالعلم والعمل ، واظهار الاسلام بسلوكنا في الحيـاة ، أمام الناس في مظهره الصادق الصحيح ، ويرى أن المنهج الذي نجح به المسلمون الأولون في تغيير العالم ، انما هو سلوكهم وتطبيقهم الاسلام على أنفسهم وغيرهم في الحياة »[3] وأكثر من ذلك فانه أدخل الصناعات التطبيقية في منهاج التعليم ، وخصوصاً الصناعة اليدوية . والانقلاب الأساسي الذي حدث في التربية الحديثة هو التوحيد بين التعليم النظري والعمل اليدوي أو التطبيقي ، باعتبار أن العمل نشاط قائم على أساس المعرفة وعلى أساس ادراك المرء لما سيعمله [4] .

اهداف التربية عند ابن باديس :

ان أهـداف أيّ تربية تشتق من المجتمع ، أعني من فلسفته ،

---

(١) ص ٣١٧ .

(٢) ج ١٢ م ٨ ص ٦١٦ ـ ٦١٨ شعبان ١٣٥١ ـ ديسمبر ١٩٣٢ م

(٣) ج ٧ م ١٥ ص ٣٣٢/٣٣٤ .

(٤) انظر المجتمع السليم ص ٢٣٢ .

ونظرته للحياة ، لذا فان التربية فن يرمي الى تحقيق القيم التي تعينها فلسفة مجتمع ما من المجتمعات ، والتربية من جهة أخرى تعتمد على العلم لاختراع أحسن الوسائل لتحقيق هدفها ، فالتربية باعتبارها فلسفة عملية تتصل بالفلسفة وبالعلم في آن واحد ، فالفلسفة تحدد الغرض ، والعلم يحدد الوسيلة ، وهذا العلم هو علم النفس أو علم الطبيعة البشرية [1] وبهذا الاعتبار فان لكل نظام تربوي مباديء ميتافيزيقية ، وأسساً فلسفية يعتمد عليها ، وربما تكون الصلة بين فلسفةٍ مّا ونظامٍ ما للتربية غير واضحة ، ولكنها موجودة ، وبما أن التربية تهدف الى تكوين مواطنين نافعين في أهداف الجهاز الاجتماعي ، والى نموّ الأطفال نمواً انسانياً كاملاً ، كما تهدف الى مساعدة الطفل ، والمراهق ، والبالغ ، على تكوين شخصيتهم وتكاملها ، وتعين الانسان بما هو انسان على أن يتسم بما يحقق فيه الطبيعة البشرية في أسمى معانيها ، فان المشكلة الأساسية التي تثار في هذا المجال هي ماذا ينبغي أن يتعلم المرء كي تكتمل شخصيته من النواحي الأخلاقية ، والعاطفية ، والعقلية ، والذوقية الجمالية ، والاجتماعية ، ثم كيف ينبغي أن نعلّم أو تتعلم ؟

قد يكون هدف التربية قائماً على أساس قيم دينية وأخلاقية أو جمالية ذوقية أو اجتماعية أو مادية .

ان ابن باديس يعتبر من المربين الاسلاميين ، وهو يستمد أهدافه من أهداف التربية الاسلامية من ناحية ، ومن الحالة الاجتماعية التي عليها المجتمع الجزائري من ناحية أخرى ، ولذا فاننا نجده أقرب ما يكون اتصالاً بالنظريات التربوية التي وجدت في الحضارة الاسلامية المغربية والمشرقية . فما هي أهداف التربية الاسلامية على العموم ؟

---

(١) دراسات في التكامل النفسي للدكتور يوسف مراد القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٥٧ .

يحدّد بعض الباحثين [1] أهداف التربية الاسلامية في أربعة أغراض : الغرض الديني ، والاجتماعي ، والالتذاذ العقلي ، والغرض المادي . أو الغرض الديني ، والعقلي ، والثقافي ، والنفعي ، على نحو ما تذهب اليه الباحثة اسماء فهمي بالاستناد الى المصادر الاسلامية في التربية .

من أهداف التربية عند ابن باديس كمال الحياة الفردية والاجتماعية فهذا الهدف مزدوج فردي ـــ اجتماعي معاً يقول بهذا الصدد : « ان كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علماً وعملاً فاننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية ، والمثال الكامل لذلك كلّه هو حياة محمد ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ ، في سيرته الطيبة » [2] ومعنى هذا أنه يهدف الى بناء الشخصية الانسانية المتكاملة، والشخصية المتكاملة عنده هي ما اكتملت فيها جوانبها المختلفة : الجانب الأخلاقي والعقلي والعملي والعضوي وهذا ما يذهب اليه المربون المعاصرون . ولا بأس من أن نستشهد بنصٍ له في هذا الصدد يقول : « ان الكمال الانساني متوقف على قوة العلم ، وقوة الارادة ، وقوة العمل ، فهي أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد»[3] « وحياة الانسان من بدايتها الى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاث : الارادة ، والفكر ، والعمل ... وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لا بدّ للانسان منها ، فالعمل متوقف على البدن ، والفكر متوقف على العقل ، والارادة متوقفة على الخلق ، فالتفكير الصحيح ، والارادة القوية من الخلق المتين ، والعمل المفيد من البدن السليم ، .. فلهذا كان الانسان مأموراً

(١) خليل طوطم ، انظر التربية في الاسلام لاستاذنا الدكتور احمد فؤاد الاهواني القاهرة ١٩٥٥ م ص ٨٧ ـ ٩٠ وكتاب التربية والتعليم في الاسلام للدكتور محمد اسعد طلس بيروت ١٩٥٧ م ص ١٤٢ .

(٢) ج ٧ م ١٥ ص ٣٤٤ رجب ١٣٥٨ ـ ١ و ت ١٩٣٩ .

(٣) ج ٦ م ١٢ ص ٣٤٦ .

بالمحافظة على هذه الثلاثة : عقله وخلقه ودينه ، ودفع المضـار عنها ، فيثقف عقله بالعلم ، ويقوم أخلاقه بالسلوك النبوي ، ويقوي بدنـه بتنظيم الغذاء ، وتوقي الأذى ، والتريض على العمل » [1] .

ومن هنا فانه لا يقصد من بناء الفرد الاسلامي والشخصية الاسلامية الناحية الأخلاقية فقط ، ولا الناحية المعرفية وحدها ، وانما يرمي الى بناء الشخصية البشرية في شمولها وكليتها ، ووحدتها ، من حيث طرق الفكر ، والشعور ، والعمل ، وهذا ما انتهى اليه المربون المعاصرون كما أشرت الى ذلك ، ومن الأهداف اعداد الفرد للحياة بمختلف ميادينها ، وهذا متضمن فيما سبق ، وانما نجد ابن باديس يصرح به بوضوح كامل فيقول : « على المربين لأبنائنا وبناتنا ، أن يعلموهم ويعلموهن هذه الحقائق الشرعية ليتزودوا وليتزودن بها ، وبما يطبعونهم ويطبعونهن عليه من التربية الاسلامية العالية ، لميادين الحياة » [2] .

ومن أهدافه العليا في التربية خدمة الانسانية ، ومساعدة الفرد على النمو في هذا الاتجاه الذي يحترم الانسانية باختلاف مذاهبها ونزعاتها : « ان خدمة الانسانية في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي اليه ، ونعمل على تربيتنا وتربية من الينا عليه » [3] .

وبما انه يتسم بالواقعية فانه يذكر لنا الوسيلة التي يحقق بها هذا الغرض وذلك أن هذه الخدمة تكون بواسطة لا مباشرة ، تكون بواسطة الاسلام أولاً ، وبخدمة الوطن ثانياً ، لأن الاسلام يحترم الانسانية في جميع أجناسها ، ويقرر المساواة والتراحم والتعاطف بين الناس جميعاً ،

---

(١) تفسير آية ٦٢ من سورة الفرقان .

(٢) ج ١ م ١٣ ص ٥ ـ ٨ ـ ١٣٥٢ ـ ١٩٣٧ م

(٣) ج ١٠ م ١٢ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٨ والضمير في « عليه » يعود على خدمة الانسانية .

ويعتقد أن خدمة الوطن تأتي في الدرجة الأولى ، ثم تأتي خدمة الوطن المغربي ثم العربي الاسلامي ثم وطن الانسانية العـام ، ولا نستطيع ن تؤدي أية خدمة مثمرة لهذه الأوطان كلها ، الا اذا خدمنا الجزائر ويشبه هذا ببيوت في قرية فبخدمة كل واحد لبيته تصبح القرية سعيدة راقية ومن ضيَّع بيته فهو لما سواها أضيع .

يقول : « وأنا أشعر بأن كلّ مقوّماتي الشخصية مستمدة منه (الوطن) مباشرة ، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة لأنني كلما أردت عملاً وجدتني في حاجة اليه الى رجاله وماله ، وحاله ، وآماله ، وآلامه » [١] .

الواقع أن الأهداف التربوية التي يرمي اليها ابن باديس تتفق مع مذهبه في الاصلاح ومع الواقع الاجتماعي ، والحضاري للشعب الجزائري ، وهذا ما يفسر لنا تعدد الأهداف التربوية عنده ، وتنوع المناشط التي يحقق بها هذه الأهداف ، التي يمكن أن نحصرها جميعاً ، وان ترتد كلها الى هدف واحد اساسي وهو النهضة التي تؤدي الى الحضارة ، وأول خطوة في طريق الحضارة انما هي تكوين الانسان وربط أفراد المجتمع في شبكة من العلاقات الاجتماعية لتحقيق هدف مشترك[٢] وهذا هو عمل التربية الاجتماعية التي خصص لها حياته كلها ، والدليل على ذلك هذا النص : « انما ينهض المسلمون بمقتضيات ايمانهم بالله ورسوله ، اذا كانت لهم قوة ، وانما تكون لهم قوة اذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر » [٣] .

فشرط النهضة عنده انما هو ايجاد هذه الجماعة القائدة المفكرة التي

(١) ج ١٠ م ١٢ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٨ شوال ١٣٥٥ هـ جانفي ١٩٣٧ م.

(٢) انظر كتاب « ميلاد مجتمع » لمالك بن نبي .

(٣) تفسير آية ٦٢ ـ ٦٣ من سورة النور .

تقود المجتمع الى الحضارة ، وعمله التربوي يهدف الى اعداد هؤلاء الرجال يقول : « فاننا نربي ــ والحمد لله ــ تلامذتنا على القرآن ، ونوجّه نفوسهم الى القرآن من أول يوم وفي كل يوم ، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم ، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها » [1] .

وغرض التربية الوطنية عنده ، هو المحافظة على الشخصية الاسلامية العربية بكل مقوماتها بل اثراؤها وتجديدها ، ولذا فاننا نجد في القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الاسلامية التي أسسها سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣٠ م : ان غرضها من الوجهة التربوية هو تربية ابناء المسلمين وبناتهم تربية اسلامية بالمحافظة على دينهم ، ولغتهم ، وشخصيتهم ، ومن الوجهة التعليمية تثقيف أفكارهم بالعلم ، وتعليمهم الصنائع ، ومن الوجهة المالية تعويد الأمة على التبرع المنظم ، وتوسيع نطاق الجمعية بجعل قيمة الاشتراك فرنكين [2] وهذا مستمد من الحياة الاجتماعية لأنه رأى أن الشخصية الاسلامية مهددة بخطر الذوبان والانحلال ، وبخطر الانكار والجحود ، وعندما اجتمع بجماعة الشباب المتعلمين تعليماً أوروبياً نصحهم بما يلي : « عليكم أن تلتفتوا الى أمتكم فتنتشلوها ممّا هي فيه ، بما عندكم من علم ، وبما اكتسبتم من خبرة ، محافظين لها على مقوّماتها سائرين بها في موكب المدنية » [3] .

الوسائل ــ نقده للمناهج التربوية لعهده :

تعرض لنقد طرق التدريس في جامع الزيتونة وبين أنها ليست وسيلة

---

(١) ج ٤ م ١٠ ص ٣٥٢ ربيع الاول ١٣٥٣ هـ جويلية ١٩٣٤ م .

(٢) نشرة جمعية التربية ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م ص ١ ــ ٤ .

(٣) ج ٨ م ١١ ص ٤٤٤ ، ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥ م .

تؤدي الى تحقيق الغرض من التربية كما يتصوره ، بل انما تكوّن ثقافة لفظية ، يهتم أصحابها بالمناقشات اللفظية العقيمة طوال سني الدراسة ، ويذكر أن الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية ، دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلاً ، وانما يغرق في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يظن الطالب أنه فرغ منها ، ويتخرج الطالب دون أن يعرف من حقيقة التفسير شيئاً ، وذلك بدعوى أنهم يطبقون القواعد على الآيات ، كأنما التفسير يدرس من أجل تطبيق القواعد لا من أجل فهم الشرائع والأحكام . وهذا يعتبره ابن باديس هجراً للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم يخدمون القرآن » [1] .

وهذا كما ترون أيها السادة : يتعارض مع الهدف التربوي الاصلاحي الذي هو ارجاع ضمير الانسان المسلم الى الحقيقة القرآنية ، كأنه أنزل على قلبه ، واتصاله به من جديد اتصالاً حياً دافعاً للعمل .

ومن وجوه النقد التي يوجهها الى طرق التدريس في المغرب الاسلامي الاقتصار على دراسة الفروع الفقهية دون الرجوع الى الأصول ، ودون الاعتماد على الاستدلال والتعليل والقياس ، بل انه يعتبر هذا بُعداً عن القرآن وهجراً آخر له يقول : « واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر ، جافة بلا حكمة ، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة ، تفنى الأعمار قبل الوصول اليها » [2] وهذا هو نفس النقد الذي وجهه ابن تومرت للفقهاء في عهد المرابطين ، وأبو بكر ابن العربي ، ومن قبلهما ابن عبد البر الذي نقد طرائق التعليم في الأندلس ، والمغرب على هذا النحو نفسه ، الذي سار

(١) تفسير آية ٣٠ من سورة الفرقان .

(٢) ج ١٢ م ١٠ ص ٥١٨ – ٥٢١ شعبان ه نوفمبر ١٩٣٤ م

فيه ابن باديس ، مما يجعلنا نعتقد أنه متأثر بهم ، وخصوصاً أبا بكر بن العربي الذي اهتم به وبكتابه « العواصم من القواصم » الذي حققه وطبعه سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ وكذلك ابن عبد البر في كتابه « جامع بيان العلم وفضله » والدليل على ذلك أنه استشهد بكلامهما في هـذا المجال النقدي وذكر أن هذا الاعراض عن ربط الفروع بأصولها ، ومعرفة مآخذها ، هو داء قديم في هذا المغرب من أقصاه الى أدناه بل كان داء عضالاً فيما هو أرقى من المغارب الثلاث وهو الأندلس [1] .

وذلك لأن ابن عبد البر (٤٩٣) يتعرض في كتابه المذكور للتعليم ، ويذكر أن الغرض من المناظرات التي تقع بين جماعة السلف انما هو فهم وجه الصواب والحقيقة ، فيصار اليها ، ومعرفة أصل القول وعليته فتقاس عليه نظائره وأمثلته ، وعلى هذا الناس في كل بلد الا عندنا وعند من سلك سبيلنا من أهل المغرب فانهم لا يقيمون علة ولا يعرفون للقول وجهاً ، وحسب أحدهم أن يقول : فيها رواية لفلان ورواية لفـلان . ومن خالف الرواية التي لا يقف على معناها وأصلها وصحة وجهها ، فكأنه خالف نص الكتاب وثابت السنة ، وقد نصح الطالب بالرجوع الى الأصول والعناية بها ، والاعتماد على النظر والبحث والاجتهاد والاطلاع على مختلف المذاهب والآراء والاستعانة بها [2] .

وأما أبو بكر بن العربي فقد وجه بدوره نقداً لاذعاً لحركة التعليم ، ومناهج العلم ، ورمى الاندلسيين بالتقليد ، وبين الاسباب السياسية والاجتماعية التي جعلتهم ينحدرون الى الفروع دون ربطها بأصولها ، مما أدّى بهم الى الجمود ، والتقليد ، وهذا ما جعل ابن باديس يقرر

---

(١) ج ١٢ م ١٠ ص ٥١٨ ـ ٥٢١ شعبان هـ نوفمبر ١٩٣٤ م

(٢) ص ١٧٠ .

أن اقتلاع هذه العادة عسير ، وأن الرجوع الى التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالمآخذ والأدلة أعسر [1] .

المنهج الذي يراه صالحاً :

بعد أن استعرض ابن باديس بايجاز تاريخ التربية الاسلامية ، فضل الرجوع الى الطريقة النبوية ، وطريقة السلف من الصحابة والتابعين ، ويرى أن مبنى التعلم ، والتعليم في القرون الأولى على التفقه في القرآن والسنة ، ويضرب لنا مثلاً بطريقة الامام مالك الذي اعتمد في بيان الدين على الآيات القرآنية وما صح عنده من أقوال النبي وأفعاله ، وما كان من عمل الصحابة ، ولكي يتسق مع نظرته الواسعة ، وأفقه البعيد ، ضرب لنا مثلاً آخر بالامام الشافعي ، وطريقته في كتاب الأم [2] ويعتقد أنه من المحال ضبط الفروع دون معرفة أصولها ، والقوانين العامة التي تنضوي تحتها ، وهكذا فانه يتفق مع ابن عبد البر ، وأبي بكر بن العربي، وابن تومرت ، في المنهج التربوي الصحيح . وابن باديس من ناحية أخرى يبني منهجه على أساس علم النفس ومعلوم أن التربية تطبيق لنظريات علم النفس ، كما أن الزراعة تطبيق لعلم النبات ، ويبين لنا أن المعلم يحتاج الى معرفة نفسية المتعلمين وفهمها والتنزل لهم ، والأخذ بأفهامهم الى الهدف الذي يرمي اليه ، حسب درجاتهم واستعدادهم [3] كما يحتاج الى معرفة أساليب التفهيم ، والى التوسع في العلوم التي تصدى لتعليمها ، مع التمرين على التعليم بالفعل ، ودراسة كتب فن التعليم [4] .

---

(١) ج ١٢ م ١٠ ص ٥١٨ شعبان ١٣٥٢ ـ نوفمبر ١٩٣٤ م .

(٢) ج ١١ م ١٠ ص ٤٧٨ ـ ٤٨١ رجب ١٣٥٣ هـ اكتوبر ١٩٣٤ م

(٣) ج ١٠ م ٧ ص ٦٠١ جمادى الثانية ١٣٥٠ هـ اكتوبر ١٩٣١ م .

(٤) ن. ص.

شارك ابن باديس في محاولة اصلاح التعليم في جامع الزيتونة ، وبعث باقتراح الى لجنة وضع مناهج الاصلاح التي شكلها الباي لسنة ١٩٣١ م ويتضمن هذا الاقتراح خلاصة آرائه في التربية والتعليم • فقسم اتجاه التعليم الى قسمين : قسم المشاركة ومدته ٨ سنوات وقسم التخصص ويشمل : فرغ القضاء والفتوى ، وفرع الخطابة والوعظ والارشاد ، وفرع تخريج الأساتذة ومدته سنتان •

ويبين في هذا الاقتراح منهاج التعليم وطريقة تدريسه كما يلي :

١ ــ اللغة والنحو والصرف والبيان ويشترط في تدريسها تطبيق قواعدها على الكلام الفصيح ، لتحصيل الملكة ويعتبر دراستها بلا تطبيق كما هو المعتاد في ذلك العهد تضييعاً للوقت ، وتعطيلاً ، وقلة تحصيل •

٢ ــ تاريخ الأدب العربي والانشاء •

٣ ــ حسن الأداء في القراءة والالقــاء •

٤ ــ العقائد وينبغي أن تؤخذ هي وأدلتها من آيات القرآن وهو يعارض الذهاب مع أدلة المتكلمين ، ومصطلحاتهم الجافة ، ويعتبر ذلك من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير • وقد طبق هذا بالفعل في تدريسه ، وفي كتابه « العقائد الاسلامية » الذي نشره الاستاذ الفاضل محمد الصالح رمضان [1] •

٥ ــ الفقه بحيث تقرر فيه المسائل مع أصولهــا دون التعرض لتشعباتها •

٦ ــ أصول الفقه تؤخذ كمسائل مجردة ، ثم تطبق على المشكلات الفقهية لتحصل للطلاب ملكة الاستدلال والنظر •

٧ ــ التفسير ويكون حسب رأيه بسرد الجلالين على المتعلم ، مع

---

(١) مطابع الكيلاني بالقاهرة دون تاريخ .

بيان الأستاذ ما يحتاج للبيان ، بحيث يطلع الطالب على التفسير بفهم المفردات ، والمعاني الأصلية بطريق اجمالي ، وكان محمد عبده يقريء الجلالين على هذه الطريقة .

٨ ــ الحديث وطريقة تدريسه هي نفس طريقة تدريس التفسير ويبدو هنا أن ابن باديس متأثر بطريقة محمد عبده الذي كان يستعرض النص ثم يحلّله بخلاف جمال الدين الأفغاني فانه يتحدث في الموضوع ثم يستعرض النص في النهاية لتلاوته كتلخيص مفهوم لذلك الموضوع ويؤيد هذا تلميذه الشيخ الجيلاني محمد ، الذي يرى أن أسلوبه في التفسير والحديث بأسلوب الأستاذ الامام أشبه واليه أقرب ، وأبرز مميزاتهما فيه التطبيق والتحقيق وسوق العبر وصوغ العظات [1] كما أن ابن باديس يستعمل طريقة الحوار والاستفهام [2] .

٩ ــ التربية الأخلاقية ويعتمد فيها على آيات وأحاديث السلف الصالح وهذا يتفق مع ما ورد في برنامج وزارة التربية الوطنية الجزائرية الحالي [3] في هذه المادة ولا شك في وجود تأثيره فيه .

١٠ ــ التاريخ الاسلامي ويؤكد عليه لأن معرفة التاريخ عنده ضرورية للنهضة .

١١ ــ الجغرافية .

١٢ ــ مبادىء الطبيعة .

١٣ ــ الفلك .

١٤ ــ الهندسة .

---

(١) ج ٧ م ١٥ ص ٣٢٨ .

(٢) ج ٧ م ١٥ ص ٣٢٧ .

(٣) المواقيت والبرامج توجيهات تربوية (المعهد التربوي الجزائر ١٩٦٤ م ص ٣٢ ــ ٣٣) .

وهنا يلاحظ ملاحظة طريفة وهي أنه اذا لم يكن في الشيوخ المعممين من يقوم ببعض هذه العلوم فلنأت باخواننا المطربشين من تونس أو من مصر .

وأما منهاج قسم التخصص في القضاء والفتوى فانه يحتوي على التوسع في فقه المذهب ثم الفقه العام ، ودراسة آيات وأحاديث الأحكام ، وعلم التوثيق ، والتوسع في علم الحساب وعلم الفرائض ، والاطلاع على مدارك المذاهب ، حتى يكون الطلبة فقهاء اسلاميين ينظرون — على حدّ تعبيره — الى الدنيا من مرآة الاسلام الواسعة ، لا من عين المذاهب الضيقة ، وهذه هي نفس النزعة التي يذهب اليها ابن عبد البر وأبو بكر بن العربي . ومن الكتب التي أوصى بتدريسها على الخصوص كتاب بداية المجتهد لابن رشد .

ومنهج التخصص في الخطابة والوعظ يحتوي على دراسة آيات المواعظ والآداب وأحاديثها ، والتوسع في السيرة النبوية وتاريخ نشر الدعوة الاسلامية مع التمرين على القاء الخطب الارتجالية .

وأخيراً فان منهج التخصص في فن التعليم يشتمل على التوسع في العلوم التي سيعلمها المترشحون ويتخصصون فيها ، وعلى الدراسة لكتب التربية وفن التعليم ، والتمرين على التعليم بالقيام به فعلاً (١) ولتحسين مناهج التعليم وتقويمها وتوحيدها دعا الى عقد مؤتمر المعلمين الأحرار في سبتمبر سنة ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م ومن المشكلات التي عرضت في جدول الأعمال مسألة تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه ، كما عقد مؤتمر آخر سنة ١٣٥٤ — ١٩٣٥ كلف فيه بعض أعضاء الجمعية بكتابة تقارير عن مشكلات التعليم في مختلف أنحاء الجزائر ، وعرضت هذه التقارير وسجلت في « سجل مؤتمر العلماء المسلمين الجزائريين » ، وألقى هو نفسه تقريراً في التعليم المسجدي دعا فيه الى تأسيس كلية اسلامية .

---

(١) ج ١٠ م ٧ ص ٦٠١ .

المؤسسات التربوية :

علم الأستاذ الامام في المسجد الكبير وفي سيدي قموش وسيدي عبد المؤمن وسيدي بو معزة ومدرسة جمعية التربية والتعليم والجامع الأخضر وسيدي فتح الله وهذه المؤسسات كلها ما زالت الى اليوم •

كان التعليم في مساجد قسنطينة لا يشمل الا الكبار ، وأما الصغار فانهم يتعلمون القرآن فقط في الكتاتيب على طريقة المغاربة التي يذكرها ابن خلدون في مقدمته ، وأول عمل تربوي تعليمي سجله ابن باديس في قسنطينة كان في سنة ١٣٣٢ هـ فكان يعلم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها صباحاً وعشية ثم بعد بضع سنوات أسس مع جماعة من الفضلاء المتصلين به ، مكتباً للتعليم الابتدائي وذلك في مسجد سيدي بو معزة ثم انتقل الى بناية الجمعية الخيرية الاسلامية التي تأسست سنة ١٩١٧م وفي سنة ١٣٤٩ هـ ــ ١٩٣٠ م تطور مكتب الجماعة الى مدرسة جمعية التربية والتعليم الاسلامية،حيث حرر ابن باديس القانون الاساسي وقدمه باسم الجمعية الى الحكومة فصادقت عليه دون أن ترى تنائجه بتاريخ رمضان ١٣٤٩ هـ ــ مارس ١٩٣١ م واعترفت بالجمعية في الجريدة الرسمية وتكونت هذه الجمعية من عشرة أعضاء برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس وجاء في القانون : ان مقصود الجمعية نشر الأخلاق الفاضلة ، والمعارف الدينية ، والعربية ، والصنائع اليدوية ، بين أبناء وبنات المسلمين ، وبينت المادة الثالثة الوسائل :

١ ــ تأسيس مكتب للتعليم •

٢ ــ ملجأ للايتام •

٣ ــ نادٍ للمحاضرات •

٤ ــ معمل للصنائع •

٥ ــ ارسال التلامذة على نفقتها الى الكليات ، والمعامل الكبرى •

ومكتب الجمعية كان موجوداً في بناية الجمعية الخيرية الاسلامية والجدير

بالملاحظة أن القانون ينص على أن البنين يدفع القادرون منهم واجب التعليم ، وأما البنات فيتعلمن كلهن مجاناً ، وهذا لا يحتاج الى تعليق .

وقد شرع ابن باديس من ناحية أخرى في القاء دروس على الكبار أول الأمر في الجامع الكبير ، حيث كان يدرس فيه الشفاء للقاضي عياض ولكن ما لبث أن منعه مفتي قسنطينة المولود بن الموهوب . وكوّن جماعة من الشبان تابعة للجمعية واهتم بتهذيبهم ، وتربيتهم ، فجعل لهم درساً يوم الأحد من كل أسبوع يعلم جماعة منهم على الساعة ١٠ صباحاً والأخرى على الساعة ٨ مساء حسب أوقات فراغهم وذلك في أفريل سنة ١٩٣٣ م .

هنـــاك من المربين من يذهب الى أن المجتمعات تحس بالمسؤولية عن تربية الأطفال فقط ولا تحس بهذه المسؤولية عن تربية جميع البالغين مهما بلغت سنهم ويعتبر أنه ليست سن ١٦ — ١٨ خير فترات العمر للتعلم كما نظن وانما هي أنسب سن لتعلم أوليات القراءة والكتابة ، والحساب ، واللغات ، ولكن ادراك مغزى التاريخ ، والفلسفة ، والدين ، والأدب ، وعلم النفس ، محدود جداً في هذه السن المبكرة بل ان سن العشرين التي نعلم فيها هذه المواد في الكليات الجامعية ليست السن المثالية ، ولكي يدرك المرء المشكلات المعقدة في هذه الميادين ادراكاً حقيقياً ينبغي أن يتوفر لديه قدر من الخبرة في الحياة أكبر مما يتوفر له وهو في سن التعليم الجامعي ، وقد تكون سن الأربعين أو الثلاثين لكثير من الناس أنسب الأسنان لادراك هذه المواد ، وفهمها لا مجرد حفظها ، وقد أخذت بعض الدول بهذا المبدأ فضاعفت فرص الدراسة للكبار ونوّعتها [1].

ولذلك كان ابن باديس يعمل في واجهتين واجهة للكبار وواجهة للصغار وكان مصيباً في ذلك اصابة بالغة .

---

(١) المجتمع السليم ص ٢٣٣ .

ومن أهم المؤسسات التربوية الجامع الاخضر الذي أسسه حسين باي للصلاة والتعليم كما هو مكتوب عليه [1] وقد تم بناؤه سنة ١١٥٦ هـ .

لجنة الطلبة :

كون ابن باديس لجنة للطلبة من أعضاء جمعية التربية والتعليم الاسلامية يبلغ أعضاؤها ١٨ عضواً مهمتها العناية بالطلبة ومراقبة سيرهم، كما تتولى الاشراف على الصندوق المالي المخصص لاعانة الطلبة ، ودعا المسلمين الجزائريين الى تأسيس أمثال هذه الجمعية ، أو تأسيس فروع لها في جميع أنحاء القطر ، ويعلل ذلك بأنه لا بقاء لهم الا بالاسلام ولا بقاء للاسلام الا بالتربية والتعليم [2] وكان من عادة الاستاذ أن يصدر في كل سنة تقريباً بياناً يبين فيه المواد والكتب التي تدرس ، أصدر بياناً بتاريخ ٢ رجب ١٣٥٢ هـ ٢١ اكتوبر ١٩٣٢ م بين فيه المنهاج الذي يشتمل على التفسير والتجويد والحديث والفقه والعقائد الدينية والأخلاق والآداب الاسلامية واللغة العربية بفنونها : نحو وصرف وبيان وأدب ، والفنون العقلية من منطق وحساب وغيرهما وورد في البيان أن الطلبة المحتاجين تعطى لهم اعانة من الخبز ويسكنون في بعض المساجد .

وفي سنة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م صدر بيان آخر يبين تطور التعليم

---

(١) كتب عليه ما يلي :
السطر الاول : امر بتأسيس هذا المسجد العظيم .
س ٢ : وتشييد بنائه للصلاة والتسبيح والتعليم .
س ٣ : ذو القدر العلي ، والتدبير الكامل ، وحسن الراي اميرنا .
س ٤ : وسيدنا حسين باي أدام الله أيامه وكان تمام بنائه
س ٥ : أواخر شعبان سنة ست وخمسين ومائة والف .

(٢) نشرة جمعية التربية ١٣٥٤ ـ ١٩٣٦ ص ١ ـ ٤ .

بالجامع الأخضر فبالنسبة لعدد الطلبة الذي كان في سنة ١٩٣٣ م ١٠٠ طالب وفي سنة ١٩٣٥ م ٢٠٠ طالب أصبح في سنة ١٩٣٦ م ٣٠٠ طالب بالاضافة الىالذين سافروا الى جامع الزيتونة لاتمام دراستهم ويبلغ عددهم نحو ٣٠٠ أيضاً ، كما تطور المنهاج فأصبح يشمل بالاضافة الى ما سبق ذكره ، على الفرائض والجغرافيا والتاريخ والأصول والمواعظ وبين لنا فيه الكتب التي تدرس وهي : الموطأ ، وأقرب المسالك ، والرسالة ، وابن عاشر ، والمفتاح ، والزنديوي ، والتنقيح ، والسلم ، والمكودي ، والقطر ، والآجرومية ، والزنجاني ، واللامية ، والسعد ، والجوهر المكنون ، ومن ديوان الحماسة ، ومن ديوان المتنبي ، والأمالي، ومن مقدمة ابن خلدون .

والشيء المهم في هذا الطور هو دراسة مقدمة ابن خلدون ، والواقع أن هذه الكتب مقسمة على طبقات الطلبة ودرجاتهم الثقافية التي نص على أن عددها أربع طبقات كما تعرض للقائمين بالتعليم وهم الشيخ ابن باديس والشيخ عبد المجيد حيرش ، والشيخ حمزة بوكوشة المتخرجان من جامع الزيتونة وبعض العرفاء وكبار تلامذة الشيخ ابن باديس أمثال الشيخ عمر دردور والشيخ بلقاسم الزغداني .

تنظيم الطلبة :

ان الطلبة الذين يدرسون بقسنطينة يمثلون جميع أنحاء الجزائر وفي سنة ١٣٥٣ ــ ١٩٣٤ جاء بعض الطلبة من العمالة الوهرانية فكمل بهم تمثيل الجزائر كلها ويعتبر ابن باديس هؤلاء الطلبة نواة للغاية الكبرى التي يسعى اليها وهي انشاء جامعة اسلامية أو كلية للعلوم الاسلامية .

قسم ابن باديس الطلبة الى جماعات وجعل على كل جماعة عريفاً منهم يضبط أمورهم ويراقب سيرتهم ، وتوجد لدينا قائمة لهؤلاء العرفاء،

موزعين حسب المناطق الجزائرية المختلفة ، والعريف معروف في تاريخ التربية الاسلامية وهو الطالب البارز في العلم ، قال الامام سحنون : « أحب للمعلم أن يجعل لهم عريفاً منهم » [1] . واهتم ابن باديس من جهة أخرى بصحة الطلاب فجعل لهم جماعة من الأطباء يزورونهم للمعالجة تبرعاً منهم ، وهم : ابن الموفق ، وزرقين ، وابن جلول ، وأما ما يتعلق بالتغذية فان الطلبة المحتاجين يتناولون الأكل عند بعض المحسنين ، والمتبرعين من العائلات ، وأصحاب المطاعم ، والجدير بالذكر أن طباخاً وهو ابن جلول محمود كان يتبرع بتغذية خمسين تلميذاً في مطبخه وكان بعض الخبازين يتبرعون بالخبز وأهل بسكرة يرسلون بأكياس من التمر .

راي ابن باديس في تعليم المراة :

ان ابن باديس على بصيرة بما للمرأة من وظيفة اجتماعية تربوية عظيمة ، ولذلك فانه أوجب تعليمها وانقاذها ممَّا هي فيه من الجهالة العمياء ، ونصح بتكوينها تكويناً يقوم على أساس العفة وحسن تدبير المنزل ، والنفقة والشفقة على الأولاد ، وحسن تربيتهم ، كما أنه حمل مسؤولية جهل المرأة الجزائرية أولياءها ، والعلماء الذين يجب عليهم أن يعلموا الأمة رجالها ونساءها ، وقرر أنهم آثمون اثماً كبيراً اذ فرطوا في هذا الواجب . واستدل على وجوب تعليم المرأة بالعمومات القرآنية الكثيرة الشاملة للرجال والنساء ، وبأحاديث شريفة ، ومذهبه أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء الا بمخصص من اجماع أو نص أو ضرورة طبيعية ، لأن النساء شقائق الرجال ، ولا خلاف بين اللغويين والأصوليين في أنه اذا ما اجتمع النساء والرجال ، كان الخطاب أو الخبر بصيغة التذكير على طريقة التغليب ، واستدل بقوله تعالى : « وَلْيَكْتُبْ

(١) التربية في الاسلام للدكتور الاهواني ص ١٩٠ .

بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالعَدْلِ »[1] وبالحديث الذي رواه أبو داود عن الشفاء بنت عبد الله قالت : « دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنا عند حفصة فقال لي : ألا تعلمين هذه رُقْيَةَ النَملة كما علمتها الكتابة »[2] .

كما استدل بدليل تاريخي ، وهو ما استفاض في تاريخ الأمةالاسلامية من وجود العالمات الكاتبات الكثيرات[3] .

موافقه ازاء مقاومة الاستعمار للتعليم :

انه لا يكفي الوقت لاستعراض تاريخ دفاع ابن باديس عن الحركة التعليمية وجهاده التربوي الذي وقف حياته كلها عليه ، لقد تعرَّض لاضطهاد الاستعمار ومطاردته وعراقيله ، ولكنه ثبت ثبات الرجال أصحاب المبادىء لما يتسم به من التفاؤل واليقين بأن العاقبة له ، وللأمة الجزائرية معتقداً أن كل محاولة لحمل الجزائريين على ترك لغتهم أو دينهم أو تاريخهم أو شيء من مقوماتهم محاولة فاشلة . وحين أراد الاستعمار منعه من التعليم كتب مقالاً تحت عنوان : « بعد عشرين سنة في التعليم نسأل هل عندنا رخصة »[4] . وحين صدر قانون ٨ مارس ١٩٣٨ م بمنع التعليم كتب مقالاً آخر تحت عنوان : « يالله للاسلام والعربية في الجزائر كلُّ مَن يعلم بلا رخصة يغرم ثم يغرم ثم يسجن » وأعلن فيه عزمه على المقاومة بكل قوة قائلاً : « واننا نعلن لخصوم الاسلام والعربية عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا وسنمضي بحول الله في تعليم ديننا

---

(١) ٢/٢٨٢ البقرة .

(٢) رواه مسلم .

(٣) ج ٣ م ١٥ ص ١١٠ . ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ .

(٤) الصراط عدد ٧ ـ ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م .

ولغتنا رغم كل ما يصيبنا ولن يصدنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا وأننا على يقين من أن العاقبة ــ وان طال البلاء ــ لنا وأن النصر سيكون حليفنا »[1] . وكتب في مناسبة أخرى : « أما الذين يحاربون العربية فهم يفرقون ويشوشون فسيندمون ، وتنشر العربية بقوة الحق والفطرة وهم كارهون » .

ولا نريد أن نستمر في الاطالة عليكم فان مواقفه في الدفاع عن تعليم الدين والعربية ضد الاستعمار تتطلب وحدها محاضرة كاملة .

أيها السادة : ان الشيخ ابن باديس أمة وحده استطاع بمفرده أولاً وبمساعدة اخوانه من العلماء ثانياً أن يقوم بتربية جيل وتكوين أمه، وتبصيرها بشخصيتها ومقوماتها ، وهو الذي استطاع أن يضع أصول نهضتنا الفكرية والاجتماعيـــة والأخلاقية والسياسية ، وان الثورة الجزائرية العظيمة في جوانبها النفسية وقوتها المعنوية التي تتمثل في كلمة « الجهاد » ترتد الى عمله التربوي الخاص والعام ، تربية الجيل في المدارس وتربية الأمة في المساجد وبرحلاته في مختلف أنحاء القطر . واحياؤنا لذكراه انما هو اعتراف بالجميل ، وتخليد لعمله العظيم ، وروحه القوية التي تمثل رمزاً من رموز حياتنا العقلية والأخلاقية ، وعنصراً من عناصر وجودنا الذاتي ، لأن ابن باديس قام بعملية التربية والوعي ، تلك العملية التي تعتبر أعمق نشاط يؤديه الكائن البشري على الاطلاق ، لأنه به يصنع المادة البشرية الصالحة ، ويصوغ الذات الاجتماعية النافعة ، ويبني الشخصيـــة المتكاملة الشاعرة بوجودهـــا وذاتيتها وحريتهـــا .

اننا نحيِّي باقامة ذكراه جرأته ، وشجاعته ، وثباته ، وتضحيته ، وزهده في متاع الدنيا ، في سبيل المبدأ ، ونطبق ذلك العهد الذي أخذه

---

(١) البصائر محرم ١٣٥٨ هـ افريل ١٩٣٨ م ص ١ .

على نفسه بقوله : « اني أعاهدكم على أني أقضي بياضي على العربية والاسلام ، كما قضيت سوادي عليهما وانها لواجبات ، واني سأقصر حياتي على الاسلام والقرآن ، ولغة الاسلام والقرآن ، هذا عهدي لكم »[1] كما نبرهن بهذا أننا سنواصل رسالته ونحقق دعوته التي دعا اليها تلامذته ودعانا جميعاً معهم :

« أطلب منكم شيئاً واحداً وهو أن تموتوا على الاسلام والقرآن ، ولغة الاسلام والقرآن » [2] .

رحمك الله يا ابن باديس في الخالدين والسلام

عمـــار الطـــالبي

(١) ٧ م ١٥ ص ٣٤٦ رجب ١٣٥٨ هـ اوت ١٩٣٩ م .

(٢) ن. م. ن. ص .



آثار ابن باديس

قسم التفسير



التـــذكير

حقيقته ، حـاجة الخلق اليه ، القائمون به ، تذكير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ما كان يذكر به ، من كان يذكر ، مشروعية التذكير في الاسلام .

حقيقة التذكير :

١ ـ أن تقول لغيرك قولاً يذكر به ما كان جاهلاً أو عنه ناسياً أو غافلاً ، وقد يقوم الفعل والسمت والهدى مقام القول فيسمى تذكيراً مجازاً وتوسعاً ، ويجمع الثلاثة قولك : عباد الله الصالحون يذكّرون الخلق بالخالق بأقوالهم وأعمالهم وسمتهم .

٢ ـ وحاجة العباد الى هذا التذكير أعظم ما يحتاجون اليه وأشرفه وألزمه ، فان سعادتهم الحقيقية في هذه الحياة بانارة عقولهم ، وزكاة نفوسهم واستقامة سلوكهم ؛ وفي الحياة الأخرى بنعيم الجنان وحلول الرضوان ، انما هي بايمانهم بربّهم وشكرهم له . وأن دلائل وجوده ووحدانيته وقيّومته وآثار فضله واحسانه ورحمته ماثلة في الكون بادية للعيان ، داعية الى الشكر هادية الى الايمان ، لكن العقول كثيراً ما تكون مغلولة بقيود أهوائها ، محجوبة بحجب غفلتها ، فتعمى عن تلك الدلائل والآثار ، فتكفر كفر جحود وعناد ، أو كفر عصيان وطغيان . ويكون تورطها في كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك القيود . وليس لغير من عصم الله انفكاك أو خروج منها ، كلها . فهم اذن بأشد الحاجة الى تذكيرهم بتلك الدلائل وتلك الآثار ليحصلوا أسباب سعادتهم بالايمان والشكر .

٣ ـ قد علم الله حاجة عباده الى التذكير ، فاصطفى منهم رجالاً أنعم عليهم بكمال الفكرة ووقاية العصمة ، وأرسلهم لتذكير العباد « رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً[1] » ، « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ[2] » .

فالأنبياء والمرسلون ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم أولو هذا المقام الجليل ، مقام التذكير . ثم من بعدهم ورثتهم من العلماء العاملين .

٤ ـ قد كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على سنّة اخوانه من الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في القيام بتذكير العباد متمثلاً أمر ربه ـ تعالى ـ له بقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ[3] » .

اذ السيطرة لا تكون على القلوب والايمان ـ **وهو من اعمال القلب** ـ لا يكون بالاكراه وانما يكون بذكر الحجج والأدلة ، وكذلك كانت سنّة المرسلين في الدعوة الى الله كما قصّها علينا القرآن الكريم في كثير من السور والآيات .

كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يذكرهم بقوله وعمله وهديه وسمته ، وكان ذلك كله منه على وفق هداية القرآن وحكمه ، وقد قالت عائشة الصديقة ـ رضوان الله عليها ـ لما سئلت عن خلقه ـ والخلق

(١) ٤/١٦٤ النساء .
(٢) ٢٦/٢٠٨ الشعراء .
(٣) ٨٨/٢١ الغاشية .

هو الملكة النفسية التي تصدر عنها الأعمال ــ قالت : **كان خلقه القرآن، فكان تذكيره كله بآيات القرآن : يتلوها ويبينها بالبيــان القولي والبيان العملي متمثلاً في ذلك كله امر ربّه تعالى بقوله** : « فَذَكِّرْ بِالقُرآنِ مَنْ يَخافُ وَعيدي[1] » فالقرآن وبيانه القولي والعلمي من سنة النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بهما يكون تذكير العباد ودعوتهم لله رب العالمين ، ومن حاد في التذكير عنها ضلَّ وأضلَّ وكان ما يضر أكثر مما ينفع ان كان هنالك من نفع .

٥ ــ كان ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لا يفتأ مذكراً المؤمنين والكافرين ، والله يهدي من يشاء ويوفق من يريد . وقد أمر بالتذكير مطلقاً في قوله تعالى : « فَذَكِّرْ إنَّما أنتَ مُذَكِّر[2] » .

وكانت سيرته العملية في التذكير هي العمل بهذا الاطلاق ، فما كان يخص قوماً دون قوم في الدعوة والتذكير ، فكانت هاته السنة العملية دليلاً على أن ما جاء على صورة التقييد في بعض الآيات ليس المراد منه التقييد ، ومن ذلك قوله تعالى : « فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِكرَى[3] » .

فالشرط الصوري هو للاستبعاد ، أي استبعاد نفع الذكرى فيهم . ولا يزال من أساليب العربية في لسان التخاطب الدارج بيننا قول الناس لبعضهم بعضاً : « كلمه في كذا اذا نفع فيه الكلام » استبعاد لنفعه فيه ، ومن ذلك قوله تعــالى : « فَذَكِّرْ بالقُرآنِ مَنْ يَخافُ

---

(١) ٥٠/٤٥ ق .

(٢) ٨٨/٢١ الغاشية .

(٣) ٨٧/٩ الاعلى .

وَعيدي(١) » .

فليس ذكر المفعول للتقييد وانما هو للتنبيه على أنه هو الذي ينتفع بالتذكير نظير قوله تعالى : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » .

٦ ــ ولحاجة العباد للتذكير ومنزلته من الدين شرعه الله للمسلمين شرعاً موقتاً في خطب الجمع والأعياد ، وشرعاً مرسلاً موكولاً للمذكرين على ما يرونه من نشاط الناس وحاجتهم ، كما كان يتخول النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ الناس بالموعظة وطلبه طلباً عاماً من جميع المؤمنين في قوله تعالى : « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٢) » في صفة المؤمنين العاملين .

وسيكون هذا الباب من المجلة (٣) مجالاً لفنون من التذكير جعلنا الله والمؤمنين من أهل الذكرى ونفعنا بها دنيا وأخرى (٤) .

---

(١) ٥٠/٤٥ ق .

(٢) ١٠٣/٣ العصر .

(٣) يقصد مجلة الشهاب .

(٤) ش : ج ١ ، م ٥ ص ٢ ــ غرة رمضان ١٣٤٧ هـ فيفري ١٩٢٩

الـذكر

تمهيد ، القسم العلمي : حقيقته ، محله ، اطلاقاته ، اقسامه ، القلبي : بالتفكير ، بالاعتقاد ، بالاستحضار ، اللساني : بالثناء والدعاء ، بالارشاد والتعليم . ذكر الجوارح بالعمل ، بالانكفاف . القسم العملي : السيرة النبوية في الذكر ، كيفية السلوك عليها . التحذير .

تمهيد :

١ ـ الذكر أصل من أصول الدين العظيمة أو هو الدين كله ، ولذا امتلأ القرآن العظيم بالآيات المشتملة عليه . فالمسلم اذاً شديد الحاجة الى معرفته وفقهه ، وطريقة العمل به ، وقد تعرضنا لبيان ذلك فيما سيأتي ، وجعلنا الكلام في قسمين . وختمناه بالتحذير مما خرج عن سواء القصد بغلوٍ أو تقصير ليكون الواقف عليه على بصيرة مما يأتي منه أو يدع .

القسم العلمي

٢ ـ الذكر حضور الشيء في القلب الحضور الثاني بعد زواله منه المسبوق بحضور متقدم . هذه حقيقته . وقد يطلق على الحضور الأول توسعاً . وزواله بعد حضور هو النسيان . فهما ضدان . قال تعالى : « وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ[1] » .

(١) ١٨/٦٤ الكهف .

وفي مثل : ذَكَّرْتَنِي الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِيًا[1] .

٣ ــ فالمعنى الأصلي للذكر محلّه القلب ، اذ القلب محل ضده النسيان ، والضدان انما يتضادان في محل واحد ، قال تعالى : « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا[2] » أي جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا . فالغفلة في القلب والذكر في القلب . وأخوات الذكر ــ كالذكرى ، والتذكير والذُّكر ، بضم الذال ، ــ كلها من أعمال القلب ، وهو مثلها . وأما الصمت الذي هو من شأن اللسان فليس ضداً له كما قد قيل ، وانما هو ضد في كلام العرب لأعمال لسانية كالنطق في قولهم في المال **(ناطق وصامت)** وما في الحديث : **« فليقل خيراً أو ليصمت »** .

٤ ــ ثم يطلق الذكر اطلاقاً شائعاً على ما يجري على اللسان مما يخبر به عما في القلب ويعبر عنه ، ومنه قوله تعالى : « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا[3] » .

وسمى الله ــ تعالى ــ القرآن ذكراً كما في قوله : « وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ[4] » لأن آياته متلوّة بالألسنة ومعانيه حاضرة في القلوب . ومثله في هذه التسمية كلمات التسبيح والحمد والتهليل والتكبير من جميع الأذكار . ويقال في كل عمل من أعمال الطاعة ذكر ، لأنها كلها مرتبطة

---

(١) انظر مجمع الامثال ١/٢٧٩ ، المثل رقم ١٤٦٩ وتمامه :

ردوا على اقربها الاقاصيا ... انّ لها بالمشرفيّ حاديا

ذكّرتني الطّعن وكنت ناسيا

(٢) ١٨/٢٨ الكهف .

(٣) ٣٧/٣ الصافات .

(٤) ٢١/٥٠ الانبياء .

بذكر القلب ومن ثمراته . وسمى الله — تعالى — نبيّه — صلى الله عليه وسلم — ذكراً في قوله : « قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ، رَسُولاً[1] » لأنه مخبر عن ربه ومبلغ للذكر ، أو لأنه هو — صلى الله عليه وآله وسلم — يذكر في الصلاة عليه والحديث ، وفي سيره وشمائله بالألسنة والقلوب . وعبر عن ارساله بالانزال لأن رسالته وحي من العليّ الأعلى ، وأعظم رحمة نزلت من السماء . وسمي الله الآيات الكونية المشاهدة ذكراً في قوله تعالى : « الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً[2] » لأنها تحدث الذكر في القلب كما تحدثه آياته المتلوة التي تسمى أيضاً ذكراً . فالمعنى أنه كما لم يكن لهم ذكر في قلوبهم من الآيات المتلوة ، لأنهم كانوا لا يستطيعون سمعاً ، كذلك لم يكن لهم من الآيات المرئية لأن أعينهم في غطاء .

اقسام الذكر :

٥ — قد كثر ورود لفظ الذكر في آيات القرآن وأحاديث السنة ، وهو منقسم الى ثلاثة أقسام ، مراده من تلك النصوص : ذكر القلب فكراً واعتقاداً واستحضاراً ، وذكر اللسان قولاً ، وذكر الجوارح عملاً . وسنتكلم عليها واحداً واحداً .

ذكر القلب وهو على ثلاثة ضروب :

الأول : التفكر في عظمة الله وجلاله ، وجبروته وملكوته ، وآياته في أرضه وسمواته وجميع مخلوقاته ، والتفكر — أيضاً — في أنواع آلائه وعظيم انعامه على خلقه عامة وعلى الانسان خاصة بما سخّر

---

(١) ٦٥/١٠ الطلاق .

(٢) ١٨/١٠٢ الكهف .

له منها وما يسّر له من أسباب الانتفاع بها ، بما يوجب الايمـان بوحدانيته في ربوبيته ، فلا خالق ولا مدبّر ولا مصرّف ولا آمر ولا حاكم ولا منعم على الحقيقة سواه ، وبوحدانيته في ألوهيته فلا يستحق العبـادة سواه .

وهذا الضرب هو أعظم الأذكار وأجلها وأفضلها ، وبه يتوصل اليها ويستحق الثواب عليها ، اذ هو أساسها الذي تبنى عليه . فالأعمال مبنية على العقائد ، والعقائد لا تثبت الا بهذا التفكر ، وبه تنجلي في العقول ، وترسخ في النفوس ، وتحصل للناظر طمأنينة اليقين . قال تعالى : « أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ[1] » وهذا هو الذكر الـذي يحصل به الاطمئنان . وهو المراد في قوله : « إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ[2] » .

قال جماعة من السلف : ذِكْرِ الله في الصلاة أكبر من الصـلاة ، وهو المراد أيضاً في حديث أبي الدرداء موقوفاً في الموطأ ومرفوعاً في غيره : **« الا اخبركم بخير اعمالكم وارفعها في درجاتكم وازكارها عند مليككم وخير لكم من اعطاء الذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا اعناقهم ويضربوا اعناقكم . قالوا : بلى . قال : « ذكر الله »** وفي الحديث معاذ كذلك : **« ما عمل ابن آدم من عمل انجى له من عذاب الله من ذكر الله »** وهذا كله لأنه هو أساس جميع الأعمال كما قدمنا ، فاذا حصل ودام وجهه حصلت كلها ودامت على وجوهها .

الثاني : العقد الجازم بعقائد الاسلام في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله ، عقداً عن فهم صحيح وادراك راسخ تتحلّى به النفس بمقتضيات تلك العقائد وتتذوق حلاوتها وتتكون

---

(١) ١٣/٣٠ الرعد .

(٢) ٢٩/٤٥ العنكبوت .

لها منها ارادة قوية في الفعل والترك تملك بها زمامها ، تلك الارادة التي لا تكون الا عن عقيدة راسخة في النفس ويقين مطمئن به القلب • ولذا كان هـذا الضرب من ذكر القلب متفرعاً عن الضرب الأول ومبنياً عليه •

الثالث : استحضار عظمة الرب وانعامه وما يستحقه من القيام بحقه عند كل فعل وترك فيفعله باذنه لوجهه ويترك باذنه لوجهه • ولا يدوم هذا الاستحضار الا اذا رسخت العقيـدة التي هي من مقتضى الضرب الثاني ، ودامت الفكرة التي هي من مقتضى الضرب الأول ، فهو متفرع عنهما ومتوقف عليهما • وهذا الضرب هو أساس التقوى وهو المراد في قوله تعالى : « يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[1] » •

فان الذكر المناسب لمواطن الحرب هو استحضار عظيم حق الله على العبد في القيام بذلك الفرض ، واستحضار وعده ووعيده ، مما يقوي القلب ويكسب الجرأة والثبات وانتظار النصر — دون كثرة الذكر اللساني — فقد جاء عن النبي — صلى الله عليه وسلم — : **طلب الصمت عند جلبة العدوّ وصخبه** • وهو المراد أيضاً في قوله تعالى : « فَاذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا في الأرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[2] » • فان الابتغاء من فضل الله هنا هو التصرف بوجوه التجارة والكسب وليس ذلك مما يناسبه ذكر اللسان كثيراً ، فان ذكر اللسان يطلب فيه التدبر ، وأن ذلك غير متيسر للمشتغل بالبيع والشراء ،

---

(١) ٨/٤٦ الانفـال .

(٢) ٦٢/١٠ الجمعة .

وانما يناسبه استحضار عظمة الرب وانعامه ولازم حقه ليمتثل أمره ونهيه في وجوه الأخذ والعطاء والقضاء والاقتضاء •

ذكر اللسان وهو ضربان :

الأول : ذكر الله ــ تعالى ــ بالثناء عليه والاعتراف بنعمه واظهار الفقر اليه بأنواع الأذكار والدعوات ••• وهذا الذكر شرط الاعتداد به حضور القلب عنده • ومن أظهر الآيات الواردة فيه قوله تعالى : « فَإذا أفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ (٢) » فان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما بلغ في حجته المشعر استقبل القبلة ودعا وكبّر وهلّل ووحّد •

فان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما بلغ في حجته المشعر استقبل القبلة ودعا وكبّر وهلّل ووحّد •

الثاني : ذكره تعالى بدعوة الخلق اليه ، وارشادهم الى صراطه المستقيم الموصل اليه بتعليم دينه والتنبيه على آياته وانعاماته وتبيين محاسن شرعه وتفهيم أحكامه وشرح حكمته في خلقه وأمره والترغيب والترهيب بوعده ووعيده ، وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين في التبليغ عن ربّ العالمين واتّباعهم للمؤمنين ، الى يوم الدين ، ولذا قال عطاء : **مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام ، كيف تشتري وتبيع وتصلّي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج ••• وأشباه هذا** • وما سمّاه قليل من كثير قصد به تقريب التبيين بالتمثيل •

ذكر الجوارح وهو ضرب واحد :

فذكرها استعمالها في الطاعات ، وكل عمل لها أو انكفاف على مقتضى الشرع ، فهو طاعة ، وكل طاعة لله فهي ذكر ، فكل عامل لله

---

(١) البقرة ٢/١٩٨ .

بطاعته فهو ذاكر لله ــ تعالى ــ . كما حكاه النووي عن سعيد بن جبير وغيره من العلماء ، مستدلاً به على أن فضيلة الذكر ليست منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها . وبهذا يمكن للعبد الموفق أن يكون ذاكراً لربّه في يقظته ونومه وصحته ومرضــه وعلى جميع أحيــانه .

القسم العملي

أمر الله عباده بذكره في غير ما آية من كتابه وغير ما حديث من كلام نبيّه ، ووعد عليه بجزيل الثواب . ومن الآيات العامة في هذا الأمــر قوله تعــالى : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ[1] » وهو أمــر بالذكر بوجوهه الثــلاث فحق علينا أن نذكره بهــا . وكما تلقينا هذا الأمر وهذا الوعد عن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كذلك علينا أن تتلقى عنه كيف كان يعمل به،فهو المبلغ عن الله ــ تعالى ــ بقولــه وفعله والمبين كذلك بهمــا . ولا شك أنه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كان دائم ذكر القلب بالفكر والعقد والاستحضار ، دائم ذكر الجوارح في أنواع الطاعات . وقد جاء في شمائله الشريفة أنه كان ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « دائم الفكرة لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت » وأنه « كان سكوته على أربعٍ : على الحلم والحذر والتقدير والتفكير » . وأما الذكر اللساني فقد كان ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كما جاء في شمائله أيضاً ــ : « لا يجلس ولا يقوم الاّ على ذكر » . فلا يخلو مجلسه من ذكر الله . كما كان يسكت ويطيل السكوت كما تقدم ، وقد روى عنه الأئمة من أذكار اليوم والليلة وسائر الأذكار ما فيه الكفاية والشفاء .

---

(١) ٢/١٥٢ البقرة .

فالمؤمن الذي يحافظ على قلبه ويعتني به حتى يكون صحيح العقد دائم الفكر والاستحضار ، ويأتي مع ذلك من الأذكار المأثورة المطلقة بما تيسر منها ، وبالمرتبة في الأحوال والأوقات التي رتبت عليها ، ولا يخلي مقامه ومقعده من شيء من ذكر الله وان قل ـ يكون متبعاً للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في سنته في الذكر ، ويكون بهذا ـ في بيته وفي سوقه وفي مصنعه وفي مسجده ـ معدوداً من الذاكرين المكثرين ، بالقلب واللسان والجوارح •

التحذير : ربما شغل اللسان بالتعلم والعلم عن الأذكار المأثورة حتى يتركها الطالب جملة ويكون عنها من الغافلين ، فيحرم من خير كثير وعلم غزير ، وقد كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ معلم الخلق ، وما كان يغفل عن تلك الأذكار •

وربما بالغ قوم في بعض هذه الأذكار فأتوا منه بالآلاف ، وأهملوا جانب التفكير الذي هو أعظم أذكار القلب ، والذكر اللساني أحد وسائله ، فتشغلهم الوسيلة عن المقصود • وليس ذلك من هدى من كان ـ كما تقدم ـ دائم التفكير • وقد يؤديهم الذكر اللساني بالألوف الى الانقطاع عن مجالس العلم والزهد في التعلم فيفوتهم ما قد يكون تعلمه عليهم من فروض الأعيان • وليس من سداد الرأي وفقه الدين اهمال المفروض اشتغالاً بغير المفروض •

ويقابل هذا الغلو في ذكر اللسان ما رآه آخرون من الاقبال على التفكير الأيام والليالي ، مع ترك اللسان • وهذا زيغ عن طريق النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في المحافظة على الأذكار اللسانية التي امتلأت كتب الحديث بالترغيب فيها والحثّ عليها •

فليحذر المؤمن من هذا كله ومن مثله وليتمسك بما كان عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الاتيان بضروب الذكر الثلاثة كلها منزلاً

لهـا في منازلها متعبداً الله ــ تعالى ــ بجميعها ، والله الموفق وبه المستعان [1] .

(1) ش : ج ٢ م ٥ ص ١ ــ ٧ . غرة شوال ١٣٤٧ ــ مارس ١٩٢٩ .

ما هو أفضل الأذكار

تمهيد : حالتا العبد ، الفتوى النبوية فيهما ، القسم العملي . أفضل الاذكار ، آيات في الباب ، أحاديث فيه ، القرآن يحصل فضل الحالتين ، القرآن والذكر القلبي ، القرآن والذكر اللساني ، القرآن والذكر العملي ، بعض علوم القرآن . نتيجة الاستدلال . القسم العملي ، مقدار التلاوة ، ما يقصد من التلاوة ، التحذير .

تمهيد :

للعبد حالتان ؛ حالة يعالج فيها شؤون الحياة من أمر نفسه وأهله وما الى رعايته من مصالحه أو مصالح غيره ، فيمارس فيها الأسباب ويباشر فيها ما تقتضيه بشريته ، وهو في هذه الحالة متعبد مأجور ما جرى فيها على حدود الله وقصد بها امتثال شرعه .

وحالة ينفرد فيها لربه ويخلص من هم ذلك كله قلبه ، ويتوجه بكليته الى خالقه ، بالفكر والاعتبار ودوام المراقبة والاقبال .

وهذه الحالة الثانية هي أشرف وأفضل حالتيه ، وهي أساس الاستقامة في الحالة الأولى وأصل الكمال في غيرها .

كانت هاتان الحالتان للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كانتا لغيره ، وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « **انه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم اكثر من سبعين مرة** » ـ اشارة الى الحالة الأولى التي يكون فيها قائماً بمصالح الأمة وناهضاً بأعباء الرسالة ومباشرة

الشؤون العامة والخاصة وراءها دون الحالة الثانية التي يكون فيها متفرغ القلب للرّب • وما كان ذلك الغين الا الاشتغال بأمور الخلق في الحالة الأولى ، الذي يحجب عن كمال مشاهدة الحق ، التي في الحالة الثانية ؛ فاستغفر الله ـ تعالى ـ منه ، وما كان استغفاره ـ عليه الصلاة والسلام ـ الا لاشتغاله بكامل عن أكمل ، وتوجهه للقيام بأمر عظيم عن مقــام أعظم •

وقد تفطن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لهاتين الحالتين وسألوا النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عنهما وافتاهم فيهما فجاء في الصحيح أن حنظلة الأسيدي ـ وكان من كتّاب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ، قال : قلت : نافق حنظلة • قال : سبحان الله ما تقول ؟ قال : قلت : نكون عند رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يذكرنا بالنار والجنة ، كأنها رأي عين فاذا خرجنا من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً • قال أبو بكر : فوالله انا لنلقي مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقلت ، نافق حنظلة يا رسول الله ! ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وماذاك ؟ قلت : يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنها رأي عين ،فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ؛ فنسينا كثيراً • فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم • ولكن يا حنظلة ساعة وساعة** • ثلاث مرات •

فقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : **« ساعة وساعة » بيان للحالتين وتقرير لهما** • وقوله : والذي نفسي بيده الى آخره ••• **بيان لفضلاهما** •

هذه الحالة الفضلى الذكرى التي يحصلها للعبد على أكمل وجه هو أفضل الأذكار ، وستعرف مما سيأتي بعد أنه هو القرآن • وقد قسمنا ماسنقوله الى قسمين : علمي وعملي ، وختمناه بفصل في التحذير •

القسم العلمي

القرآن افضل لاذكار ــ من طريق الأثر :

قال تبارك وتعالى :

« وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ[1] » • « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ[2] » • « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ[3] » •

فهذه البركة ، وهذا التيسير ، وهذا الأمر بالتلاوة المقرون بالأمر بتوحيد العبادة وبالاسلام على طريق الحصر لم ترد الا في القرآن •

وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **مَن قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر امثالها ، لا اقول « الم » حرف ولكن الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف** . قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح •

وهذه مثوبة لم ترد لغير القرآن من جميع الأذكار •

---

(١) ٢١/٥٠ الانبياء .

(٢) ٥٤/١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠ القمر .

(٣) ٢٧/٩١ ــ ٩٢ النمل .

وروى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً : **(ما تقرب العباد الى الله بمثل ما خرج منه)** . ومن معناه ما ذكره القرطبي عن فروة بن نوفل عن خباب بن الأرت قال : ان استطعت أن تقرب الى الله ــ عزّ وجل ــ فانك لا تقرب اليه بشيء أحب اليه من كلامه . ومثل هذا لا يقال بالرأي ، فهو في حكم المرفوع .

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ مرفوعاً : يقول الرب تبارك وتعالى : **مَن شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين . وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه .**

وهذا الحديث والذي قبله نصّان صريحان في المقصود .

وروى البيهقي في شعب الايمان عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ ، مرفوعاً : **قراءة القرآن في الصلاة افضل من قراءة القرآن في غير الصلاة. وقراءة القرآن في غير الصلاة افضل من التسبيح والتكبير .**

وروى أبو نعيم عن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ : سئل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أي الأعمالأفضل عند الله ؟ قال : **قراءة القرآن في الصلاة ، ثم قراءة القرآن في غير الصلاة ، فان الصلاة افضل الأعمال عند الله واحبها اليه ، ثم الدعاء والاستغفار ، فان الدعاء هو العبادة ، وان الله ــ تعالى ــ يحب الملح في الدعاء ، ثم الصدقة فانها تطفيء غضب الرّب ... ثم الصيام . فان الله ــ تعالى ــ يقول : الصوم لي وانــا اجزي به . والصيام جُنّة للعبد من النار .** قال القرطبي ــ بعد ما خرّج هذا الحديث بسنده ــ قال علماؤنا : هذا حديث عظيم في الدين يبين فيه أن أعظم العبادات قراءة القرآن في الصلاة .

القرآن افضل الاذكار ــ من طريق النظر :

ان أشرف حالتي الانسان ــ وهي حالة انفراده بربه ، وتوجهه

بكليته اليه ، وخلوص قلبه له وتعلقه به ــ انما تحصل على أكملها لتالي القرآن العظيم • فان أفضل ما فيه ــ وهو قلبه ــ يكون قائماً بأفضل أعماله ، وهو التفكر والتدبر في أفضل المعاني ، وهي معاني القرآن • وان ترجمان ذلك القلب ــ وهو لسانه ــ يكون قائماً بأفضل أعماله ، وهي البيان بأفضل كلام وهو القرآن • وجوارحه ــ اذا لم يكن في صلاة ــ كانت محبوسة على قيام القلب واللسان بأفضل الأعمال • واذا كان في صلاة كانت قائمة بأفضل عبادة ، وهي الصلاة في أشرف موقف ، وهو مناجاة الرحمن بآيات القرآن •

فهذا الذكر الحكيم تنزيل الرحمن الرحيم ، الذي يحصل هذه الحال التي هي أشرف الأحوال ، وهي معراج الأرواح لمنازل الكمال ــ هو أفضل الأذكار •

وأيضاً ــ فان الذكر قلبي ولساني وعملي ، والقرآن محصل لذلك كله على أكمله كما سنبينه •

القرآن والذكر القلبي :

فالتالي للقرآن المتدبر لآياته يكون متفكراً في مخلوقات الله وما فيها من حكم ومن نعم ، وفي معاني أسمائه وصفاته ، وفي مظاهر رحمته واحسانه وبطشه وانتقامه ، وفي أسباب ثوابه وعقابه ، وفي مواقع رضاه وسخطه • كما يكون التالي أيضاً متبصراً في عقائده خبيراً بأدلتها ورد الشبه عنها ، كما يكون أيضاً مستحضراً لربه في قلبه باستحضار حقوقه ونعمه وآلائه ، اذ هذا كله مما تضمنته آي القرآن ، على أكمل بيان ، وأوضح برهــان •

القرآن والذكر اللساني :

وكذلك قد اشتمل القرآن على أفضل الأذكار اللسانية ، من تهليل وتكبير وتحميد وتسبيح وتمجيد واستغفار ودعاء ••• ، وعلى الأسماء

الحسنى والصفات العلى للرب تبارك وتعالى . فتاليه يكون ذاكراً بهذه الأذكار كلها .

القرآن والذكر العملي :

ان تلاوة القرآن بالتدبر تثمر للتالي التوبة والانابة ، والرجاء والخوف ، وذلك كله مما يكون له خير داعٍ الى الاستقامة ــ ولو بعض الشيء ، ــ في سلوكه العملي .

هذا شيء قليل مما للقرآن في الذكر بأنواعه الثلاثه ، الى ما فيه من علم مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وبسط أسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة في الدنيا والأخرى وعلم النفوس وأحوالها ، وأصول الأخلاق والأحكام وكليات السياسة والتشريع وحقائق الحياة في العمران والاجتماع ، ونظم الكون المبنية على الرحمة والقــوة والعدل والاحسان . الى ما تقصر عن عدّ الألسنة وتعجز عن الاحاطة به الأفهام ، وانما ينال كل تال منها على قدر ما عنده من سلامة قصد وصحة علم بتقدير وتيسير من الحكيم العليم .

نتيجة الاستدلال :

لهذه الادلة الاثرية والنظرية المذكورة وغيرها ذهب الأئمة من السلف والخلف الى أن قراءة القرآن أفضل من الذكر . قال سفيان الثوري : « سمعنا أن قراءة القرآن أفضل من الذكر » . نقله القرطبي في الباب السابع من كتاب التذكار . وقال النووي : « واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار ، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك » قاله في الباب الثاني من كتاب التبيان . [1] .

(١) ش : ج ٣ ، م ٥ ، ص ١ ــ ٦ . غرة ذي القعــدة ١٣٤٧ هـ ــ افريل ١٩٢٩ م .

القسم العملي

مقـدار التـلاوة :

قد كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يخلي ليله ولا نهاره من تلاوة القرآن وكان ـ كما قال القرطبي ـ يختمه في سبع • وهكذا قال لعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ : **« واقرا في كل سبع ليـال مرة »** وقد كان قال له أولاً : **« واقرا القرآن في كل شهر »** فلما قال انه يطيق أكثر من ذلك نقله الى العشرين والى الخمسة عشر والى العشر وانتهى به الى السبع في قول الأكثر • وكان هذا فعل الأكثرين من السلف • وعند الترمذي وغيره من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً : **« لا يفقه من قرا القرآن في اقل من ثلاث »** وهذا ترخيص فيما دون السبع وترغيب عما دون الثلاث • وقد فهم السلف من هذه الأحاديث بيان ما يكون وظيفته وحزباً يستمر عليه ، فلذا لم يمتنعوا من ختم القرآن في أقل من ذلك في مرات في بعض الأحوال • وقد ثبت عن كثير منهم ختم القرآن في ركعة واحدة •

ولا شك أن أحـوال حملة القرآن تختلف في التفرغ للتـلاوة والاشتغال بغيرها ، وأحوال الشخص الواحد في نفسه تختلف كذلك ، فيرتب حامل القرآن حزبه من الشهر الى السابع على حسب حاله • فاذا لم يكن من حملة القرآن فلا يخلُ ليله ولا نهاره من تلاوة شيء مما معه حسب استطاعته ، ولا يكن من الغافلين •

ما يقصده من التلاوة :

قراءة القرآن أفضل أعمال اللسان ، وتدبر معانيه أفضل أعمال القلب • هذا من حديث أبي أمامة عند الترمذي الذي قدمناه في القسم الأول • فليقصد التالي التقرب الى الله ـ تعالى ـ بهما •

والقرآن موعظة ترقق القلوب القاسية فليقصد تليين قلبه .

والقرآن شفاء لأدواء النفوس في عقائدها وأخلاقها وأعمالها فليقصد الشفاء به من ذلك كله .

والقرآن هدى ودلالة على كل ما يوصل الى سعادة الدنيا والأخرى فليقصد الاهتداء بهدايته .

والقرآن رحمة من الله للمؤمنين فليستنزل بتلاوته وتدبره الرحمة من الله — تعالى — بافاضة علوم القرآن على قلبه وبتوفيقه الى القيام بمقتضى هدايته .

ولا يسلم تالي القرآن — لانه غير معصوم — من ذنوب قد يصدأ لها قلبه ، فليقصد بتلاوته جلاء قلبه والتوفيق للتوبة من ذنبه . وليجعل تلاوته لأجل تحصيل التوبة من أعظم وسائله الى ربه . وقد مضى لك في الحديث القدسي في القسم الأول : « **مَنْ شغله قراءة القرآن عن مسالتي اعطيته افضل ما أعطى السائلين** » .

التحـذير :

زعم قوم : ان الصلاة على النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — خير لعامة الناس من تلاوة القرآن . قالوا : لأن الصلاة ثوابها محقق ولا يلحق فاعلها اثم ، والقرآن اذا تلاه العاصي كانت تلاوته عليه اثماً لمخالفته لما يتلوه . واستدلوا على هذا بقول أنس — رضي الله عنه — الذي تحسبه العامة حديثاً : « ربّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه » . فأدّى هذا بمعتقديه الى ترك قراءة القرآن أو التقليل منها . فليحـذر من هذا الرأي ومما أدى اليه .

للصلاة منزلتها وفضلها ، وللقرآن منزلته وفضله ، فليأت الذاكر من الصلاة ومن غيرها من أبواب الذكر بما لا يؤدي الى ترك أو تقليل تلاوة القرآن الذي هو أفضل الأذكار .

وهذا الرأي المتقدم في تفضيل الصلاة على التلاوة مخالف تمام المخالفة لما نقلناه في « نتيجة الاستدلال » عن أئمة السلف والخلف من أن قراءة القرآن أفضل من جميع الأذكار ، ولم يفرقوا في ذلك بين عامة وخاصة ، ومخالف كذلك لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن ، وذلك من وجوه :

الوجه الاول : ان المذنبين مرضى القلوب ، فان القلب هو المضغة التي اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله . فكل معصية يأتي بها الجسد هي من فساد في القلب ومرض به ، وان الله — تعالى — قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[1] » « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[2] » فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به بألفاظه ومعانيه . وذلك الرأي يصرف المذنبين عن تلاوته.

الوجه الثاني : ان القلوب تعتريها الغفلة والقسوة والشكوك والأوهام والجهالات . وقد تتراكم عليها هذه الأدران كما تتراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها ، وقد يصيبها القليل منها أو من بعضها ، ولا تسلم القلوب على كل حال من اصابتها ؛ فهي محتاجة دائماً وأبداً الى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن ، وقد أرشد النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — الى هذا — فيما رواه البيهقي في الشعب والقرطبي في التذكار — بقوله :« **ان القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد . قالوا :**

---

(١) ١٠/٥٧ يونس .

(٢) ١٧/٨٢ الاسراء .

يا رسول الله فما جلاؤها ؟ قال : تلاوة القرآن » . فمقصود الشارع من المذنبين **أن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم** ، وذلك الرأي يصرفهم عنه .

الوجه الثالث : ان الوعيد والترهيب قد ثبتا في نسيان القرآن بعد تعلمه وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها ، فروى أبو داوود عن سعد : **« ما من امريء يقرأ القرآن ثم ينساه الا لقي الله أجذم »** . وروى الشيخان عن عبد الله : **« استذكروا القرآن فانه أشد تقصياً من صدور الرجال من النعم »** . فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ ودفع النسيان وذلك الرأي أدى الى تقليلها أو تركها الموقع في النسيان .

والى مخالفته مقصود الشرع بهذه الوجوه فان له لوازم فاسدة :

منهـا : أن صلاة النافلة مرغب فيها على العموم ، وهي مشتملة على قراءة القرآن . فماذا يقول أصحاب هذا الرأي ؟ فهل يرغّبون المذنبين ــ أمثالنا ــ عن النافلة طرداً لأصلهم ؟ أم ينهون عن قراءة القرآن في النافلة فيقولون ما لم يقله أحد ؟ أم يقولون بالاقتصار على قراءة سورٍ فيتحكمون في الأحكام ؟ !

ومنها : أنه قلّ من يسلم من مخالفته للقرآن بعمله . فاذا ذهبنا مع ذلك الرأي حرم خلق كثير من تلاوة القرآن . وكفى بقول يؤدي الى هذا كله راداً على نفسه . وأما قولهم : « ان تالي القرآن يأثم بقراءته مع مخالفته » ، فهي دعوى لم يقيموا عليها من نص صحيح صريح من سنة أو كتاب ، بل الدليل قائم على خلافها ، فان المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة ولا يكتب عليه مرة ثانية اذا ارتكب ذنباً آخر، وانما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر . فكيف اذا باشر عبادة التلاوة ؟ والأصل القطعي ــ كتاباً وسنة ــ ان من جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهو يبطل أن تجدّد له سيئاته اذا جاء بحسنة تلاوة القرآن .

وأما قول أنس — رضي الله عنه — : « رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه » فليس معناه أن القرآن يلعنه لأجل تلاوته ، وكيف وتلاوته عبادة ؟ وانما معناه أنه ربما تكون له مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلاً فيكون داخلاً في عموم لعنه للظالمين والكاذبين ، فخرج هذا الكلام مخرج التقبيح لمخالفته القرآن مع تلاوته بعثاً للتالي على سرعة الاتعاظ بآيات القرآن وتعجيل المتاب ، لا مخرج الأمر بترك التلاوة والانصراف عنها . هذا هو الذي يتعين حمل كلام هذا الصحابي الجليل عليه بحكم الأدلة المتقدمة .

وثبت في الصحيح قوله — صلى الله عليه وآله وسلم — : **«من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»**. وهذا في المتعبد بالصيام الذي يوقع الزور والعمل به في وقت صيامه ، فيكون متلبساً بالعبادة والمخالفة في وقت واحد . ومع هذا فقد قال الشراح في معنى الحديث — والعبارة للقسطلاني — : « وليس المراد الأمر بترك صيامه اذا لم يترك الزور ؛ وانما معناه التحذر من قول الزور » ،فهو كقوله — عليه الصلاة والسلام — : **« من باع الخمر فليشقص الخنازير »**، أي يذبحها ، ولم يأمره بشقصها ولكنه على التحذير والتعظيم لاثم شارب الخمر . وكذلك حذَّر الصايم من قول الزور والعمل به ليتم له أجر صيامه . فمن باب أحرى وأولى أن لا يكون قول أنس — رضي الله عنه — محمولاً على طلب ترك التلاوة من المذنب لانه غير مباشر لذنبه في حال تلاوته ، وانما المقصود تحذيره من الاستمرار على المخالفة وترغيبه في المبادرة بالتوبة ليكمل له أجر تلاوته بكمال حالته .

هذا حظ العلم في الاستدلال على حاجة المذنبين الى تلاوة القرآن العظيم ، وأما حظ التجربة ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، ما رأيت — وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب — أعظم الانةً للقلب ،

واستدراراً للدمع ، واحضاراً للخشية ، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن .

نعود الى تتميم الكلام على التحذير :

ليحذر القاريء من السرعة في التلاوة التي تؤدي الى تخليط كلماته وتذهب بحلاوته وتسنع من بقاء أثره في النفس .

وليحذر من ذهاب قلبه مسترسلاً مع خواطره ، منصرفاً عن تدبره والتذكر به . واذا عرضت له الخواطر فليصرفها ليدفعها وليحمل فكره على تدبر آيات الكتاب ولا ينقطع عن التلاوة ، واذا كانت الخواطر لا تفارقه ، فان تصميمه على دفعها مع تكاثرها من جهاده لنفسه الذي يثاب عليه وينتهي به في الأخير الى الانتصار عليها .

وليحذر من الاستمرار على ما عنده من مخالفة لأوامر ونواهي الكتاب ، ومن عدم الخوف والوجل عند المرور بآيات الوعيد والتقريع على ذلك الذنب ، اذا لم يوفق للتوبة في بعضها فليستحضر الخشية والخشوع عند الآيات المتعلقة بذلك الذنب ، وليكررها وليتفهمها وليقف عندها وقفة العاجز الذليل الفقير المتضرع لربه ، المتعرض لرحمته ، بتلاوة كلامه ، فان هذا من أعظم الوسائل لتيسير التوبة .

فرتل القرآن ، وتدبر معانيه ، والتزم حدوده ، واضرع الى الله — تعالى — أن يرزقك التوبة فيما عندك له من مخالفة ، تكن من الفائزين باذن رب العالمين[1] .

---

(1) ش : ج ٤ ، م ٥ ، ص ١ — ٦ . غرة ذي الحجة ١٣٤٧ هـ — ماي ١٩٢٩ م .

خطبــة

في افتتاح دروس التفسير العام بالجامع الأخضر

الحمد لله الذي شرفنا بخطابه ، وألهمنا حفظ كتابه ، وجعلنا من أمة سيد أحبابه . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اختاره الله ـ تعالى ـ من صميم العنصر العربي ولبابه ، وحلاّه بأسمى معارف النوع البشري وأكمل آدابه ، وأرسله رحمة للعالمين ليكشف عن الدين ما كشف من حجابه ، ويهدي من سبقت له العناية الربانية الى أعتابه ، فأدّى الرسالة وبلّغ الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى رجع الحق الى نصابه . وعلى الغرّ الميامين من آله ، والشم الغطاريف من أصحابه ، وعلى التابعين لهم باحسان على مرّ الزمان وتوالي أحقابه .

أما بعد ، فان القرآن كلام الجبار ، وسيد الأذكار ، فيه من العلم ما يفتح البصـائر ، ومن الأدب ما ينوّر السرائر ، ومن العبر ما يبهر الألباب ، ومن الحكم ما يفتح للعلم والعمل كل باب ، هو القول الفصل ، والحكم العدل ، فمن استهدى بغيره ضل ، ومَن سلك غير نهجه زل ، ومن اتبعه كان على الصراط المستقيم .

فالحمد لله الذي يسّر لنا العودة الى تفسيره ، والكرع من عذب نميره . وطوبى وبشرى ـ ان شاء الله تعالى ـ لحاضري دروسه ، بالنفع العميم ، والأجر العظيم ، والنعيم المقيم .

والله نسأل أن يرزقنا الاخلاص في القصد ، والصحة في الفهم ، والبيان في القول ، والتوفيق في العمل ، والتيسير للختم ، انه المولى

الكريم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين [1] .

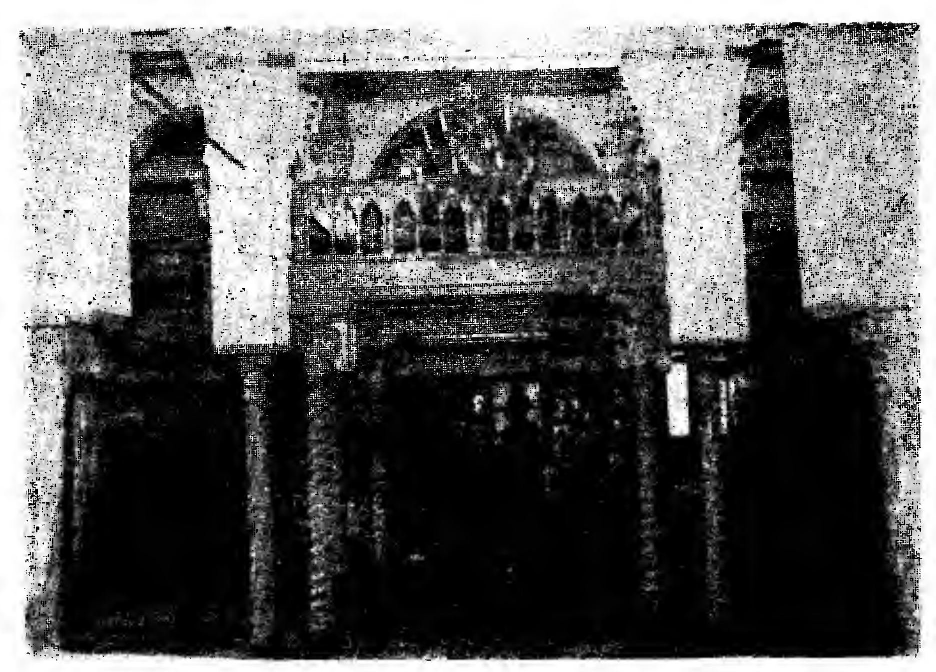


المقصورة الواقعة داخل الجامع الأخضر التي كان يجلس فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس قبل ابتداء الدرس ، والجامع الأخضر أسسه حسين باي للصلاة والتعليم سنة ١١٥٦ هـ

(١) ش : ج ١١ م ٦ ، ص ٥٩ ، غرة رجب ١٣٤٩ هـ ديسمبر ١٩٣٠ م .



منبر الجامع الأخضر



سدة الجامع الأخضر التي كان يعلم فيها بعض المواد التي تمنع فرنسة تدريسها كالتــاريخ والجغرافية



صورة عامة للحرم في مسجد سيدي الأخضر (الجامع الاخضر) الذي يعتبر أهــم مركز ثقافي واهــم مؤسسة تربوية علمية من المؤسسات التي علم فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله



الجامع الأخضر ومأذنتــه

افتتـــاح

الدروس العلميــة الاســلامية
بالجامع الاخضــر ومسجد سيدي قموش

خطبــة الافتتــاح

القاها عبد الحميد بن باديس بعد صلاة العشاء بالجامع الاخضر مفتتحاً بها درس تفسير القرآن العظيم الذي افتتح به التدريس كما هي العادة في كل سنة .

الحمد لله حمداً كبيراً كثيراً ، ومجده أكبر ، ورفده أكثر .

والشكر لله شكراً جزيلاً وفيراً ، ونعمته أجزل ورحمته أوفر .

أحمده ، قذف بالحق على الباطل فدمغه فأزهقه .

وأشكره ، نصر حزب الحق وبحلية آلائه طوقه .

وخذل حزب الباطل وبغصة كيده أشرقــه .

فله الحمد ، وله الشكر بدءاً وعوداً رب العــالمين .

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، توحيداً خالصاً له في ألوهيته وربوبيته .

وأشهد أن محمداً عبــده ورسوله تصديقاً صادقاً له في نبوّته ورسالته ، شهادة تتنكّب بها عن سبل الغالين والمقصرين .

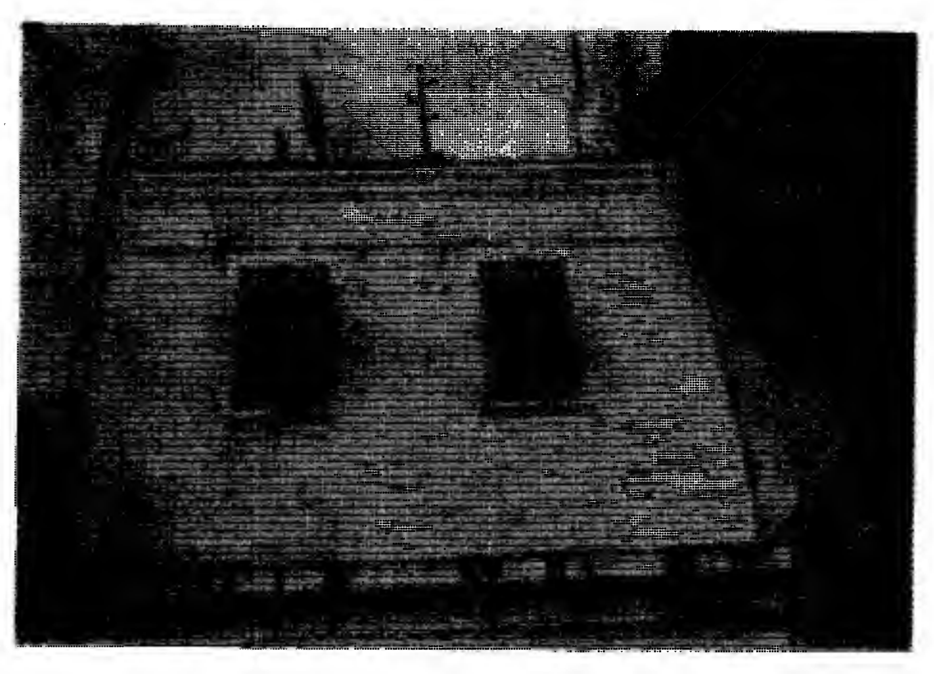
ونكون بها على ملّة ابراهيم — عليه السلام — :

« مَا كَانَ إبْراهِيمُ يَهودِيّاً وَلاَ نَصْرَانياً وَلكِنْ كَانَ حَنيفاً مُسْلِماً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » •

ونرجو بها من فضل ربنا أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين •

والصلاة والسلام على الشاهد المبشر النذير ، الداعي الى الله باذنه والسراج المنير ، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطاب العربي القرشي الهاشمي امام الأنبياء وخاتم المرسلين •

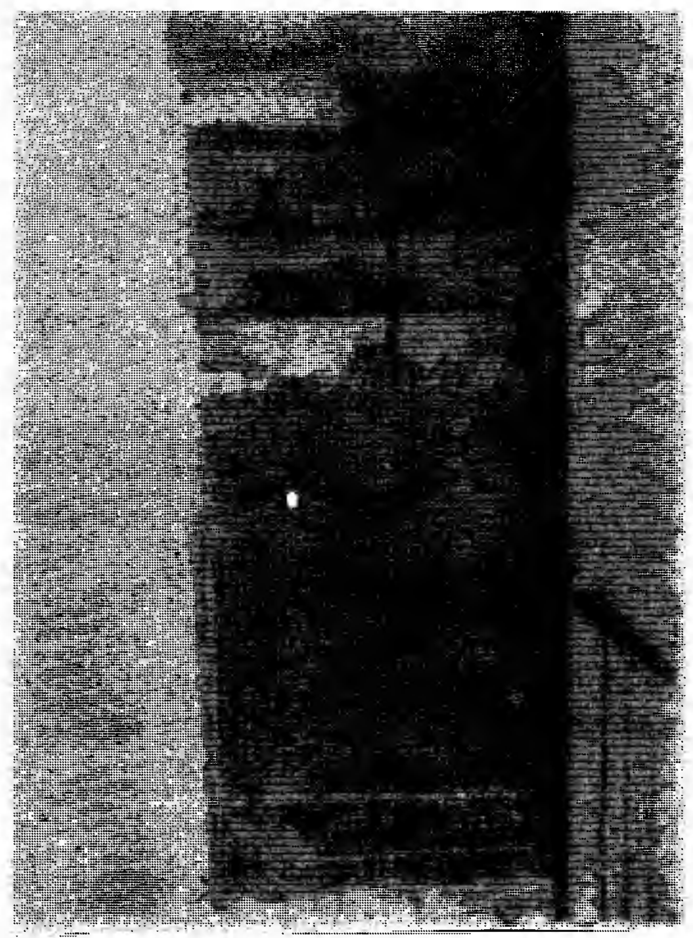
ورضي الله عن آله الطيبين الطاهرين ، وعن أصحابه الهادين المهتدين



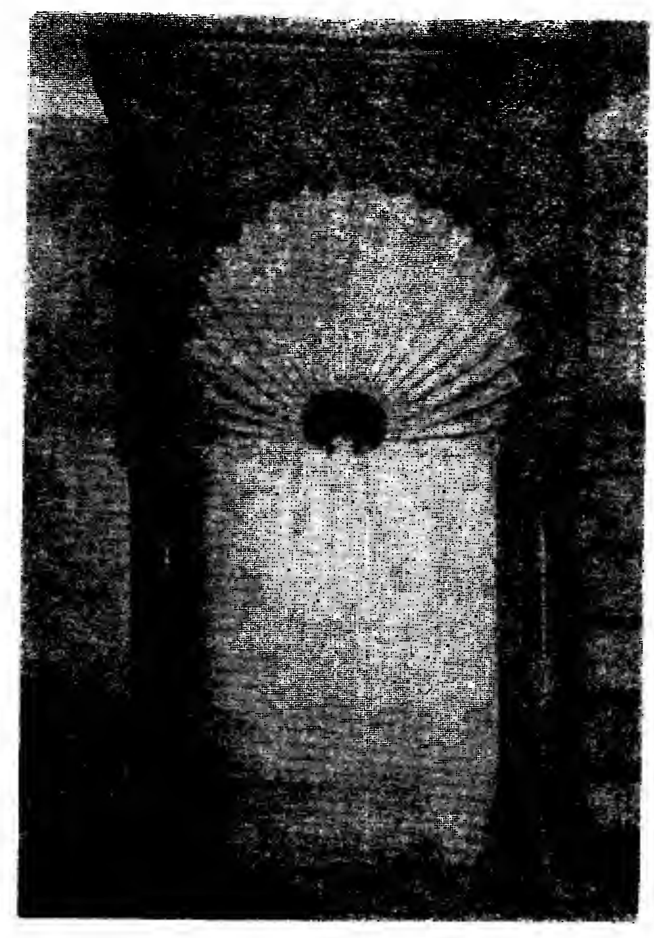
مسجد سيدي قموش : أسس سنة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م كما هو مكتوب عليه
كان يدرّس فيه الشيخ عبد الحميد (صورة خارجية)

وعن أئمة الهدى من صالح سلف المؤمنين ، وعن التابعين لهم باحسان من جميع المسلمين •

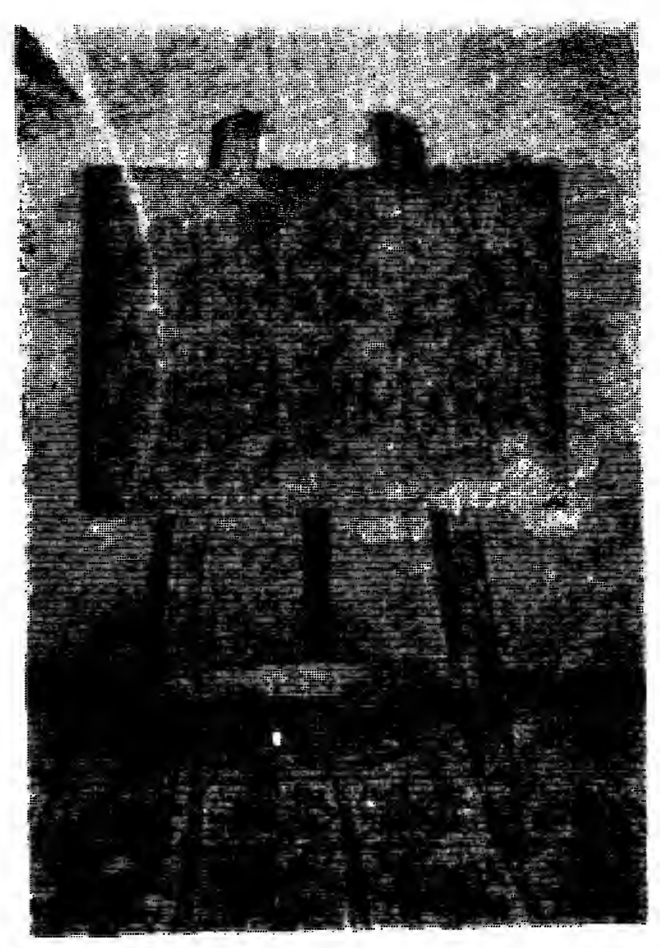
أما بعد ، فقد عدنا — بفضل الله — الى رياض القرآن المونقة ، وأنهاره العذبة المتدفقة ، وأنواره الواضحة المشرقة ، تتعظ بمواعظه الملينة للصخور ، وتتعالج بدوائه الشافي لما في الصدور ، ونستهدي بهداه الموضح للصراط المستقيم ، ونستنزل رحمته العامة للمؤمنين •



غرفة الشيخ عبد الحميد في مسجد سيدي قموش



محراب مسجد سيدي قموش



السبورة التي كان يعلم بها الشيخ عبد الحميد بن باديس
في مسجد سيدي قموش

وعدنا — والحمد لله — الى مدارسة القرآن العظيم الذي[1] أنزله الله آمراً وزاجراً ، وسنة خالية ، ومثلاً مضروباً فيه نبأنا ، وخبر مَن كان قبلنا وحكم ما بيننا لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عبره ، ولا تفنى عجائبه ، لا يشبع منه العلماء ، ولا تزيغ له الأهواء ، هو الحق ليس بالهزل •

من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن قسم به قسط ، ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هدي الى صراط مستقيم •

من طلب الهدى في غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله •

هو الذكر الحكيم ، وهو النور المبين ، هو الصراط المستقيم ، وهو حبل الله المتين ، فمن تمسك به نجا ، ومن تركه كان من الهالكين — عياذاً بالله السميع العليم •

فالله نسأله — كما وفقنا لقراءته ومدارسته — ان يوفقنا لفقهه ومتابعته ، وأن يجعله — في الدارين — حجة لنا لا علينا ، وأن يكون نوراً لنا في الدنيا والآخرة ، وفي عرصات القيامة ، وعلى متن الصراط حتى ندخل معه الجنة دار السلام بسلام آمنين ، آمين يارب العالمين[2]•

• •

---

(١) قد وصف القرآن العظيم بهذه الصفات في حديث الترمذي وغيره .

(٢) ش : ج ١٣ ، م ٩ ، ص ٥١٢ — ٥١٤ ، غرة شعبان ١٣٥٢ هـ — ديسمبر ١٩٣٣ م .

خطبة افتتاح

لدروس التفسير هاته السنة

جرت عادتنا أن نفتتح دروس التفسير من كل سنة بخطبة ، تارةً نخرج منها الى نفس التفسير وتارةً نطرق بعدها موضوعاً مناسباً للمقام . ولم نكن فيما مضى نعود الى كتابتها وفي هذه السنة راينا ان نحلي بها صدر الشهاب تعميما للفائدة .

الحمد لله الذي جمّل الانسان بالبيان ، وجمل البيان بالقرآن ، فالانسان دون بيان حيوانٌ أبكم ، والبيان دون قرآن كلام أجذم ، وذو البيان والقرآن هو الأكمل الأعظم ، قدراً وتقديراً ، والأحسن الأقوم ، عملاً وتفكيراً ، والأسعد الأكرم ، حالاً ومصيراً .

أحمده ، أرسل محمداً — صلى الله عليه وآله وسلم — بشيراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بأذنه وسراجاً منيراً ، وأنزل عليه القرآن تبصرةً وذكرى ، ومعجزة كبرى ، حجةً وتذكيراً ، وشرع لنا من دينه الحنيف ، مناهل العز والسعادة ، ومهد لنا من شرعه الشريف سبل الحسنى والزيادة ، رحمة منه — تعالى — وفضلاً كبيراً .

وأشكره ، هدانا واجتبانا ، فرضينا بالله ربّاً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن اماماً ، وحبّب الينا ديننا ، فوالله لو بذلت لنا الدنيا بحذافيرها في تركه ما ساوت عندنا حبة رغاماً ، توفيقاً منه تعالى ويقيناً صادقاً منا وبصراً بصيراً .

واستغفره لما كان منا من نقص وتقصير في الوفاء بعهده الحق وشكر فضله الكبير ، انه كان عفواً غفاراً شكوراً •

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد أشرف خلقه وأكرم رسله ، فرق بالقرآن بين الحق والباطل ، وهدى به الضالّ وعلّم به الجاهل ، وجاهد به — في الله — جهاداً كبيراً •

وعلى آله الأطهار ، وأصحابه الأخيار ، اقتفوا طريقته ، وأحيوا سنته ، فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقاهم نضرةً وسروراً • وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً •

وعلى بقية أمته ، وأهل ملته،لبوا دعوته وأموا غايته ناشطاً وحسيراً•

صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين الى يوم نلقى محمداً — صلى الله عليه وآله وسلم — ونسعد بلقائه ونحشر بين الأمم تحت لوائه ، ونجزى بمحبته — ان شاء الله تعالى — جزاءاً موفوراً •

أما بعد ، فقد عدنا — والحمد لله تعالى — الى مجالس التذكير ، من دروس التفسير ، نقتطف أزهارها ، ونجتني ثمارها ، بيسر من الله — تعالى — وتيسير • على عادتنا من تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية ، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية ، وربط الآيات ، بوجوه المناسبات ، معتمدين في ذلك على صحيح المنقول وسديد المعقول ، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون — رحمة الله عليهم أجمعين — • وعمدتنا فيما نرجع اليه من كتب الأئمة تفسير ابن جرير الطبري ، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية ، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية ، وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب •

وتفسير الكشاف الذي يمتاز بذوقه في الاسلوب القرآني وتطبيقه

فنون البلاغة على آيات الكتاب والتنظير لها بكلام العرب واستعمالها في أفانين الكلام .

وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات .

وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية ، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والانسان ، وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة في ذلك والحجاج .

الى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام ، وغيرها مما يقتضيه المقام .

نقول هذا ليعرف الطلبة مصادر درسنا ، ومآخذ ما يسمعونه منا . ونحن نعلم أننا ــ والله ــ كما قال أخو العرب :

لعمر أبيك ما نسب المعلّى الى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوح نبتها رعي الهشيم

وكما نقول في مثل : « انما نكحّل في موضع العينين » واذا نظرنا الى قصورنا وخطورة مقام الكلام على كلام الله ــ تعالى ــ أحجمنا . واذا رأينا الى فضل الله وثقتنا به وحسن قصدنا ــ ان شاء الله تعالى ــ في خدمة كتابه أقدمنا . وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا ، فنحن نقدم معتمدين على الله تعالى ، سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا الى حسن القصد ، وصحة الفهم ، وصواب القول ، وسداد العمل .

---

(١) ش : ج ١١ ، م ٥ ، ص ١ ــ ٤ غرة رجب ١٣٤٨ هـ ــ ديسمبر ١٩٢٩ م .

دعوة أهل الكتاب

« يَا أهْلَ الكِتَابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[1] » .

أرسل الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجميع الأمم فكانت رسالته عامة وكانت دعوته عامة مثلها . وجاءت آيات القرآن بالدعوة العامة في مقامات ، وبالدعوة الخاصة لبعض مَن شملتهم الدعوة العامة في مقامات أخرى . ولما أرسل الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان الخلق قسمين : أهل كتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ وغيرهم . وكان أشرف القسمين أهل الكتاب بما عندهم من النصيب من الكتاب الذي أوتوه على نسيانهم لحظٍ منه وتحريفهم لما حرفوا وكانوا أولى القسمين باتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما عرفوا قبله من الكتب والأنبياء ، فلهذا وذلك كانت توجه اليهم الدعوة الخاصة بمثل قوله تعالى : (يَا أهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا) الى آخر الآيتين . وفي ندائهم بياأهل الكتاب تشريف وتعظيم لهم باضافتهم للكتب ، وبعث لهم على قبول ما جاء به محمد ـ صلى الله

---

(١) ٥/١٥ ـ ١٦ المائدة .

عليه وسلم – لأنه جاء بكتاب ، وهم أهل الكتاب ، واحتجاج عليهم بأن الايمان بالكتاب الذي عندهم يقتضي الايمان بالكتاب الذي جاء به لأنه من جنسه •

ادب واقتداء :

هذا هو أدب الاسلام في دعوة غير أهله ليعلمنا كيف ينبغي أن نختار عند الدعوة لأحدٍ أحسن ما يدعى به وكيف ننتقي ما يناسب ما نريد دعوته اليه ، فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته اليك ويفتح لك سمعه وقلبه ، ودعاؤه بما يكره يكون حائل يبعد بينك وبينه • واذا كان هذا الأدب عاماً في كل تداع وتخاطب فأحق الناس بمراعاته هم الدعاة الى الله والمبينون لدينه ، سواء دعوا المسلمين أو غير المسلمين •

بيانه لهم ، حجته عليهم :

كانت كتبهم مقصورة على أحبارهم ورهبانهم مخفية عندهم لا تصل اليها أيدى عامتهم ، فكانوا لا يظهرون منها الا ما يشاؤون ، ولا تعرف عامتهم منها الا ما أظهروا ، فجاءهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو أمي من أمة أميَّة ، يبين لهم بما أنزله الله عليه وأوحى اليه من آيات الله وحججه وأحكامه وكلمات رسله فيما عندهم مما هو حجة عليهم مقداراً كثيراً ، ويتجاوز عن كثير مما عندهم من ذكر قبائح أسلافهم وذمهم ، وما لقي رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – من عنتهم وشرهم وأذاهم • فكان هذا البيان العليم وهذا الخلق الكريم من هذا النبي الأمي كافياً أن يعرفهم بنبوته وصدق دعوته ونهوض حجته ، ولهذا ذكر الله هذا البيان وهذا التجاوز في أول صفاته لما أخبرهم بمجيئه اليهم بقوله : « يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » •

تمثيـــل :

في أول الاصحاح العشرين من سفر اللاويين التصريح برجم الزناة فأبطل أحبارهم هذا الحكم وعوضوه بغيره من التخفيف وكتموا النص فبينه لهم النبي — صلى الله عليه وسلم — والقصة مشهورة في كتب السنن •

جاءت صفات النبي — صلى الله عليه وسلم — التي لا تنطبق على غــيره فكتموها مثــل قول عيسى عليــه الســلام • وفي الفقــرة الثانية عشرة وما بعدها في الاصحاح السادس عشر من انجيل يوحنا : (ان لي أموراً كثيرة ً أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمورٍ آتية • ذاك يمجدني لأنه يأخــذ مما لي ويخبركم) • صرح عيسى — عليــه السلام — بأن الله هو الإله وحده ، وأن عيسى رسوله ، فكتموها وقالوا فيه ما قالوا • جاء في الفقرة الثانية من الاصحاح السابع عشر من انجيل يوحنا قول عيسى — عليــه السلام — : (وهذه هي الحيــاة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) • وأمثال هذا فيما عندهم كثير •

ادب واقتــداء :

على الداعي الى الله والمناظر في العلم أن يقصد احقاق الحق وابطال الباطل واقناع الخصم بالحق وجلبه اليه ، فيقتصر من كل حديثه على ما يحصل له ذلك ، ويتجنب ذكر العيوب والمثالب — ولو كانت هنالك عيوب ومثالب — اقتداء بهذا الأدب القرآني النبوي في التجاوز مما في القوم عن كثير • وفي ذكر العيوب والمثالب خروج عن القصد وبعد عن الأدب وتعــد على الخصم وابعاد له وتنفير عن الاستمتاع والقبول وهما المقصود من الدعوة والمناظرة •

نعمة الاظهار والبيان بالرسول والقرآن :

لقد كان الناس أهل الكتاب وغيرهم قبل بعثه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في ظلام من الجهل بالله وبأنبيائه وبشرعه • ومن الجهل بآيات الله في أنفسهم وفي الكون • ومن الجهل بنعم الله عليه في أنفسهم بالعقل والفكر والاستعداد للخير والكمال ، وفي العالم المسخر لهم بما أودع فيه من مرافق العيش والعمران والحياة ، ومن الجهل بقيمة أنفسهم الانسانية وكرامتها وحريتها • فلما بعث الله محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان بقوله وبفعله وبسيرته معرفا للخلق لما كانوا يجهلون• فكان نوراً ساطعاً في ذلك الظلام الحالك فبدده عن البصائر • وكما أن النور الكوني يجلو الموجودات الكونية للأبصار فكذلك كان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك النور الروحي الرباني يجلو تلك الحقائق للبصائر ، وكما أن النور الكوني يظهر الموجودات الكونية فلا يحرم منها الا معدوم البصر فكذلك كان محمد ــ صلى الله عليم وسلم ــ ذلك النور الرباني مجلياً للحقائق البشرية كلها ولا يحرم من ادراكها الا مطموسو البصائر الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم •

وكما كان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ نوراً تنبعث من أقواله وأفعاله وسيرته الأشعةالكاشفة للحقائق ، كذلك كانالكتابالكريم الذي أنزله الله عليه يبين بسوره وآياته وكلماته تلك الحقائق أجلى بيان • فبمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكتابه تمت نعمة الله ــ تعالى ــ على البشرية كلها باظهار وبيان كل ما تحتاج الى اظهاره وبيانه • ولما دعا الله الى تصديق رسوله بالحجة العلمية الخلقية من بيانه وتجاوزه ذكر بهذه النعمة العظمى في قوله تعالى :

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ » •

محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ والقرآن نور وبيان :

في هذه الآية وصف محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأنه نور

ووصف القرآن بأنه مبين . وفي آيات أخرى وصف القرآن بأنه نور بقوله : « فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا[1] » ووصف الرسول بأنه مبين كقوله : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[2] » .

وهذا ليبين لنا الله — تعالى — أن اظهار النبي — صلى الله عليه وسلم — وبيانه واظهار القرآن وبيانه واحد ، ولقد صدقت عائشة — رضي الله عنها — لما سئلت عن خلق النبي — صلى الله عليه وسلم — فقالت : **(كان خلقه القرآن)** [3] .

استفادة :

نستفيد من هذا : أولا — أن السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان ولهذا يرد خبر الواحد اذا خالف القطعي من القرآن . وثانيا — أن فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي — صلى الله عليه وسلم — وسنته وفقه حياته — صلى الله عليه وسلم — يتوقف على فقه القرآن ، وفقه الاسلام يتوقف على فقههما .

اقتداء :

هذا نبينا — صلى الله عليه وسلم — نور وبيان ، وهذا كتابنا نور وبيان ، فالمسلم المؤمن بهما المتبع لهما له حظه من هذا النور وهذا البيان ، فهو على ما يسر له من العلم — ولو ضئيلا — يبينه وينشره ، يعرف به الجاهل ويرشد به الضال وهو بذلك وبعمله الصالح كالنور يشع على من حوله وتتسع دائرة اشعاعه وتضيق بحسب ما عنده من

(١) ٦٤/٨ التغابن .

(٢) ١٦/٤٤ النحل .

(٣) ذكره القاضي عياض في الشفاء وابن سعد في طبقاته .

علم وعمل . فعلى المسلم أن يعلم هذا من نفسه ويعمل عليه ليضرع الى الله دائماً في دعواته أن يمده بنوره وليدع بدعاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي كان يدعو به في ذلك وهو : **(اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نورا ، وعن يميني نورا ، وعن يساري نورا وتحتي نورا ، وامامي نورا ، وخلفي نورا ، واجعل لي نورا)** [1] .

الهداية ونوعها :

قد دل الله الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم ، وهذه هي هداية الدلالة وهي من فضل الله العام للناس أجمعين وبها وبما يجده كل عاقل في نفسه من التمكن والاختيار ـ قامت حجة الله على العباد . ثم يسر من شاء ـ وهو الحكيم العدل ـ الى العمل بما دل عليه من أسباب السعادة والكمال . وهذه هي دلالة التوفيق وهي من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته واقبلوا على ما أتاهم من عنده فآمنوا برسوله والنور الذي أنزل معه كما قال تعالى :

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ [2] »

وأما الذين أعرضوا عن ذكره وزاغوا عما دلهم عليه فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير كما قال تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [1] » .

فالمقبلون على الله القابلون لما أتاهم من عنده هُدوا دلالة وتوفيقاً والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة وحرموا من التوفيق جزاء اعراضهم .

---

(١) البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) ١٧/٤٧ محمد .

(٣) ٦١/٥ الصف .

بماذا تكون الهداية :

كما أنعم الله على عباده بالهداية الى ما فيه كمالهم وسعادتهم كذلك أنعم عليهم فبين لهم ما تكون به الهداية حتى يكونوا على بينة فيما به يهتدون ، اذ من طلب الهدى في غير ما جعله الله سبب الهدى كان على ضلال مبين • فلذا بيَّن تعالى أن هدايته لخلقه انما تكون برسوله وكتابه فيتمسك بها من يريد الهدى وليحكم على من لم يهتد بها بالزيغ والضلال • ولما كانا في حكم شيء واحد في الهداية يصدق كل واحد منهما الآخر ــ جاء بالضمير مفردا في قوله تعالى : « يَهْدِي بِهِ اللهُ » •

لمن تكون الهداية :

أما هداية الدلالة والارشاد وحدها فهي كما تقدم عامة ، وأما هداية الدلالة والارشاد مع التوفيق والتسديد فهي للذين اتبعوا ما جاءهم من عند الله من رسوله وكتابه ، وكانوا باتباعهم لهما متبعين لرضوانه المقتضي لقبوله ومثوبته وكرامته لهم ، ولم يتبعوا أهواءهم ومألوفاتهم وما ألفوا عليه آباءهم ولا أهواء الناس ورضاهم • فكان اتباعهم لرضوان الله سبباً في دوام ارشادهم وتوفيقهم وبقدر ما يكون ازدياد اتباعهم يكون ازدياد توفيقهم ، اذ قوة السبب تقتضي قوة المسبب ، والخير يهدي الى الخير والهدى يزداد بالاهتداء • وهذا الربط الشرعي بين التوفيق والاتباع يقتضي الربط ما بين ضديهما : الاعراض والخذلان وانه بقدر ما يكون الاعراض عن الهدى يكون الخذلان والحرمان والشر يدعو بعضه الى بعض والسيئة تجر الى السيئة • وقد أفاد تخصيص التوفيق بأهل الاتباع وجعل التوفيق مسببا عنه ــ بما في صلة الموصول من التعليل ــ قوله تعالى : (مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ) •

الى ماذا تكون الهداية :

فشؤون الشخص في نفسه وشؤونه فيما بينه وبين أهله وفيما بينه

وبين بنيه وفيما بينه وبين أقاربه وفيما بينه وبين جيرانه وفيما بينه وبين من تربطه به علاقة من علاقات الحياة ومصالحها ، وشؤون الجماعات وشؤون الأمم فيما بينها ، كل هذه الشؤون سبل وطرق في الحياة تسلك ويسار عليها للبلوغ الى الغايات المقصودة منها مما به صلاح الفرد والمجموع • وكلها ان سلكت بعلم وحكمة وعدل واحسان كانت سبل سلامة ونجاة والا كانت سبل هلاك ، فيحتاج العبد فيها الى ارشاد وتوفيق من الله — تعالى — • وقد منّ الله بفضله على العباد بهذا النبي الكريم والكتاب العظيم فمن آمن بهما واتبعهما ففيهما ما يهديه الى كل ما يحتاج اليه في كل سبيل من تلك السبل في الحياة وباتباعها • واتباعهما اتباع لرضوان الله ، يوفقه الله ويسدده في سلوك تلك السبل — الفردية والجماعية والأممية — الى ما يفضي به الى السلامة والنجاة • وتكون تلك السبل كلها له سبل سلام أي سلامة ونجاة لأنها أفضت به بارشاد الله وتوفيقه جزاء لاتباعه وتصديقه اليها كما قال تعالى :

« يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ[1] » •

الاخراج من حالات الحيرة الى حالة الاطمئنان :

تمر على العبد أحوال يكون فيها متحيراً مرتبكاً كمن يكون في ظلام ، منها حالة الكفر والانكار ، وليس لمنكر الحق المتمسك بالهوى والمقلد للآباء من دليل يطمئن به ولا يقين بالمصير الذي ينتهي اليه • ومنها حالة الشك ومنها حالة اعتراض الشبهات ومنها حالة ثوران الشهوات ، وكما أن الله يرشد ويوفق من اتبعوا رضوانه طرق السلامة والنجاة بالرسول — صلى الله عليه وسلم — والقرآن ، كذلك يخرجهم بهما باتباعهما والاهتداء بهما من ظلمات الكفر والشك والشبهات والشهوات وما فيها من حيرة وعماية الى الحالة التي تطمئن فيها القلوب كما تطمئن

---

(١) ١٨/٥ المائدة .

في النور عندما يسطع فيبدد سدول الظلام . فباتباعهما فقط تطمئن القلوب بالايمان واليقين ، فتضمحل أمامها الشبهات وتكسر سلطان الشهوات . فتلك الأحوال العديدة الظلمانية التي يكون فيها من اعراض عنهما أو خالفهما يخرج منها الى الحالة النورانية الوحيدة وهي حالة من آمن بهما واتبعهما كما قال تعالى :

« وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » .

على العبد أن يقبل ما فيه كماله وسعادته ومرضاة خالقه مما هداه الله اليه برسوله وكتابه وجعل قبوله له سببا في توفيقه واخراجه من الظلمات الى النور ، وعليه أن يعتقد أنه لا ينال شيئا من التوفيق وحظاً من النور الا باذن الله ، أي ارادته وتيسيره ، فلا يعتمد على نفسه ولا على أعماله ، وانما يكون اعتماده على الله ، فيحمله ذلك على الاجتهاد في العمل وعدم العجب به ودوام التوجه الى الله وصدق الرجاء فيه والخوف من عقابه ودوام المراقبة له . ولأجل لزوم هذا الاعتماد على الله الميسر للاسباب الذي لا يكون في ملكه الا ما أراد — قرن قوله (يَهدي) و (وَيُخْرِجُهُمْ) بقوله (بِإِذْنِهِ) .

الاسلام ، هو السبيل الجامع العام :

ما جاء به النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — والقرآن العظيم هو دين الله الاسلام ، فكل ما دل الله عليه الخلق بهما وما وفق اليه من العلم والعمل باتباعهما فهو من الاسلام ، ولهذا لما ذكر تعالى ارشاده وتوفيقه للذين اتبعوا رضوانه واخراجهم من الظلمات الى النور ذكر ارشاده وتوفيقه لهم الى الطريق المستوى الموصل الى الكمال والسعادة ومرضاة الله الجامع لذلك كله بقوله تعالى :

« وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

الرجوع الى كتاب الله وسنة رسول الله لازم دائم :

ان الحاجة الى ارشاد الله وتوفيقه دائمة متجددة ، فكل عمل من أعمال الانسان ، وكل حال من أحواله هو محتاج فيه الى هداية الله ودلالته ليعرف ما يرضاه الله منه مما لا يرضاه ، وهو محتاج فيه الى توفيق الله وتيسيره ليقوم بما يرضاه منه وشرعه له ودله عليه ، ولن يزال العبد ــ غير المعصومين ــ صلى الله عليه وسلم ــ تغشاه ظلمات الشبهات والشهوات فيحتاج الى دلالة الله وتوفيقه ليخرج منها الى نور الايمان والاستقامة . فالعبد المحتاج دائماً الى الرجوع الى كتاب الله وما ثبت من سنة نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليهتدي الى ما يرضي الله مما شرعه له من أحواله وافعاله ، والى ما يدفع عنه شبهاته وينقذه من شهواته ومحتاج الى التوسل بذلك الرجوع اليهما وذلك الاتباع لهما الى الله ــ تعالى ــ ليفتح له أبواب المعرفة ويمد له أسباب التوفيق . وهذا هو القصد من صيغة المضارع المفيدة للتجدد في قوله تعالى : « يَهْدِي » و « يُخْرِجُهُمْ » و « يَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

جعلنا الله من المتبعين لرضوانه ، الرجاعين لكتابه وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الفائزين منهما بالهداية ، لخير غاية ، باذنه وفضله ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير[1] .

(١) ش : ج ٣ ، م ١١ ، ص ١٣٥ ــ ١٤٤ ــ ربيع الاول ١٣٥٤ هـ ــ جوان ١٩٣٥ م .

سبيل السعادة والنجاة

« قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١) » .

خلق الله محمداً ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ أكمل الناس وجعله قدوتهم وفرض عليهم اتباعه والائتساء به . فلا نجاة لهم من المهالك والمعاطب ولا وصول لهم الى السعادة في دنياهم وأخراهم ومغفرة خالقهم ورضوانه ، الا باقتفاء آثاره والسير في سبيله .

فلهذا أمر الله نبيه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أن يبين سبيله بيانا عاماً للناس تتضح المحجة للمهتدين وتقوم الحجة على الهالكين . أمره أن يبينها البيان الذي يصيرها مشاهدة بالعيان ويشير اليها كما يشار الى سائر المشاهدات فقال له : (قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي) . ثم بين سبيله بثلاثة أشياء : الدعوة الى الله على بصيرة ، وتنزيه الله ـــ تعالى ـــ والبراءة من المشركين . فقال : « أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

الدعوة الى الله :

فالنبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من يوم بعثه الله الى آخر لحظة من حياته كان يدعو الناس كلهم الى الله بأقواله وأفعاله وتقريراته وجميع مواقفه في سائر مشاهده ، وكانت دعوته هذه بوجوهها كلها واضحة

---

(١) ١٢/١٠٨ يوسف .

جلية لا خفاء بها ، كما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : **((وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء))** [1]فكانت مشاهدة معينة كما أشير اليها في الآية اشارة المعاين المشاهد •

كان يدعو الى دين الله ويبين هو ذلك الدين وبمثله يدعو الى عبادة الله وتوحيده وطاعته ، ويشاهد الناس تلك العبادة والتوحيد والطاعة فكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ كله دعوة الى الله • فما دعا الى نفسه ، فقد مات ودرعه مرهونة في دين ، وما دعا الى قومه ، فقد كان يقول : **لا فضل لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود الا بتقوى الله** • كان يدعو الناس كلهم ، اذ هو رسول الله الى الناس كلهم فكتب الكتب وأرسل الرسل فبلغت دعوته الى الأمم وملوك الأمم • كان يدعو الكافرين كما يدعو المؤمنين ، يدعو أولئك الى الدخول في دين الله ، ويدعو هؤلاء الى القيام بدين الله ، فلم ينقطع عن الانذار والتبشير ، والوعظ والتذكير •

كان يدعو الى الله على بينة وحجة يحصل بها الادراك التام للعقل حتى يصير الأمر المدرك واضحا لديه كوضوح الأمر المشاهد بالصبر فهو على بينة ويقين من كل ما يقول ويفعل ، وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة الى الله في حياته كلها وفي جميع أحواله • وكانت دعوته المبنية على الحجة والبرهان مشتملة على الحجة والبرهان ، فكان يستشهد بالعقل ويعتقد بالعلم ويستنصر بالوجدان ويحتج بأيام الله في الأمم الخالية وما استفاض من أخبارها وبقي من آثارها من أنباء الأولين وما يمر الناس عليه مصبحين وبالليل •

على كل مسلم أن يكون داعياً الى الله :

لقد كان في بيان أن الدعوة الى الله هي سبيل محمد ــ صلى الله

---

[1] رواه ابن ماجة عن طريق ابي الدرداء ــ رضي الله عنه ــ بسند موثق وفيه ابن سميع قال فيه ابن عدي : حسن الحديث .

عليه وسلم ـــ ما يفيد ان على اتباعه ـــ وهو قدوتهم ولهم فيه الأسوة الحسنة ـــ أن تكون الدعوة الى الله سبيلهم ـــ ولكن لتأكيد هذا عليهم وبيان أنه من مقتضى كونهم أتباعه وأن اتباعهم له لا يتم الا به ـــ جاء التصريح بذلك هكذا :

« أدْعُو إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » •

فالمسلمون أفراداً وجماعات عليهم أن يقوموا بالدعوة الى الله وأن تكون دعوتهم على بينة وحجة وايمان ويقين • وان تكون دعوتهم وفقاً لدعوته وتبعاً لها • فمن الدعوة الى الله دروس العلوم كلها مما يفقه في دين الله ويعرف بعظمة الله وآثار قدرته ويدل على رحمة الله وأنواع نعمته ، فالفقيه الذي يبين حكم الله وحكمته داع الى الله ، والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنفعته داع الى الله ، ومثلهما كل مبين في كل علم وعمل • ومن الدعوة الى الله بيان حجج الاسلام ودفع الشبه عنه ونشر محاسنه بين الأجانب عنه ليدخلوا فيه وبين مزعزعي العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه • ومن الدعوة الى الله مجالس الوعظ والتذكير لتعريف المسلمين بدينهم وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به ، وتحبيبهم فيه ببيان ما فيه من خير وسعادة لهم ، وتحذيرهم مما أدخل من محدثات عليه هي سبب كل شقاوة وشر لحقهم ، وبيان أنه ما من سبب مما تسعد به البشرية ، أفرادها وأممها ، الا بينه لهم ودعاهم اليه • وما من سبب مما تشقى به البشرية افرادها وأممها الا بينه لهم ونهاهم عنه • وبيان أنه لولا عقيدته المتأصلة فيهم وبقاياه الباقية لديهم ومظاهره القائمة بهم لما بقيت لهم ـــ وهم المجردون من كل قوة ـــ بقية ، ولتلاشت أشلاؤهم ـــ وهم الأموات ـــ في الأمم الحية •

ومن الدعوة الى الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء ، وانما يتنوع الواجب بحسب

رتبة الاستطاعة . فيجب باليد فان لم يستطيع فباللسان فان لم يستطع فبالقلب وهو أضعف الايمان وأقل الاعمال في هـذا المقام . ومن الدعوة الى الله ظهور المسلمين ــ أفراداً وجماعات ــ بما في دينهم من عفة وفضيلة ، واحسان ورحمة وعلم وعمل ، وصدق وأمانـة ، فذلك أعظم مرغب للأجانب في الاسلام ، كما كان ضده أعظم منفر لهم منه . وما انتشر الاسلام أول أمره بين الأمم الا لأن الداعين اليه كانوا يدعون بالأعمال كما يدعون بالقول ، وما زالت الأعمال عيارا على الأقوال . ومن الدعوة الى الله بعث البعثات الى الأمم المسلمة ونشر الكتب بألسنتها وبعث المرشدين الى عوام الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم . كل هذا من الدعوة الى الله ثابتة أصوله في سنة النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وسنة السلف الصالح من بعده . فعلى كل مسلم أن يقوم بما استطاع منه في كل وجه من وجوهه ، وليعلم أن الدعوة الى الله على بصيرة هي سبيل نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسبيل اخوانه الأنبياء ــ صلى الله عليهم وسلم ــ من قبله ، فلم يكن المسلم ليدع من هذا المقام ثابتاً لكل مسلم ومسلمة ، وحقا القيام به ــ بقدر الاستطاعة ــ على كل مسلم ومسلمة ــ فأهل العلم به أولى وهو عليهم أحق . وهم المسؤولون عنه قبل جميع الناس ، وما أصاب المسلمين ما أصابهم الا يوم قعد أهل العلم عن هذا الواجب . واذا عادوا الى القيام به ــ وقد عادوا والحمد لله ــ أوشك ــ ان شاء الله ــ أن ينجلي عن المسلمين مصابهم .

تفرقـة :

ليس كل من زعم أنه يدعو الى الله صادقا في دعواه ، فلا بد من التفرقة بين الصادقين والكاذبين والفرق بينهما ــ مستفادا من الآية ــ بوجهين : الأول أن الصادق لا يتحدث عن نفسه ولا يجلب لها جاها ولا مالا ولا يبغي لها من الناس مدحا ولا رفعة . أما الكاذب فانه

بخلافه فلا يستطيع أن ينسى نفسه في أقواله وأعماله • وهذا الفرق من قوله تعالى : (الى الله) • الثاني : أن الصادق يعتمد على الحجة والبرهان فلا تجد في كلامه كذبا ولا تلبيسا ولا ادعاء مجردا ، ولا تقع من سلوكه في دعوته على التواء ولا تناقض ولا اضطراب • وأما الكاذب فانه بخلافه ، فانه يلقي دعاويه مجردة ويحاول تدعيمها ، بكل ما تصل اليه يده ولا يزال لذلك في حنايا وتعاريج لا تزيده الا بعدا عن الصراط المستقيم • وهذا الفرق من قوله تعالى : (عَلَى بَصِيرَةٍ) •

مباحث لفظية :

(على بصيرة) : يتعلق بأدعو واختيرت (على) لتدل على تمـام التمكن • (أنا) : تأكيد للضمير المستتر في أدعو • ونكتته الاعلان بنفسه في مقام الدعوة وشأن الداعي على بصيرة أن يجهر بدعوته ولا يستتر بها ، واتصال اللفظ الدال عليه باللفظ الدال على أتباعه كما تتصل دعوتهم بدعوته • وشأن الصورة اللفظية مطابقة الصورةالخارجية، والكلام تصوير للواقع • (من) : تفيد للعموم لكل تابع ، وأكملهم في الاتباع أكملهم في الدعوة ، لأن الموصول يفيد التعليل بصلته ، فهم يدعون لأنهم متبعون •

تنزيه الله تعـالى :

الاعتراف بوجود خالق للكون يكاد يكون غريزة مركوزة في الفطرة ويكاد لا تكون لمنكريه – عنادا – نسبة عددية بين البشر • ولكن أكثر المعترفين بوجوده قد نسبوا اليه ما لا يجوز عليه ولا يليق بجـلاله من الصاحبة والولد والمادة والصورة والحلول والشريك في التصرف في الكون والشريك في التوجه والضراعة اليه والسؤال منه والاتكال عليه •

فأرسل الله الرسل ليبيِّنوا للخلق تنزهه عن ذلك كله • وكان من سبيل محمد – صلى الله عليه وآله وسلم – أنه يدعو الخلق الى الله وينزهه

عن كل ما نسبه اليه المبطلون وتخيله المتخيلون ، وهو معنى قوله « وَسُبْحَانَ اللهِ » • فهو يدعوهم الى الله الذي قد عرفوا وجوده بفطرتهم وعرفوا أنه هو خالق الكون وخالقهم ، لا يسميه الا بما سمى به نفسه ، ولا يصفه الا بما وصف به نفسه ، ويعرفهم بآثار قدرته ومواقع رحمته ومظاهر حكمته وآيات ربوبيته والوهيته ووحدانيته في جلاله وسلطانه وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته ، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله •

وهذا التنزيه ــ وان كان داخلا في الدعوة الى الله ــ فانه خصص بالذكر لعظم شأنه ، فانه ما عرف الله من شبهه بخلقه أو نسب اليه ما لا يليق بجلاله أو أشرك به سواه • وان ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية ، فمن أعظم وجوه الدعوة وألزمها تنزيه الله ــ تعالى ــ عن الشبيه والشريك وكل ما لا يليق • والمسلمون المتبعون لنبيهم ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الدعوة الى الله على بصيرة متبعون له في هذا التنزيه عقدا وقولا وعملا واعلانا ودعوة •

مباحث لفظية :

(سبحان) منصوب بفعل محذوف تقديره ، أسبح ، أي انزه • والجملة معطوفة على جملة أدعو ، فهي من بيان القبيل •

البراءة من المشركين :

الأمة التي بعث منها النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهي أول أمة دعاها الى الله هي الأمة العربية ، وهي أمة كانت مشركة تعرف أن الله خلقها ورزقها وتعبد مع ذلك أوثانها ، تزعم أنها تقربها الى الله وتتوسط لها لديه • فكان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما يدعو الى الله وينزهه يعلن ببراءته من المشركين وانه ليس منهم براءة من عقيدتهم وأقوال وأعمال شركهم ، فهو مباين لهم في العقد والقول والعمل مباينة

الضد للضد • فكما باين التوحيد الشرك باين هو المشركين وذلك معنى قوله : « وَمَا أنا مِنَ المُشْرِكِينَ » •

وهذه البراءة والمباينة ، وان كانت مستفادة من انه يدعو الى الله وينزهه فانها نص عليها بالتصريح لتأكيد امر مباينة المشركين (والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جلية وخفيه) في جميع مظاهر شركهم حتى في صورة القول كما شاء الله وشاء فلان • فلا يقال هكذا ويقال : ثم شاء فلان ، كما جاء في حديث بيناه في جزء من الأجزاء الماضية ، أو في صورة الفعل ، كأن يسوق بقرة أو شاة مثلا الى ضريح من الأضرحة ليذبحها عنده فانه ضلال كما قاله (الشيخ الدرديري في باب النذور) • فضلا عن عقائدهم كاعتقاد أن هنالك ديوانا من عباد الله يتصرف في ملك الله ، وأن المذنب لا يدعو الله وانما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات ، وذلك الميت يدعو له الله • ـ لتأكيد أمر المباينة للمشركين ، في هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا ، وللبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جليه وخفيه •

والمباينة والتبري لازمة من كل كفر وضلال ، وذلك مستفاد من الدعوة الى الله وتنزيهه • وانما خصص المشركين لما تقدم ، ولأن الشرك هو شر الكفر وأقبحه • ولما كانت هذه المباينة والبراءة داخلة في الدعوة الى الله وتنزيهه ، فالمسلمون المتبعون لنبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يدعون الى الله على بصيرة وينزهونه ، يباينون المشركين في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ويطرحون الشرك بجميع وجوهه ويعلنون براءتهم وانتفاءهم من المشركين • والحمد لله رب العالمين [1] •

---

(١) ش : ج ١ ، م ١١ ص ٤ ـ ١٠ ، محرم ١٣٥٤ هـ ـ افريل ١٩٣٥ م •

كيف تكون

الدعوة الى الله والدفاع عنها

« أُدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ »[1].

سبيل الرب جلّ جلاله :

شرع الله لعباده بما أنزل من كتابه وما كان من بيان رسوله ما فيه استنارة عقولهم وزكاء نفوسهم واستقامة أعمالهم . وسمّاه سبيلا ليلتزموه في جميع مراحل سيرهم في هذه الحياة ، ليفضي بهم الى العناية المقصودة ، وهي السعادة الأبدية في الحياة الأخرى . واضافه الى نفسه ليعلموا أنه هو وضعه ، وأنه لا شيء يوصل الى رضوانه سواه . وذكر من أسمائه الرب ، ليعلموا أنّ الرب ـ الذي خلقهم وطورهم ولطف بهم في جميع أطوار خلقهم ومراحل تكوينهم ـ هو الذي وضع لهم هذه السبيل ، لطفاً منه بهم واحساناً اليهم ، لينهجوها في مراحل حياتهم . فكما كان رحيماً بهم في خلقه كان رحيماً بهم في شرعه . فيسيروا فيها عن رغبة ومحبة فيها ، ومع شكر له وشوق اليه . وأمر نبيه صلّى الله عليه وآله وسلم أن يدعو الناس أجمعين ـ وحذف معمول ادع لافادة العموم ـ الى هذه السبيل فقال تعالى : « أدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ » .

---

(١) ١٦/٢٥ النحل .

اهتـــداء :

أمر الله نبيه ــ صلّى الله عليه وسلم ــ أن يدعو الى سبيل ربه ، وهو الأمين المعصوم ، فما ترك شيئا من سبيل ربه الا دعا اليــه ، فعرفنا بهذا أن ما لم يدع اليه محمد ــ صلّى الله عليه وسلم ــ فليس من سبيل الرب جلّ جلاله ، فاهتدينا بهذا ــ وأمثاله كثــير ــ الى الفرق بين الحق والبــاطل ، والهدى والضــلال ، ودعاة الله ودعاة الشيطان • فمن دعا الى ما دعا اليه النبي ــ صلّى الله عليه وسلم ــ فهو من دعاة الله ، يدعو الى الحق والهدى ، ومن دعا الى ما لم يدع اليه محمد صلّى الله عليه وآله وسلم فهو من دُعاة الشيطان يدعو الى الباطل والضلال •

اقتــداء :

فالمسلم المتبع للنبيّ ــ صلّى الله عليه وسلم ــ لا يألو جهدا في الدعوة الى كل ما عرف من سبيل ربه • وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع تتضح السبيل للسالكين ، ويعم العلم بهــا عند المسلمين ، وتخلو سبل الباطل على دعاتها من الشياطين •

أركان الدعوة :

أركان الدعوة أربعة : الداعي ، وهو النبيّ ــ صلّى الله عليــه وآله وسلم ــ • والمدعو ، وهم جميع الناس • والمدعو اليــه ، وهو سبيل الرب جلّ جلاله • والدعوة الى سبيله الموصل اليه دعوة اليه ، فالمدعو اليه في الحقيقة هو الله تعالى ، والبيان عن الدعوة • وتجيء الآيات القرآنية منها ما هو حديث وبيان عن الداعي ، ومنها ما هو حديث وبيان عن المدعو اليه ، ومنها حديث وبيان عن بيان الدعوة • وتتضمن كل آية جاءت في واحد الذكر أو الاشارة للثلاثة الأخرى ، وهذه الآية الكريمة جاءت في بيــان كيفية الدعوة ، وبماذا تؤدي

وكيف يدافع عنها مع ذكر الدّاعي والمدعو اليه . فقال تعالى :

« بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

الحكمة :

الحكمة هي العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن ، المبني على ذلك العلم . فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخاً تظهر آثاره على الأقوال والأعمال حكمة . والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التي اثمرتها تلك العقائد : حكمة ، والأخلاق الكريمة كالحلم والاناة وهي علم وعمل نفسي : حكمة . والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع . حكمة ، تسمية للدال باسم المدلول .

استدلال واستنتاج :

في سورة الاسراء ثمان عشرة آية ، جمعت أصول الهداية ، من قوله تعالى :

« لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً » إلى : « وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً » .

وقد تكلمنا عليها في الجزء ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، من المجلد السادس وقد جمعت تلك الآيات كل ما ذكرنا من العقائد الحقة والحقائق العلمية والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة والأخلاق الكريمة ، وسمى الله ذلك كله حكمة فقال تعالى :

« ذلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ »(١) .

---

(١) روى الثلاثة البخاري في كتاب الأدب باب ما يجوز من الشعر.

وقال النبي ــ صلّى الله عليه وسلم ــ : **« انّ من الشعر حكمة »** وذلك لأن من الشعر ما فيه بيان عن عقيدة حق أو خلق كريم أو عمل صالح أو علم وتجربة • كشعر أمية ابن ابي الصلت الذي قال فيه النبي ــ صلّى الله عليه وسلم ــ : **كاد ان يسلم**،وككلمة لبيد ــ رضي الله عنه :

« ألا كُلُّ شَيء مَا خَلا الله بَاطِلُ » •

التي قال فيها ــ صلّى الله عليه وسلم : **« أصدق كلمة قالها الشاعر »**•

فالحكمة ــ التي أمر الله نبيه ــ صلّى الله عليه وسلم ــ أن يدعو الناس الى سبيل ربه بها ــ هي البيان الجامع الواضح للعقائد بأدلتها ، والحقائق ببراهينها ، والأخلاق الكريمة بمحاسنها ، ومقابح أضدادها ، والأعمال الصالحة ــ من أعمال القلب واللسان والجوارح - بمنافعها ومضار خلافها • وهكذا كان بيانه لهذه الأشياء كلها بما صحّ من أحاديثه وجوامع كلمه ، وهكذا هو بيان القرآن لها كلها حيثما كانت من آياته ، فآيات القرآن واحاديثه ــ صلّى الله عليه وسلم ــ في بيان هذه الأشياء ــ البيان المذكور ــ هما الحكمة التي كان يدعو الى سبيل ربه بها • وتلك الأشياء كلها أيضا حكمة ، وهي التي كان يعلمها كما في قوله تعالى : « وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ »•

فصلّى الله عليه وآله وسلم من داع الى الحكمة بالحكمة ومعلم للحكمة بالحكمة •

اهتداء واقتداء :

هدتنا الآية الكريمة الى أسلوب الدعوة ، وهو الحكمة ، وتجلت هذه الحكمة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية • فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دعونا • ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا فبها يحصل الفهم واليقين والفقه في الدين والرغبة في العمل

والدوام عليه . وها نحن قد بلغ الحال بنا الى ما بلغ اليه من الجهل بحقائق الدين والجمود في فهمه والاعراض عن العمل به والفتور في العمل .

فحق على أهل الدعوة الى الله — وخصوصاً المعلمين — أن يقاوموا ما بيّنا من جهل وجمود واعراض وفتور بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها والعقائد ببراهينها والأخلاق بمحاسنها والأعمال بمصالحها . وقد وجد الأخذ بهذه الأساليب القرآنية والحمد لله — وأخذ أثرها — بفضل الله — يظهر في الناس بقدر الأخذ بها ، ويوشك أن تتجدد بذلك في المسلمين حياة ان شاء الله .

الموعظة الحسنة :

الوعظ والموعظة الكلام الملين للقلب ، بما فيه من ترغيب وترهيب ، فيحمل السامع اذا اتعظ وقبل الوعظ واثر فيه على فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه . وقد يطلق على نفس الأمر والنهي .

الاستدلال :

ففي حديث العرباض الذي رواه الترمذي وغيره : وعظنا — رسول الله صلّى الله عليه وسلم — موعظة وجلت — خافت — منها القلوب وذرفت — سالت — منها العيون . فقد خطب فيهم خطبة كان لها هذا الأثر في قلوبهم فهذه حقيقة الموعظة ، وقال تعالى :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ »[1] . أي يؤمرون به ، وقال تعالى :

« يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً »[2] .

---

(1) ٤/٦٥ النساء .

(2) ٢٤/١٧ النور .

أي ينهاكم . فهذا من اطلاق الوعظ على الأمر والنهي ، لأن شأن الأمر والنهي أن يقترن بما يحمل على امتثاله من الترغيب والترهيب .

بماذا تكون الموعظة :

يكون الوعظ بذكر أيام الله في الأمم الخالية ، وباليوم الآخر وما يتقدمه وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم ومصيرهم الى الجنة أو الى النار ، وما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب أليم ، وبوعد الله ووعيده . وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ ويكون بغيرها كتذكير الانسان بأحوال نفسه ليعامل غيره بما يجب أن يعامل به وهو من أدق فنون الوعظ وأبلغها مثل قوله تعالى : — وقد نهى أن يقال لمن ألقى السلم لست مؤمناً — .

« كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ »[1] .

وقوله تعالى — وقد أمر بالعفو والصفح — :

«أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»[2].

تفريق بالتمثيل :

يقول الله تعالى : « وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » [3] هذه حكمة . ويقول الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً »[4]

---

(١) ٩٣/٤ النساء .

(٢) ٢٢/٢٤ النور .

(٣) ١٥٢/٦ الانعام و ٣٤/١٧ الاسراء .

(٤) ٩/٤ النساء .

هذه موعظة ، ويقول تعالى : « وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ » (1) . هذه أيضاً موعظة . « وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ »(2) هذه حكمة.« فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (3) . هذه موعظة : « وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّور ، حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » (4) ، هذه حكمة . « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » (5) هذه موعظة . وهكذا تمتزج الحسنة بالحكم البالغة في آيات القرآن الكريم فتتبعها في جميع سوره تجدها وتدبرها تقع منها على علوم جمة وأسرار غزيرة .

حسن الموعظة :

الموعظة التي تحصل المقصود منها من ترقيق للقلوب للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة هي الموعظة الحسنة . وانما يحصل المقصود منها اذا حَسُن لفظها بوضوح دلالته على معناها . وحسن معناها بعظيم وقعه في النفوس ، فعذبت في الأسماع واستقرت في القلوب وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية فأثارت الرغبة والرهبة

(1) ٤/٨ النساء .
(2) ١٦/٩٤ النحل .
(3) ١٦/٩٤ النحل .
(4) ٢٢/٣٠ ــ ٣١ الحج .
(5) ٢٢/٣١ الحج .

وبعثت الرجاء والخوف بلا تقنيط من رحمة الله ولا تأمين من مكره وانبعثت عن ايمان ويقين وتأدّت بحماس وتأثر فتلقتها النفس من النفس وتلقنها القلب من القلب الا نفساً أحاطت بها الظلمة وقلباً عم عليه الران • عافى الله قلوب المؤمنين •

تطبيق واستدلال :

كل هذا تجده في مواعظ القرآن وفيما صحّ من مواعظ النبي – صلّى الله عليه وسلم – • وكان – صلّى الله عليه وسلم – كما جاء في الصحيح اذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته واحمرت عيناه وانتفخت أوداجه • كأنه منذر جيش يقول صبحكم – أغار عليكم في الصباح – مساكم – أغار عليكم في المساء – وكان يقصر خطبه في بلاغة وايجاز •

اهتداء واقتداء :

هدتنا الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها الى أن من الموعظة ما هو حسن وهو الذي تكون به الدعوة ، ومنها ما هو ليس بحسن فيجتنب • وبينت مواعظ القرآن ومواعظ النبي – صلّى الله عليه وسلم – ذلك الحسن • فعلينا أن نلتزمه لأنه هو الذي تبلغ به الموعظة غايتها وتثمر باذن الله ثمرتها ، وعلينا أن نجتنب كل ما خالفه مما يعدم ثمرة الموعظة ، كتعقيد ألفاظها ، أو يقلبها الى ضدّ المقصود منها ، كذكر الآثار الواهية التي فيها أعظم الجزاء على أقل الأعمال •

تحذير :

أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة مسجعة طويلة من مخلفات الماضي لا يُراعى فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين تلقي بترنم وتلحين أو غمغمة وتمطيط ، ثم كثيراً ما تختم بالأحاديث المنكرات ، أو الموضوعات •

هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الاسلامية سد بها أهلها باباً عظيماً من الخير فتحه الاسلام وعطلوا بها الوعظ والارشاد ، وهو ركن عظيم من أركان الاسلام . فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم اذا وقفت خطيباً في الناس ، وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية الى ما أحدثه المحدثون . ورحم الله أبا الحسن — كرم الله وجهه — فقد قال : (الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكره . ولم يدع القرآن رغبة عنه الى ما سواه) .

الجدال بالتي هي احسن :

لا بد أن يجد داعية الحق معارضة من دعاة الباطل وأن يلقى منهم مشاغبة بالشبه ، واستطالة بالأذى والسفاهة . فيضطر الى رد باطلهم وابطال شغبهم ودحض شبههم ، وهذا هو جدالهم ومدافعتهم الذي أمر به نبيه — صلّى الله عليه وسلم — **(وجادلهم)** .

ولما كان أهل الباطل لا يجدون في تأييد باطلهم الا الكلمات الباطلة يموهون بها ، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحا منها ، ولا يسلكون في مجادلاتهم الا الطرق الملتوية المتناقضة ، فيتعسفون فيها ويهربون اليها — لما كان هذا شأنهم أمر الله نبيه — صلّى الله عليه وسلم — أن يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة وطرائقهم المتناقضة والملتوية ، وأن يلتزم في جدالهم كلمة الحق والكلمات الطيبة البريئة ، وأن يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار . دون فحش ولا طيش ولا فظاظة ، وهذه الطريقة في الجدال هي التي أحسن من غيرها في لفظها ومعناها ومظهرها وتأثيرها وافضائها للمقصود من افحام المبطل وجلبه ورد شره عن الناس واطلاعهم على نقصه وسوء قصده . وهذه هي الطريقة التي أمر الله نبيه — صلّى الله عليه وسلم —

بالجدال بها في قوله تعالى :

« وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » [1] .

اهتداء واقتداء :

هدتنا الآية الكريمة الى الطريقة المحمودة المشروعة في الجدال . وفي آيات القرآن بيان لهذه الطريقة البيان التام ، فانه كما لم يترك القرآن عقيدة من عقائد الاسلام الا بيّنها وأوضح دليلها ولا أصلا من أصول أحكامه أو أصول آدابه الاّ بينه واحتج له ، وذكر حكمته وثمـرته ، كذلك لم يترك شبهة من شبه الباطل الاّ ردها بالطريقة الحسنة التي أمر بها . وجاءت السنة النبوية الكريمة والسيرة المحمدية الشريفة مطبقة لذلك ومنفذة له . فالكتاب والسنة فيهما البيان الكافي الشافي للجدال بالتي هي أحسن ، كما فيهما البيان الشافي الكافي للحكمة والموعظة الحسنة .

فعلينا ان نطلب هذا كله من الكتاب والسنة ، ونجهد في تتبعه وأخـذه واستنباطه منهما ، وندأب على العمل بما نجده والتحلي به والالتزام له ، من هذه الأصول الثلاثة في الدعوة والدفاع عنها .

احكام وتنزيل :

أمر الله بالدعوة وبالجدال على الوجه المذكور ، فكلاهما واجب على المسلمين أن يقوموا به ، فكما يجب لسبيل الرب جلّ جلاله أن تعرف بالبيان بالحكمة ، وأن تحب بالترغيب بالموعظة الحسنة ، كذلك يجب أن يدافع من يصدّون عنها بالتي هي أحسن . اذ لا قيام لشيء من الحق الا بهذه الثلاث . غير أنّ الدّعوة بوجهيهما والجدال ليستا في منزلة واحـدة في القصد والدوام . فان المقصود بالذات هـو

(1) ١٢٥/١٦ النحل .

الدعوة وأما الجدال فانه غير مقصود بالذات وانما يجب عند وجود المعارض بالشبهة والصادّ بالباطل عن سبيل الله • فالدعوة بوجهيهما أصل قائم دائم ، والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه • ولهذا كانت الدعوة بوجهيهما محمودة على كل حال ، وكان الجدال مذموما في بعض الأحوال ، وذلك فيما اذا استعمل عند عدم الحاجة اليه ، فيكون حينئذ شاغلا عن الدعوة ومؤديا ـ في الأكثر ـ الى الفساد والفتنة • فاذا كان جدالا لمجرد الغلبة والظهور فهو شر كله وأشد شرا منه اذا كان لمدافعة الحق بالباطل ، وفي هذه الأقسام الممنوعة جاء مثل قوله : « الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا »

« ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » • وقوله[1] ـ صلّى الله عليه وسلم ـ : **(ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه الا اوتوا الجدل)** • ثم تلا :

«مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»[2]

تحذير :

المدافعة والمغالبة من فطرة الانسان ولهذا كان الانسان أكثر شيء جدلا غير أن التربية الدينية هي التي تضبط خلقه وتقوم فطرته فتجعل جداله بالحق عن الحق • فلنحذر من أن يطغى علينا خلق المدافعة والمغالبة فنذهب في الجدل شر مذاهبه وتصير الخصومة لنا خلقا ، ومن صارت الخصومة له خلقا أصبح يندفع معها في كل شيء ولأدنى شيء ، يبالي بحق ولا باطل • وانما يريد الغلب بأي وجه كان ، وهذا هو الذي قال فيه النبي ـ صلّى الله عليه وسلم ـ :[3]

---

(١) الترمذي وصححه .

(٢) ٤٣/٥٨ الزخرف .

(٣) الصحيحان .

ان ابغض الرجال الى الله الالد (الشديد الخصومة) **الخصوم** (الكثير الخصومات) . **ومن ضبط نفسه وراقب ربه لا يجادل اذا جادل الا عن الحق وبالتي هي أحسن .**

(عليناالدعوةوالجدال،والى اللهالهدي والضلال ، والمجازاةعلىالاعمال).

الدعوة بوجهيها يجب أن تكون عامة والجدال على وجهه عام مثلها ثم يكون حظ كل أحد من الهدى والضلال على حسب استعداده وقابليته وما سبق عليه أمر ربه وتكون مجازاته على ذلك للخالق الذي هو العالم بمن خرج عن طريقه وأعرض عن هداه وبالذين قبلوا هداه فاهتدوا وساروا في سبيله . والعدل الحقيقي التام في الجزاء انما يكون ممن يعلم السر والعلن وليس ذلك الا لله فلا يكون الجزاء على الهدى والضلال من سواه . ولهذا ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »[1] .

ثمرته :

ثمرة العلم بهذا أن الدَّاعي يدْعو ولا ينقطع عن الدَّعوة ، ولو لم يتبعه أحد ، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال الى الله ، وانما عليه البلاغ . وانه يصبر على ما يلقى من أعراض وعناد وكيد وأذى دون أن يجازي بالمثل أو يفتر في دعوة من آذاه ، لعلمه بأن الذي يجازي انما هو الله . جعلنا الله والمسلمين من الدعاة الى سبيله ، كما أمر الصابرين المحتسبين أمام من آمن وشكر ، ومن جحد وكفر ، غير منتظرين الا جزاءه ولا متكلين الا عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل[2] .

---

(١) النحل ١٢٥/١٦ .

(٢) ش : ج ٢ م ١١ ص٦٥ ــ في ٧ صفر ١٣٥٤ ــ ٥ مايس١٩٣٥

آيــة الليل وآيــة النهار

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً » [1] .

لله تعالى في سور القــرآن ، وعالم الأكوان ، آيات بينات دالة على وجوده ، وقدرته ، وارادته ، وعلمه ، وحكمته ، ونعم سابغات موجبة لحمده ، وشكره ، وعبادته .

ولمــا ذكر تعالى آيته ، ونعمته ، بالقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ، ذكر آيته ونعمته بالليل والنهار المتعاقبين على هــذا الكون الأعظم ، فقال تعالى « وَجَعَلْنا » الآية .

« وَجَعَلْنا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » : خلقناهما ووضعناهما آيتين . وجعل الشيء هو وضعه على حالة أو كيفية خاصة ، فهما حادثان مسيران بتدبير وتقدير . و « اللَّيْل » : هو الوقت المظلم الذي يغشى جانبا من الكرة الأرضية عنــدما تكون الشمس منيرة لجانبها المقــابل . و « النَّهَار » : هو الوقت الذي يتجــلى على **جانب الكرة** المقــابل للشمس فتضيئه بنورها ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وأمكنتها ، يكور الليل على النهار بأن يحل محله في جزء من

---

(١) ١٢/١٧ الاسراء .

الكرة - وجزء الكرة مكور ــ فيكون النهار الحال مكورا بحكم تكوّر المحل . وكذلك النهار يكور عليه فيحل محله من الكرة فيكون أيضاً مكوراً بحكم تكوّر المحل . وانما جعلنا تكوير أحدهما على الآخر بحلوله في محله لأنه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه في نفسه لأنهما ضدان لا يجتمعان ، وليس جسمين يحل أحدهما على الآخر . والآية : هي العلامة الدّالة ، وكان الليل والنهار « آيتين » : بتعاقبهما مقدرين بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر على نظام محكم وترتيب بديع ، بحسب الفصول الشتوية والصيفية ، وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض ، المناطق الاستوائية والقطبية الشمالية والجنوبية وما بينهما . حتى يكونا في القطبين ليلة ويوما في السنة ، ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين ، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهم ، فهذا الترتيب والتقدير والتسيير دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير ، لطيف خبير .

الليل في نفسه آية ، وفيه آيات ، وأظهر آياته هو القمر فيقال في القمر « آية الليل » والنهار في نفسه آية ، وفيه آيات ، وأظهر آياته هو الشمس ، فيقال في الشمس « آية النهار » .

وبعد ما ذكر تعالى الليل والنهار آيتين في أنفسهما ذكر أظهر آيات كل واحد منهما واضافهما اليه . فقال تعالى : « فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ... الخ » وليس محو القمر وابصار الشمس متأخرا عن الليل والنهار ، وكيف ؟ وما كان الليل والنهار الا باعتبار اضاءة الشمس لجانب وعدم اضاءتها لمقابله ، فليست الفاء في (فَمَحَوْنا) للترتيب في الوجود ، وانما هي للترتيب في الذكر وللترتيب في التعقل . فان القمر والشمس بعض من آيات الليل والنهار ، والجزء متأخر في التعقل عن الكل .

وقد اتفق الكاتبون على الآية ممن رأينا على أن المراد من لفظ

الآية في الموضعين واحد ، فاما أن يراد بها نفس الليل والنهار ، والاضافة في « آيَةَ اللَّيْلِ »و« آيَةَ النَّهار » للتبيين كاضافة العدد للمعدود . أو يراد بها الشمس والقمر فيكون« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ »على تقدير مضاف في الأول مقدرا هكذا .وجعلنا الليل والنهار ، أو في الأخير مقدرا هكذا : وجعلنا الليل والنهار ذوي آيتين ، وأما على تقديرنا المتقدم فان لفظ « آيتين » صادق على الليل والنهار ، ولفظ « آية الليل » و « آية النهار » صادق على الشمس والقمر ، وعليه يكون تقدير الآية هكذا : وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا قمر الليل وجعلنا شمس النهار مبصرة ، وهو تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ، وسالم من دعوى تقدير محذوف ، ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات : بالليل وقمره والنهار وشمسه ، فالتقرير به أولى ولذلك فسرنا الآية عليه .

« فَمَحَوْنا » المحو هو الازالة : ازالة الكتابة من اللوح ، وازالة الآثار من الديار ، فمحو « آية الليل » ازالة الضوء منها . وهذا يقتضي أنه كان فيها ضوء ثم أزيل . فتفيد الآية أن القمر كان مضيئاً ثم ازيل ضوؤه فصار مظلماً ، وقد تقرر في علم الهيئة ان القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس . واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر – كالأرض – كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد . فكانت اضاءته في أزمان حموه وزالت لما برد .

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية . ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه – صلَّى الله عليه وآله وسلم – وبرهانا لدينه على البشر مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان .

فان ظلام جرم القمر لم يكن معروفاً أيام نزول الآية عند الأمم الا أفراداً قليلين من علماء الفلك . وأن حمو جرمه أولا وزواله

بالبرود ثانيا ما عرف الا في هذا العهد الأخير . والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرنا – نبي أمي من أمة أمية كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم . فلم يكن ليعلم هذا ويقوله الا بوحي من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها ...

كفاك بالعلم في الأمي معجزة
في الجاهلية والتأديب في اليتم

« وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » .

فقد وضعت كذلك من أول خلقها (مُبْصِرَةً) يبصر بها ، والاسناد مجازي ، كما تقول : لسان متكلم ، أي متكلم به ، فيسند الشيء الى ما يكون به من آلة وسبب . والمبصرون حقيقة هم ذوو الأبصار . ولكنهم لا ينتفعون بأبصارهم الا في ضوئها ولا ينتفعون بها في الظلام . واذا كان الضوء يكون من النار فأين ضوء النار من ضوء الشمس في القوة والدوام والعموم .

وكما أفادت الآية زوال نور القمر بعد أن كان بمقتضى لفظة « فمحونا » ومدلولها لغة – فانها تشير الى أن نوره مكتسب وتومىء الى أنه من الشمس ، وذلك أننا نرى فيه نوراً مع علمنا أن نوره قد أزيل ، فنعلم قطعا أن ذلك النور ليس منه . واذا كان مذكوراً مع الشمس المبصرة في الاستدلال والامتنان ، ومعاقبا مصاحبا لها في الظهور فنوره جاءه منها وهي التي أبصرته .

وقدم الليل وآيته على النهار وآيته في ترتيب النظم ، لأنه ظلام ، والظلام عدم الضوء ، والعدم مقدم على الوجود في هذه المخلوقات .

« لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ » .

ذكر تعالى الليل والنهار وآيتيهما استدلالاً على الخلق ليعرفوه ، وذكر ما فيها من النعمة عليهم ليشكروه ويعبدوه . فكانت فائدة خلقها على هذا الوجه واجعة للعباد ، ليبتغوا ويطلبوا فضلا من ربّهم بالسعي لتحصيل المعاش وأسباب الحياة ووجوه المنافع . وليضبطوا أوقاتهم بعلم عدد السنين الشمسية والقمرية وما اشتملت عليه السنون من الشهور والأيام والساعات . وليعلموا جنس الحساب الذي منه حساب الشمس وتنقلها في منازلها ، وحساب القمر وتنقله في بروجه ، وحساب أبعادهما وسعتهما ومسير نورهما ، ثم حساب ما يرتبط بهما من أجرام سابحة في الفضاء .

والابتغاء : هو طلب الشيء بسعي اليه ومحبة فيه . ويسمي - تعالى - طلب أسباب الحياة ابتغاء تنبيهاً على هذا السعي وهذه المحبة ، فهما الشرطان اللازمان للفوز بالمطلوب . كما يسمي - تعالى - المطلوب بالابتغاء فضلا من الرب ، وفضله من رحمته ، ورحمته واسعة لا تضبطها حدود ولا تحصرها الأعداد - تنبيهاً على سعة هذا الفضل ليذهب الخلق في جميع نواحيه ويأخذوا بجميع أسبابه مما أذن لهم فيه ، وليكونوا - اذا ضاق بهم مذهب - آخذين بمذهب آخر من مسالك هذا الفضل الرباني الواسع غير المحصور ، وتنبيهاً أيضاً على قوة الرجاء في الحصول ، وتنبيهاً أيضاً على قوة الرجاء في الحصول على البغية ، لأن طلبهم طلب لفضل رب كريم . ويقول تعالى :

(مِنْ رَبِّكُمْ) والرب المالك المدبر لمملوكه بالحكمة فيعطيه في كل حال من أحواله ما يليق به ليكون الخلق بعد قيامهم بالعمل راضين بما ييسره الله من أسباب وما يقسمه لهم من رزق ثقة بعدله وحكمته ، فلا يبغي أحدٌ على أحدٍ بتعدٍّ أو حسد . فهذه الكلمات القليلة الكثيرة وهي : « لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » .

جمعت جميع أصول السعادة في هذه الحياة : بالعمل مع الجدّ

فيه والمحبة له والرجاء في ثمرته ، الذي به قِوام العمران • وبالرضا والتسليم للمَوْلى ، الذي به طمأنينة القلب وراحة الضمير ، وبالكف للقلب واليد عن الناس ، الذي به الأمن والسلام •

ويذكر تعالى علم عدد السنين المتضمن لعــدد الشهور والأيام والساعات تنبيهاً لخلقه على ضبط الأعمــال بالأوقات • فانّ نظام الأعمال واطرادها وخفتها والنشاط فيها وقرب انتاجها انّما هو بهذا الضبط لها على دقائق الزمان ، كما ذكر ــ تعالى ــ جنس الحساب تنبيهاً على لزومه لهذا الضبط ولجميع شؤون الحياة من علم وعمل • فكل العلوم الموصلة الى هذا العد وهذا الحساب هي وسائل لهــا حكم مقصدها في الفضل والنفع والترغيب •

« وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً » •

فكل ما يحتاج اليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق ، وأخلاق الصدق ، وأحكام العدل ووجوه الاحسان ، كل هذا فُصِّلَ في القرآن تفصيلاً • كل فصل على غاية البيان والاحكام • وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كله من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل ، ويأخذوا منه ويهتدوا به • فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان[1] •

• •

(١) ش : ج ١٢ ، م ٥ ، ص ١ ــ ٦ غــرة شعبان ١٣٤٨ ــ جانفي ١٩٣٠.

ارادة الدنيا وارادة الآخرة

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ... » (1)

كل الناس في هذه الحياة حارث وهمام : عامل ومريد ، فسفيه ورشيد ، وشقي وسعيد .

منهم من يريد بأعماله هذه الدار العاجلة والحياة الدنيا عليها قصر همه ، وعلى حظوظها عقد ضميره ، جعلها وجهة قصده ، ونصبها غاية سعيه ، لا يرجو وراءها ثواباً ، ولا يخاف عقاباً ، فهو مقبل عليها بقلبه وقالبه ، معرض عن غيرها بكليته فلا يجيب داعي الله بترغيب ولا ترهيب ، ولا يتقيد في سلوكه بشرائع العدل والاحسان .

فمن كان هذه ارادته ، وهذا عمله ، عجل الله له في الدنيا ما مضى في مشيئته تعالى أن يعجله له ، ان كان ممن أراد التعجيل لهم ، بحكم ابدال الجار والمجرور في قوله « مَنْ نُرِيدُ » من الجار والمجرور في قوله « عجّلنا له » فالتعجيل منه تعالى لمن يريد ، لا لكل مريد ، والشيء المعجل — في قدره وجنسه ومدته — على ما يشاء الرب المعطي لا على ما يشاء العبد المريد . فكم من مريدي الدنيا من يقصد الشيء فلا ينال الا بعضه ، فيضيع عليه شطر عمله ، فلا في هذه

(1) ١٧/١٨ — ١٩ الاسراء .

الدار ولا في تلك الدار ، وكم منهم من سعى واجتهد وانتهى بالخيبة والحرمان ، فعاد ــ بعد النصب ــ ولا ثمرة حصلها عاجلاً ، ولا ثواباً ادّخره آجلا ، وذلك هو الخسران المبين •

ثم اذا قدم على الله في الآخــرة جعل له وحضر له جهنــم دار العذاب ، واضطره الى دُخولها فيصلاها مذموما : مذكورا بقبح فعله وسوء صنيعه في قلة شكره لربه ، وعدم استعماله لما كان أنعم عليه به في طاعته ، وعدم نظره لعاقبة أمره • مدحوراً : مبعداً في أقصى النار مطروداً من الرحمة • حرم نفسه من استثمار رحمة الله في الدنيــا بالشكر عليها ، فكان عدلاً أن يحرم منها في الآخرة •

ونظير هذه الآية آية « الشورى » : « وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَــا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَــا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » [1] •

عمل للدنيا فنال نصيبه منها ، ولم يعمل للآخرة فلم يكن له نصيب فيها • والتقييد بمن في قوله تعالى « منها » على أن ما يناله ــ سواءً كان كل ما أراد أو بعضه ــ ما هو الا بعض من الدنيا ، واذا كانت الدنيا كلها شيئاً زهيداً بقلتها وفنائها ونغصها بالنسبة لأقل شيء من نعيم الآخرة ــ فما بالك بما هو بعض منها • فلقد خــاب وخسر من استبدل بنعيم الآخرة هذا القليل الخسيس المنغص الزهيد •

ونظيرهــا أيضاً آية « هود » : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَــا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَــالَهُمْ فِيهَــا لاَ يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ

(١) ٤٢/٢٠ الشورى .

النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] .

وتوفيتهم أعمالهم انالتهم ثمراتها مكملة في الدنيا ، وهم فيها لا يبخسون : لا ينقصون من جزائهم عليها بتحصيل المسببات التي توسلوا اليها بأسبابها . ثم في الآخرة تحبط تلك الأعمال فلا يكون عليها من جزاء ولا لها من ثمرة ، لأنها كانت أعمالا باطلة لا ثبات لها ، عمل للدنيا دار الزوال فزالت بزوالها ، وبقي على عمالها اثم عدم شكرهم لربهم فيه فدخلوا به النار . وتلك عاقبة الظالمين .

غير أن هاتين الآيتين مطلقتان في الشيء المعطى والشخص المعطى له ، وآية « الاسراء » مقيدة بمشيئة الله تعالى وارادته فيهما . والمطلق محمول على المقيد في البيان والأحكام .

وقد أفادت هذه الآيات كلها أن الأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها ــ موصلة ــ باذن الله تعالى ــ من تمسك بها الى ما جعلت وسيلة اليه . بمقتضى أمر الله وتقديره ، وسننه في نظام هذه الحياة والكون . ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين . ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الالهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين ، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم . نعم لا يضيع على المؤمن أجر ايمانه ، ولكن جزاءه عليه في غير هاته الدار ، كما أن الآخر لم يضع عليه أخذه بالأسباب ، فنال جزاءه في دار الأسباب وليس له في الآخرة الا النار .

فالعباد ــ اذاً ــ على أربعة أقسام :

---

(1) ١١/١٥ ــ ١٦ هود .

١ ــ مؤمن آخذ بالأسباب الدنيوية ، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة •

٢ ــ ودهري تارك لها ، فهذا شقي فيهما •

٣ ــ ومؤمن تارك للأسباب ، فهذا شقي في الدنيا وينجو ــ بعد المؤاخذة على الترك ــ في الآخرة •

٤ ــ ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية ، هذا سعيد في الدنيا ويكون في الآخرة من الهالكين •

فلا يفتتن المسلمون بعد علم هـذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم • فانه لم يكن تأخرهم لايمانهم ، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو من ضعف ايمانهم • ولم يتقدم غيرهم بعدم ايمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة • وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الأول بايمانهم وأعمالهم • وما صاروا من أهل القسم الثالث الا لما ضعف ايمانهم وساءت أعمالهم وكثر اهمالهم •• فلا لوم اذاً ــ الا ّ عليهم في كل ما يصيبهم ، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم •

« وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورا » [1] •

وهذا قسم آخر من الخلق ، قصد بعمله الآخرة واياها طلب ، وثوابها انتظر ، يرجو أن يزحزح فيها عن النار ويفوز بالجنة ويحل عليه الرضوان • فهذا كان سعيه مشكورا بثلاثة شروط :

الشرط الأول أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصدا مخلصا • كما يفيده فعل الارادة في « ومن أراد الآخرة » ولام الاجل في « وسعى لها »•

---

(١) ١٩/١٧ الاسراء .

الشرط الثاني : أن يعمل لها المعروف في الشرع اللائق بها الذي لا عمل يفضي الى نيل ثوابها سواه ، وهو طاعة الله تعالى وتقواه بامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده .

الشرط الثالث : أن يكون مؤمناً موقناً بثواب الله تعالى وعظيم جزائه . فاذا توفرت هذه الشروط الثلاثة لهم « كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورا » متقبلاً مثاباً عليه بحسن الثناء وجميل الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة

« واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللهُ واسعٌ عَلِيم » [1] .

واذا اختل واحد منها فليس العمل بمتقبل ولا بمثاب عليه بضرورة انعدام المشروط بانعدام شرطه .

وفي هذه الشروط مباحث :

المبحث الاول :

ان قصد الثواب والجزاء على العمل لا ينافي الاخلاص فيه لله . لأنّ الاخلاص هو أن تجعل عبادتك لله وحده ، ورجاؤك الثواب وطمعك فيه ، وحذرك العقاب وخوفك منه . هما مقامان عظيمان لك في جملة عبادتك . يجب عليك أن تكون فيهما أيضاً مخلصاً . لا ترجو الا ثوابه ، ولا تخاف الا عقابه ، واذا أخلصت في رجائك وخوفك هانت عليك نفسك فقمت في طاعته مجاهداً لا يردك معارض ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وصغرت في نظرك العوالم كلها فنطقت بقولك « **الله اكبر** » نطق عالم واجد مشاهد . والمقصود أن رجاء الثواب ، وخوف العقاب ، روحهما الاخلاص ، فكيف ينافيانه ؟ فالعامل الراجي للثواب الخائف من العقاب ، المخلص في الجميع آت

(١) ٢/٢٦١ البقرة .

بأربع عبادات : عمله ، ورجائه ، وخوفه ، واخلاصه وهو روح الجميع •

وقد جاء في القرآن ثناء شيخ الأنبياء ابراهيم الخليل عليه وعليهم الصلاة والسلام هكذا :

« وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[1]•

وذكر تعالى دعاء عباد الرحمن الصالحين هكذا : « رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا »[2] •

وفي دعاء القنوت : « نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخَافُ عَذَابَكَ الجد » •

الى غير هذا من أدلة كثيرة تؤيد ما ذكرناه •

المبحث الثاني :

أفاد هذا الشرط أن من لم يرد الآخرة لم يكن سعيه مشكورا ، وفي هذا تفصيل ، لأن العامل امّا يكون في عبادته لم يرد بها الآخرة أصلا ، بل أراد بها شيئاً دنيوياً من محمدة الخلق أو استفادة شيء أو تحصيل منفعة العمل • أو أراد الآخرة وشيئا مما ذكر شركة متساوية أو متفاوتة • واما أنْ يكون في عمل عادة لم يرد بها الآخرة أصلاً بل أراد الغرض الدنيوي ، أو أرادهما معا ، والدنيوي وسيلة للأخرى فهنالك ـ اذاً ـ اقسام :

القسم الأول :

العامل في أمر تعبدي كالصلاة والصدقة والحج والعلم ، فهذا اذا لم يرد الآخرة أصلا فهو موزور غير مشكور • وفيه جاء حديث

---

(١) ٨٢/٢٦ الشعراء •

(٢) ٦٥/٢٥ الفرقان •

أبي هريرة في الصحيح قال : « سمعت رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلم ــ يقول : **انّ أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فاتي به فعرفه نعمة فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقيَ في النار . ورجلٌ تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فاتِي به فعرفه نعمة فعرفها ، قال : فماذا عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قاريء ، فقد قيل . ثم أُمِر به فسحب على وجهه حتى أُلقِي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فاتِي به فعرفه نعمة فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الاّ انفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل . ثم أُمِر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار .** » وهذا الذي كان من هؤلاء هو الرياء ، وهو أن يفعل العبادة ليقال انه مطيع . ومهما دخل الرياء في عبادة الا احبطها ، ولو كان قليلا ، لحديث أبي هريرة في الصحيح قال رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلم ــ : **قال الله تبارك وتعالى : « أنا أغنى الشركاء عن شرك من عمل عملا اشرك فيه معي غيري تركته وشركه »** واشراك غيره معه صادق بالقليل والكثير فلا فرق بينهما في الاحباط . والعامل المرائي موزور غير مشكور .

القسم الثاني :

العامل في العبادة الذي يقصد بها ثواب الآخرة وشيئاً آخر من اعراض الدنيا « كالرجل يبتغي الجهاد وهو يريد من عرض الدنيا » وقد سئل النبي ــ صلّى الله عليه وسلم ــ عن هذا فقال : لا أجر له . رواه أبو داوود وابن حبان . وعلى وزانه نقول : من قصد الهجرة والتزوج بامرأة معاً ، أو قصد الوضوء والتبرد ، أو قصد الصوم والحمية ــ وان صحت عبادته . لأن الصحة تتوقف على نية القصد ،

والثواب يستوقف على نية الاخلاص - لا أجر له . هذا اذا سوى ما بينهما في القصد كما هو ظاهر لفظ الحديث . وأما اذا كان الغالب هو قصد العبادة فالظاهر أنّه له من الأجر بقدر ما غلب من قصده .

القسم الثالث :

العامل في العبادة الذي يكون قصده الى ثواب الآخرة ، وما عداه من منافع تلك العبادة ملحوظ له على سبيل التبع لها ، من حيث أنه مصلحة شرعية معتبرة في التشريع . والأحكام الشرعية المعللة بفوائدها في الآيات والأحاديث لا تحصى كثرة ومنها في الحج : « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ »[1] .

ومن منافع الحج الحركة الاقتصادية لخير تلك البقاع ومصلحة أهلها وغزارة عمرانها ، ولذا قال تعالى :

«لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ»[2]

والفضل هو الاتجار في مواسم الحج . فكل منفعة تجلبها عبادة أو مضرة تدفعها فملاحظتها عند قصد العبادة لا تنافي الاخلاص ولا تنقص من أجر العامل ، وهي مثل الثواب المرتب على العمل . هي في الدنيا وهو في الآخرة وكلاهما من رحمة الله التي نرجوها بأعمالنا ، ويشملها لفظ دعاء القنوت : « نرجو رحمتك » اذ هو تبارك وتعالى رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها .

القسم الرابع :

العامل لعمل عادي دنيوي من أكل وشرب ونوم وجماع ونحوها ، فهذا اذا قصد بعملها النفع الدنيوي ، ولا قصد له في الثواب ، فهو غير مأجور ولا مأزور . وهذه هي حالة أهل الغفلة والجهل .

(١) ٢٨/٢٢ الحج .
(٢) ١٩٨/٢ البقرة .

القسم الخامس :

عامل الأعمال العادية الذي يتناولها بنية كونها مباحاً تناولها شرعا بها التوسل الى ما يتوقف عليها من أعمال واجبة ومنـدوبة ، والى الانكفاف بها عن المحرمات والمكروهات • كمباضعة زوجتـه للقيام بواجب حقهـا ، وكف نفسه وكفها ، وكالنوم ليقوى على العبادة ، والرياضة ايصح للطاعة ، فهذا مثاب وسعيه مشكور • وله ما نوى • وبهذه السبيل يستطيع العبد الموفق أن تكون حركته وسكناته كلها لله ، وفي طاعته ، دائم الذكر له يعبده كأنه يراه • لأن من كان يعبد كأنه يرى مولاه ، لا يمكن أن يغفل عنه قلبه ويشتغل بسواه ، حتى اذا اشتغل بشيء كان باذنه ورضاه ، فلم يخـرج في أي عن حضرة قدس الله • ومن أدلة هذا قوله ــ صلّى الله عليه وآله وسلم – في حديث أبي ذر رضي الله عنه عند مسلم : « **وفي بضع احدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله ، اياتي احدنا شهوته ويكون له فيها أجـر قال : ارايتم لو وضعها في حرام اكان عليه وزر ، فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له اجر** » •

المبحث الثالث :

من الناس من يخترع أعمالا من عند نفسه ويتقرب بها الى الله ، مثل ما اخترع المشركون عبادة الأوثان بدعائهـا ، والذبح عليهـا والخضوع لديها ، وانتظار قضاء الحوائج منها ، وهم يعلمون أنها مخلوقة لله مملوكة له ، وانما يعبدونها ــ كما قالوا ــ لتقربهم الى الله زلفى • وكما اخترع طوائف من الهنود أنواع التعذيب بقتل أنفسهم واحراقها طاعة ــ زعموا – وتقرباً ، وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لهـا والذبح عنـدها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب التوابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها • فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها لأنها ليست من سعي الآخرة الـذي كان يسعاه محمد ــ صلّى الله

عليه وآله وسلم - وأصحابه من بعده ، فساعيها موزور غير مشكور.

المبحث الرابع :

شكر الرب لعبده هو جزاء شكر عبده له ، وانما يكون العبد شاكرا لربه اذا كان عاملاً بطاعته مؤمناً به . فاذا انعدم الايمان لم يتصور شكران ، وهذا مستفاد من قوله تعالى : « وهو مؤمن » وأفادت الجملة الاسمية ثبوت الايمان ورسوخه حال العمل ، وعلى قدر ثبوت الايمان ورسوخه يكون الثبات والدوام على الأعمال . فالمؤمن بالله يعمل موقناً برضاه ، موقناً بلقائه وعظيم جزائه ، فهو يعمل ولا يفشل . وسواء عليه أوصل الى الغاية التي يسعى اليها أم لم يصل اليها حال بينه وبينها موانع الدنيا أو مانع الموت كانت مما تجنى ثماره في جيله أو لا تجنى ثماره الا بعد أجيال . فأفادت الجملة المذكورة شرط القبول للعمل ، وسر الدوام عليه والمضي بغبطة وسرور فيه.

امكان العمل بالآية لجميع المسلمين :

خاتمة :

ان المسلمين كلهم - والحمد لله أهل ايمان فليستشعروه عند جميع الأعمال ولا يخلون من عمل لمعاشهم أو لمعادهم ، فليقصدوا بذلك كله وجه الله وامتثال أمره وحسن جزائه . وليقتصروا في عبادتهم على ما ثبت عن رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ليكونوا على يقين من موافقة رضى الله وسلوك طريق النجاة . فاذا فعلوا هذا وصمدوا اليه وجاهدوا أنفسهم في حملها عليه كانوا شاكرين مشكورين على تفاوتهم في منازل العاملين عند رب العالمين ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[1] .

---

(١) ش : ج ١ ، م ٦ ، ص ١ - ٩ .
غرة رمضان ١٣٤٨ - فيفري ١٩٣٠

عموم النوال من الكبير المتعال

« كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاَءِ وَهؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ... »[1] .

ان هذه الموجودات كلها ، علويها وسفليها ، مشمولة برحمة الله ، مغمورة بنعمته . وأول تلك النعم هو وجودها ، وذلك الوجود من مقتضى الرحمة . ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع أجناس الموجودات وأنواعها وأصنافها وأفرادها ، وتتفاوت أيضاً حسب ذلك . وينال كل" حظه منها بتقدير الحكيم العليم . ومن مظاهر هذه الرحمة العامة أن كلاً موجود قد أعطي من التكوين ما يناسب وجوده وما يتوقف عليه بقاؤه أو ارتقاؤه ، سواء أكان من عالم الجماد أو عالم النبات أو عالم الحيوان .

وقد مضى قبل هذه الآية ذكر مريدي العاجلة الذين لا يعملون الاّ لها ، وما أعد لهم من عذاب النار . وذكر مريدي الآخرة بأعمالهم في الدنيا وما أُعِدَّ لهم من حسن الجزاء . فحالتهم في الآخرة متباينة : هؤلاء في النعيم المقيم ، وأولئك في العذاب الأليم ، هذا في الآخرة ، وأما في الدنيا فانهم قد أُعْطُوا من نعم الحياة ومكنوا من أسبابها فقد تساووا في الخلقة البشرية ، وفي العقل المميز المفكر ، وفي الارادة الحرة . وقد أظلتهم السماء ، وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء ، وقد أقلتهم الأرض ، وشملتهم

---

(١) ٢٠/١٧ ، ٢١ ، سورة الاسراء .

نعمة الهواء والماء والغذاء والدواء من النبات والحيوان والجماد وكل ما يخرج من الأرض . وشاهدوا كلهم آيات الله الكونية الدالة عليه ، وجاءتهم كلَّهم رسلُ الله بآياته السمعية داعية اليه . فاختار كل بعقله — وهو حر في ارادته حرية لا يمكن لأحد أن يكابر فيها — ما اختار لنفسه . وحجة الله بما تقدم قائمة عليه . وبقوا بعد ذلك الاختيار الذي اختلفت به منازلهم عند الله فيما أعد لهم يوم لقائه — سواء ، في تلك النعم الدنيوية والتمكن من أسباب بقائها والتقدم فيها . لا فرق في ذلك بين برٍ وفاجر ، ومؤمن وكافر ، وهذا معنى قوله تعالى : « كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ » وليس الله تعالى مانعاً كافراً لكفره أو عاصياً لعصيانه من هذه الحياة وأسبابها ، وليس أحد على منع ما لم يمنعه الله بقادر . وهذا معنى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً » والحظر المنع والمحظور الممنوع ، وتركيب الآية يفيد أن عطاء الربِّ لا يمنع ولا يجوز أن يمنع ، لأن من مقتضى ربوبيته دوام عطائه ومدده لعموم خلقه بعلمه وحكمته .

وقدم المفعول وهو (كلا) رداً على من يعتقد ان الله تعالى يمد بعضاً دون بعض . وفيه ايجاز بالحذف ، والأصل كلا الفريقين ، يعني فريق مريدي العاجلة ومريدي الآخرة ، و (نمد) من الامداد وهو المواصلة بالشيء ، وذلك الشيء يسمى مددا . وأصل المد البسط للشيء ، فيستطيل ويتسع ، ومنه مد يده ومدَّ شبكته ، ومنه مد الله لك أسباب السعادة ، أي بسطها ووسعها ، والامداد بالشيء والمواصلة به يكون به دوام فائدته وامتداد النفع به . والخلق كلهم في حاجة دائمة وفاقة مستمرة الى مدد الله وعطائه وأنواع بره واحسانه . وهو تبارك وتعالى لا يزال يواصلهم في كل لحظة من وجودهم بما يحتاجون اليه من فيض عطائه . وأضاف العطاء للرب

لأنه من مقتضى ربوبيته بتكوينه للخلق وتطويرهم واعطائهم ما يحفظهم في تلك الأطوار ، وأضاف الرب الى ضمير المخاطب ، وهو النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - لتشريفه بهذه الاضافة • ولما تشرف بهذه الاضافة الربانية • والرب جلّ جلاله قد مضى من وصفه في الآية أنه عام الرحمة والنعمة والنوال - فمن شكر نعمة هذا الشرف أن يتخلق العبد وهو محمد - صلّى الله عليه وآله وسلم - بما هو من مقتضى وصف ربه • هذا من فوائد هذه الاضافة في هذا المقام • وقد كان - صلّى الله عليه وآله وسلم - رحمة للعالمين ، شديد الشفقة على الخلق أجمعين ، حريصاً على هدايتهم الى الصراط المستقيم • حتى خاطبه ربه بقوله : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »[1] أي قاتل نفسك غمًّا لعدم ايمانهم • وكان أساس شرعه على العدل ، والاحسان العدل مع كل واحد ، والاحسان الى كل شيء فقال تعالى : « وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لاَ تَعْدِلُوا » أي لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل فيهم وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : **« ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فاحسنوا القتلة واذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة »** ولما كان هو عليه الصلاة والسلام قدوتنا فنحن مخاطبون بأن نكون مثله في عموم رحمته وشفقته وعدله وبره واحسانه • نفعل الخير عاما ، كما تعم خيرات الله تعالى العباد ، نفعله لأنه خيرٌ نستطعم لذته ، غير منتظرين جزاء ، الا من الله • لأن من انتظر الجزاء من الناس وفي هذه الحياة لا بد أن يميل بخيره عن جهة الى جهة ، وربما يكون في ميله قد أخطأ وجه الصواب ، ولا بد أيضاً أن ييأس فيفتر في العمل أو ينقطع عنه عندما يرى عدم المكافأة

---

(١) ٢٦/٣ الشعراء .

من الناس وعدم ظهور أثر خيره في الحياة وأبناء الحياة .

وقد أفادت الآية - حسبما تقدم - ان أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء ، وان من تمسك بسبب بلغ - باذن الله - الى مسببه ، سواء أكان براً أو فاجراً مؤمناً أو كافراً . وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً ، فقد تقدموا حتى سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع ، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم . وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها باهمال تلك الأسباب فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط ، ولن يعود اليهم ما كان لهم الا اذا عادوا الى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب .

فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره ، المتقدم لما فيها من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب اسلامه ، وأن غيره ما تقدم بعدم اسلامه . وأن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للاسباب . ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الاسلام ، لكان - مثل سالف ايامه - سيد الانام .

النظر في تفاضل البشر :

« ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا »(١) .

ان من أعظم العبر ما نشاهده في أحوال الخلق أمماً وجماعات وأفراداً من الاختلاف الشديد . فقد اختلفت بواطنهم النفسية ، كما اختلفت ظواهرهم الجسدية ، وانك كما تجد أبناء الامة الواحدة

---

(١) الاسراء ٢١/١٧ .

يتشابهون في تركيب أجسامهم ، ثم لا بد من فروق تتمايز بها شخصياتهم ، ويتبع هذا الاختلاف اختلافهم في ادراكهم وتمييزهم وأخلاقهم وعاداتهم في ظلالهم وهداهم ، وفي درجات الهدى ودركات الضلال . كل هذا دال على بديع صنع الخالق القدير ، وعجيب وضع العليم الحكيم . فمكنهم تعالى كلهم من الأسباب وادراك العقل وحرية الارادة ، ثم فضل بينهم هذا التفضيل . فكان منهم المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والشقي والسعيد ، الى تقسيم كثير . وفقه أسباب هذا التفضيل هو فقه الحياة والعمران والاجتماع ، فلذا أمر تعالى بالنظر في أحوال هذا التفضيل بقوله : « أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » وكيف سؤال عن الأحوال ، والنظر المأمور به هو نظر القلب بالفكرة والاعتبار ، والجملة في محل نصب على العامل عن لفظهما بكلمة الاستفهام .

وكما فضل بعض خلقه على بعض في دار الابتلاء ، كذلك فضل بعضهم على بعض في دار الجزاء ، لكن التفضيل هنالك أكبر ، والتفاوت بين العباد أظهر . في مواقف القيامة ، وفي داري الاقامة ، ويا بعد ما بين من في الجنة ومن في النار . وأهل النار متفاوتون في دركاتها ، وأهل الجنة متفاوتون في درجاتها .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلم ــ قال : **« ان في الجنة مائة درجة اعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »** .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : **« ان اهل الجنة ليتراءون اهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم . قالوا : يا رسول الله ، تلك**

منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : بلى والـذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » .

وقال تعالى : « إنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ » [1] وهـذا التفضيل الأخروي هو المراد بقوله تعـالى : « وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً » وفـي هـذا ترغيب للخلق فـي تحصيل الفضل فـي درجـات الآخـرة . فانهم انما يتهالكون في الدنيا على أن يفضل بعضهم بعضاً في شيء منها ، وهي الدار الفانية ، فلِمَ لا يتسابقون فيما ينالون به الفضل في الدار الباقية مع أن من عمل لنيل الفضل في الآخرة ـ وما عملها الا الخير والمعروف ـ حاز الفضل والسعادة فيهما على أفضل وجه وأكمل حال . فللآخرة ونيل درجاتها فليعمل العاملون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون [2] .



(١) ٤/١٤٤ النساء .

(٢) ش : ج ٢ ، م ٦ ، ص ٧٣ ـ ١٦ غرة شوال ١٣٤٨ هـ ـ مارس ١٩٣٠ .

اصول الهداية في ثمان عشرة آية

« لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً – الى – وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً » [1] •

تمهيد :

قد أوتي رسول الله – صلّى الله عليه وآله وسلم – جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً ، فالآية من كتاب الله والأثر من حديث رسول الله تجد فيه من أصول الهداية ودقيق العلم ولطيف الاشارة في لفظ قليل وكلام بيّن – ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومنح التوفيق •

فهذه ثمان عشرة آية من سورة الاسراء قد أتت في ايجاز ووضوح على أصول الهداية الاسلامية كلها • وأحاطت بأسباب السعادة في الدارين من جميع وجوهها • وهي – فوق بلاغتها التي عرف العرب أعجازها بسليقتهم وأدركه علماء البيان بعلمهم ومرانهم – قد جاءت معجزة للخلق من أي جنس كانوا وبأي لغة نطقوا بما جمعت من أصول الهداية التي تدركها الفطر وتسلمها العقول • وأنك لست واجداً مثلها في مقدارها واضعاف مقدارها من كلام الخلق بجمع ما جمعت من هدًى وبيان وهذا أحد وجوه اعجاز القرآن العامة التي تقوم بها حجته على الناس أجمعين •

---

(١) ١٧/٢٢ الاسراء •

ارتباط الآيات بما قبلها :

موقع هذه الآيات موقع البيان والتفصيل للسعي المشكور في قوله تعالى : « فَأُولئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً »[1] . ووقوعها بلصق قوله تعالى : « وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً »[2] اشارة الى ان التفاضل في تلك الدرجات مرتبط بالتفاضل في السلوك والسعي المشكور المستفاد من هذه الآيات.

التوحيد :

«ولا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذولاً»

هذا هو أساس الدين كله ، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تتقبل الأعمال الا به . وما أرسل الله رسولاً الا داعياً اليه ومذكراً بحججه ، وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلمة : « لا اله الا الله » وهي كلمته الصريحة فيه . ولا تكادُ سورة من سور القرآن تخلو من ذكره والأمر به والنهي عن ضده . وأنت ترى أن هذه الآيات الجامعة قد جعلت بين آيتين صريحتين فيه .

(لا تجعل) الجعل يكون عملياً ، كجعلت الماء مع اللبن في اناء واحد ، ويكون اعتقادياً ، كجعلت مع صديقي صديقاً آخر . والجعل في الآية من هذا الثاني . « مع الله » المعية هنا أيضاً هي معية اعتقادية. « إلهاً آخر » الأله هو المعبود والعبادة نهاية الذل والخضوع مع الشعور بالضعف والافتقار واظهار الانقياد والامتثال ودوام التضرع والسؤال. « فتقعد » القعود ضد القيام والعرب تكنى بالقيام عن الجد في الأمر

(١) ١٩/١٧ الاسراء .

(٢) ٢١/١٧ الاسراء .

والعمل فيه سواء أكان العامل قائماً أو جالساً ، فتقول : قام بحاجتي ، اذا جد وعمل فيها ، ولو كان لم يمش فيها خطوة ، وانما قضاها بكلمة قالها أو خطاب أرسله • وتكني كذلك بالقعود عن الترك للعمل وانحلال العزيمة وبطلان الهمة سواء كان الشخص واقفاً أو جالساً ، فتقول : قعد زيد عن نصرة قومه ، اذا لم يعمل في ذلك عملاً ، ولم تكن له فيه همة ولا عزيمة ، ولو كان قائماً يمشي على رجليه ، فالقعود في الآية بمعنى المكث كناية عن بطلان العمل وخيبة السعي وخور القلب وفراغ اليد من كل خير • « مذموماً » مذكوراً بالقبيح موصوفاً به • « مخذولاً » متروكاً بلا نصير مع حاجتك اليه •

فنهى الله الخلق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكاً في ألوهيته فيعبدوه معه ، ليعتقدوا أنه الاله وحده فيعبدوه وحده • وبيَّن لهم أنهم ان اعتقدوا معه شريكاً وعبدوه معه فان عبادتهم تكون باطلة وعملهم يكون مردوداً عليهم وأنهم يكونون مذمومين من خالقهم ومن كل ذي عقل سليم من الخلق ، ويكونون مخذولين لا ناصر لهم • فأما الله فانه يتركهم وما عبدوا معه ، وأما معبوداتهم فانها لا تنفعهم لأنها عاجزة مملوكة مثلهم ، فما لهم ــ قطعاً من نصير •

والخطاب وان كان موجهاً للنبي – صلى الله عليه وآله وسلم ــ فانه عام للمكلفين ، وسر مثل هذا الخطاب تنبيه الخلق الى أن شرائع الله وتكاليفه عامة للرسول والمرسل اليهم ، وان كان هو قد عصم من المخالفة فلا يبقى بعد ذلك وجه لدعوى مدع خروج فرد من أفراد الأمة المكلفين عن دائرة التكليف •

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »[1] القضاء يكون بمعنى الارادة ، وهذا هو القضاء الكوني التقديري

(1) ٢٣/١٧ الاسراء .

الذي لا يتخلف متعلقه ، فما قضاه الله لا بد من كونه • ويكون القضاء بمعنى الأمر والحكم ، وهذا هو القضاء الشرعي الذي يمتثله الموفقون ويخالفة المخذولون ، والذي في الآية من هـذا الثاني • « ربُّكَ » الرب هو الخالق المدبر المنعـم المتفضل • « أن » مصدرية والتقدير بألا تعبدوا الا اياه ، أي بعدم عبادتكم سواه بأن تكون عبادتكم مقصورة عليه • فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون الاّ له • فذل القلب وخضوعه والشعور بالضعف والافتقار والطـاعة والانقياد والتضرع والسؤال هذه كلها لا تكون الا لله • فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده • ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك اعطاءه أو منعه فقد عبده ، ومن ألقى قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير ملتفت الى أنه من عنده أو من عند الله فقد عبده • ومن توجه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء أو يدفع عنه الضر فقد عبده • فالله تعالى يعلم الخلق كلهم في هذه الآية بأنه أمر أمـراً عاماً وحكم حكماً جازماً بأن العبادة لا تكون الا له •

وجيء باسم الرب في مقام الأمر بقصر العبادة عليه تنبيهاً على أن الذي يستحق العبـادة هو من له الربوبية بالخلق والتـدبير والملك والانعام ، وليس ذلك الاّ له ، فلا يستحق العبادة بأنواعها سواه • فهو تنبيه بوحدانية الربوبية التي من مقتضاها انفراده بالخلق ، والأمر الكوني والشرعي على وحدانية الالوهية التي من مقتضاها استحقاقه وحده عبـادة جميع مخلوقاته • وكما انتظمت هـذه الجملة توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية كذلك انتظمت مع الآية السابقة التوحيد العلمي والتوحيد العملي • فالاولى نهي عن أن تعتقد الالوهية لسواه وهو يتضمن النهي عن اعتقاد ربوبية سواه ، وهـذا من باب العلم • والثانية : أمر بأن تكون عبادتك مقصورة عليه ، لأنه هو ربك وحده وهذا من باب العمل • فمن وحّد الله جلّ جلاله في ربوبيته وألوهيته

علماً وعملاً فقد استكمل حظه من مقام هذا الأساس العظيم ، ومن أخلَّ بشيء من ذلك كان ذلك نقصاً في دينه بقدر ما أخل ، حتى ينتهي الأمر الى خلص المشركين . نعوذ بالله من الشرك جليه وخفيه انه سميع عليـم .

بيـان واستدلال :

يكون الذل بمعنى ضعف الحال ، وهذا قد يكون لأهل التوحيد والايمان كما في قوله تعالى :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ » (1)

ويكون بمعنى اللين المشوب بالعطف ، وهذا من صفات المؤمنين الممدوحة إذا وقعت في محلها كما في قوله تعالى :

« أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » (2) .

ويكون الذل بمعنى خنوع القلب وخضوعه وانكساره للضعف والافتقار ، وهذا هو الذي لا يكون من المؤمن الموحد الا لربه كما في حديث دعاء القنوت « ونخنع لك » أي نذل ونخضع لك ، وهذا الخنوع هو أساس العبادة القلبية ، فلذلك لا يكون الا الله ، وان من أسرار كلمة « الله أكبر » التي يأتي بها المؤمن مرات كثيرة في صلواته وغيرها من أحواله حفظ القلب من الخضوع للخلق باستشعار عظمة الخالق التي يصغر عندها كل مخلوق .

فلا يزال المؤمن لهذا قوي القلب عزيز النفس بالله لا ينتظر قوة ضعفه الا به ولا سد مفاقره الا منه ، ولقلب المؤمن الموحد أمام من يحب في الله ويعظـم بتعظيم الله خضوع أيضاً ، ولكنه خضوع هيبة

---

(1) ٣/١٢٣ آل عمران .

(٢) ٥/٥٧ المائدة .

وتوقير واجلال ، لا خضوع ذل وخنوع وضعف وافتقار ، اذ هـذا ــ كما قدمنا ــ لا يكون الا للغني القوي العزيز القهار .

من مظاهر هذا الخنوع الذي لا يكون الا لله الطاعة والانقياد ، وهي أيضاً لا تكون إلا له وقد قال تعالى : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ » [1] أي أطاعه واتبعه كماقال تعالى : « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » فمن تبع مخلوقا واطاعه فيما يأمره وينهاه دون أن يكون في طاعته مراعياً طاعة الله فقد عبده واتخذه رباً فيما أطاعه فيه . وفي حديث عدي بن حاتم الذي رواه الترمذي وغيره لما جاء للنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وسمعه يتلو قوله تعالى : «إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ »[2]

فقال عدي : **يا رسول الله انهم لم يكونوا يعبدونهم ؟ قال : أليس كانوا اذا حرموا عليهم شيئاً حرموه ، واذا احلوا لهم شيئاً احلوه . قال : قلت نعم . قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : فتلك عبادتهم اياهم ، فالمؤمن الموحد لا تكون طاعته الا لله أو لمن طاعته طاعة لله .**

ومن مظاهر ذلك الخنوع : الدعاء والسؤال والتضرع والجؤار « رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة اليه » قال تعالى :

«وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ »[3] « أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » [4] « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ » في آيات كثيرة . وقال صلى الله

---

(١) ٤٥/٢٢ الجاثية .
(٢) ٩/٣٢ التوبة .
(٣) ١٦/٥٣ النحل .
(٤) ٢٧/٦٢ **النمل** .
(٥) ٨/٩ الانفال .

عليه وآله وسلم : ــ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن الترمــذي ــ : **((اذا سألت فسل الله))** في أحــاديث كثــيرة •
فــلا يــدعو المؤمــن الموحــد غــير الله ولا أحــداً مــع الله إذ الدعاء عبادة ، كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه يرفعه **((الدعاء هو العبادة))** رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة • وكمــا في حديث أنس رضي الله عنه يرفعه **((الدعاء مخ العبادة))** رواه الترمذي وكل عبادة لا تكون الا لله فالدعاء لا يكون الا الله ، وانما كان من العبادة هاته المنزلة لأن حقيقة العبادة هي التــذلل والخضوع ، وهو حاصل في الدعاء غاية الحصول ، وظاهر فيه أشد الظهور •

ألهمنا الله رشــدنا وأعاذنا من شرور أنفسنا انــه سميع قريب مجيب [1] •



(١) ش : جـ ٣ ، م ٦ ، ص ١٣٨ ـ ١٤٣ غرة ذي القعدة ١٣٤٨ هـ افريل ١٩٣٠

بـــر الـــوالـــدين

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... »[1] .

والله : هو الخالق ، والوالدان ــ بوضع الله ــ هما السبب المباشر في التخليق . والله هو المبتدىء بالنعم عن غير عمل سابق ، وهمـا يبتدئان بالاحسان عن غير احسان تقدم ، والله يرحم ويلطف وهو الغني عن مخلوقاته وهم الفقراء اليه ، وهما يكنفان بالرحمة واللطف الولد ، وهما في غنى عنه ، وهو في افتقار اليهما ، والله يوالي احسانه ، ولا يطلب الجزاء ، وهما يبالغان في الاحسان دون تحصيل الجزاء . فلهذه الحالة التي خصهما الله بهـا ، وأعانهما بالفطرة عليها ، قرن ذكرهما بذكره ، فلما أمر بعبادته أمر بالاحسان اليهما في هذه الآية ، وفي قوله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »[2] ولمـا أمر بشكره أمر بشكرهمـا فقال تعالى : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ »[3] وفي هذا الجمـع في القضاء والحكم بالاحسان والأمر بـالشكر لهما ، مع الله تعـالى ، أبلغ التأكيد وأعظم الترغيب ، ثم زاد هـذا الحكم ، وهذا الامر ، وتقريراً بلفظ التوصية بهما في قوله تعالى :

---

(١) ٢٣/١٧ الاسراء .

(٢) ٣٥/٤ النسـاء .

(٣) ١٤/١١ لقمـان .

« وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً »[1] .

ليحفظ حكم الله وأمره فيهما ولا يضيع شيء من حقوقها ، فكان حقهما بهذه الوصاية أمانة خاصة ووديعة من الله عظيمة عند ولدهما . وكفى بهذا داعياً الى العناية بهذه الأمانة وحفظها وصيانتها . وكما جاء هذا الجمع في باب الأمر في القرآن كذلك جاء الجمع بينهما في باب النهي وكبر المعصية في السنة . ففي الصحيح عن أبي بكر رضي الله عنه قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **الا اخبركم باكبر الكبائر ! قلنا : بلى يا رسول الله ، قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين .**

وتقدير نظم الآية هكذا : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبأن تحسنوا للوالدين احسانا » . فحذفت أن تحسنوا لوجود مايدل عليه وهو احسانا . وفي تنكيره افادة للتعظيم فهو احسان عظيم في القول والفعل والحال . وتقول : أحسنت اليه وأحسنت به ، وأحسنت به أبلغ لتضمن أحسنت معنى لطفت ، ولما في الباء من معنى اللصوق . ولهذا عدّى في الآية بالباء ليفيد الأمر باللطف في الاحسان والمبالغة في تمام اتصاله بهما ، فلا يريان و يسمعان ولا يجدان من ولدهما الا احساناً ، ولا يشعر أن في قلوبهما منه الا بالاحسان . ومن الاحسان ما يكون ابتداء وفضلا ، ومنه ما يكون جزاء وشكرا ، فعليه أن يعلم أن كل احسانه هو شكر لهما على سابق احسانهما الذي لا يمكنه أن يكافئه بمثله ، لثبوت فضيلة سبقه ، وفي تعليق الحكم ــ وهو الأمر بالاحسان ــ بلفظ الوالدين المشتق من الولادة ايذان بعليتهما في الحكم ، فيستحقان الاحسان بالوالديّة سواء أكانا مؤمنين أم كافرين ، بارين أو فاجرين ، محسنين اليه أو مسيئين . وقد جاء هذا صريحاً في قوله تعالى :

(١) ٢٩/٨ العنكبوت .

« وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً »[1]

فأمر بمصاحبتهما بالمعروف على كفرهما . وفي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، فاستفتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلت : قدمت على أمي وهي راغبة (أي في العطاء والاحسان) أفأصل أمي ؟ قال : نعم ، صِلي أمك . وهذا الاحسان الواجب لهما جانب الأم آكد فيه من جانب الأب وحظها فيه أوفر من حظه ، ويشير الى هذا تخصيصها بذكر اتعابها في قوله تعالى :

« وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ (ضعفا على ضعف) وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ »[2] .

وفي الاخرى « وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً »[3] . فذكر ما تعانيه من ألم الحمل ومشقة الوضع ومقاساة الرِّضاع والتربية ، وجاء التصريح بهذا في الحديث الصحيح : فقد جاء رجل الى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال : **من احق الناس بحسن صحابتي (أي صحبتي من حسن العشرة والبر والتكرمة) قال : امك . قال : ثم من ؟ قال : امك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك .**

فذكر الأب في الثالث . وفي طريق آخر للحديث ذكره في الرابعة . ولقد كان لها هذا بما ذكر من مزيد أتعابها وضعف جانبها ورقة عاطفتها

(١) ٣١/١٥ لقمان .
(٢) ٣١/١٤ لقمان .
(٣) ٤٦/١٥ الاحقاف .

وشدة حاجتها ، فكان هذا الترجيح لجانبها من عدل الحكيم العليم ، ومحاسن الشرع الكريم . ومن الاحسان اليهما طاعتهما في الأمر والنهي ، ومن عقوقهما مخالفتهما فيهما . وانما تحل له مخالفتهما اذا منعاه من واجب عيني أو أمراه بمعصية ، لما في الصحيح من قوله – صلى الله عليه وآله وسلم – : **لا طاعة لأحد في معصية الله انما الطاعة في المعروف** وعند الحاكم واحمد : **لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق** . ومن الدليل على رجحان جانبهما على الواجب الكفائي ما ثبت في الصحيح من حديث الرجل الذي أتى النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – يستأذنه في الجهاد فقال : أحي" والداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد ، وفي الطريق الثاني قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : أقبل رجل الى النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله ؟ ، قال : فهل من والديك أحد حي ؟ قال : نعم ، بل كلاهما قال : فتبغي الأجر من الله ؟ قال : نعم . قال : فارجع الى والديك فأحسن صحبتهما . هذا لأن القيام عليهما فرض عيني ، والجهاد كان عليه فرض كفاية ، ولو تعين عليه ، ولم يكونا في كفاية قدم القيام عليهما وكفايتهما عليه . ومن حقوقهما عليه أن لا يخرج الى ما فيه خوف ومخاطرة بالنفس الا باذنهما بدليل ما جاء في سنن ابي داود : أنّ رجلاً من أهل اليمن هاجر الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواي . قال : أذنا لك ؟ قال : لا . قال : فارجع اليهما فاستأذنهما فان أذنا لك فجاهد ، والا فبرهما . أما اذا أراد تعاطي ما لا خطر فيه ولا فجيعة من شؤون الحياة ووجوه التصرفات فليس عليه أن يستأذنهما وليس لهما منعه ، ولكن اذا منعاه من شيء امتنع لوجوب برهما ، وطاعتهما . – في غير المعصية – من برهما .

تفضيل الاحسان اليهما

في القول والعمل وتاكيده في حالة الكبر

« إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً » [1] .

الأمر بالاحسان اليهما عام في جميع الأحوال ، وخصصت حالة بلوغ أحدهما أو كليهما الكبر بالذكر لانها حالة الضعف ، وشدة الحاجة ، ومظنة الملل والضجر منهما ، وضيق الصدر من تصرفاتهما فهما في هذه الحالة قد عادا في نهايتهما الى ما كان ولدهما عليه في بدايته . وليس عنده من فطرة المحبة مثل ما عندهما ، فكان بأشد الحاجة الى التذكير بما عليه من تمام العناية بهما ، ومزيد الرعاية لهما ، وشدة التوقي والتحفظ من كل ما يمس بسوء جانبهما في هاته الحال على الخصوص ، وان كان ذلك واجبا عليه في كل حال على العموم . وطول بقائهما عنده في كنفه وثقل مؤنتهما عليه ، وما يكون من ضروريات الكبر والمرض مما يستقذره في بيته ، كل هذا قد يؤدِّيه الى الضجر والتبرم فيقول ما يدل على ضجره وتبرُّمه . فنهى عن التفوُّه بأقلّ كلمة تدل على ذلك ، وهي كلمة أفٍّ بقوله تعالى : « وَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ » فأحرى وأولى ما فوقها ، وهذا أمر

---

(١) ٢٣/١٧ الاسراء .

يتحمل كل ذلك منهما ونهي عن التضجر منهما . ومن ضرورة مباينتهما لولدهما في السنّ وفي النشأة أنهما كثيراً ما يخالفانه فيآرائه وأفكاره، وقد يتناولان ما لا يحب أن تصل يدهما اليه ، وقد يسألانه للمعرفة أو للحاجة ، وكل هذا قد يؤديه الى نهرهما ، أي زجرهما بصياح واغلاظ أو اظهار للغضب في الصوت واللفظ ، فنهى عن هذا بقوله تعالى : «وَلاَ تَنْهَرْهُمَا» . وفي هذا أمر بالتلطف معهما في الطلب والعرض والدلالة على وجه الصواب في الأمر وأبواب الفعل والترك ، وبحسن التلقي لكل ما يسألان ويطلبان ، ونهى عن أي اغلاظ في اللفظ والصوت وحالة الكلام . ولما نهاه عن القول القبيح المؤذي أمره بالقول اللين السهل الحسن في لفظه وفي معناه وفي قصده وفي منشأه السالم من كل عيب ومكروه بقوله تعالى : « وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ». وفي هذا أمر بان يخاطبهما بجميل القول ويؤنسهما بطيب الحديث ، ونهى عن أن يؤذيهما في قوله أو يوحشهما بطول السكوت فليس له أن يتركهما وشأنهما ، بل عليه مجالستهما ومحادثتهما وجلب الأنس اليهما وادخال السرور عليهما . ثم أن القول انما هو عنوان ما في الضمير ، ولا يكون كريما شريفا الا اذا كان عنوانا صادقا حسن مظهره ومخبره وعذب جناه وطاب مغرسه ، وما ثماره الا معانيه ، وما مغرسه الا القلب الذي صدر عنه . فيفيد هذا أن على الولد أن يكون معهما باللطف والعطف من صميم قلبه كما هو يعرب لهما عنهما بلسانه فيكون محسناً لهما حينئذ في ظاهره وباطنه وذلك هو تمام البر الذي أمر به .

« وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » .

مضى فيما تقدم أدب القول ، وهذا أدب الفعل وبيان الحال التي يكون عليهما . فالوالدان عند ولدهما في كنفه كالفراخ الضعيفة المحتاجة للقوت والدفء والراحة ، وولدهما يقوم لهما بالسعي كما يسعى

الطائر لفراخه ويحيطهما بحنوه وعطفه كما يحيط الطائر فراخه ، فشبه الولد في سعيه وحنوه وعطفه على والديه بالطائر في ذلك كله على فراخه ، وحذف المشبه به وأشير اليه ، يلازمه وهو خفض الجناح ، لأن الطائر هو ذو الجناح ، وانما يخفض جناحه حنواً وعطفا وحياطة لفراخه ، فيكون في الكلام استعارة بالكناية • وأضيف الجناح الى الذل — وهو الهون واللين — اضافة موصوف الى صفة • اخفض لهما جناحك الذليل ، وهذا ليفيد هونه وانكساره عند حياطتهما حتى يشعر بأنهما مخدومان للاستحقاق لا متفضل عليهما بالاحسان • وفي ذكر هذه الصورة التي تشاهد من الطير تذكير بليغ مرقق موجب للرحمة وتنبيه للولد على حالته التي كان عليها معهما في صغره ، ليكون ذلك ابعث له على العمل وعدم رؤية عمله امام ما قدما اليه • ومن في قوله تعالى (من الرحمة) للتعليل متعلقة بأخفض ، فتقيد مع متعلقها الأمر بأن يكون ذلك الخفض ناشئا على الرحمة الثابتة في النفس لا عن مجرد استعمال ظاهر كما كان يكنفانه ويعطفان عليه عن رحمة قلبية صادقة ، فيكون هذا مفيدا ومؤكداً لما قدمناه من لزوم أن يتطابق على الاحسان اليهما الظاهر والباطن ، ليتم البرور •

« وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً » •

مهما اجتهد الولد في الاحسان الى أبويه فانه لا يجازي سابق احسانهما ، فأمر بأن يتوجه بسؤال الرحمة لهما من الله تعالى ، وهي النعمة الشاملة لخير الدنيا والآخرة إظهاراً لشدة رحمته ورغبة في وصول الخير العظيم من المولى الكريم اليهما ، واعترافا بعجزه عن مجازاتهما • يدعو لهما هكذا في حياتهما وبعد مماتهما ، أما في حياتهما فيدعو لهما بالرحمة سواء كانا مسلمين أم كافرين ، ورحمة الكافرين بهدايتهما الى الاسلام ، واما بعد الموت فلا يسأل الرحمة لهما الا اذا ماتا مسلمين لقوله تعالى :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » [1] .

والكاف في قوله تعالى : « كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً » . للتعليل ، أي : ربِّ ارحمهما لتربيتهما لي وجزاء على احسانهما اليَّ في حالة الصغر، حالة الضعف والافتقار . وفي هذا اعتراف بالجميل واعلان لسابق احسانهما العظيم وتوسل الى الله تعالى في قبول دعائه لهما بما قدما من عمل لأنه وعد أنَّه يجزي العاملين ، وقد كانت تربيتهما لولدهما من أجل مظاهر الرحمة ، وهو قد أخبر تعالى على لسان رسوله أنه يرحم الراحمين . ولا أرحم – بعده تعالى – من الوالدين .

خاتمة :

من بر الوالدين أن تتحفظ من كل ما يجلب لهما سوءا من غيرنا ، فان فاعل السبب فاعل للمسبب ، ومن هذا ان لا نسبَّ الناس حتى لا يسبوا والدينا ، لأنا اذا سببنا الناس فسبوهما كنا قد سببناهما ، وسبهما من أكبر الكبائر . ففي الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – : **ان من اكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل : يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب ابا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه .**

ومن برهما حفظهما بعد موتهما بالدعاء والاستغفار وانفاذ عهدهما واكرام صديقهما وصلة رحمهما . فقد روى ابن ماجة وأبو داوود وابن حبان في صحيحه عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي البدري

(١) ٩/١١٤ التوبة .

ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اذ جاء رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة (أي الدعاء) عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما واكرام صديقهما . وفي اكرام صديقهما جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه . قال ابن دينار فقلنا له : أصلحك الله انهم الأعراب وأنهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله : ان أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب ، واني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم - يقول : **ان ابر البر صلة الولد أهل ود ابيه .**

هذا وانّ من راض نفسه على هذه الاخلاق الكريمة والمعامه الحسنة والأقوال الطيبة التي أمر بها مع والديه حصل له من الارتياض عليها كمال أخلاقي مع الناس أجمعين ، وكان ذلك من ثمرات امتثال أمر الله وطاعة الوالدين . والله يوفقنا ويهدينا سواء السبيل . انه المولى الكريم رب العالمين[1] .

---

(١) ش جـ ٤ ، م ٦ ، ص ٢٠٦ ـ ٢١٢ غرة ذي الحجة ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٣٠ م .

صلاح النفوس واصلاحها

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً»[1] .

صلاح الشيء : هو كونه على حالة اعتدال في ذاته وصفاته ، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال . وفساده : هو كونه على حالة اختلال في ذاته أو في صفاته بحيث تصدر عنه أو به تلك الاعمال على وجه النقصان . اعتبر هذا في البدن ، فانّ له حالتين : حالة صحة وحالة مرض . والاولى : هي حالة صحته باعتدال مزاجه ، فتقوم أعضاؤه بوظائفها وينهض هو بأعماله . والثانية : هي حالة فساده باختلال مزاجه فتتعطل أعضاؤه أو تضعف كلها أو بعضها عن القيام بوظائفه ، ويقعد هو أو يثقل عن أعماله . هذا الذي تجده في البدن هو نفسه تجده في النفس ، فلها صحة ولها مرض ، حالة صلاح وحالة فساد .

والاصلاح هو ارجاع الشيء الى حالة اعتداله بازالة ما طرأ عليه من فساد . والافساد هو اخراج الشيء عن حالة اعتداله باحداث اختلال فيه . فاصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء ، واصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة . وافساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر ، وافساد النفس بمقارفة المعاصي والذنوب ، هكذا تعتبر النفوس بالأبدان في باب الصلاح والفساد . في كثير من الأحوال .

---

(1) ١٥/١٧ الاسراء .

غير أن الاعتناء بالنفوس أهم وألزم لأن خطرها أكبر وأعظم .

ان المكلف المخاطب من الانسان هو نفسه ، وما البدن الا آلة لها ، ومظهر تصرفاتها . وان صلاح الانسان وفساده انما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها ، وانما رقيه وانحطاطه باعتبار رقي نفسه وانحطاطها ، وما فلاحه الا بزكائها وما خيبته الا بخبثها . فقد قال تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »[1]

وفي الصحيح : **« الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب »** وليس المقصود من القلب مادته وصورته، وانما المقصود النفس الانسانية المرتبطة به . وللنفس ارتباط بالبدن كله، ولكن القلب عضو رئيسي في البدن ومبعث دورته الدموية على قيامه بوظيفته تتوقف صلوحية البدن لارتباط النفس به ، فكان حقيقياً لأن يعبر به عن النفس على طريق المجاز . وصلاح القلب بمعنى النفس بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة وانما يكونان بصحة العلم وصحة الارادة ، فاذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة ، واذا فسدت النفس من ناحية العقد أو ناحية الخلق أو ناحية العلم أو ناحية ارادة فسد البدن وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد . فصلاح النفس هو صلاح الفرد ، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع ، والعناية الشرعية متوجهة كلها الى اصلاح النفوس . اما مباشرة واما بواسطة ، فما من شيء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق ، والخير ، والعدل ، والاحسان ، الا وهو راجع عليها بالصلاح ، وما من شيء نهى الله تعالى عنه من الباطل والشر والظلم والسوء ، الا وهو عائد عليها بالفساد ، فتكميل النفس الانسانية هو أعظم المقصود من انزال الكتب وارسال الرسل ،

(١) ٩١/١٠ ـ ١١ الشمس .

وشرع الشرائع ، وهذه الآيات الثمان عشرة قد جمعت من اصول الهداية ما تبلغ به النفوس اذا تمسكت به غاية الكمال .

قد أمر تعالى في الآيات المتقدمة بعبادته ، وتوحيده ، والاخلاص له ، وأمر ببر الوالدين والاحسان اليهما في الظاهر والباطن ، كما أمر بغير ذلك في الآيات اللاحقة ، ووضع هذه الآية أثناء ذلك ، وهي متعلقة بالنفس وصلاحها ، لينبه الخلق على أصل الصلاح ، الذي منه يكون ، ومنشأه الذي منه يبتدىء ، فاذا صلحت النفس قامت بالتكاليف التي تضمنتها هذه الآيات الجامعة ، لأصول الهداية ، وهذا هو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها وما بعدها ، الذي قد يكون قبل التدبر خفيا . ونظير هذه الآية في موقعها ودلالتها على ما به يسهل القيام باعباء التكاليف . ـ قوله تعالى « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ »(١) فقد جاءت أثناء آيات أحكام الزوجية آمرة بالمحافظة على الصلوات تنبيهاً للعباد على أن المحافظة عليها على وجهها تسهل القيام بأعباء تكاليف تلك الآيات لأنها تزكي النفس بما فيها من ذكر وخشوع وحضور وانقطاع الى الله تعالى وتوجه اليه ومناجاة له ، وهذا كله تعرج به النفس في درجات الكمال . والنفوس الزكية الكاملة تجد في طاعة خالقها لذة وأنساً تهون معهما أعباء التكليف . ثم ان العباد بنقص الخلقة وغلبة الطبع معرضون للتقصير في ظاهرهم وباطنهم ، في صور أعمالهم ودخائل أنفسهم ، ـ وخصوصاً في باب الاخلاص ـ فذكروا بعلم ربهم في نفوسهم في قوله تعالى : « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ »(٢) ليبالغوا في المراقبة فيتقنوا أعمالهم فيصورها

(١) ٢٣٨/٢ البقرة .

(٢) ٢٥/١٧ الاسراء .

ويخلصوا بها له • وهذه المراقبة هي الاحسان الذي هو عبادتك الله كأنك تراه ، وذكر اسم الرب لأنه المناسب لاثبات صفة العلم ، فهو الرب الذي خلق النفوس وصورها ودبرها • ولا يكون ذلك الا بعلمه بها في جميع تفاصيلها • وكيف يخفى عليه شيء منهـا وهو خلقها [1] • « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ » [2] •

والصالحون : في قوله تعـالى : « إنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ »[3] هم الـذين صلحت أنفسهم فصلحت أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، وصلاح النفس وهو صفة لها خفي كخفائها • وكما أننا نستدل على وجود النفس وارتباطها بالبدن بظهور أعمالها في البدن كذلك نستدل على اتصافها بالصلاح وضده بما نشاهده من أعمالها • فمن شاهدنا منه الأعمال الصالحة ـ وهي الجارية على سنن الشرع وآثار النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حكمنا بصلاح نفسه وأنه من الصالحين• ومن شاهدنا منه خلاف ذلك حكمنا بفساد نفسه وأنه ليس منهم ولا طريق لنا في معرفة صلاح النفوس وفسادها الا هذا الطريق • وقد دلنا الله تعالى عليه في قوله تعالى :

« مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ »[4] •

---

(١) في الاصل : وهو هو خلقها .

(٢) ٦٧/١٤ الملك .

(٣) ١٧/٢٥ الاسراء .

(٤) ٣/١١٤ ـ ١١٤ آل عمران .

فذكر الأعمال ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين ، فأفادنا أن الأعمال هي دلائل الصلاح ، وأن الصلاح لا يكون الا بها ولا يستحقه الا أهلها . ثم ان العباد يتفاوتون في درجات الصلاح على حسب تفاوتهم في الأعمال . ويكون لنا أن نقضي بتفاوتهم في الظاهر بحسب ما نشاهد ، ولكن ليس لنا أن نقضي بين أهل الأعمال الصالحة في تفاوتهم عند الله في الباطن فندعي أن هذا أعلى درجة في صلاحه عند الله تعالى من هذا ، لأن الأعمال قسمان : أعمال الجوارح وأعمال القلوب ، وهذه أصل لأعمال الجوارح ، وقد قال النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : التقوى ههنا ، ويشير الى صدره ثلاث مرات . فمنازل الصالحين عند ربهم لا يعلمها الا الله ، والأوابون في قوله تعالى : « فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورا »[1] هم الكثيرو الرجوع الى الله تعالى . والأوبة في كلام العرب هي الرجوع قال عبيد :

وَكُلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ   وَغَائِبُ المَوْتِ لا يَؤُوبُ

والتوبة هي الرجوع عن الذنب ، ولا يكون الا بالاقلاع عنه . واعتبر فيها الشرع الندم على ما فات والعزم على عدم العود وتدارك ما يمكن تداركه ، فيظهر أن الأوبة أعم من التوبة ، فتشمل من رجع الى ربه تائباً من ذنبه ، ومن رجع اليه يسأله ويتضرع اليه أن يرزقه التوبة من الذنب . فنستفيد من الآية الكريمة سعة باب الرجوع الى الله تعالى . فاذا تاب العبد فذاك هو الواجب عليه والمخلص له ــ بفضل الله ــ من ذنبه . وان لم يتب فليدم الرجوع الى الله تعالى بالسؤال والتضرع والتعرض لمظان الاجابة ، وخصوصاً في سجود الصلاة فقمن ــ ان شاء الله تعالى ــ أن يستجاب له . وشر العصاة هو الذي ينهمك في المعصية مصراً عليها غير مشمئز منها ولا سائل

---

(1) ٢٥/١٧ الاسراء .

من ربه بصدق وعزم التوبة منها ويبقى معرضا عنه ربه كما أعرض هو عنه ، ويصر على الذنب حتى يموت قلبه . ونعوذ بالله من موت القلب ، فهو الداء العضال الذي لا دواء له . وجاء لفظ الأوّابين جمعاً لأواب وهو فعال من أمثلة المبالغة ، فدل على كثرة رجوعهم الى الله ، وأفاد هذا طريقة اصلاح النفوس بدوام علاجها بالرجوع الى الله . ذلك أنّ النفوس ــ بما ركب فيها من شهوة ، وبما فطرت عليه من غفلة ، وبما عرضت له من شؤون الحياة ، وبما سلط عليها من قرناء السوء من شياطين الانس والجن ــ لا تزال – الا من عصم الله ــ في مقارفة ذنب ومواقعة معصية صغيرة أو كبيرة من حيث تدري ومن حيث لا تدري ، وكل ذلك فساد يطرأ عليهما فيجب اصلاحها بازالة نقصه ، وابعاد ضرره عنها ، وهذا الاصلاح لا يكون الا بالتوبة وبالرجوع الى الله تعالى . ولما كان طروء الفساد متكرراً فالاصلاح بما ذكر يكون دائما متكررا . والمداومة على المبادرة الى اصلاح النفس من فسادها والقيام في ذلك والجد فيه والتصمم عليه هو من جهاد النفس الذي هو أعظم الجهاد . ومن معنى هذه الآية قوله تعالى : « إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »[1] وهم الذين كلما أذنبوا تابوا ، والتوبة طهارة للنفس من درن المعاصي . والغفور في قوله تعالى : « فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا » هو الكثير المغفرة ، لانه على وزن فعول ، وهو من أمثلة المبالغة الدالة على الكثرة . والمغفرة : سترة للذنب وعدم مؤاخذته به ، ولما ذكر من وصف الصالحين كثرة رجوعهم اليه ، ذكر من أسمائه الحسنى ما يدل على كثرة مغفرته ، ليقع التناسب في الكثرة من الجانبين . ومغفرته أكثر . وليعلم أن كثرة الرّجوع اليه يقابلها كثرة المغفرة منه

---

(١) ٢/٢٢٢ البقرة .

فلا يفتأ العبد راجعا راجيا للمغفرة لا تقعده كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع ولا يضعف رجاؤه في نيل مغفرة الغفور ، كثرة الرجوع . وقد أكد الكلام بـ (أن) لتقوية الرجاء في المغفرة ، وجيء بلفظة (كان) لتفيد أن ذلك هو شأنه مع خلقه من سابق ، وهذا مما يقوي الرجاء فيه في اللاحق ، فقد كان عباده يذنبون ويتوبون اليه ويغفر لهم ، ولا يزالون كذلك ، ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفورا ، وانما احتيج الى هذا التأكيد كله في تقوية رجاء المذنب في المغفرة ليبادر بالرجوع على كل حال ، لأن العبد مأخوذ بأمرين يضعفان رجاءه في المغفرة أحدهما كثرة ذنوبه التي يشاهدها فتحجبها كثرتها عند رؤية مغفرة الله تعالى التي هي أكبر وأكبر . والآخر رؤيته لطبعه البشري وطبع بني آدم من المنع عند كثرة السؤال كما قال شاعرهم ــ أي البشر ، لأن الشاعر العربي عبر عن طبع بشري :

سألنـــا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسئال يوما سيحرم

فيقوده القياس – وهو من طباع البشر أيضا ــ القياس الفاسد الى ترك الرجوع والسؤال من الرب الكريم العظيم النوال . فهذان الأمران يقعدانه عن الرجوع والتوبة فيستمر في حمأة المعصية وذلك هو الهلاك المبين . فكان حاله مقتضيا لأن يؤكد له حصول المغفرة عند رجوعه بتلك المؤكدات .

وقد كان مقتضى الظاهر في تركيب الآية أن يقال : ان تكونوا صالحين فانه كان لكم غفورا ، لأن المقام للاضمار ، لكنه عدل عن الضمير الى الظاهر فقيل فانه كان للأوابين غفورا لينص على شرط المغفرة وهو الأوبة والرجوع . وعلم من ذلك ان الصالح عندما تقع منه الذنوب مطالب – كغيره ــ بالأوبة لتحصيل المغفرة ، لأن فرض الأوبة الى الله من المعاصي عام على الجميع . وقد اشتملت الآية من

فعل الشرط وهو ان تكونوا صالحين ، وجوابه وهو فانه كـان للأوابين غفورا ••• على الحالتين اللازمتين للانسان لتكميل نفسه وهما الصلاح المستفاد من الأول والاصلاح بالأوبة المستفاد من الثاني • وما دام الانسان يجاهد في تزكية نفسه بهذين الأصلين فانه بالغ - باذن الله - درجة الكمال • ثبتنا الله والمسلمين عليهما وحشرنا في زمرة الكاملين المكملين انه المولى الغفور الكريم [1] •



(١) ش : ج ٥ ، م ٦ ص ٢٧٠ - ٢٧٥
غرة محرم ١٣٤٩ هـ - جوان ١٩٣٠

ايتاء الحقوق لأربابها

« وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ .... » (1) .

الناس كلهم في حاجة مشتركة الى بعضهم. وما من أحد الا وله حقوق على غيره ، ولغيره حقوق عليه . ولهذه الحاجة المشتركة والحقوق الممتزجة كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشري واطراد نظامه . وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس . وعندما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده ، بل هي خدمة للمجتمع كله . وبالآخرة هي خدمة له هو في نفسه لانه جزء من المجتمع وما يصيب الكل يعود على جزئه . فاذا تواردت أفراد المجتمع على هذه التأدية سعدت وسعد مجتمعنا بنيله حاجيات الحياة ولوازم البقاء والتقدم في العمران . أما اذا توانى الأفراد في القيام بالحقوق وقصروا في تأديتها الى بعضهم فان الحاجة المشتركة من العلم والثقافة وحفظ الصحة والأخلاق وأنواع الصناعة ـ تتعطل ، وبتعطلها يختل نظام الاجتماع ويعود الى الانحلال والتقهقر ، وينحط بأفراده الى أسفل الدركات ، فلهذا بعد ما أمر الله تعالى بايتاء حقه ـ وهو توحيده في عبادته ـ أمَرَ بايتاء حقوق العباد ، القريب منهم والبعيد .

---

(1) ١٧/٢٦ ـ ٣٠ الاسراء .

حقوق القريب :

« وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ » .

ابتدأ بحق القريب لوجوه : الأول أنه هو مقتضى طبيعة الترتيب . الثاني : تأكيد حق القريب . الثالث : ان من حكمة التربية أن يبدأ من الأوامر بما تعين فطرة النفوس الانسانية على قبوله ببداهة الفكرة أو بشعور العاطفة . وكلتا هاتين يحبب للنفس ايتاء حق القريب فابتدى به في الأمر ليكون تقبلها له أسهل ومبادرتها للامتثال أسرع ، فاذا سخت النفوس بايتاء حق القريب ومرنت عليه اعتادت الايتاء وصار من ملكاتها فسهل عليها ايتاء كل حق ولو كان لأبعد الناس . وشيء آخر ، وهو أن الأقارب قد تكون بينهم المنافسات والمنازعات لقرب المنازل ، أو تصادم المنافع أو التشاح على المواريث ما لا يكون بين الأباعد ، فيقطعوا حق القرابة ويهدموا بناء الاسرة ، ويعود ذلك عليهم أولا بالوبال ، ويرجع ثانيا على مجتمعهم ــ والمجتمع مؤلف من الاسر ــ بالتضعضع ، فكان هذا من جملة ما يقتضي الابتداء بحقهم الى المقتضيات المتقدمة الأخرى .

وقوله تعالى : « ذا القربى » عام يشمل الأصل ــ وهو الابوان ــ وما يتصل بالمرء من ناحيتهما من أصولهما وفصولهما ، ويشمل الفصْل ــ وهو الابناء والبنات ــ ويتصل به منهما من فصول ، غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصصا بالذكر في الآيات المتقدمة وان كانا داخلين في هذا العموم .

والحق في قوله تعالى « حقه » هو الثابت له شرعا المبين في آيات من الكتاب من صلة رحم ونصيب ارث ونفقة فرض وندب واحسان بالقول والفعل ومواساة عن محبة وعطف .

حق المسكين :

« وَالمِسْكِين »

قد ذكر في آية الزكاة الفقير والمسكين • والحق أنهما متغايران ، والراجح أن الفقير من له بلغة لا تكفيه ، والمسكين من لا شيء له ، فهو أشد حالا من الفقير ، ولذا لما أريد هنا ذكر أحدهما اقتصر عليه تنبيها بالأعلى في الفقر على الأدنى ، فالمراد أهل الفقر والحاجة كلهم •

وحق المساكين ما ثبت لهم من الزكاة ، وكذلك ما تدعو اليه الحاجة من تعليمهم وايوائهم وطبهم وتجهيز موتاهم ، مما تقوم به الجمعيات الخيرية في هذا العصر ، فكل هذا مما تصرف اليه الزكاة ويجب القيام به عند عدم الزكاة أو فنائها أو قصورها عنه ، ويجب القيام به واجبا موزعا على كل واحد ما استطاع ، فاذا لم يقم به المجتمع عاد الأثم على جميع الأفراد كل بقدر ما قصر فيما استطاع ، ثم ما الى هذا من عموم الصدقة والاحسان •

حق ابن السبيل :

« وَابْنَ السَّبِيلِ »

السبيل هي الطريق ، وابنها هو المسافر لأنه منها أتى كما أتى الابن من أمه • وحقه هو الثابت له في الزكاة ، فيأخذ منها اذا قطع به ولم يكن معه ما يبلغه ولو كان غنيا في بلده ، وعلى جماعة المسلمين تبليغه اذا لم تكن ثم زكاة • ومن حقه ضيافته حسب السنة ، وارشاده ودلالته على ما يريد معرفته من طريقه أو مرافقها •

وبذكر ابن السبيل والمسكين مع ذي القربى جمعت الآية القريب والبعيد من ذوي الحقوق • وبذكر ابن السبيل والمسكين جمعت ذا الحاجة الثابتة وهو المسكين ، والحاجة العارضة وهو ابن السبيل ،

وقدم الأول لأصالة حاجته . وفي ذكرهما أيضا جَمْع" ما بين القريب الدار والبعيد الدار والمسافر . كل هذا ليعلم أنّ ذا الحق يعطي حقه على كل حال ، وبقطع النظر عن أي اعتبار . وسمي هؤلاء الثلاثة بأسمائهم المذكورة لأنها ترقق عليهم القلوب من القرابة والمسكنة وغربة الطريق . وسمي ما ينالونه حقا ليشعر المكلف بتأكده . ويحذر المعطي من المنّ به ولا ينكس قلب آخذه .

الانفاق في غير وجـه شرعي :

« وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً »

المال قوام الأعمال ، وأداة الاحسان ، وبه يمكن القيام بالحقوق ، فصاحبه هو مالكه ، ولكن الحقوق فيه تشاركه ولا يقوم له بوجوه الحق الا اذا امسكه عن وجوه الباطل ، ثم لا يقوم له بجميع تلك الوجوه الا اذا أحسن التدبير في التفريق وأصاب الحكمة في التوزيع . فلذا بعد ما أمر الله تعالى باعطاء الحقوق لأربابها نهى عن تبذير المال الذي هو أصلها وبه يمكن اعطاؤها .

والتبذير هو التفريق للمال في غير وجه شرعي أو في وجه شرعي دون تقدير فيضر بوجه آخر . فالانفاق في المنهيات تبذير وان كان قليلا . والانفاق في المطلوبات ليس بتبذير ولو كان كثيرا . الا اذا أُنفِق في مطلوب دون تقدير فأضر بمطلوب آخر كمن أعطى قريبا وأضاع قريبا آخر أو أنفق في وجوه البر وترك أهله يتضورون بالجوع وقد نبه النبي صلّى الله عليه وآله وسلم على هذا بقوله : **« وابدأ بمن تعول »** . والانفاق في المباحات اذا لم يضيع مطلوبا ولم يؤد الى ضياع رأس المال بحيث كان ينفق في المباح من فائدته ليس بتبذير ، فاذا توسع في المباحات وقعد عن المطلوبات أو أداه الى افناء ماله فهو تبذير مذموم .

وأفادت النكرة وهي قوله « تبذيرا » بوقوعه بعد النهي – العموم فهو نهي عن كل نوع من أنواع التبذير القليل منه والكثير حتى لا يستخف بالقليل ، لأن من تساهل في القليل وصلت به العادة الى الكثير .

اخوان الشياطين :

« إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً » .

ان الشيطان يعمل وأعماله كلها في الضلال والاضلال . فقد ضيع أعماله في الباطل ، وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير . وهو جاد في ذلك ضار عليه لرسوخه في نفسه . والمبذر يضيع أمواله في الباطل وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير . وقد أخذت عادة التبذير بخناقه واستولت عليه . فهو أخو الشيطان لمشاركته له في وصفه كمشاركة الأخ لأخيه . وهو أخوه بامتثاله لأمره وصحبته له في الحال وفي المآل وفي سوء العاقبة في العاجل والآجل .

المال كما هو أداة لكل خير ، كذلك هو أداة لكل شر ، فالمبذر المفرق لماله في وجوه الباطل بالغ – لا محالة – بماله الى شر كثير وفساد كبير ، ولذلك وصف بانه أخ الشيطان الذي هو أصل الشر والفساد ، ووصف تعالى الشيطان بقوله : « كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً » لأنّه أنعم عليه بنعمته فبدلا من أنْ يستعملها في طاعته في الخير قصرها على المعصية والشر . وذكر هذا من وصف الشيطان بعد ما تقدم يفيد أنه من وصف المبذر أيضا . فالمبذر أخو الشيطان ، والشيطان كان لربه كفورا . فالمبذر كان لربه كفورا . ذلك لأنَّ الله تعالى أنعم عليه بالمال الذي هو أداة لكل خير وعون عظيم على الطاعة فجعله أداة في الشر واستعان به على المعصية . ومكنه بالمال من نعمة القدرة

على القيام بالحقوق فضيعها وقام بالشرور والمفاسد • وهذا من أقبح الكفر لنعمة ربه الذي كان به مضارعها للشيطان أخيه • والعياذ بالله •

حسن المقال ، عند العجز عن النوال :

«وإمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً » •

للمؤمنين حالتان حالة وجد وحالة عوز • فلما علمنا الله تعالى ما نصنع في حالة الوجد من ايتاء لذوي القربى واليتامى والمساكين — علمنا ما نصنع في حالة العوز من الرد الجميل والقول اللين الحسن •

وقوله تعالى « تُعْرِضَنَّ » من الاعراض وهو الانصراف عن الشيء ، وهو هنا كناية عن عدم العطاء ، لأن من يأتي أن يعطي يعرض بوجهه ولو اعراضا قليلا • ولما كان الاعراض كناية عن عدم العطاء فانه يشمل عدم العطاء عند السؤال الذي قد يكون معه الاعراض بالفعل ولو قليلا ، ويشمل عدم العطاء لمن هو أهل لأن يعطي مع عدم وجود السؤال •

وقوله تعالى : « ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » • الابتغاء هو الطلب باجتهاد ، وذلك بالأخذ في الأسباب والاعتماد على مسببها وهو الله تعالى • ورحمة الرب هنا رزقه • ورجاؤها هو انتظارها مع الأخذ في أسبابها بالقلب والعمل • وابتغاء رحمة الرب ورجاؤها كناية عن حالة العوز والاعسار لأن شأن المعوز المؤمن أن يكون كذلك •

وقوله تعالى : « فَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً مَيْسُوراً » • تقول : يسرت له القول ، إذا لينته لـه • فـالقول الميسور هو القول المابين وحاصل المعنى : ان اعرضت عنهم فلم تعطهم لأنك لم تجد مـا

تعطيهم - وهي الحالة التي تكون فيها تطلب رحمة من ربك راجيا رزقه - فقل لهم قولا لينا سهلا فتواسيهم بالقول عند عدم السؤال ، ولا تتركهم في ساحة الاهمال ، وردهم الرد الجميل عند السؤال فتقول لهم يرزق الله ونحوه من لين الكلام .

وفي الآية تعليم وتربية للمعسر من ناحيتين ، الأولى : معاملته لذوي القربى واليتامى والمساكين عند السؤال وعدمه . وعرف من الآية أنه مطالب بحسن المقال بدلا مما عجز عنه من النوال . والثانية : ادبه ، هو في نفسه والحالة التي ينبغي له أن يكون عليها . فان حالة العسر حالة شدة وبلاء يحتاج المكلف أشد الحاجة أن يعرف دواءه فيها لسيرته العملية ، وحالته النفسية . فاعطته هذه الآية الكريمة الدواء لهما . فلما في سيرته العملية فعليه أن يكون ساعيا في الأسباب حسب جهده وذلك هو ما يفيده قوله : « ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ ». وأن يكون مطمئن القلب بالله معتمدا عليه قوي الثقة فيه . وذلك هو ما يفيده قوله : « تَرْجُوهَا » .

وقد ذكر برحمة الرب - جلَّ جلاله - لوجوه ، الأول : تقوية رجائه، فانه يعلم سعة رحمة الله وغمره بها في كل حين . ومن ذا الذي لم يجد نفحات الرحمات في أكثر الأوقات في أحرج الساعات . الثاني : بعثه على الصبر والتسليم وعدم الضجر والسأم من الطلب والانتظار ، فانها رحمة الرب ، ومن مقتضى ربوبيته تدبيره للخلق بحكمته فما جاء منه كيف جاء وفي أي وقت جاء أبطأ أم تأخر - هو مقبول منه محمود منا عليه . الثالث : بعث عاطفة الرحمة على غيره فانَّ من كان يرجو رحمة ربه جدير بأن يكون رحيما بعباده . ورحمته بعباد الله تعينه على القيام بما أمر به من حسن المقال عند العسر وجميل النوال عند اليسر . وتكون سببا له في رحمة الله اياه والراحمون يرحمهم الرحمن وانما يرحم الله من عباده الرحماء .

العدل في الانفاق :

« وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً » .

لما أمرنا تعالى بالانفاق علمنا كيف ننفق ، وبيَّن لنا أدب الانفاق في هذه الكلمات .

شبهت حالة وهيئة البخيل المسيك الذي لا يكاد يرشح بشيء ولا يقدر لبخله على اخراج شيء من ماله بحالة وهيئة الذي جعل يده مغلولة مجموعة بغل الى عنقه . فذاك لا تتوجه نفسه للبذل ولا تمتد يده للعطاء وهذا لا تمتدّ يده للتصرف . ونقل الكلام المركب الدال على المشبه به فاستعمل في المشبه على طريق الاستعارة التمثيلية لتقبيح حالة البخيل .

والمعنى : لا تبخل بالنفقة في حقوق الله ولا تمسك امساك المغلولة يده الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء .

وشبهت حالة المسرف الذي لا يبقي على شيء بحالة الشخص الباسط لكفيه ، فلا يمسكان عليه من شيء،فذلك يملك المال ولكنه يسرفه لايبقى له منه شيء ، وهذا قد يمر الشيء على يده ، ولكنه لا يبقي فيها شيء ونقل المركب الدال على المشبه به الى المشبه استعارة تمثيلية أيضا .

والمعنى : ولا تخرج جميع ما تملك مع حاجتك اليه ولا تنفق جميع مالك . وبهذا يعلم أن كل البسط المنهي عنه هنا غير التبذير المنهى عنه في الآية ـــ المتقدمة ، ذاك توزيع المال وتبديده في غير وجوهه ، وهذا التجاوز في الانفاق المطلوب والتوسع في الانفاق المأذون حتى يبقى بلا شيء .

نهى تعالى بهذه الآية عن طرفي الافراط والتفريط وهما الاسراف

والتقتير . فالمأمور به هو العدْل الوسط ، فعلى ذي المال أن يأخذ في انفاقه بهذا الميزان ليكون انفاقه محمودا . فلا يمسك عما يستطيع ولا يتجاوزه الى ما لا يستطيع أو الى ما يوقعه في عسر وضرر .

وكان النهي عن كل البسط لأنه هو الذي فيه اسراف ، وأما أصل البسط الذي هو توسعه بحكمة فغير منهى عنه لأنه لا ضرر فيه .

وحذر تعالى من سوء عاقبة الاسراف والتقتير بقوله : « َفتَقْعُدَ مَلُوماً َمحْسُوراً » . البخيل المسك ملوم من الله تعالى ومن العباد إذا لم تلمه نفسه الخبيثة لموت قلبه . على أنه سيلوم هو نفسه بعد الموت . والمسرف ملوم من الجميع ومن نفسه بعد ضياع ما في يده . والمحسور المتعب المضنى الذي انكشفت عنه القوة ولم تبق به قدرة على شيء . تقول العرب : حسرت البعير ، أي انضيته واتعبته بالسير حتى لم يبق به قدرة عليه . والجمل لا يقطع الطريق ويصل الى الغاية الاّ اذا حافظ صاحبه على ما فيه من قوة فسار به سيرا وسطا . أما اذا أجهده واستنزف قوته فانه يسقط كليلا محسورا ، فلا قطع طريقه ولا وصل منزله ولا أبقى جمله . فكذلك الانسان في طريق هذه الحياة محتاج الى قوة المال ، فاذا أنفقه بحكمة نفع به وانتفع ، وبلغ غاية حياته هادئا رضيا ، واذا بسط يده فيه كل البسط أتى عليه فانقطع النفع والانتفاع ولم يبلغ غاية حياته الاّ باتعاب ومشاق .

وعلم من هذا أنّ قوله « مَلُوماً » يرجع للمقتر والمسرف ، وقوله « مَحْسُورا » يرجع للمسرف فقط . ولكن لما كان المحسور هو الذي ذهبت قوته فلا قدرة له على شيء ، فقد تقول أنّ البخيل أيضا مبغوض من الناس مخذول منهم ، فلا يجد في ملماته معينا ولا في نوائبه معزيا ، فهو أيضا ضعيف الجانب لا قوة له . فالمسرف ضيع المال . والبخيل ضيع الاخوان ، فكلاهما مكسور الظهر عديم الظهير .

والمخاطب بهذا الخطاب امّا مفرد غير معين ، فيشمل جميع المكلفين غير النبي صلّى الله عليه وآله وسلم لأنه كان يأخذ لعياله قوت سنتهم حين أفاء الله عليه النضير وفدك وخيبر ، ثم يصرف ما بقي في الحاجات حتى يأتي أثناء الحول وليس عنده شيء ، وما كان ملوما ولا محسورا ، بل كان على ذلك صبارا شكورا مشكورا ــ وأما هو النبي صلّى الله عليه وسلم ، والمراد أمته ، وعادة العرب أن تخاطب سيد القوم ، تريد القوم ، وتعبر بالمتبوع عن اتباعه ، ونظير هــذه الآية في ذلــك : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » [1] « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » [2] فالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم غير داخل في هذا الخطاب باجماع ، وقد تقدم قوله تعالى : « وإمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ » ، يعني الوالدين ، وكان والداه عليهما الرحمة توفيا ، فلم يدخل في الخطاب قطعا ، فكذلك هنا .

قال الامام ابن العربي ــ رضي الله عنه ــ في تعليل عدم دخوله في هذا الخطاب ــ : لما هو عليه من الخلال والجلال ، وشرف المنزلة ، وقوة النفس على الوظائف وعظيم العزم على المقاصد . فأما سائر الناس فالخطاب عليهم وارد والأمر والنهي ــ كما تقدم ــ اليهم متوجه . الا أفرادا خرجوا من ذلك بكمال صفاتهم وعظيم أنفسهم ، منهم ابو بكر الصديق خرج عن جميع ماله للنبي صلّى الله عليه وآله وسلم فقبله منه الله سبحانه ؛ وأشار على أبي لبابة وكعب بالثلث من جميع مالهم لنقصهم عن هذه المرتبة في أحوالهم . وأعيان من الصحابة كانوا على هذا ، فأجزاهم النبي صلّى الله عليه وآله وسلم عليه ، وائتمروا بأمر الله واصطبروا على بلائه ، ولم تتعلق قلوبهم بدنيا ، ولا ارتبطت أبدانهم

---

(١) ١٠/٩٤ يونس .

(٢) ٣٩/٦٥ الزمر .

بمال منها ، وذلك لثقتهم بموعود الله في الرزق وغروب أنفسهم عن التعلق بغضارة الدنيا . وقد كان أشياخي من ارتقى الى هذه المنزلة فما ادّخر قط شيئا لغد ولا نظر بمؤخر عينه الىأحد ، ولا ربط على الدنيا بيد .

فههنا ثلاثة أصناف من الخلق الأعم الأكثر ، وهم أهل الحظوظ البشرية ، والقليل وهم الذين ضعفت فيهم حظوظهم ، والأقل الأندر وهم الذي زالت منهم تلك الحظوظ . وقد أفادتنا السنة العملية المتقدمة في كلام الامام ابن العربي أن لأهل الصنف الثاني أن يخرجوا عن كثيرمن أموالهم على مقدار ما بقي من حظوظهم ، وأن لأهل الصنف الثالث أن يخرجوا منها كلها ، وأما أهل الصنف الاول فلا يخرجون من الوسط الذي بينته الآية .

وقد جاءت الآية الكريمة على مقتضى حال الأعم الأكثر لأنها قاعدة عامة في سياسة الانفاق ، وشأن القواعد العامة أن يعتبر فيها جانب الأعم الغالب ولا يلتفت للنادر . وقد وكل للنبي صلّى الله عليه وآله وسلم بيانه ، فجاء مبينا فيما تقدم من سنته . وتقررت القاعدة واستثناؤها من الكتاب والسنة وهما مصدر التشريع .

تفاوت الارزاق من حكمة الخلاق :

« إنّ ربّكَ يبسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إنّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصيراً » [1] .

لما أرشدنا تعالى الى السلوك الأقوم في العمل في باب الانفاق أرشدنا الى العقد الصحيح في مسألة تفاوت الأرزاق وفي ذلك تمام الهداية الى الاستقامة في الظاهر والباطن .

---

(١) ١٧/٣٠ الاسراء .

وأن أحوال العباد في الغنى والفقر والسعة والضيق وتعاقبها عليهم بسرعة وبمهل ، وتفاوتهم فيها لما يخفي ولما يظهر من العلل — لأمر عجب عجاب يحير الألباب • فعلمنا الله تعالى في هذه الآية أنّ الربّ هو الذي يربي المربوب في أحواله وأطواره بمقتضى الاصلاح والصواب هو الذي يبسط ويوسع على من يشاء — ولا يشاء الاّ ما هو حق وعدل وصواب وان خفي علينا وجهه — ويقدر ، أي يضيق على من يشاء ، وكل أحد هو حقيق بالحال الذي هو فيه • وأنه كان بعباده خبيرا مطلعا على دواخل أمورهم وبواطن أسرارهم من أنفسهم ، ومما يرتبط بهم ومن سوابقهم ومصائرهم بصيرا منكشفة له جميع أمورهم •

وكما أنه بالعمل بآية الانفاق ينتظم أمر العباد في معاشهم ، كذلك بالايمان بهذه العقيدة تزول حيرتهم وتطمئن قلوبهم فيما يرونه من أحوال الرزق في أنفسهم وفي غيرهم • والله يبصر القلوب ويقوم الأعمال انه سميع مجيب [1] •

• •

---

(١) ش : ج ٦ م ٦ ، ص ٣٣٤
غرة صفر ١٣٤٩ — جولية ١٩٣٠

حفظ النفــوس

بحفظ النسل وحفظ الفرج وعدم العدوان

« وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإيَّاكُمْ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً . وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنى إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا . وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقِّ . وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي القَتْلِ إنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً »[1] .

ان الأرواح الانسانية كريمة الجوهر لأنهـا من عالم النور ، فقد خلقت من نفخ الملك كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الثابت في الصحيح : **« ان احدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح .. الخ »** والملائكة ـ كما في الصحيح ـ خلقوا من النور . وانها كريمة الخلقة أيضاً لأنهـا فطرت على الكمال ، ولذا أضافهـا الله تعـالى الى نفسه في معـرض الامتنـان في قوله : **« ثم سواه ونفخ فيه من روحه »** دع ما يطرأ عليها بعد اتصالها بالبدن من تزكية ترقى بها في معارج الكمال أو تدسية تنحط بها الى أسفل سافلين . وبعد ارتباطها بالبدن يتكون منهما المخلوق العظيم العجيب

---

(١) ٣/٣١ ـ ٣٣ الاسراء .

المسمى بالانسان ، الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض ليعمرها ويستثمرها . ويعبرها الى دار الكمال الحق والحياة الدائمة الأبدية .

هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بايجاب حفظها ، فكان حفظها أصلا قطعياً وكلية عامة في الدين ، وجاءت هذه الآيات في تقرير هذا الحفظ من وجوه ثلاثة سنتكلم عليها واحداً واحداً :

١ ـ حفظ النسل :

« وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً » .

العرب في زمان البعثة هم المخاطبون قبل الناس بالقرآن ، وهم المأمورون أول الناس ـ لعموم الرسالة ـ بالبلاغ ، وعلى اهتدائهم كان يتوقف اهتداء غيرهم ، فمن الحكمة توجه القصد الى تطهيرهم من مفاسدهم ، وقد كانوا في الجاهلية منهم من يقتل البنات خشية الفقر وليوفر ما ينفق عليهن لينفقه على نفسه وبيته وبنيه ، ويرى النفقة عليهن ضائعة لأنه لا ينتظر منهن سعياً للكسب ولا نصرة على العدو ، وهذه هي المؤودة المذكورة في قوله تعالى : « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » على أنه قد كان من ساداتهم من يحي المؤودة فيشتريها من عند أبيها وينجيها من القتل . كزيد بن نفيل القرشي أبي سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين رضي الله عنهم ، وصعصعة ابن ناجية التميمي الصحابي جد الفرزدق الشاعر المشهور . وقد كان قتل البنات شائعاً فيهم مستفيضاً ومنهم ـ كما في « لسان العرب » ـ من كان يئد البنين عند المجاعة ، فجاء النهي عن القتل في الآية متعلقاً بلفظ الولد شاملاً للبنات والبنين ، ومعه السبب الذي كان يحملهم على القتل وهو

خشية الاملاق : أي خوف الفقر والاقتار ، والمملق هو الـذي خرج ماله من يده فلم يبق بها شيء ، ومن مادته الملقة وهي الصفاة الملساء . فنهوا عن هـذا القتل الفظيع مع ذكر سببه لتصوير حالتهم بوجه تام وليتخلص من ذكر السبب الى ابطاله ورده .

معالجة هذه الرذيلة : بابطال سببها ، وعظيم قبحها ، وسوء عاقبتها

ابطل تعالى خوفهم من الفقر بقوله: « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » فأخبر أن رزق الجميع عليه ، وانه متكفل برزق خلقه بمـا يسر لهم من أسباب جلية أو خفية ، لا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى والكبير والصغير . كما أنّه تعالى هو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، كمـا في الآية السابقة ، فهما مرتبطتان بهذه المناسبة ، ومن ضلالهم أنّهم نظروا الى قوة الكبير فحسبوه مـرزوقاً من نفسه فهـداهم بقوله : « وَإِيَّاكُمْ » الى أن الكبار مرزوقون من الله بتقديره وتيسيره . ولما كان لا فرق بين الكبير والصغير في الحاجة الى لطف الله وضمان الرزق من الله فلا وجه لخوف الفقر من وجود الأولاد وكثرتهم ، لأنه ما من واحد منهم الا ورزقه مضمون من خالقه جل جلاله .

وبيَّن تعالى فظاعة هذا القتل بقوله « أَوْلَادَكُمْ » باضافة الأولاد اليهم ، فان الأولاد أفلاذ الأكباد ، وبضعة من لحم المرء ودمه ، ونسخة من ذاته ، فمحبتهم فطرة ، والعطف التام عليهم خلقة ، فكيف يكون قبح وفظاعة فعل من بلغ بهم القتل . وأيُّ خير يرجى من قاتل ولده لغيره من الناس بعد ما جنى أفظع الجنايات على ألصق الناس به .

وبيَّن تعالى سوء العاقبة لهذا القتل بقوله : « إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً » أي إثماً كبيراً لما فيه من قتل النفس وقطع النسل وهلاك الجنس وخراب العمران وسوء الظن بالله وعدم خشيته وعدم الشفقة على خلقه ، يقال خطىء يخطأ خطئا اذا قصد الفعل القبيح ففعله . وأخطأ

يخطيء خطئا اذا قصد شيئاً فأصاب غيره • ومن مثل وعيد الآية ما ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ سئل أي ذنب أعظم قال : **ان تجعل لله نداً وهو خلقك** • **قال** : ثم أي ؟ قال : **أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك** •

عموم حكم الآية وترغيبها :

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والحكم يعم بعموم اللفظ كما أن ذكر سبب القتل في الآية لا يقتضي التخصيص لأنه ذكر لتصوير الحال الذي كانوا عليه ، فالقتل حرام لأي سبب كان •

وهذا الفعل الذي كان في الجاهلية على الوجه المتقدم ، وهو فعل مؤدٍ الى قطع النسل وخراب العمران ، لا تسلم منه الأمم الأخرى في مختلف الأزمنة والبلدان ، اما بالقتل بعد الولادة واما بافساد الحمل بعد التخليق ، وهو حرام باتفاق • وقد يكون بالامتناع من التزوج أو بعدم الانزال في الفرج وهو العزل • والآية كما نهت عن القتل قد رغبت في النسل بذكر ضمان الرزق ، فعلى المؤمن أن يسعى لذلك من طريقه المشروع وأن يتلقى ما يعطيه الله من نسل ابن أو بنت بفرح لنعمة الله وثقة برزق الله وايمان بوعده •

٢ ـ حفظ الفـرج :

« وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا»•

في الزنا اراقة للنطفة وسفح لها في غير محلها ، فلو كان منها ولد لكان مقطوع النسب مقطوع الصلة ساقط الحق • فمن تسبب في وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله • ولهذا بعد ما نهى عن قتل الأولاد نهى عن الزنا الذي هو كقتلهم لأنه سبب لوجودهم غير مشروع •

قال الجوهري : « قربته أقربه قرباناً أي دنوت منه » فقوله تعالى :

« وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى » أبلغ في النهي من ولا تزنوا ، لأنه بمعنى ولا تدنوا من الزنا . وأفاد هذا تحريم الزنا وتحريم الدنو منه ، لا بالقلب ولا بالجوارح ، فقد جاء في الصحيح : « **كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة . العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليدان زناهما البطش والرجل زناها الخطى والقلب يهوى ويتمنى . ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه** » فزنا هذه الجوارح دنو من الزنا الحقيقي ومؤد اليه ، وقد حمى الشرع الشريف العباد من هذه الفاحشة بما فرض من الحجاب الشرعي . وهو ستر الحرة ما عدا وجهها وكفيها وجمع ثيابها عند الخروج بالتجلبب ، وبما حرم من تطيب المرأة وقعقعة حليها عند الخروج ، وخلوتها بالأجنبي واختلاط النساء بالرجال ، فتضامر النهي والتشريع على أبعاد الخلق عن هذه الرذيلة . والمسلم المسلم من تحرى مقتضى هذا النهي وهذا التشريع في الترك والابتعاد .

معالجة هذه الرذيلة ، بتقبيحها ، وسوء عاقبتها :

بين تعالى قبحها بقوله « انَّهُ كانَ فَاحِشَةً » . والفاحشة هي الرذيلة التي تجاوزت الحد في القبح ، وعظم قبح الزنا مركوز في العقول من أصل الفطرة كان ولم يزل كذلك معروفاً . ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن ركز في فطرهم ادراك أصول القبائح والمحاسن ليسهل انقيادهم للشرع عندما تدعوهم الرسل الى فعل المحاسن وترك القبائح وتأتيهم بما هو معروف في الحسن أو القبح لهم ، فتبين لهم حكم الله فيه وما لهم من الثواب أو العقاب عليه .

وبيَّن تعالى سوء عاقبة الزنا بقوله « وَسَاءَ سَبِيلا » أي بئس طريقاً طريقه . طريق مؤد الى شرور ومفاسد كثيرة في الدنيا ، وعذاب عظيم في الآخرة ، فهو طريق الى هلاك الأبدان وفساد الأعراض وضياع الأموال وخراب البيوت وانقطاع الأنساب وفساد المجتمع

وانقراضه زيادة على ما فيه من معنى القتل للنفوس الذي تقدم في صدر الكلام ...

فعلى المؤمن اذا وسوس له الشيطان بهذه الرذيلة أن يتعوذ بالله منه ويستحضر قبحها ، والمفاسد التي تجر اليها ، والاثم الكبير الذي يعقبها ، وقبل ذلك كله حرمة النهي الشرعي عنها فيكون ذلك له ـ باذن الله ـ وقاية منها .

٣ ـ عدم العدوان :

« وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً » .

جاء أسلوب هذه الآيات تدرجاً من الخاص الى العام فقتل الأولاد قتل للنفس التي حرم الله ، والزنا كالقتل للنفس كما قدمناه . وجيء هنا بالنهي الصريح عن قتل النفس وأكد مقتضى النهي بوصف النفس بقوله « الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » والتحريم هو المنع ، فحرم الله معناه منع الله ، والتقدير حرم الله قتلها ، فحذف لدلالة « لا تَقْتُلُوا » عليه فالمنهي عنه هو القتل والمحرم هو القتل ، فتأكد المنع بالنهي والتحريم . وفي اسناد التحريم الى الله بعث للنفوس على الخشية من الاقدام على المخالفة وتنبيه لها على ما يكفها عن الاقدام ، وهو استشعار عظمة الله .

القتل المحرم :

بيَّن تعالى بقوله « الاَّ بالحَقِّ » أن القتل المحرم هو القتل بالباطل ، وأن القتل بالحق ليس بمنهي عنه . وبين الحق في الحديث الصحيح بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « **لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : الزاني الثيب ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق**

للجماعة » في غير هذه الثلاث أو يقال يتقدم هذا الحصر في الورود عليها ، وهذا القتل الحق لا يتولاه أفراد الناس في بعضهم وانما يتولاه الامام الذي اليه القيام بتنفيذ الأحكام وفصل الحقوق .

الردع عن العدوان بشرع القصاص :

القتل وسفك الدم عمل قديم في البشر فلهم ــ على الجملة ــ ضراوة عليه وألف به . وأعظم ما يكف الشخص عن نفس أخيه خوفه على نفسه ، فلذلك شرع الله تعالى القصاص بين النفوس وبيَّن تعالى ذلك بقوله : « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً » المظلوم من قتل عمداً عدواناً ، والولي هو القريب ،والسلطان هو التسلط ــ والمعنى : ومن قتل عمداً عدواناً فقد جعلنا لقريبه تسلطاً بتمكينه من القصاص .

لا يحفظ النفوس الا العدل :

كفاء النفس نفس فلا يقتل الاّ القاتل بما قتل دون غيره ودون تمثيل به ، وبيَّن تعالى هذا بقوله : « فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ » أي لا يتجاوز القصاص المشروع ، لأن الإسراف ظلم ومثير للحفائظ فيتسلسل الشر .

تسكين نفس الموتور :

الموتور هو من قُتل قريبه ، ولفقد القريب لوعة ربما تذهب بالنفس الى شر غاية ، فذكر بقوله تعالى « انَّهُ كَانَ مَنْصُوراً » فانَّ قريب المقتول قد نصره الله بما جعل له من القصاص ، فاذا لم يستوف له في الدنيا استوفى له في الاخرى .

والمؤمن بيقينه لايرى يوم القيامة الاّ قريباً . وكفى بالله حسيبا[1].

(١) ش : ج ٧ ، م ٦ ، ص ٣٩٩ ــ ٤٠٥ غرة ربيع الاول ١٣٤٩ هـ اوت ١٩٣٠ م .

حفظ الأموال باحترام الملكية

« وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ... »[1] .

مال الشخص هو ما كان ملكاً له . واليتيم هو من عدم أباه ، من اليتم ، بمعنى الانفراد ، ومنه الدرة اليتيمة. ومن عدم أباه فقد عدم ناصره . فاذا بلغ النكاح فقد بلغ القوة فاستغنى عن الناصر فلا يقال فيه يتيم في اللغة . واعتبر الشرع الشريف وجود قوة العقل فمنع استقلاله ودفع ماله اليه بعد البلوغ حتى يؤنس منه الرشد . والتي أحسن : الفعلة والخصلة التي هي أنفع ، والبلوغ الى الشيء الوصول والانتهاء اليه . والأشد ، جمع شدة ، كأنعم جمع نعمة ، فالأشد هو القوي ، وبلوغ الأشد هو بلوغ القوي والوصول الى الحالة التي تحصل فيها القوى للانسان ، القوى البدنية والقوى العقلية . ولا يقال في الشخص قد بلغ أشده الا اذا حصل على قواه من الجهتين فأما القوى البدنية فعلامة حصولها هو البلوغ . وأما القوى العقلية فعلامة حصولها هو الرشد الذي يظهر في حسن التصرف، وقد جمع العلامتين قوله تعالى في سورة النساء :

« وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » [2] .

---

(١) ١٧/٣٤ ـ ٣٥ سورة الاسراء .

(٢) ٤/٥ النساء .

فابتداء الأشد من البلوغ اذا كان معه رشد ، ولا يزال يتدرج حتى يستكمل في الأربعين كما قال تعالى : « حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » وبلغ أربعين سنة • فالأربعون هي سن الاستكمال والاستواء والتمام في القوى ، وهي السن التي بعث الله فيها النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – للعالمين بشيرا ونذيرا ، ولا يزال الانسان في قوته – ما لم تعرض الطوارىء – الى الخمسين ، قال الشاعر[1] :

أخُو الخَمْسِينَ مُجْتَمِعٌ أشُدِّي
وَنَجَّذَنِي مُدَاوَرَةُ الشُّؤونِ

ثم يأخذ في التراجع •

مال المرء كقطعة من بدنه ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه • وبه قوام أعماله في حياته• فالأموال مقرونة بالنفوس كما في الاعتبار،فقرنت في النظم آية حفظ الأموال بآيات حفظ النفوس ، كما قرن بينهما النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – في قوله : **فان دماءكم وأموالكم واعراضكم عليكم حرام •**

نهى تعالى عن قربان مال اليتيم الا بالوجه الذي هو أنفع ، فلا بد لكافل اليتيم من النظر والتحري عند التصرف في ماله حتى يعرف ما هو ضار وما هو نافع وما هو ضار ولا نافع وما هو انفع فلا يتصرف الا بما هو نافع ، فاذا تعارض وجهان نافعان تحرى أنفعها لليتيم ، وفي هذا النهي – بطريق الاحرى – تحريم أخذ مال اليتيم بالباطل والتعدي عليه ظلماً • ومثل اليتيم في وجهي النهي المتقدمين غيره ، فكل ذي ولاية أو أمانة على مال غيره يجب عليه أن يتحرى التحريم المذكور • كما يحرم على كل أحد أن يتعدى على مال غيره • وانما

(١) هو سحيم عبد بني الحسحاس .

خص اليتيم بالذكر لأنه ضعيف لا ناصر له ، والنفوس أشد طمعاً في مال الضعيف ، فالعناية به أوكد والعقوبة عليه أشد • ومن تأدب بأدب الآية في مال الضعيف ، كاليتيم ، كان حقيقاً أن يتأدب بأدبها في مال غيره • ومن بليغ ايجاز القرآن في بيانه أنه يذكر الشيء ليدل به على نظيره ، أو الذي هو أحـــرى بالحكم منه ، أو لكون امتثال الحكم الشرعي فيه داعياً الى امتثاله في غيره بالمساواة أو الاخروية •

وأجاز تعالى لولي اليتيم أن يتصرف في ماله بالاستثناء في قوله : « الا بالتي هي أحسن » فيجوز له تنميته لليتيم بوجوه التجارة •

الولاية والاستقلال :

الولاية على اليتيم واستقلاله حالتان كلتاهما حق وخير اذا كانت كل واحدة منها في وقتها المناسب لها • وكل واحدة منهما تكون ظلماً وشراً اذا كانت في غير وقتها فلذلك بيَّن تعالى الحالتين ووقتها بما قبل (حتى) وما بعدها ، فوقت عدم بلوغ الأشد هو وقت الولاية ، فمن الفروض الكفائية على الأمة أن يكون أيتامها مكفولين غير مهملين• ووقت بلوغ الأشد ــ ببلوغ الحلم والرشد ــ هو وقت استقلال من كان يتيماً ووقت دفع ماله اليه ، فلا يجوز حينئذ الاستيلاء على ماله والسيطرة عليـــه •

الوفاء بالعهـــد :

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً » (١) •

أوفى بعهد اذا أتى بما التزم تاما وافياً • والعهد من عهد اليـــه بالشيء إذا أعلمه به • قال تعالى :« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ

(١) ١٧/٣٤ الاسراء •

قَبْلُ فَنَسِيَ»[1] أي أعلمناه. فالعهد هو الاعلام بالالتزام أو الإعلام بما يلتزم. فمن الأول: عاهدت زيدا على كذا، أي أعلمته بالتزامي له، وتعاهد القوم على الموت ، أي أعلم بعضهم بعضاً بالتزامه ، ومن الثاني : عهد الله الى العباد الى اعلامهم بما عليهم أن يلتزموه . وقول عبد الله ابن عمر رضي الله عنه : الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما ، هذا عهد نبينا الينا وعهدنا اليكم . أي اعلامه لنا واعلامنا لكم بما يلتزم . والمسؤول من سأل . وسأل بمعنى طلب ، اما طلب علماً واما طلب شيئاً ، فان كانت الأولى تعدى الفعل الى المفعول الثاني بعد ، تقول سألته عن كذا فأجابني ، وان كانت الثانية تعدى الفعل اليه بنفسه ، تقول : سألته ثوباً فأعطانيه . فقوله تعالى : « إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً » اذا كان من الاولى فالاصل مسؤولا عنه فحذف ايجازا لظهور المراد . واذا كان من الثاني فلا حذف ، والمعنى حينئذ مطلوب أي مطلوب الوفاء به .

الوفاء بالعهد شرط ضروري لحصول السعادتين :

عهد الله تعالى لعباده هو ما شرعه لهم من دينه فوفاؤهم بعهده قيام بأعباء ذلك الدين الكريم وانتظام شؤونهم في هذه الحياة ــ أفراداً وجماعات وأمماً ــ متوقف على الوفاء من بعضهم لبعض بما بينهم من عهود ، فالوفاء ضروري لنجاة العباد مع خالقهم ولسلامتهم من الشرور والفوضى والفتن . وضروري ــ اذاً ــ لتحصيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

ولمكانة هذا الأصل وضرورته تكرر في الكتاب والسنة الأمر به على وجه عام بين الأفراد والأمم بلا فرق بين الأجناس ، والملل . وجاء هنا في آية الوصاية باليتيم ، وهي آية حفظ الأموال باحترام الملكية ،

(١) طه ٢٠/١٥ .

اوجهين : الأول ان الكامل لليتيم قد أعلن بكفالته ــ بلسان حاله ــ أنه ملتزم لحفظه في بدنه وماله ، فهذا عهد منه يطالب بالوفاء به ويسأل عن ذلك الوفاء ، الثاني أن الآية في حفظ الأموال وعدم التعدي على مال أحد ، والناس يتعاملون بحكم الضرورة ويبنون تعاملهم على تبادل الثقة والعهود المبذولة من بعضهم لبعض بلسان المقال أو بلسان الحال ، فأمروا بالوفاء بالعهد الذي هو أساس للتعامل ، وفي ذلك سلامة مال كل أحد من التعدي عليه •

ولا ينافي هذا عموم اللفظ الذي يقتضي الأمر بالوفاء عاماً لأنه باق على عمومه ، وانما يدخل فيه هذان الوجهان المذكوران في ارتباط النظم دخولاً أولياً • ومن بديع ايجاز القرآن في نظم الآيات أن يؤتي باللفظ مفيداً للعام ومقوياً للخاص •

الترغيب في الوفاء والترهيب من الخيانة :

« إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولا »

اذا كان مسؤول بمعنى مطلوب ، أي مطلوب الوفاء به ، فانه مطلوب في الفطرة وهي الشريعة ، فالعباد فطروا على استحسان الوفاء ومطالبة بعضهم بعضاً به ، والشرع طالبهم بالوفاء وشرعه لهم ووعدهم الثواب عليه • ففي قوله : « إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » ترغيب لهم في الوفاء بحسنه ومشروعيته وحسن الجزاء عليه • ويتضمن هذا الترغيب بالتخويف من ترك الترغيب بالتخويف من ترك المطلوب • واذا كان مسؤول بمعنى مسؤول عنه فان المعنى ان الله تعالى يسأل العباد يوم القيامة عن عهودهم هل أوفوا بها ليجازيهم على الوفاء بحسن الجزاء ، وعلى الخيانة بالعذاب والاهانة ، فينصب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة ويقال هذه غدرة فلان كما جاء في الصحيح• ففي الآية على هذا ــ أيضاً ــ ترغيب وترهيب •

ايفاء الحقوق عند التعامل :

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » [1] .

ايفاء الكيل اتمامه ، والقسطاس هو الآلة التي يحصل بها الايفاء من المكيال والميزان على تعدد أنواعهما ، والمستقيم الصحيح الذي لا عيب فيه ، ومما يجعله غير صالح للوفاء بالعدل كسره أو اعوجاجه أو أي خلل في تركيبه . والخير : النافع . والتأويل : مصدر أول ، بمعنى رجع ، من آل يؤول أولا ، بمعنى رجع ، وهو هنا بمعنى المرجع والمئال ، أي العاقبة .

الأمر بايفاء الكيل من موضوع ما قبله في الأمر بحفظ الأموال واحترام الملكية . والمكيلات والموزونات مورد عظيم للتعامل ، ومعرضة تعريضاً كبيراً للبخس والتطفيف وأخذ مال الناس بالزيادة أو بالتنقيص ، اما بفعل الشخص واما بفساد الآلة ، فأمر تعالى بايفاء الكيل وأمر باختيار الآلة الصالحة لذلك ، وبيَّن أن الوفاء يكون عند الكيل بقوله : « اذا كِلْتُمْ » على سبيل التأكيد ، حتى لا يتأخر الوفاء عن الكيل بأن يكمل ما نقص أو يرد ما زاد ، فان الذي يفصل الحق ويطيب النفوس هو الوفاء وقت الكيل .

الترغيب في ايفاء الكيل :

« ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً »

رغب تعالى في الايفاء بوجهين . الأول : أنه خير ، فيفيد العدل والحق وأكل الحلال وراحة البال ، وفيه حصول الثقة التي هي رأس مال التاجر ، وفيه حفظ نظام التعامل الذي هو ضروري للحياة ، وهذه

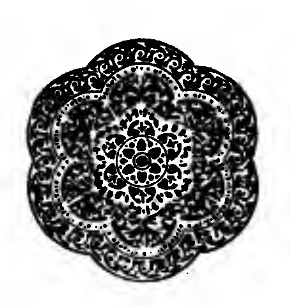
---

(١) ٣٥/١٧ الاسراء .

كلها وجوه نفع وخير • الثاني : أنه أحسن عاقبة عاجلا في نفس الشخص وأخلاقه وفي عرضه وسمعته وفي سلامته من المطالبات والمنازعات ، وآجلا بحسن جزائه عند الله بما أعد للموفين من الأجر العظيم •

تركيب على هذا الترغيب :

هذان الوجهان اللذان رغب الله تعالى بهما في الوفاء — ينبغي للعاقل أن يجعلهما نصب عينيه في كل ما يتناوله ويعمله ، فيقتصر على ما هو خير ينفعه في الحال ، وحسن العاقبة بنفعه وعدم ضرره في المآل • والله يوفقنا الى خير الاقوال والأعمال انه الكريم الواسع النوال[1] •



(١) ش : جـ ٨ م ٦ ص ٤٦٢ — ٤٦٧ غرة ربيع الثاني ١٣٤٩ هـ سبتمبر ١٩٣٠

العلم والاخلاق

« وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً • وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً »[1] •

المناسبة :

العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبغي عليهما كمال الانسان • وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة من أصول التكليف ، فهما أعظم مما تقدمهما من حيث توقفه عليهما ، فجيء بهما بعده ليكون الأسلوب من باب الترقي من الأدنى الى الأعلى• ولما كان العلم أساس الأخلاق قدمت آيته على آيتها تقديم الأصل على الفرع •

آية العلم

المفردات والتراكيب :

القفو : اتباع الأثر ، تقول : قفوته أقفوه اذا اتبعت أثره • والمتبع الأثر شخص موال في سيره لناحية قفاه ، فهو يتبعه دون علم بوجهة ذهابه ولا نهاية سيره • فالقفو اتباع عن غير علم ، فهو أخص من مطلق

---

(١) الاسراء ١٧/٣٦ ــ ٣٧ •

الاتباع ، ولذلك اختيرت مادته هنا . ولكونه اتباعا بغير علم جاء في كلام العرب بمعنى قول الباطل قال جرير :

وَطَالَ حِذَارِي غُرْبَةَ البَيْنِ وَالنَّوَى
وَأُحدُوثَةٌ مِنْ كَاشِحٍ يَتَقَوَّفُ[1]

أي متقول بالباطل .

والعلم ادراك جازم مطابق للواقع عن بينة . سواء كانت تلك البيّنة حساً ومشاهدة أو برهاناً عقلياً ، كدلالة الأثر على المؤثر والصنعة على الصانع ، فاذا لم تبلغ البينة بالادراك رتبة الجزم فهو ظن ، هذا هو الاصل ، ويطلق العلم أيضاً على ما يكاد يقارب الجزم ويضعف فيه احتمال النقيض جداً . كما قال تعالى عن اخوة يوسف عليه السلام : « وَمَا شَهِدْنَا إلاّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ »[2] . فسمى القرآن ادراكه لما شاهدوا : علما . لأنه ادراك كان يبلغ الجزم لانبيائه على ظاهر الحال ، وان كان ثم احتمال خلافه في الباطن ، لانه احتمال ضعيف بالنسبة لما شاهدوه .

والسمع : القوة التي تدرك بها الأصوات بآلة الاذن . والبصر : القوة التي تدرك بها الأشخاص والألوان بآلة العين . وقدم السمع على البصر لأن به ادراك العلوم وتعلم النطق ، فلا يقرأ ولا يكتب الا من كان ذا سمع وقتاً من حياته . والفؤاد القلب . والمراد به هنا العقل من حيث اعتقاده لشيء ما . واطلاق لفظ الفؤاد والقلب على العقل مجاز مشهور . وكان : تقيد ثبوت خبرها لاسمها وكونها على صورة الماضي لا يدل على انقضاء ذلك الارتباط . ومثل هذا التركيب

(١) ديوانه ٣٧٤ . والتقوف : قفو الاثر .
(٢) ١٢/٨١ يوسف .

يفيد في الاستعمال استحقاق الاسم للخبر ، فالجوارح مستحقة للسؤال ويكون ذلك بالفعل يوم القيامة . والمسؤول الموجه اليه السؤال ليجيب .

وأولئك اشارة الى هذه الثلاثة ، وضمير كان عائد على كل ، وضمير عنه عائد على ما ، وضمير مسؤولاً عائد على ما عاد عليه ضمير كان . والتقدير : كل واحد من هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد كان مسؤولاً عما ليس لك به علم .

القلب ميزة الانسان وأداة علمه :

يمتاز الحيوان عن الجماد بالادراك ، ويمتاز الانسان عن سائر الحيوان بالعقل ، وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير ، وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها ، وأدرك نسب بعضها لبعض ايجاباً وسلباً وارتباط بعضها ببعض نفياً وثبوتاً ، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة ليتوصل بها الى ادراك أمر مجهول . فالتفكير اكتشاف المجهولات من طريق المعلومات ، والمفكر مكتشف ما دام مفكراً .

ولما امتاز الانسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير ـ امتاز عنه بالتنقل والتحول في أطوار حياته ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته. فمن المشي على الأقدام الى التحليق في الجو ، مثلا . وبقي سائر الحيوان على الحال التي خلق عليها دون أي انتقال .

وبقدر ما تكثر معلومات الانسان ويصح ادراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها ـ تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول وقسمي العلوم والآداب . وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام بل قرون مدنيتهم . عرّبوا كتب الأمم الى ما عندهم ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا . فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم

وأناروا بالعلم عصرهم ومهدوا الطريق ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم. فأدّوا لنوع الانسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وماضيها ومستقبلها ،وكما نرى الغرب في مدنيته اليوم . ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الأمم الخالية التي حفظتها العربية وأدتها بأمانة ، وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم فجاء هو أيضاً بمكتشفاته العجيبة التي هي ثمرة علوم الانسانية من أيامها الأولى الى عهده ، وثمرة تفكيره ونظره فيها . وقد كانت مكتشفاته أكثر من مكتشفات جميع من تقدمه ، كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز القرن الماضي لتكاثر المعلومات.فان المكتشفات تضم الى المعلومات فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها . وهكذا يكون كل قرن ما دام التفكير عمالا ـ أكثر معلومات ومكتشفات من الذي قبله .

فاذا قلت معلوماته قلت اكتشافاته . وهذا كما كان النوع الانساني في أطواره الأولى .

واذا كثرت معلوماته وأهمل النظر فيها بقي حيث هو جامدا ، ثم لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل أو تضمحل . لأن المعلومات اذا لم تتعاهد بالنظر زالت من الحافظة شيئاً فشيئاً ، وهذا هو طور الجمود الذي يصيب الأمم المتعلمة في أيامها الأخيرة عندما تتوافر الأسباب العمرانية القاضية ـ بسنة الله ـ بسقوطها.

واذا لم يصح ادراكه للحقائق أو لنسبها ، أو لم يستقم تنظيمه لها كان ما يتوصل اليه بنظره خطأً في خطأٍ وفساداً في فساد . ولا ينشأ عن هذين الا الضرر في المحسوس والضلال في المعقول . وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئياً وكلياً من قريب أو من بعيد . وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام ، وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها فتتخذ رؤوساً جهالاً لأمور دينها

وأمور دنياها فيقودونها بغير علم فيَضِلّون ويضِلّون ويَهْلِكون ويُهلِكون ويفسدون ولا يصلحون . وما أكثر هذا – على أخذه في الزوال باذن الله – في أمم الشرق والاسلام اليوم .

العلم هو وحده الامام المتبع في الحياة في الاقوال والافعال والاعتقادات :

سلوك الانسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا ، يستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه ويعقم بعقمه . لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته ، وأقواله اعراب عن تلك الاعتقادات ، واعتقاداته ثمرة ادراكه الحاصل عن تفكيره ونظره .

وهذه الادراكات الحاصلة عن التفكير والنظر ليست على درجة واحدة في القوة والضعف ، فمنها ما هو قويٌ معتبر ، ومنها ما هو ضعيف ساقط عن الاعتبار ، فالاول : العلم وهو ادراك أمر على وجه لا يحتمل أن يكون ذلك الأمر على وجه من الوجوه سواه وهو عام الاعتبار . ويليه الظن وهو ادراك لأمر على وجه هو أرجح الوجوه المحتملة ، وهو معتبر عندما تتبين قوة رجحانه فيما لا يمكن فيه الاّ ذاك ، وهذه هي الحالة التي يطلق عليه فيها لفظ العلم مجازاً . والثاني : الوهم ، وهو ادراك الأمر على الوجه المرجوح . والشك وهو ادراك لأمر على وجهين ، وجوه متساوية في الاحتمال وكلا هذين لا يعوّل عليه .

ولما كان الانسان – بما فطر عليه من الضعف والاستعجال – كثيرا ما يبني أقواله وأفعاله واعتقاداته على شكوكه وأوهامه وعلى ظنونه حيث لا يكتفي بالظن ، وفي هذا البناء الضرر والضلال . بين الله تعالى في محكم كتابه انه لا يجوز لهم ولا يصح منهم البناء لأقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم الاّ على ادراك واحد وهو العلم فقال تعالى « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أي لا تتبع

ما لا علم لك به ، فلا يكن منك اتبـاع بالقول أو بالفعل أو بالقلب لمـا لا تعلم • فنهـانا عن أن نعتقد الا ّ عن عـلم ، أو نفـعل الا عن علم ، أو نقول الا عن علم • فما كل ما نسمعه وما كـل ما نراه نطوي عليه عقد قلوبنا ، بل علينا أن ننظر فيه ونفكر فاذا عرفناه عن بينة اعتقدناه والا تركنـاه حيث هو في دائرة الشكوك والأوهام أو الظنون التي لا تعتبر • ولا كل ما نسمعه أو نراه أو نتخيله أو نقوله ، فكفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع كما جاء في الصحيح ، بل علينا أن نعرضه على محك الفكر فان صرنا منه على علم قلناه ، مراعين فيه آداب القول الشرعية ومقتضيات الزمان والمكان والحال •

فقد أمرنا أن نحدث الناس بما يفهمون ، وما حدّث قوم بحديث لا تبلغه عقولهم الا ّ كان عليهم فتنة والا طرحناه • ولا كل فعل ظاهر لنا نفعله ، بل حتى نعلم حكم الله تعالى فيه لنكون على بينة من خيره وشره ونفعه وضره ، فما أمر تعالى الا ّ بما هو خير وصلاح لعباده ، وما نهى تعالى الا ّ عما هو شر وفساد لهم أو مؤد الى ذلك • واذا كان من المباحثات نظرنا في نتائجه وعواقبه ووازنا بينها • فاذا علمنا بعد هذا كله من أمر ذلك الفعل ما يقتضي فعله فعلناه والا تركناه • فلا تكون عقائدنا ــ اذا تمسكنا بهذا الأصل الاسلامي العظيم ــ الا حقاً ، ولا تكون أقوالنا الا صدقاً ، ولا تكون أفعالنا الا سداداً •

ولعمر الله انه ما دخل الضلال في عقائد الناس ولا جرى الباطل والزور على ألسنتهم ولا كان الفساد والشر في أفعالهم الا باهمالهم أو تساهلهم في هذا الأصل العظيم •

تفصيـل :

نهينا عن أن نتبع ما ليس لنا به علم ، فالذي نتبعه هو ما لنا به علم ، أي لنا علم يقتضي اتبـاعه بأن يكون من عقائد الحق وأقوال

الصدق وأفعال السداد . فاما ما كان من عقائد الحق في أمر الدين أو في أمر الدنيا فلا حضر في اعتقاد شيء منه . وأما ما كان من أفعال السداد فكذلك . وأما ما كان من أقوال الصدق ففيه تفصيل اذ ليس كل قول صادق يقال ، فالنقائص الشخصية في الانسان لا تقال في غيبته لأنها غيبة محرمة ولا يجابه بها في حضوره لأنها اذاية ، الا اذا وجّه بها على وجه النصيحة بشروطها المعتبرة التي من أولها أن لا تكون في الملأ . وهكذا يجب في مثل هذه الأصول الكلية عند ما يتفقه فيها أن ينظر فيما جاء من الآيات والأحاديث مما في البيان لها والتفصيل في مفاهيمها .

تفـريع :

الفرع الاول : من اتبع ما ليس له به علم فاعتقد الباطل في أمر الدين أو في حق الناس أو قال الباطل كذلك فيهما ، أو فعل المحضور فهو آثم من جهتين : اتباعه ما ليس له به علم ، واعتقاده أو قوله للباطل وفعله للمحظور . ومن اعتقد حقاً من غير علم أو قال في الناس صدقاً عن غير علم أو فعل غير محظور عن غير علم فانه ـ مع ذلك ـ آثم من جهة واحدة، وهي اتباعه ما ليس له به علم ومخالفته لمقتضى هذا النهي.

الفرع الثاني : المقلد في العقائد الذي لا دليل عنده أصلا ، وانما يقول سمعت الناس يقولون فقلت ـ هذا آثم لاتباعه ما ليس له به علم . فاما اذا كان عنده دليل اجمالي كاستدلاله بوجود المخلوق على وجود خالقه فقد خرج من الاثم لتحصيل هذا الاستدلال له العلم. والمقلد في الفروع دون علم بأدلتها متبع لمفتيه فيها يصدق عليه باعتبار الأدلة التي يجهلها أنه متبع ما ليس له به علم . ولكنه له علم من ناحيه أخرى وهي علمه بأن التقليد هو حكم الله تعالى في حق مثله من العوام بما أمر تعالى من سؤال أهل العلم وما رفع عن العاجز من الاصر وهو من العامة العاجزين عن درك أدلة الأحكام .

نصيحة على هذا الفرع :

أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير • وأدلة الاحكام أصولها مذكورة كلها فيه ، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي أرسل ليبيّن للناس ما نزل اليهم • فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم • اذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم • ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة الا في كتاب الله ، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين اليه• أما الاعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فانه من الهجر لكتاب الله ، وتصعيب طريق العلم الى عباده وهم في أشد الحاجة اليه • وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الاسلام وحقائقه •

ومما ينبغي لأهل العلم أيضاً ـ اذا أفتوا أو أرشدوا ـ أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين الى أصل دينهم ، ويذيقهم حلاوته ، ويعرفوهم منزلته ، ويجعلوه منهم دائماً على ذكر ، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ، ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب وأثر في النفوس • فالى القرآن والسنة ـ أيها العلماء ـ ان كنتم للخير تريدون •

الفرع الثالث : المجتهد اذا أفتى مستنداً الى ما يفيد الظن من أخبار الآحاد أو الاقيسة أو النصوص الأخرى الظنية الدلالة ـ هل هو متبع لغير العلم• والجواب لا• بل هو متبع للعلم وذلك من ثلاث وجوه :

الوجه الاول : أنّ كل دليل يكون ظنيا بمفرده – يصير يقيناً اذا عرض على كليات الشرع ومقاصده وشهدت له بالصواب • وهذا هو شأن المجتهدين في الأدلة الفردية •

الوجه الثاني : أن المجتهد يعتمد في الأخذ بالأدلة الظنية لما له من العلم بالأدلة الشرعية الدالة على اعتبارها .

الوجه الثالث : أن تلك الأدلة بمفردها تفيد الظن القوي الذي يكون جزماً ويسمى ـ كما تقدم علماً . فما اتبع المجتهد الا العلم .

الفرع الرابع : لا نعتمد في اثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من الحديث الضعيف لأنه ليس لنا به علم ، فاذا كان الحكم ثابتاً بالحديث الصحيح مثل قيام الليل ثم وجدنا حديثاً في فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديداً على وجه الترغيب . ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات اليه وهذا هو معنى قولهم : « **الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الاعمال** » أي في ذكر فضائلها المرغبة فيها في أصل ثبوتها .

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين .

الفرع الخامس : أحوال ما بعد الموت كلها من الغيب فلا نقول فيها الا ما كان لنا به علم بماء جاء في القرآن العظيم أو ثبت في الحديث الصحيح . وقد كثرت في تفاصيلها الأخبار من الروايات مما ليس بثابت ، فلا يجوز الالتفات الى شيء من ذلك . ومثل هذا كل ما كان من عالم الغيب مثل الملائكة والجن والعرش والكرسي واللوح والقلم واشراط الساعة وما لم يصل اليه علم البشر .

سؤال الجوارح يوم الهول الاكبر :

« إنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولا » .

من قال ما لم يسمع سئل يوم القيامة سمعه فشهد عليه . ومن قال رأيت ولم ير سئل بصره فشهد عليه . ومن قال عرفت ولم يعرف أو اعتقد ما لم يعلم سئل فؤاده فشهد عليه . لأنه في هذه الأحوال الثلاثة قد اتبع ما ليس له به علم . وهذه الشهادة كما قال تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] .

هذه الثلاثة تسأل على وجوه منها ما تقدم وهو الذي يرتبط به هذا الكلام بما تقدم من النهي . ومنها سؤال السمع لِمَ سمع ما لا يحل ولِمَ لم يسمع ما يجب ، وسؤال البصر لم رأى ما لا يحل ، وعن جميع أعمال البصر من نظر البغض والاحتقار ونحو ذلك . وسؤال الفؤاد عما اعتقد وعما قصد وجميع أعمال القلوب .

فوائد ختام الآية :

فختام هذه الآية تأكيد للنهي السابق وتفصيل لطرق العلم وتنبيه على لزوم حفظها واحدة واحدة وترهيب للانسان من اتباع ما لا يعلم بما يؤول اليه أمره من فضيحة يوم القيامة وخزي بشهادة جوارحه عليه .

فالله نسأل أن يجعلنا متبعين للعلم في جميع ما نعمل ، ويثبتنا ما نعمل ، ويثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة . انه يهدي من يشاء الى صراط مستقيم[2] .

---

(١) ٢٤/٢٤ النور .

(٢) ش : ج ٩ ، م ٦ ، ص ٥٢٦ ــ ٥٣٥ غرة جمادى الاولى ١٣٤٩ ــ اكتوبر ١٩٣٠ .

آيـة الاخــلاق

« وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً . إنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولا ... »(١) .

المفردات والتراكيب :

المرح مشية فيها خفة ونشاط واختيال ناشئة عن شدة فرح بالنفس ، تقول العرب : أمرح الفرس فمرح فهو فرس مرح وممراح ، اذا شبع فأخذ يمشي بخفة ونشاط واختيال . ويقال مرح الرجل اذا اختال في مشيته ونظر في عطفيه ، ولا يكون ذلك الا لفـرحه بنفسه واعجابه بها . وخرق الأرض ثقبها ، والطول ارتفاع القامة .

نصب مرحاً بتمش لأنه متضمن له تضمن الكلي لجزئيه ، اذ المرح جزئي من جزئيات المشي ، فكأنه قال لا تمرح مرحاً . ونظيره قول الشاعر :

يعجبـه السـخون والبـرود والتمـر حبا ما لـه مزيـد

فنصب حباً بيعجب لأن الاعجاب متضمن للحب ، أو نصب على أنه حال كجاءني زيد ركضاً . ونصب طولاً على انه تمييز أي من جهة الطول . والتقدير : ولن يبلغ طولك طول الجبال .

التفسير :

حب الانسـان لنفسـه غريزة فيـه ، وذلـك يحمله عـلى الاعجاب والفرح بها وبكل ما يصدر عنها ويستخفه ذلك حتى يتركه يمشي بين الناس مختالا متبخترا ، وهذه هي مشية المرح التي نهى الله

---

(١) ١٧/٣٧ – ٣٩ الاسراء . وارتباط الآية بما قبلها تقدم في صدر الجزء السابق .

تعالى في هذه الآية عنها . ولما كانت هي فرعاً عن الاعجاب بالنفس والفرح بها فالنهي منصب على أصلها كما انصب عليها .

ولما كانت هذه العلة ناشئة عن علة العجب أعقب الله تعالى بيان الداء الذي نهى عنه بذكر الدواء الذي يقلعه من أصله . فقال تعالى :

« إنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولا » .

فذكر الانسان بضعفه بين مخلوقين عظيمين من فوقه ومن تحته ، فاذا ضرب برجليه الأرض في مرحه فهو لا يستطيع خرقها ، واذا تطاول بعنقه في اختياله فهو لن يبلغ طول الجبال . فقد أحاط به العجز من ناحيتيه ، وذكر الانسان لضعفه وعجزه أنجع دواء لمرض اعجابه بنفسه .

نعم الانسان أعظم من الأرض والجبال بعقله ، ولكنه لو سار على نور عقله لما مشى في الأرض مرحا ، لأن عقله يبصره بعيوب نفسه ونقائص بشريته ، فلا يدعه يعجب بها فلا يكون من المرحين فما مرح الا وهو محروم من نور العقل مفتون بمادة الجسم ، فذكر بضعف هذا الجسم وصغارته .

العجب أصل الهلاك :

اذا أعجب المرء بنفسه عمي عن نقائصها ، فلا يسعى في ازالتها ، ولهي عن الفضائل فلا يسعى في اكتسابها فعاش ولا أخلاق له مصدرا لكل شر بعيداً عن كل خير .

وعن العجب بالنفس ينشأ الكبر على الناس والاحتقار لهم ، ومن احتقر الناس لم ير لهم حقاً ، ولم يعتقد لهم حرمة ولم يراقب فيهم الا ولا ذمة ، وكان عليهم ــ مثل ما كان على نفسه ــ أظلم الظالمين .

ابليس اللعين ــ نعوذ بالله تعالى منه ــ كان أصل هلاكه من عجبه

بنفسه ، وانه خلق من النار ، وانه خير من آدم ، فتكبر عليه فكان من الظالمين الهالكين .

ترك العجب شرط في حسن وكمال الاخلاق :

تربية النفوس تكون بالتخلية عن الرذائل ، والتحلية بالفضائل ، والعجب هو أساس الرذائل . فأول الترك تركه ، وهو المانع من اكتساب الفضائل ، فشرط وجودها تركه كذلك . ومن لم يكن معجباً بنفسه كان بمدرجة التخلق بمحاسن الأخلاق والتنزه عن نقائصها ، لأن الانسان مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص . فاذا سلم من العجب فان تلك الجبلة تدعوه الى ذلك التخلق والتنزه . فاذا نبه على نقصه لم تأخذه العزة ، واذا رغب في الكمال كانت له واليه هزة فلا يزال بين التذكيرات الالهية والجبلة الانسانية الخلقية يتهذب ويتشذب حتى يبلغ ما قدر له من كمال . ولهذه المعاني التي تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة – وهي أصول في علم الأخلاق – عنونا عليها بآية الاخلاق .

تاكيد الأوامر والنواهي المتقدمة بطريق الايجاز :

« كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً »

المناسبة :

ان الغاية التي يسعى اليها كل عاقل هي السعادة الحقة ، وان التكاليف الاسلامية كلها شرعت لسوقه اليها ، ولما كانت أصولها قد تضمنتها الآيات السابقة أمراً ونهياً بطريق الاطناب والتفصيل – أعيد الحديث عنها في هذه الآية بطريق الايجاز والاجمال . قصداً للتأكيد وتقرير هذه الأصول العظيمة في النفوس ، مع اشتمال هذه الآية الموجزة على ما لم يشتمل عليه ما تقدمها . وهذا من بديع التأكيد ، لاشتماله على السابق مع شيء جديد .

المفردات والتراكيب :

السيء هو القبيح والقبائح المنهي عنها فيما تقدم ، قبيحة لذاتها ، ولنهي الله تعالى عنها ، والمكروه هو المبغوض المسخوط عليه ، وهو ضد المحبوب المرضي عنه • والمحاسن محبوبة لله أمر بها ويثيب عليها ويرضى على فاعلها ، والمقابح مبغوضة له تعالى نهى عنها ، ويعاقب عليها ويسخط على مرتكبها • وليس المكروه بمعنى عدم المراد لأنه لا يكون في ملكه تعالى ما لا يريد وما تشاءون الا أن يشاء الله • وليس بمعنى المنهي عنه نهياً غير جازم لأن ذلك اصطلاح فقهي حادث بعد نزول القرآن ، والقرآن لا يفسر بالاصطلاحات الحادثة •

ذلك اشارة الى جميع ما تقدم من المأمورات والمنهيات على قراءة (سيئه) ، فالمكروه هو سيء ما تقدم وهو القبائح المنهي عنها • أو اشارة الى خصوص القبائح على قراءة (سيئة) ، ومكروهاً خبر كان على القراءة الأولى ، وخبر ثان على القراءة الثانية • وتقدير الكلام على القراءة الأولى ، كل ذلك المذكور كان سيئه ــ وهو المنهيات ــ مكروهاً عند ربك ومفهومه ان حسنه ــ وهو المأمورات ــ محبوب عنده ، وعلى الثانية كل ذلك المنهي عنه كان سيئة مكروهاً عند ربك • ومفهومه أن المأمور به حسن عنده •

التفسير :

عرّف ــ تعالى ــ عباده في هذه الآية بمنطوقها ومفهومها ــ على ما تقدم في التقرير ــ أن ما أمرهم به هو الحسن المحبوب ، وأن ما نهاهم عنه هو القبيح المبغوض • فعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هي على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة ، وأنه ــ تعالى ــ لا يأمر بقبيح ولا ينهى عن حسن ، وفي علمهم بهذا ما يحملهم على الامتثال ويرغبهم فيه ، فان الحسن تميل اليه النفوس

والقبيح تنفر منه • وفي قولـه تعالى : « عِنْدَ رَبِّكَ » غـاية الترغيب في الحسن والتنفير من القبيح فان الحسن جد الحسن ماكان حسناً عند الله تعالى ، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحاً عنده ، وفي اسم الرب تنبيه على أن العلم بالحسن والقبيح على وجـه التفصيل والتدقيق حتى يكون المأمور به حسناً قطعاً والمنهي عنه قبيحاً قطعاً انما هو له تعالى ، وأن أوامره ونواهيه ـ تعالى ـ الجارية على مقتضى ذلك هي من مقتضى ربوبيته ـ تعالى ـ وتدبيره لخلقه •

مكانة هذه الاصول علما وعمـلا :

« ذلِكَ مِمَّا أَوْحَى رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ »

المناسبة :

لمـا بينت الأصـول تمـام البيـان وقررت غـاية التقريـر جاءت هذه الآية للتنويه بها لحث العباد على تحصيل ما فيها من علم والتحلي بما دعت اليه من عمل •

المفردات والتراكيب :

الحكمة هي العلم الصحيح والعمل المتقن المبني على ذلك العلم • وقال مالك بن انس رضي الله عنه : هي الفقه في دين الله والعمل به • والقرآن حكمة لدلالته على ذلك كله •

ذلك اشارة الى ما تضمنته الآيات المتقـدمة من قوله تعـالى : « لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهـاً آخَرَ » ومن في (مما) تبعيضية • ومن في (من الحكمة) بيانية ، مجرورها بين المبهم وهو ما في قوله (مما) والتقدير ذلك الذي تقدم بعض الحكمة التي أوحاها إليك ربك•

التفسير :

هـذا ضـرب آخر من تـأكيد العمل بمـا تقـدم والترغيب

فيه ، فبين تعالى أن ما تضمنته الآيات المتقدمة كله حكمة ، فالمتحقق بما فيها من علم والمتحلي بما حثت عليه من أعمال هو الحكيم الذي كمل من وجهته العلمية وجهته العملية وتلك أعلى رتب الكمال للانسان.

وفي ذكرانها بعض من كل تنبيه على جلالة كلها ، وهو عموم ما أوحى الله تعالى الى نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - وتنبيه أيضاً على أن شرح هذه الأصول فيما أفادته من علم وعمل ، والتفقه فيها يرجع فيه الى الوحي ويعتمد في ذلك على بيانه ، وفيه بيان أن الوحي هو المرجع الوحيد لبيان دين الله تعالى وشرعه وما أنزله لعباده من الحكمة ، وذلك الوحي هو القرآن العظيم وسنة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي أرسل ليبين للناس ما نزل اليهم .

ختام الآيات :

« ولاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتُلْقَى في جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً » .

المناسبة :

لما كانت هذه الآيات في أصول الهداية وأساس الهداية ، وشرطها هو التوحيد ختمت الآيات بالنهي عن الشرك كما بدأت به .

المفردات والتراكيب :

الالقاء هو الطرح ، والملوم هو الذي يقال له لم فعلت القبيح وما حملك عليه ونحو هذا . والمدحور المبعد ، وانتصبا على الحال .

التفسير :

نهى تعالى عن الشرك وأن يعبد معه سواه ، فالعبادة بالقلب واللسان والجوارح لا تكون الا له . وكما حذر في فاتحة

الآيات بقعود المشرك في الدنيا مذموما بالشرك الذي ارتكبه مخذولا لا ناصر له • كذلك حذر هنا بمثال المشرك في آخرته بالقائه في جهنم ملوما على ما قدم مطروداً مبعداً في دركات الجحيم •

نظرة عامة في الآيات المتقدمة :

قد تضمنت هذه الآيات على قلتها الأصول التي عليها تتوقف حياة النوع البشري وسعادته من حفظ النفوس والعقول « وَلاَ تَقْفُ » الآية • والأنساب والأموال والحقوق (واوفوا بالعهد ، وأوفوا الكيل) والاعراض « وَلاَ تَقْرَبُوا الزنا ــ ولا تَقْفُ » والدين الذي هو عمدة ذلك كله ، وفي حفظه حفظ لجميعها ، وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى : « لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولا » وختمها بقوله تعالى : « وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتُلْقَى في جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً » بيان من الله تعالى لخلقه بأن الدين هو أصل هذه الكمالات كلها ، وهو سياج وقايتها وسور حفظها ، وأن التوحيد هو ملاك الأعمال وقوامها ومنه بدايتها واليه نهايتها •

وكذلك المسلم الموفق يبتدىء حياته بكلمة التوحيد حتى يموت عليها فالله نسأل ــ كما من علينا بها في البداية ــ أن يمن علينا بها في النهاية •

اللهم هذا لنا وللمسلمين أجمعين[1] •

---

(١) ش : ج ١٠ ، م ٦ ، ص ٥٩١ ــ ٥٩٦ غرة جمادى الثانية ١٣٤٩ هـ ــ نوفمبر ١٩٣٠

القـول الحسـن

« وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... » [1]

اللسان أداة البيان ، وترجمـان القلب والوجدان ، والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون ، وبه يتحاجون ويتفاصلون ، ولولاه لمـا ظهرت ثمرات العقول والمدارك ، ولما تلاقحت الأفكار والمشاعر ، ولما تزايدت العـلوم والمعارف ، ولمـا ترقى الانسان في درجـات أنواع الكمالات ، ولما امتاز على بقية الحيوانات .

فهو رابطة أفراد النوع الانساني وعشائره ، وأممه ، وبريد عقله وواسطة تفاهمه . فاذا حسن قويت روابط الالفة ، وتمكنت أسبـاب المحبة ، وامتـد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم . وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم ، وتشابكت الأيدي على التعاون والتآزر ، وجنى العـالم من وراء ذلك تقرر الأمن واطراد العمران . واذا قبح كان الحال على ضـد ذلك . فالكلام السيء قاطع لأواصر الأخوة ، باعث على البغضـاء والنفرة ، يبعد بين العقول فتحـرم الاسترشاد والاستمداد والتعاون بين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة . وهما أشرف ما تتحلى به القلوب ، واذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الالفة والتعاون ، وحلت القساوة والعداوة ، وتبعهما التخاصم والتقاتل، وفي ذلك كل الشر ، لأبناء البشر .

فالمحصل للناس سعادتهم وسلامتهم ، والمبعد لهـم عن شقاوتهم

---

(١) ١٧/٥٣ ـ ٥٤ الاسراء .

وهلاكهم ــ هو القول الحسن ، ولهذا أمر الله تعالى نبيه ــ صلى الله عليه وآله وسلم – أن يرشد العباد الى قول التـي هي احسن فقال تعـالى : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » •

والعباد المأمورون هنا هم المؤمنون لوجهين : الأول أنهم أضيفوا اليه ، وهذه اضافة شرف لا يكون الا للمؤمنين به • الثاني : ان الذين يخاطبون بهذا الارشاد ويكون منهم الامتثال انما هم من حصلوا على أصل الايمان •

والتي هي أحسن : هي الكلمة الطيبة والمقالة التي هي أحسن من غيرها فيعم ، ذلك ما يكون من الكلام في التخاطب العادي بين الناس حتى ينادي بعضهم بعضاً بأحب الأسماء اليه ، وما يكون من البيان العلمي فيختار أسهل العبارات وأقربها للفهم ، حتى لا يحدث الناس بما لا يفهمون ، فيكون عليهم حديثه فتنة وبلاء ، وما يكون من الكلام في مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله الى حقه في حدود الموضوع المتنازع فيه ، دون اذاية لخصمه ولا تعرض لشأن من شؤونه الخاصة به ــ وما يكون من باب اقامة الحجة وعرض الأدلة ، فيسوقها بأجلى عبارة وأوقعها في النفس ، خالية من السب والقدح ، ومن الغمز والتعريض ، وأدنى تلميح الى شيء قبيح •

وهذا يطالب به المؤمنون سواء كان ذلك فيما بينهم أو بينهم وبين غيرهم ، وقد جاء في الصحيح ان رهطاً من اليهود دخلوا على النبي – صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقالوا السام عليكم ، ففهمتها عائشة رضي الله عنها فقالت : وعليكم السام واللعنة • فقال لهـا رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم ــ : مهلاً يا عائشة ، ان الله يحب الرفق في الأمر كله • فقالت : ألم تسمع ما قالوا ؟ فقال : قد قلت : وعليكم • فكان الرد عليهم بمثل قولهم بأسلوب العطف على كلامهم ، وهو قوله : وعليكم ، أحسن من الرد عليهم باللعنة • فقال – صلى الله عليه وآله

وسلم ـ القولة التي هي أحسن ، وهذا هو أدب الاسلام للمسلمين مع جميع الناس .

وأفاد قوله تعالى : « أحسن » بصيغة اسم التفضيل أن علينا أن نتخير في العبارات الحسنة فننتقي أحسنها في جميع ما تقدم من أنواع مواقع الكلام ، فحاصل هذا التأديب الرباني هو اجتناب الكلام السيء جملة والاقتصار على الحسن وانتقاء واختيار الأحسن من بين ذلك الحسن . وهذا يستلزم استعمال العقل والروية عند كل كلمة تقال ، ولو كلمة واحدة ، فرب كلمة واحدة أوقدت حرباً ، وأهلكت شعباً ، أو شعوباً . ورب كلمة واحدة أنزلت أمناً ، وأنقذت أمة أو أمماً . وقد بيّن لنا النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مكانة الكلمة الواحدة من الأثر في قوله :(**الكلمة الطيبة صدقة ، واتقوا النار ولو بكلمة طيبة**)

وهذا الأدب الاسلامي ـ وهو التروي عند القول واجتناب السوء واختيار الأحسن ـ ضروري لسعادة العباد وهنائهم . وما كثرت الخلافات وتشعبت الخصومات وتنافرت المشارب وتباعدت المذاهب حتى صار المسلم عدو المسلم ، والنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول : **المسلم اخو المسلم** ـ الا بتركهم هذا الادب وتركهم للتروي عند القول والتعمد للسيء بل للأسوأ في بعض الاحيان .

التحذير من كيد العدو الفتان :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ »

« إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْانْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً »

نزغ الشيطان وسوسته ليهيج الشر والفساد . وعداوته باعتقاده البغض وسعيه في جلب الشر والضر . وابانته لعداوته باعلانه لها ، كما علمنا القرآن .

وهو يلقي للانسان كلمة الشر والسوء ويهيج غضبه ليقوله ، ويهيج السامع ليقول مثلها ، وهكذا حتى يشتد المراء ويقع الشر والفساد . ولون آخر من نزغه ، وهو أنه يحسن للمرء قول الكلمة التي يكون فيها احتمال السوء ، ويلح عليه في قولها ، ويبالغ في تحسين الوجه السالم منه ، وفي تهوين أمر وجهها القبيح ، حتى يقولها ، فاذا قالها عاد لسامعه بالنزغ يطمس عنه الوجه السالم منها ، ويكبر له الوجه القبيح ، ولا يزال به يثير نخوته ويهيج غضبه حتى يثور فيقع الشر والفساد بينه وبين صاحبه .

فحذر الله تعالى عباده من كيده حتى يحترسوا منه اذا تكلموا واذا سمعوا فيتباعدون عمَّا فيه احتمال السوء فضلاً عن صريحة ويحملون الكلام على وجهه الحسن عند احتماله له ويتجاوزون عن سيئه الصريح ما أمكن التجاوز .

المحاسنة على الحال والظاهر ـ والتفويض الى الله تعالى في العواقب والسرائر :

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً »

أقوى الأحوال مظنة لكلمة السوء هي حالة المناظرة والمجادلة ، وأقرب ما تكون الى ذلك اذا كان الجدال في أمر الدين والعقيدة ، فما أكثر ما يضلل بعض بعضاً أو يفسقه أو يكفره فيكون ذلك سبباً لزيادة شقة الخلاف اتساعاً ، وتمسك كل برأيه ونفوره من قول خصمه . دع ما يكون عن ذلك من البغض والشر . فذكَّر الله تعالى عباده بأنه هو العالم ببواطن خلقه وسرائرهم وعواقب أمرهم ، فيرحم من يشاء ويعذب من يشاء بحكمته وعدله . فلا يقطع لأحد بأنه من أهل النار لجهل العاقبة سواء كان من أهل الكفر أو كان من أهل الفسق

أو كان من أهل الابتداع كما لا يقطع لأحد بالجنة كذلك . الا من جاء النص بهم .

فلا يقال للكافر عند دعوته أو مجادلته انك من أهل النار ، ولكن تذكر الأدلة على بطلان الكفر وسوء عاقبته ، ولا يقال للمبتدع يا ضال ، وانما تبين البدعة وقبحها ، ولا يقال لمرتكب الكبيرة يا فاسق ولكن يبين قبح تلك الكبيرة وضررها وعظم اثمها ، فتقبح القبائح والرذائل في نفسها وتجتنب أشخاص مرتكبيها . اذ رُبَّ شخصٍ هو اليوم من أهل الكفر والضلال ، تكون عاقبته الى الخير والكمال ، ورب شخص هو اليوم من أهل الايمان ينقلب — والعياذ بالله تعالى — على عقبه في هاوية الوبال .

وخاطب الله تعالى نبيه — صلى الله عليه وسلم — انه لم يرسله وكيلاً على الخلق حفيظاً عليهم كفيلاً بأعمالهم . فما عليه الا تبليغ الدعوة ونصرة الحق بالحق والهداية والدلالة الى دين الله وصراطه المستقيم — خاطبه بهذا ليؤكد لخلقه ما أمرهم به من قول التي هي أحسن ، للموافق والمخالف فلا يحملنهم بغض الكفر والمعصية على السوء في القول لأهلهما ، فانما عليهم تبليغ الحق كما بلغه نبيهم — صلى الله عليه وآله وسلم — ، ولن يكون أحدٌ أحرص منه على تبليغه ، فحسبهم أن يكونوا على سنته وهديه، أحيانا الله عليهما، وأماتنا عليهما ، وحشرنا في زمرة أهلهما آمين[1].

• •

(١) ش : ج ١١ ، م ٦ ، ص ٦٥٤ — ٦٥٨ غرة رجب ١٣٤٩ هـ — ديسمبر ١٩٣٠ م .

دعـــاء غـــير الله

من دعا غير الله فقد عبـــد ما دعاه
وهو في عبادته من الخاسرين

« قُـلِ ادْعُـوا الَّـذِينَ زَعَمْتُـمْ مِـنْ دُونِـهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً »[1]

المفردات :

(الدعــاء) : هو النـــداء لطلب شيء مـــن المـــدعو ولذلـــك لا يدعى الا العاقل أو ما نزل منزلته مجازا من الجمادات ، أو ما كان له فهم لبعض الأصوات من الجمادات . واذا كان لشيء معظم ليطلب منه ما هو وراء الأسباب العادية وفوق الطاقة البشرية فهو عبادة ولا يكون الا من المخلوق لخالقه ، واذا لم يكن كذلك فهو عادة وهو دعاء المخلوقين بعضهم بعضاً لغرض من الاغراض . و (الزعم) : القول بغير دليـــل . و (من دونه) : أي غيره . و (الملك) الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه . و (كشف الضر) : ازالته . و (لا تحويلا) : نقلا له الى شخص آخر .

التراكيب :

أُمروا بالدعـــاء لتوقيفهم عـــلى خيبتهم فيـــه ، بظهور عجز من يدعون . وحذف مفعولا زعم ، والتقدير زعمتموهم آلهة ، للعلم

(١) ١٧/٥٧ ــ ٥٨ الاسراء .

بهما لأنهم ما دعوهم الا لكونهم آلهة في زعمهم • ولا يملكون : وقع بعد الفاء ولم يجزم في جواب الأمر لأنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهم لا يملكون ، وهذا لأن الفاء قصد بها العطف ولم يقصد بها السببية ، ولا يصح أن تقصد بها السببية لأن ذلك يقتضي أن يكون عدم ملكهم متسبباً عن الدعاء مثلها في قول الشاعر :

رب وفقني فلا اعدل عن   سنن الساعين في خير سنن

فان عدم العدول متسبب عن التوفيق • وليس كذلك الأمر في هذه الآية ، فانّ عدم ملكهم متحقق سواء دعوا أم لم يدعوا ، فلذلك امتنع النصب ووجب الرفع على التقدير المتقدم •

المعنى :

قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين اتخذوا آلهةً من دون الله فعبدوها ، ادعوا معبوداتكم هذه التي زعمتموها آلهة من دون الله عندما ينزل بكم الضر ، وانظروا هل تستطيع تلك المعبودات الباطلة أن تكشف وتزيل عنكم ذلك أو أن تحوله عنكم الى غيركم ، فانكم تجدونها عاجزة عن ذلك غير قادرة على شيء منه ، وانما يقدر على ذلك الاله الحق وهو الله الذي خلقها وخلقكم فاعبدوه هو وأدعوه هو واقلعوا عن عبادة ودعاء ما سواه •

الاحكام :

تدل الآية على أن دعاء غير الله تعالى لدفع الضر ــ ومثله جلب النفع ــ عبادة للمدعو ، فان المشركين كانوا يتعبدون لآلهتهم بهذا الدعاء الذي نهاهم الله تعالى عنه ببيان خيبتهم فيه ووقوعه في غير محلّه • وتسمية الدعاء عبادة ثابتة لغة وشرعا بغير ما دليل ، منها حديث النعمان بن بشير عند أحمد وأصحاب السنن مرفوعاً

(الدعاء هو العبادة) وحديث أنس عند الترمذي مرفوعاً **(الدعاء مخ العبـادة)** وهذا لأن العبادة هي الخضوع والتذلل لمن بيده الخلق والتصرف والعطاء والمنع ، ومظهر هذا الخضوع والتذلل هو الدعاء لدفع الضر ، أو جلب النفع ، فلذلك عبر عنه في الحديث الأول بأنه هو العبادة أي معظمها ، وفي الثـاني بأنه مخ العبادة أي خالصها ٠ ودلت الآية أيضاً على أنه لا يجوز دعـاء غير الله من المخلوقين ، أي مخلوق كان ، لدفع ضر ــ ومثله جلب نفع ــ ، لأن الآية نعت على المشركين دعاءهم من لا يملك كشف الضر ولا تحويله ، وهـذا أمر يشترك فيه جميع المخلوقين ، فلا مخلوق يستطيع كشف الضر أو تحويله عن نفسه ولا عن غيره فلا مخلوق يجوز دعاؤه ودلت على أن كشف الضر أو تحويله ــ ومثله جلب النفع ــ انّما هو للمعبود الحق لأن الآية استدلت عليهم في مقام الأمر بتوحيـد الله بالعبادة بانتفاء ملك كشف الضر أو تحويله عن غير الله ، فأفاد ذلك قصر هذا التصرف عليه تعالى وحـده ٠

استنتاج :

لما ثبت شرعاً أنّ الدعـاء عبـادة فمن دعـا شيئاً فقد عبـده ولو كان هو لا يسمي دعاءه عبادة جهلاً منه أو عناداً لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره لا بتسمية المكلف واعتباره ٠ ألا ترى لو أنّ شخصاً قام للصلاة بدون وضوء مستحلاً لذلك فلما أنكرنا عليه قال انني لا أعتبر هذه الأفعال والأقوال عبادة ولا اسميها صلاة ٠ أترى ذلك يجيز فعله ويدفع عنـه تبعته ، كلا ! ولا خـلاف في ذلك بين المسلمين ٠ بل قد حكموا بردته ان كان يفعل ذلك ويراه حـلالاً ٠ لأنه يكون قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ٠ فالداعي لغير الله تعالى يطلب منه قضاء حوائجه قد عبد من دعاه ، وان لم يعتبر دعاءه عبادة ، لأن الله قد سماه عبادة ، واذا استمر على فعله ذلك مستحلاً له

بعد تعليمه ، وارشاده ، يكون قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، وهو أنّ العبادة ــ والدعاء منها ــ لا تكون الاّ لله ، فيحكم بردته ، نظير مستحل الصلاة بلا وضوء بلا فارق •

تطبيق :

اذا علمت هذه الأحكام فانظر الى حالتنا معشر المسلمين ، الجزائريين وغير الجزائريين ، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال • فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر ، وجلب النفع ، وتيسير الرزق ، واعطاء النسل ، وانزال الغيث ، وغير ذلك مما يسألون ويذهبون الى الأضرحة التي شيدت عليها القباب ، أو ظلمت بها المساجد ، فيدعون من فيها ويدقون قبورهم وينذرون لهم ويستثيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيف يتركونهم وقد يهددونهم بقطع الزيارة ، وحبس النذور ، وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجه ، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم ، فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين ، وانْ لم يعتقدوها عبادة ، اذ العبارة باعتبار الشرع لا باعتبارهم ، فياحسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال•

تحذير وارشاد :

فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله وليحذّروا غيرهم منه • ولينشروا هذه الحقائق بين اخوانهم المسلمين بما استطاعوا عسى أن يتنبه الغافل ، ويتعلم الجاهل ، ويقلع الضالون عن ضلالهم ، ولو بطريق التدريج ، وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم وقاموا بفريضة النصح ، وخدموا الاسلام والمسلمين •

نجاة المعبودين بهداهم وهلاك العابدين بضلالهم :

« أولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً » •

المفردات :

(يبتغون) : يطلبون باعتناء واهتمام • (الوسيلة) ، سبب الوصول الى البغية والقرب من المطلوب ، والوسيلة الموصلة الى الله هي عبادته ، وطاعته ، بامتثال أوامره ونواهيه ، والتزام محابه ، واجتناب مكارهه ، وهذا المعنى هو المراد هنا • (أقرب) : أي في المكانة والمنزلة ، (يرجون رحمته) : ينتظرون انعاماته لافتقارهم اليه • (ويخافون عذابه) : يخشون عقوبته ، وانتقامه لعلمهم بقوته ، وسلطانه ، وقصورهم عن القيام بجميع واجب حقه • (محذورا) : مخيفا متحرزا منه •

التراكيب :

أولئك : اشارة الى المعبودين الذين وصفهم • ويدعون ضميره للداعين ، وأصله يدعونهم ، يبتغون خبر أولئك • و (أيهم) : اسم موصول مضاف الى ضمير المبتغين ، وهو بدل بعض من كل من الواو في يبتغون • (وأقرب) : خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة صلة الموصول ، ويحتمل أن يكون أيهم استفهاما مبتدأ وأقرب خبر ، وتقدير الكلام ينظهرون أيهم أقرب •

نزول الآية :

قال ابن مسعود : هي في نفر من الانس كانوا يعبدون

نفراً من الجن ، فأسلم الجن وبقي الانس على عبادتهم ، وجاء عنه وعن غيره أنها في الذين كانوا يعبدون الملائكة من العرب .

المعنى :

أولئك الجن والملائكة الذين يدعوهم [1] هؤلاء المشركون أربابا قد أسلموا فصاروا من عباد الله المؤمنين يطلبون أسباب الزلفة والقرب عند ربهم ، ينظرون من هو الذي يكون منهم أقرب مكانة باجتهاده ، وصالح عمله ، (هذا على الاعراب الثاني وعلى الاعراب الأول : يطلب الذي هو أقرب منهم أسباب الزلفة عند الله فأحرى وأولى غيره) ويرجون بأعمالهم الصالحة رحمته ويخافون بمخالفتهم عذابه . ان عذاب ربك كان من حقه وشأنه ان يتقى ويحذر لما فيه من عظيم الخزي وشديد الالم .

الاحكام :

أفادت الآية أنّ العبادة لا تنفع صاحبها الاّ اذا كانت على الوجه الحق والاّ فانه لا يحصل منها الا على الخيبة والوبال . وان المكلف[2] لا يحمل شيئا من اثم عمل غيره اذا لم يكن راضيا به ولو كان ذلك العمل متسببا عنه اذا لم يكن متسببا هو فيه . وان المكلف مطالب بان يطلب أسباب القرب الى الله بجد واجتهاد وان يكون جامعا بين الرجاء والخوف في سلوكه .

التطبيق :

نعرف كثيراً من الصالحين ـ رحمهم الله تعالى ـ قد شيدت عليهم القباب ونذرت لهم النذور وقصدوا لقضاء الحاجات ودعوا في المهمات وكان ذلك كله مما أحدثه المحدثون بعدهم وبالغ

(١) كذا في الاصل والصواب : يدعونهم .

(٢) في الاصل : الملكف .

فيه المستغلون له ممن ينتمون اليهم فهم ـ ان شاء الله تعالى ـ برءاء من اثم ذلك كله وانما اثمه على فاعليه .

عبرة وتحذير :

يأتي يوم القيامة أولئك الذين كانوا يدعون الملائكة والجن المسلمين وعباد الله الصالحين ويحسبون أنهم ينفعونهم في ذلك اليوم . فيتبرأ منهم أولئك الذين كانوا يعبدونهم بدعائهم ويتركونهم في ذلك الموقف العصيب . فما أمرَّ خيبتهم يومذاك وما أعظم حسرتهم ويالها من عبرة لقوم يعقلون .

فحذار يا اخواننا من هذه العاقبة السيئة وهذا الموقف المخزي ، فبادروا الى توحيد الله بالدعاء الذي هو مخ العبادة ، واقتصِروا في جانب الصالحين على محبتهم والترضية عليهم وسؤال الرحمة لهم والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة وخير ولا تعظموهم بما لا يكون الا لله رب العالمين .

والله ينصرنا بالحق ويهدينا اليه ويجعلنا من حزبه ويميتنا عليه آمين يا رب العالمين[1] .



(١) ش : ج ١٢ ، م ٦ ، ص ٧٢٨ ـ ٧٢٣
غرة شعبان ١٣٤٩ هـ ـ جانفي ١٩٣٠

الطور الأخير لكل أمة وعاقبته

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً »[1] •

تمهيد :

الأمم كالأفراد ، تمر عليها ثلاثة أطوار ، طور الشباب ، وطور الكهولة ، وطور الهرم ، فيشمل الطور الأول نشأتها الى استجماعها قوتها ونشاطها ، مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة ، ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ وقوة السلطان الى استكمالها قوتها وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك ، بما كان فيها من مواهب وما كان لها من استعداد وما لديها من أسباب • ويشمل الطور الثالث ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال ، الى أن يحل بها الفناء والاضمحلال • اما بانقراضها من عالم الوجود ، واما باندراسها من عالم السيادة والاستقلال ، وما من أمة الا ويجري عليها هذا القانون العام ، وان اختلفت أطوارها في الطول والقصر كما تختلف الأعمار •

هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الأمم في هذه الدنيا أشار اليها في كتابه العزيز في غير ما آية • فذكر أعمال الأمم وانها مقدرة محددة بآجالها في مثل قوله تعالى : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ

---

(١) الاسراء ١٧/٥٨ •

فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ »[1] . وذكر انشاء الأمم على أثر الهالكين في مثل قوله تعالى : « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ »[2]. وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ في الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »[3] فان بني اسرائيل ماستخلفوا في الأرض حتى قووا واشتدوا وتكونت فيهم أخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والانفة بعد خروجهم من التيه ، وذلك هو الطور الأول ، طور الشباب للأمة الاسرائيلية ، وذكر الطور الثاني ، وهو طور الكهولة واستكمال القوة وحسن الحال ورغد العيش في مثل قوله تعالى : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ »[4] . وذكر الطور الثالث طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى : « وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً »[5] واهلاكهم يكون بعد اسباغ النعمة واقامة الحجة عليهم وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم، فاهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم الثلاثة . والى خاتمة الطور الثالث وعاقبته جاء البيان في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ

---

(١) ٣٣/٧ الاعراف .

(٢) ١١/٢١ الانبياء .

(٣) ١٢٨/٧ الاعراف .

(٤) ١١٢/١٦ النحل .

(٥) ٦٠/١٨ الكهف .

نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ أوْ مُعَذِّبُوهَا عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ في الكِتَابِ مَسْطُوراً » .

الالفاظ :

القرية : المساكن المجتمعة ، ومادة (ق ري) تدل على الجمع ، فتصدق على القرية الصغيرة والمدينة الكبرى ، وتطلق القرية مجازاً على السكان اطلاقاً لاسم المحل على الحال . ومنه هذه ، و (الاهلاك) : الابادة والافناء بالاستئصال ، كما فعل بعاد وثمود . و (قبل يوم القيامة) : أي في الدنيا ، و (العذاب الشديد) : كأمراض الأبدان وفساد القلوب وانحطاط الأخلاق وافتراق الكلمة وتسليط الظلام ، كما أرسل على بني اسرائيل عباداً أولي بأسٍ شديد فساؤا وجوههم وجاسوا خلال ديارهم ، وكتسليط أهل الحق على أهل الباطل ، وكالجدب والقحط وجوائح الأرض وجوائح السماء و (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ و (مسطوراً) : أي مكتوباً اسطارا مبينا .

التراكيب :

(ان) نافية . و (من) زيدت لاستغراق الجنس وتأكيد العموم و (الا) أفادت مع ان النافية حصر كل قرية في أحد الأمرين من الهلاك والعذاب الشديد ليعلم أن لا نجاة لكل قرية من أحدهما قطعاً . و (أو) تفيد أحد الشيئين المذكورين على الابهام وعدم التعيين . و (ذلك) اشارة الى المذكور من الهلاك والتعذيب .

المعنى :

يقول تعالى : ما من قرية على وجه الأرض الا ولا بد أن يحل بها منا هلاك وفناء بما يبيدها ويفنيها ، أو عذاب شديد لا يفنيها ولكنه يذيقها أنواع الآلام وشديد النكال ، كان هذا قضاء سابقاً في علمنا ماضياً في ارادتنا مكتوباً أسطاراً في اللوح المحفوظ .

الأحكام :

أحكام الله تعالى : أحكام شرعية وهي التي فيها بيان ما شرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم اذا ساروا عليه ، وأحكام قدرية ، وهي التي فيها بيان تصرفه في خلقه على وفق ما سبق في علمه ، وما سبق في ارادته . والأحكام الشرعية تقع من العباد مخالفتها فيختلف مقتضاها من الفعل أو الترك ، والأحكام القدرية لا تتخلف أصلاً ولا يخرج المخلوقات عن مقتضاها قطعاً . وفي هذه الآية حكم من أحكامه القدرية ، وهو أن كل قرية لا بد أن يصيبها أحد الأمرين المذكورين بما سبق من علمه وما مضى من ارادته ، فلا يتخلف هذا الحكم ولا تخرج عنه قرية .

ايضاح وتعليل :

الله حكم عدل حكيم خبير ، فما من حكم من أحكامه الشرعية الا وله حكمته ، وما من حكم من أحكامه القدرية الا وله سببه وعلته . لا لوجوب أو ايجاب عليه ، بل بمحض مشيئته ، ومقتضى عدله وحكمته . قد قضى على كل قرية بهذه العاقبة من الهلاك أو العذاب الشديد في هذه الآية ، وبين في غيرها سبب استحقاقها لها فقال تعالى : « وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا »[1] ، « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ »[2] « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ »[3] « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً »[4] « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا

(1) ١٨/٦٠ الكهف .
(2) ١١/١١٨ هود .
(3) ٢٨/٥٩ القصص .
(4) ٢١/١١ الانبياء .

وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً » [1] •

« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأنعُمِ اللهِ ، فَأذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » [2] فأفادت هذه الآيات ان سبب الهلاك والعذاب هو الظلم والفساد والعتو والتمرد عن أمر الله ورسله والكفر بأنعم الله • وما ربك بظلام للعبيد •

توجيــه :

الطور الأخير للأمم هو الــذي ذكر في الآيات كثيراً دون الطور الأول والثاني • ووجه ذلك أنه هو الطور الــذي ينتشر فيه الفساد ويعظم فيه الظلم وينتهي فيه الاعذار للأمة ويحل فيه أجلها ، فينزل بها ماتستحقه من هلاك أو عــذاب • فكرر ذكر هــذا الطور لزيادة التحذير منه والتخويف من سوء عاقبته والحث على تدارك الأمر فيه بالاقلاع من الظلم والفساد والرجوع الى طاعة الله تعالى ، واعمال يد الاصلاح في جميع الشؤون فيرتفع العذاب ، بزوال ما كان لنزوله من أسباب •

استنتاج وتطبيق :

القرى التي قضى عليها بالهلاك والاستئصال هذه قد انتهى أمرها بالمــوت وفات عن العــلاج مثل عاد وثمــود من الأمم البــائدة • وأما القرى التي قضى عليها بالعذاب الشديد فهذه لا تزال بقيد الحياة فتداركهــا ممكن وعلاجها متيسر • مثل الأمم الاسلامية الحاضرة •

---

(١) ٦٥/٨ الطــلاق .
(٢) ١٦/١١٢ النحل .

فمما لا شك أن فينا لظلماً وعتواً وفساداً وكفراً بأنعم الله ، واننا من جراء ذلك لفي عذاب شديد . ولا نعني بهـذا أنّ الأمم الاسلامية مخصوصة بهذا ، بل مثلها وأقوى منها في أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الأرض . وأنّ لهم لقسطهم من العذاب الشديد ، واذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابهما فلأنّه لكل أمة أجل" ولما يأت ذلك الأجل بعد . فاذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

ارشاد واستنهاض :

قد ربط الله بين الأسباب ومسبباتها خلقاً وقدراً بمشيئته وحكمته لنهتـدي بالأسباب الى مسبباتها ونجتنبها باجتناب أسبابهـا ، وقد عرفنا في الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقي تلك الأسباب فنسلم أو نقلع عنها فننجو ، فان بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب . وقد ذكر لنا في كتابه أمّة اقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعد ما كان ينزل بها ، ليؤكد لنا ان الاقلاع عن السبب ينجي من المسبب. فقال تعالى : « إلاّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ في الحَيَاةِ الدُّنيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ »[1] فبمادرتهـم للايمان واقلاعهـم عن الكفر كشف عنهـم العـذاب ، وأرشدنا في ضمن هذا الى العلاج الناجع في كشف العذاب وابطال أسبابه ، وهو الايمان . كما أرشدنا اليه أيضاً في قوله تعالى قبل هذا : « فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إيمَانُهَـا »[2] أي نجاها من العذاب ، وذكر قوم يونس دليلا على ذلك . وأرشدنا اليها أيضاً في قولـه تعالى : « وَلَوْ أنَّ أهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ »[3]

(١)و (٢) ٩٨/١٠ يونس .
(٣) ٩٥/٧ الاعراف .

فالايمان والتقوى ـ هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لأننا اذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب • ولا تنهض بهذا العلاج العظيم الا اذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات ، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه وبدا به في نفسه ، ثم في من اليه ثم في من يليه من عشيرته وقومه ، ثم جميع أهل ملته • فمن جعل هذا من همه وأعطاه ما قدر عليه من سعيه كان خليقاً أن يصل الى غايته أو يقرب منها • ولنبدأ من الايمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات ، ولنستشعر أخوة الايمان التي تجعلنا كجسد واحد ، ولنشرع في ذلك غير محتقرين لأنفسنا ولا قانطين من رحمة ربنا ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا ، فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الاصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله ، وليكن دليلنا في ذلك وأمامنا كتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وسيرة صالح سلفنا • ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق ويبصرنا في العلم ويفقهنا في الدين ويهدينا الى الأخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا ، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى • وليس هذا عن العاملين ببعيد • وما هو على الله بعزيز •

رجاء وتفاؤل :

ان المطلع على أحوال الأمم الاسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء ، وأحست بالعذاب ، وأخذت في العلاج ، وأن ذلك وان كان يبدو اليوم قليلا لكنه – بما يحوطه من عناية الله وما يبذل فيه من جهود المصلحين ـ سيكون باذن الله كثيراً وعسى أن يكون في ذلك خير" لأمم الأرض أجمعين •

حقق الله الآمال وسدد الأعمال بلطف منه وتيسير ، انه نعم المولى ونعم النصير[1] •

---

(١) ش : جـ ١ م ٧ ص ١ ـ ٦ رمضان ١٣٤٩ ـ فيفري ١٩٣١

التكريم الرباني للنوع الانساني

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً »[1] .

اللغـة :

(كرمنا) : الكرم ضد اللؤم ، يوصف به الشيء لشرفه في ذاته بكمال صفاته أو لحسن أفعاله وما يصدر عنه من النفع لغيره ، فيقال فرس كريم وشجرة كريمة وأرض كريمة اذا حسنت هذه الأشياء في ذواتها وكملت فيها صفات أنواعها ، ويقال نفس كريمة اذا كملت بمحاسن الأخلاق التي بها كمال النفوس . وقالت بلقيس في كتاب سليمان عليه السلام : « إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ »[2] . لأنه كان على أكمل ما تكون عليه الكتب من بيان اسم مرسله وذكر اسم الله تعالى في أوله وختم على ما فيه . هذا كله من كرم الذات بما كمل فيها من صفات . ووصف جبريل بأنه رسول كريم لشرف ذاته الملكية وحسن أفعاله بما كان على يده من نفع للخلق بتبليغ الوحي والهدى . وهذا من كرم الذات والأفعال ، وهو الكرم الكامل الذي يكون بشرف الذات ونفع الأفعال . ويقال كرم الشيء ــ بضم الراء ــ لازماً ، ويتعدى بالهمز والتضعيف ، فيقال أكرمته

(١) ١٧/٧ الاسراء .

(٢) ٢٧/٢٩ النمل .

وكرمته بمعنى واحد ، أي فعلت له فعلا فيه رفعة له ومنفعة . فكرمنا بني آدم ، أي فعلنا لهم ما فيه رفعتهم ومنفعتهم ، من انعاماتنا عليهم . (وَحَمَلْنَاهُمْ) من الحمل بمعنى الرفع أي أركبناهم ورفعناهم على المركوبات مثل قوله تعالى : « وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ »[1] . « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ »[2] . « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ »[3] . و « الطَّيِّبَاتِ » ما يطيب للأكل والشرب مما يلذ في الطعم وتحمد عاقبته ، فلا يكون الطيب إلاّ حلالاً لأن غير الحلال ـ وإن لذ طعمه في بعض أقسامه فانه ـ لا تحمد عاقبته بما فيه من اثم ، وتبعة ، وما يكون فيه من ضرر . (وَفَضَّلْنَاهُمْ) : من الفضل بمعنى الزيادة أي صيرناهم ذوي فضل وزيادة في الكرامة كما تقول : فضلت زيداً على عمر في العطاء ، أي صيرته ذا فضل وزيادة عليه فيه .

التراكيب :

متعلق حملناهم محذوف لقصد التعميم المناسب لمقام الامتنان بالتكريم مع الاختصار ، تقديره : على كل ما يصلح لحملهم عليه .

المعنى :

يقول تعالى : « ولقد أنعمنا على بني آدم نعماً عظيمةً كثيرةً في خلقتهم من تركيب أبدانهم وأرواحهم وعقولهم ، وفي حياتهم بما

---

(١) ٩/٩٣ التوبة.

(٢) ٥٤/١٣ القمر .

(٣) ١٧/٣ الاسراء .

مكناهم منه من أسباب السلطان على غيرهم من الخلق من عالم الجماد والنبات والحيوان ، وتسخير هذه العوالم لهم يحصلون منها منافعهم ، فأوصلنا اليهم هذه النعم وكرمناهم بها فنفعناهم ورفعنا أقدارهم » .
ومن هذا التكريم والانعام الذي فيه المنفعة وفيه الرفعة أننا سخرنا لهم ما يركبونه في البر والبحر ومكناهم من أسباب تسييره والانتفاع به واننا بثثنا لهم على وجه الأرض أنواعاً من المآكل والمشارب اللذيذة المباحة من النبات والحيوان والجماد ، فخلقناها صالحة لغذائهم ومكناهم من أسباب تحصيلها واصلاحها والتفنن فيها . فكان لهم بذلك كله زيادة بينة من نعمتنا ، وفضل محقق على كثير من مخلوقاتنا .

مسائل :

المسألة الاولى : تكريم الله تعالى لخلقه ، قسمان : أحدهما عام والآخر خاص ، فأما العام : فهو اخراجه لهم من العدم الى الوجود ، واعطاوه لكل شيء منهم خلقته اللائقة به من تركيب أجزاء ذاته وتعديل مادة تكوينه ومن أعضائه ـ اذا كان من ذوي الأعضاء ـ التي يحتاج اليها في حياته لجلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، وهدايته والهامه ما خلق صالحا لذلك الى استعمال تلك الأعضاء وطرق الجلب والدفع بها .

وأما الخاص : فهو تكريمه وانعامه على عباده المؤمنين بنعمة الاسلام في الدنيا ، وبدار السلام في الأخرى . والتكريم المذكور في هذه الآية من القسم الأول العام كما سيتبين في المسألة الرابعة .

المسألة الثانية : جميع المخلوقات التي أخرجها الله تعالى من الوجود الى العدم وان كانت متساوية في أصل التكريم العام . فانها متفاوتة فيه بحسب تفاوتها في شرف الذات وكمال الخلقة . فعالم النبات أكثر حظاً في التكريم من عالم الجماد ، وعالم الحيوان أكثر

حظاً منهما ، ونوع الانسان أكثر حظاً في التكريم العام من جميع الحيوان .

المسألة الثالثة : عظم حظ الانسان من هذا التكريم من جهة ذاته بحسن صورته واعتدال مزاجه ، ومن جهة روحه بأنها من العالم النوراني العلوي وبأنها مع اتصالها بالبدن قابلة للتحلي بأكمل الصفات وأطهر الأخلاق ، ومن جهة عقله الذي به ادراك الحقائق وحصول المعارف ، وعرف الأسباب ومسبباتها ووجوه ارتباطاتها واتصالاتها ، ونسبة بعضها الى بعض ، فملك وساد واستفاد وأفاد .

المسألة الرابعة : هذا التكريم المذكور في المسألة السابقة هو عام للنوع الانساني من حيث هو انسان لا فرق فيه بين من آمن ومن كفر ، لأنه راجع للخلقة الانسانية التي يتساوى فيها الجميع ، والتمكين من أسباب المنافع الذي هو ثابت لجميع النوع بما عنده من عقل وتفكير. وهذا هو مقتضى العموم المستفاد من لفظ (بني آدم) ومثل هذا التكريم في العموم الحمل في البر والبحر والرزق لأنهما من جملة التكريم ، كما تقدم في فصل بيان المعنى .

المسألة الخامسة : تفضيل الله تعالى لمن يشاء من خلقه قسمان : تفضيل في الخلقة وتفضيل في الجزاء والمثوبة . فمن الأول تفضيل بني آدم المذكور في هذه الآية بما كرموا به وأعطوه في خلقتهم من الوجوه المتقدمة زائداً على كثير من مخلوقات الله مما كانت لهم به الرفعة والمنفعة لجميع نوعهم على العموم . ومن الثاني تفضيل المجاهدين على القاعدين في قوله تعالى : « وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أجْراً عَظِيماً[1] .

---

(١) النساء ٤/٩٤ .

المسألة السادسة : اقتضى قوله تعالى : « وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ » ، أي بما كرمناهم به في خلقتهم أنهم لم يفضلوا على جميع مخلوقات الله ، وان بعض المخلوقات أفضل منهم في الخلقة وأكثر منهم كرماً في الجنس ، فمن هو هذا المخلوق المفضل عليهم ؟ هذا ما نبينه في المسألة التالية .

المسألة السابعة : اذا نظرنا في عوالم المخلوقات فاننا نجدها منقسمة الى قسمين : قسم مشاهد ، وقسم غير مشاهد علمناه بالوحي الصادق من الكتاب والسنة . فالقسم الأول : هو عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان ، وهذا القسم كله قد فضل عليه الانسان بميزة عقله التي ساد بها الجميع وبغيرها مما تقدم . والقسم الثاني : هو الملائكة والجن . فأما الجن ، فالانسان أشرف منهم خلقة وأكرم عنصراً فهم ظلمانيون خلقوا من النار . وهو ترابي وروحه من عالم النور الذي هو عالم الملائكة . فلذا كان أهلاً لاصطفاء الرسل منه كما اصطفيت من الملائكة ولم يصطف من الجن رسول ولا نبي . وأما الملائكة فخلقتهم أشرف من خلقة الانسان وأكرم لأنهم خلقوا من نور محض منزهة لأجسام النورانية عن كثافة الأجساد الانسانية الترابية واخلاطها وظلمتها . فلم يفضل عليهم النوع الانساني عن الخلقة بل فضلوا عليه فهم غير الكثير الذي فضل عليه الانسان .

المسألة الثامنة : المفاضلة تقع بين الملائكة وبني آدم على وجهين : اما من جهة الخلقة واما من جهة المثوبة . فأما من جهة الخلقة فقد عرفنا في المسألة المتقدمة أن الملائكة أفضل ، والآية ظاهرة في ذلك ظهوراً بيناً . وأما من جهة الأجر والمثوبة فهو خارج عن معنى الآية وموضوعها . وأفضل الخلق ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أفضل منهم قطعاً ، وفي المفاضلة بين الأنبياء والملائكة في الأجر والثواب خلاف كبير وتفويض أمر ذلك الى الله تعالى في مقام التذكير أسلم .

سلوك المكرمين ـ حكمة الامتنان بتكريم الانسان :

امتن الله تعالى على بني آدم بهذا التكريم لهم في شرف الخلقة ورفعتها ، وكثرة المنفعة وتيسير أسبابها تذكيراً لهم بنعمته ليشكروها فيزيدهم منها ، وتعريفا لهم بشرف أنفسهم ليقدروها فينتفعوا بها ، فهذان الأمران هما الحكمة المقصودة بهذا الامتنان • فلنتكلم عليها في الفصلين التاليين •

شكر العبد لنعمة ربه :

قد ابتدأنا بهذه الكرامة في الخلقة ، بدون سعي منـّا ولا عمل ، وهو المبتدىء بالنعم قبل استحقاقها • فمن قبل هذه الكرامة وشكرها كان من المكرمين ، ومن لم يعرف قيمتها وكفرها كان من المهانين • ومن يهن الله فما له من مكرم ، فلنقابل هذا التكريم في الخلقة بالشكر الجزيل بأن نعقد قلوبنا على تعظيم النعمة به ، ونطلق ألسنتنا بالاعتراف والثناء على مسديه ، ونستعمل هذه الخلقة الكريمة في مراضي ربنا وطاعته • متوسلين بشكر ما ابتدأنا به خالقنا من تكريم الخلقة ، الى ما وعد به الشاكرين من تكريم الجزاء والمثوبة ، بأنواع ألطافه وانعامه وجزيل فضله واكرامه • فسبحانه ذا الجلال والاكرام •

معرفة العبد لقدر نفسه :

قد استودعنا خالقنا خلقة كريمة ، فعلينا أن نعرف قيمتها وأن نقدرها قدرها • وحق على من كرمه ربه أن يكرم نفسه ، فعلينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا بتنزيهها عن مساوىء الأخلاق وتحليتها بمكارمها • وتكريم عقولنا بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات ، وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات وتكريم جوارحنا بتنزيهها عن المعاصي وتجميلها بالطاعات فنتحرّى

بأقوالنا وأفعالنا أكرم الأقوال وأكرم الأعمـال • وتترفع عن جميع الرذائل والـدنايا ، وتتباعد عن كل مواطن السوء والسفالة ونحفظ كرامتنا وشرفنا أمام الله والناس ونجتهد أن لا يمسنا بسوء لا منّا ولا من غيرنا • فاذا قدرنا ــ هكذا ــ أنفسنا ، وشكرنا ــ كما تقدم ــ ربنا بلغنا ــ باذن الله تعالى ــ أبعد الغايات من التكريم والتفضيل •

يسرنا الله والمسلمين أجمعين لما يسر له عباده المكرمين المفضلين برحمتك يا أرحم الراحمين[1] •



(١) ش : ج ٢ ، م ٧ ، ص ٧٨ ــ ٨٣ غرة شوال ١٣٤٩ مارس ١٩٣١

الصلاة لأوقاتها

« أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ ، إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً »[1] .

المفردات :

(أقم) أمر ، من أقام ، أي اجعلها قائمة وذلك بحفظها ، والمحافظة عليها ، وحفظها صونها من الخلل في شروطها ، وأركانها من أقوالها ، وأعمالها في الظاهر والباطن ، والمحافظة عليها بالمداومة عليها في أوقاتها ، (الصلاة) : المراد الصلوات الخمس المكتوبة . (لِدُلُوكِ) اللام ، لام الأجل والسببية (الدلوك) هو الميل ، وبدايته عند الزوال ، ونهايته بالغروب . (الى) : لانتهاء الغاية ، فغسق الليل هو نهاية غاية الاقامة . (الغسق) : هو ظلمة الليل وبداية الظلمة بالغروب وتمامها بعد مغيب الشفق ، عند اشتداد الظلمة . (قُرْآنَ الفَجْرِ) : ما يقرأ به في صلاة الفجر ـ وهي الصبح ـ من القرآن ، فسميت قرآنا من تسمية الكل باسم جزئه تنبيهاً على أهمية ذلك الجزء ومكانته . (مَشْهُوداً) : محضورا .

التراكيب :

أفادت اللام السببية أن ميل الشمس سبب في وجوب الصلاة والى عند التجرد عن القرائن لا يدخل ما بعدها في حكم

---

(١) ٧٨/١٧ الاسراء .

ما قبلها ، لكن هنا قامت القرينة الشرعية ــ وهي مشروعية الصلاة في الليل ــ على أن ما بعد الى داخل في حكم ما قبلها ، فهو محل أيضاً لاقامة الصلاة فيه ، وقرآن الفجر منصوب عطفاً على الصلاة ، وخصصت بالذكر ، لأنها لم تكن عند ميل الشمس ، ولا عند الغسق ، بل تكون عند الوقت الذي أضيفت اليه وهو الفجر . وجملة « إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً » تذييل لتأكيد إقامته صلاة الفجر .

المعنى :

أقم يا محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وأمره أمر لأمته لأنهم مأمورون بالاقتداء به ــ الصلاة لأجل ميل الشمس ، فأد الظهر والعصر ، وفي غسق الليل ، فأد المغرب والعشاء ، وأقم صلاة الفجر انها صلاة مشهودة .

بيان وتوجيه :

هذه الآية قد انتظمت أوقات الصلوات الخمس ،ووجه ذلك بوجوه : الأول : أن الظهر تكون أول الميل ، والعصر تكون وسطه ، وأن المغرب تكون عند أول الغسق ، والعشاء تكون عند شدته بمغيب الشفق ، والصبح عند الفجر . الثاني : أن الظهر عند أول الميل ، والعصر عند وسطه ، والمغرب عند نهايته ، والعشاء عند الغسق ، أي اشتداد الظلمة بمغيب الشفق . والفرق بين الأول والثاني أن الأول اعتبر المغرب عند بداية الظلمة ، والثاني اعتبرها عند تمام الميل ، وهما في الواقع متلازمان ، فانه اذا تم الميل ابتدأت الظلمة . الثالث : ولم أره لأحد واللفظ يحتمله ــ أن ميل الشمس يبتدىء بالزوال ، وينتهي فيما يرى لنا بالبصر بمغيب الشفق ، غير أن ميلها في الزوال والغروب مشاهد بمشاهدة ذاتها ، وميلها بعد الغروب

مستدل عليه بما يشاهد من أخـذ الشفق في المغيب الى أن يغيب بتمامه ، ولا شك أن ذلك نتيجة ميلهـا من وراء الأفق ، فالصلوات الأربع على هذا واجبة لدلوك الشمس ، وأما غسق الليل ، فهو اشتداد ظلمته ، وذلك يكون على أتمه بعد مضي الثلث الأول من الليـل ، فيكون غسق الليل بهذا المعنى خارجاً عن حكم ما قبل الى ، لأن وقت العشاء ينتهي بانقضاء الثلث الأول ، فالأوقات عند غسق الليل .

تفسير نبوي :

أخرج البخـاري رحمه الله تعـالى في صحيحـه عن أبي هريرة رضي الله تعـالى عنه قـال : سمعتُ رسول الله ــ صـلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : **تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءاً ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار ، في صلاة الفجر** ، ثم يقول أبو هريرة : فاقرؤوا إن شئتم « إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً » . فاستشهد أبو هريرة بالآية على الحديث ليبين انه تفسير لها ، وأن صلاة الفجر مشهودة تشهدها ملائكة الليل ، وملائكة النهار . وجاء هذا عند أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً الى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وجاء اجتماع الملائكة بأبسط من هـذا عند مالك رحمه الله فأخرج في موطئه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليـل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصـلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو اعلم بهم كيف تركتم عبـادي فيقولون تركناهم وهـم يصلون وأتيناهم وهم يصلون .**

استنبـاط :

من تخصيص صـلاة الفجر بجمـلة التذييل المؤكـدة ، وما اشتملت عليه من هذه المزية ، أخذ جماعـة من أهل العلم أفضليتها

على غيرها ، فان قلت أن صلاة العصر أيضا لها هذه المزية ، كما تقدم في حديث مالك ، قلت ان ثبوت هذه المزية للفجر قطعي بنص القرآن، ومتفق عليه في روايات الحديث ، بخلاف العصر فقد جاء في بعض الروايات دون بعض وتبقى الفجر ممتازة بتخصيصها بالتأكيد في نص الكتاب وكفى هذا مرجحا لها .

ترغيب وترهيب :

قد جاء عن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – في الترغيب في امتثال هذا الأمر (أقم الصلاة) وفي الترهيب من مخالفته من الأحاديث ما فيه مقنع ومزدجر ، فمما جاء فيهما حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يقول : **خمس صلوات كتبهن الله عزّ وجلّ على العباد فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ان شاء عذبه وان شاء أدخله الجنة** رواه مالك وغيره . ومما جاء في الترغيب حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يقول : **أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل بقي من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا .** رواه الشيخان في صحيحيهما ، ومما جاء في الترهيب حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – : **بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة .** رواه مسلم وغيره بنحوه . وحديث بريدة رضي الله عنه مرفوعاً **العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** رواه أحمد وأصحاب السنن ، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم .

الاحــكام :

قــد قال بكفر تــارك الصلاة جماعات كثــيرة من الفقهــاء والمحدثين سلفاً وخلفاً مستدلين بحديث جابر وحديث بريدة الصريحين في كفره ، وذهبت جماعات أخرى كذلك الى عدم كفره على عظم جرمه ، مستدلين بحديث عبادة بن الصامت المتقدم الصريح في جعله في المشيئة ، والكافر مقطوع له بدخول النار ، ويجيبون عن حديث جابر وبريدة بأن المراد من كفر تارك الصلاة هو الكفر العملي ، والكفر قسمان : اعتقادي وهو الــذي يضاد الايمان ، وكفر عمــل ، وهو لا يضاد الايمان ، ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحل للترك ، وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كذلك • وبهذا يجمع بين الأحاديث • وكفى زاجراً للمرء عن ترك الصلاة أن يختلف في ايمانه هذا الاختلاف •

تعلــيم :

في ربــط الصلاة بالأوقات تعليم لنــا لنربــط أمورنــا بالأوقات ونجعل لكل عمل وقتــه ، فللنوم وقتــه ، وللأكل وقتــه ، وللراحة وقتهــا ، ولكل شيء وقتــه • وبذلك ينضبط للانسان أمر حياته وتطرد له أعماله ، ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمــال • أما اذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقت فانه لا بد أن يضطرب عليــه أمره ويتشوش باله ، ولا يأتي الا بالعمل القليل ، ويحرم لذة العمل ، واذا حرم لــذة العمل أصابه الكسل والضجــر ، فقل سعيه ، وكان ما يأتي به من عمــل ــ على قلته وتشويشه ــ بعيداً عن أي اتقان • وقد كان النبيّ ــ صلى الله عليــه وآله وسلم ــ مقسماً لزمانه على أعماله ، وفيه القدوة الحسنة • فقد روى عياض رضي الله عنــه في (الشفا) عن علي رضي الله عنــه قال : كان ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ اذا أوى الى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء فجزءا لله وجزءا

لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزء جزأه بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئاً ، فكان من سيرته في جزء الأمة ايشـار أهل الفضل باذنه ، قسمته على قدر فضلهم في الدين ، منهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهـم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة ، من مسألته عنهم ، واخبارهم بالذي ينبغي لهم ، ويقول ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وابلغوني حاجة من لا يستطيع ابلاغي حاجته ، فانه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع ابلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة . لا يذكر عنده الا ذلك ولا يقبل من أحـد غيره يدخلون رواداً ولا يتفرقون الا عن ذواق ويخرجون أدلة ا هـ .

فهكذا ينبغي للمسلم أن يقسم أوقاته على أعماله ويعمرها كلهـا بالخير . وكمـا ربط الله له صلاته بالأوقات ، وهي من أمور دينه ، كذلك يربط هو بالأوقات جميع أمور دنياه والله نسأل لنـا ولجميع المسلمين أن يقصرنا على طاعته ويفقهنا في أسرار دينه ، ويوفقنا الى اتباع سنة رسوله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام[1] .



(١) ش : جـ ٣ ، م ٧ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٩ غرة ذي القعدة ١٣٤٩ هـ مارس ١٩٣١ م .

نافلة الليل وحسن عاقبتها

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً »[1] .

الألفـاظ :

من : للتبعيض . الهجود ، النوم والهاجد النائم و ج[2] هجود ومنه (ألا طرقتنا والرفاق هجود) والتهجد ترك الهجود ، كالتحرج والتأثم في ترك الاثم والحرج ، وبناء تفعل يكثر في التحصيل كتعلم وتقدم ، وجاء قليلا في معنى الترك ، والمراد منه هنا ترك النوم للقيام بالعبادة ، للنافلة . قال الجوهري : عطية التطوع من حيث لا تجب ومنه نافلة الصلاة ا هـ . أي أنَّ الصلاة مؤداة على وجه التطوع دون الوجوب ، فلذا قيل فيها : نافلة . وهي على كلام الجوهري بمعنى الشيء الزائد ؛ فهي اسم غير مصدر . قال ابو البقاء وغيره : النافلة الزيادة ، فهي مصدر كالعاقبة . عسى : للرجاء ، وهي من الله تعالى على الوجوب ، لأن اطماعه تعالى لعباده في الجزاء على أعمالهم هو من وعده ، ومحال عليه تعالى أن يخلفه . مقاماً : محل القيام . محموداً مثنياً عليه .

التراكيب :

من الليل متعلق بفعل محذوف دل عليه تهجد تقديره أسهر .

---

(۱) ۷۹/۱۷ الاسراء .

(۲) كذا في الاصل ويقصد به (جمع) .

الضمير في به عائد على القرآن لتقدم ذكره ولا تراعى الاضافة •
والباء باء الاداة لأن التهجد بمعنى التعبد يحصل بالقرآن ، أي بالصلاة
ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على الليل ، فالباء بمعنى في ، أي فيه •
نافلة : مصدر منصوب بتهجد لاتفاقهما في المعنى • والتقدير : تنفل
نافلة ، وهذا يجري على الوجهين في معاد الضمير • ويحتمل أن يكون
حالا • وهذا يجري على عود الضمير على القرآن بمعنى الصلاة •
مقاماً : اما مصدر من غير لفظ عامله الذي هو يبعثك بمعنى يقيمك
من مرقدك ، واما ظرف أي يبعثك في مقام ، ومحموداً : صفة لمقام ؛
ولكن الذي يحمد حقيقة هو القائم في المقام ، فجعل الحمد للمقام
توسعاً تنبيهاً على عظم الحمد وكثرته ، فانه فاض على صاحب المقام
حتى غمر مقامه •

المعنى :

أسهر بعضاً من الليل فتعبد بالقرآن في الصلاة زيادة على
تعبدك به في صلاة فرضك فتكون على رجاء أن يبعثك ربك من
مرقدك يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فيقيمك مقاماً يحمدك فيه
جميع الناس لما يرون لك من فضل وما يصل اليهم بسببك من خير •

وفي الآية مسائل :

المسألة الاولى : كيف يكون التهجد ؟ فأمّا اللفظ فانه يفيد ترك
النوم للعبادة فيشمل تركه كله أو بعضه بأن لم ينم أصلاً أو لم ينم
أولا ثم رقد أو نام أولا ثم قام • لكن ثبت أن النبيّ ـ صلى الله
عليه وآله وسلّم ـ كان ينام ثم يقوم ، فبينت السنة العملية أن التهجد
المطلوب هو القيام بعد النوم •

المسألة الثانية : هل كان قيام الليل فرضاً عليه ـ صلى الله عليه
وسلم ـ دون أمته بمقتضى قوله تعالى (نافِلَةً لَكَ) • قد ذهب

الى هذا جماعة كثيرة من أهل العلم سلفاً وخلفاً ، ويرد عليه أن توجيه الخطاب إليه لا يقتضي تخصيص الحكم به كما في آية : « أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » وآيات كثيرة ، ولأن قيام الليل يقع من غيره فيسمى نافلة اتفاقاً ، ولحديث عائشة رضي الله عنها : **« انَّ الله افترض قيام الليل في اول هذه السورة ـ تعني سورة المزمل ـ وهي مكية « قُمِ اللَّيْلَ » فقام النبيُّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ واصحابه حولاً وامسك الله خاتمتها اثنى عشر شهراً ، حتى انزل الله في آخر هذه السورة التخفيف فصار قيامه تطوعاً بعد فرضه »** . رواه مسلم . فهذا يدل على أنهم فهموا أنَّ الأمر من قوله تعالى (قُمِ) لهم معه ، مع أنه موجه اليه بخطاب الأفراد ، وأنَّه كان فرضاً عليه وعلى الناس فصار تطوعاً عليه وعلى الناس ، ولحديث المغيرة بن شعبة في الصحيحين وغيرهما **« قام رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حتى تورمت قدماه ـ وهذا لمداومته على القيام كل ليلة ببضع عشر ركعة ـ فقيل له قد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر ، قال : أفلا اكون عبداً شكورا »** فلو كانوا يعلمون أن قيام الليل واجب عليه ويفهمونه من القرآن لما أنكروا مشفقين عليه أن يقوم بما هو واجب عليه ، ولأن قوله : **(أفلا اكون عبداً شكورا)** يفيد أنه متطوع بهذا القيام باختيار ليؤدي شكر نعمة ربه عليه ، فان قيل ان السؤال والجواب راجعان الى تورم قدميه ، وذلك ناشيء على المداومة قيل اذا انكر الشيء الناشيء عن المداومة فقد أنكرت المداومة ، والمداومة على الفرض لا تنكر ، فبقي الدليل سالماً ، ولهذا كله قال هؤلاء الموردون ان قيام الليل تطوع ونفل في حقه وفي حق امته ، وبقي للأولين أن يقولوا أن قوله تعالى « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً » خاص به ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اتفاقاً ، وقد جعل جزاء لتهجده بالليل ، ولما كان الجزاء خاصاً به فالعمل المجزى عنه خاص به ،

فلهذا حملنا قوله على معنى دون غيرك ولما رأيناه واظب على التهجد ولم يتركه حملناه على أنه كان مفروضاً عليه ، وحملنا نافلة على معنى انها فريضة زائدة فوق الصلوات الخمس ، فيقول المخالفون في هذا انكم حملتم النافلة على الفريضة ، وهذا خلاف أصل معناها الذي هو التطوع • وأما ما ذكرتم من خصوص الجزاء به فانا نقول ان الخطاب موجه له في الأول وفي الآخر ، ففي الأول لما لم يعارضنا معارض ألحقنا به امته ، وفي الثاني لما منعنا مانع وهو اختصاصه بالمقام المحمود لم نلحقهم به ، وبقي الجزاء مساوياً للعمل في صورة اللفظ حيث كان كل منهما موجهاً اليه ، واذا تأملت في هذا البحث الذي سقناه أدركت أن القول بعدم الخصوصية هو الراجح ، فالآية حثّ وترغيب على قيام الليل للعموم ووعد له ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بالمقام المحمود •

المسالة الثالثة : ما هو المقام المحمود (هو مقامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ للشفاعة العظمى) يشفع للخلائق وقد جهدوا من كرب الموقف فجاءوا الى كبراء الرسل عليهم الصلاة والسلام يسألونهم أن يشفعوا لهم الى ربهم ليفصل القضاء ويريحهم من كرب الموقف فيتدافع الشفاعة أولئك الرسل صلوات الله عليهم ويتنصلون منها بأعذار رهيبة للرب جلّ جلاله حتى ينتهوا اليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيتقدم فيشفع ويسأل فيعطى ، كما جاء هذا كله مفصلا في الأحاديث الصحيحة المستفيضة • فيحمده الخلق كلهم لما يرون من فضله عند ربه ولما وصل اليهم من الخير المطلوب بسببه •

اختصاصه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالمقام المحمود ودليله :

ثم له ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد هذه الشفاعة العظمى شفاعات أخرى بينتها صحاح الأحاديث ، ولعموم فضل هذه الشفاعة العظمى

لأهل الموقف كلهم قال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كما في صحيح مسلم « **أنا سيد الناس يوم القيامة** » والسيد من يتولى أمر السواد ، فظهر عموم سيادته بعموم نفعه . وقد فسر المقام المحمود بمقام الشفاعة عبد الله بن عمر رضي الله عنه رواه عنه البخاري في صحيحه وفسره بها غيره .

المسألة الرابعة : هل المقام المحمود خاص به ؟ قد علمت من المسألة السابقة أنه مقام الشفاعة العظمى وهي خاصة به فهو خاص به ويدل عليه حديث جابر الصحيح : « **من قال حين يسمع النداء ـ الأذان ـ ـ اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ـ حلت له شفاعتي يوم القيامة** » فهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ الموعود بالمقام المحمود .

تنبيه والحاق :

قد جعل الله تعالى جزاء نبيه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ على تهجده وخلوته بربه في مناجاته هذا المقام الذي يحمده فيه الخلق ويتقبل فيه شفاعته ويستجيب دعوته ويفتح عليه فيه بمحامد من ذكره لم يفتح عليه بها قبل ، ففي هذا تنبيه للمؤمنين على حسن عاقبة القائمين لربهم في جنح الليل ، وما يكون لهم من مقامات عند ربهم على حسب منازلهم . فكما كان المؤمنون ملحقين بنبيهم ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في مشروعية هذه العبادة كذلك هم ملحقون به في حسن الجزاء عليها . وان كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الأعظم فلهم جزاؤهم من مقامات القرب ، والزلفى والقبول ، والرضا ، على ما يناسب منازلهم جزاء بما كانوا يعملون[1] .

---

(١) ش : ج ، م ٧ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٣٠ غرة ذي الحجة ١٣٤٩ هـ ـ افريل ١٩٣١ م .

صدق المدخل والمخرج

« وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً » (١) .

المناسبة :

مضى في الآيات السابقة ذكر الله تعالى ما كان من المشركين من الكيد لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمحاولتهم فتنته في دينه والله يثبته ، ومبالغتهم في عداوته واذايته ، حتى كادوا يستفزونه ويزعجونه من أرض مكة فيخرجونه منها ، وجاء بعدها أمر الله تعالى باقامة الصلاة والتهجد بالليل ، وفي ذلك أمر الله له بالقيام بعبادة ربه والتوجه والانقطاع اليه وعدم المبالاة والاشغال عن مهام العبادة بهم ، فجاء بعد ذلك الأمر الذي في هذه الآية بسؤاله أن يختار له ، وفي ذلك تفويض أمره الى ربه ورضاه بما يختار له . فالآيات السابقة أمر بالتجرد لعبادته ، وهذه أمر بالتسليم لمشيئته ، فبتلك يكون منقطعاً اليه ، وبهذه يكون معتمداً عليه .

الالفاظ :

المدخل يكون بمعنى الادخال ويكون بمعنى زمانه أو مكانه ، الصدق : أصله وصف للقول بمعنى قوله ومطابقته للواقع .

---

(١) ١٧/٨٠ الاسراء .

ويوصف به الفعل اذا وقع على وجهه ، وكما ينبغي أن يكون . وتضاف اليه الأشياء الكاملة في أنفسها الحسنة في ظاهرها وباطنها . لـدن بمعنى عند . السلطان : بمعنى التسلط ، يصدق على التسلط على العقول بالحجة وعلى غيرها بالملك والولاية . النصير : بمعنى ناصر .

التراكيب :

مدخل ومخرج منصوبان على المصدرية أو على الظرفيـة .

المعنى :

قـل يا محمد سـائلا ربك متضرعاً اليـه ، يا رب أدخلني ادخالاً حسناً كاملاً تساوي في ظاهره وباطنه في الحسن والكمال ، وتماثلت بدايته ونهايته وحـاله وعاقبته فيهما أكون فيه على بصيرة ويقين وثبات وقوة ، وأخرجني اخـراجاً كذلك ـ واذا كان بمعنى الظرف كان المعنى أدخلني في مكان حسن أو زمان حسن .. الخ . وأخرجني كذلك ـ واجعل لي من عندك تسلطاً بالحق على العقول بالحجة والبرهان وعلى الملك بالعدل والاحسان ، ينصرني ويؤيدني على كل من يقف في طريق دعوتي اليك وهداية خلقك من جبـابرة البغي أو رؤوس الضلال .

توجيـه :

قدمنا احتمال المصدرية في مدخـل ومخرج لانه أعم والعموم أنسب بـهذا الدعاء الجليـل الذي ليس في ألفـاظه ما يدل على التخصص ولمـا كان الذي يضاف الى الصـدق لا يكون الا حسناً لا عيب فيه ثابتاً لا خلل فيه وصفنا الادخال والاخراج بما وصفناهما به لأن ذلك كله من مقتضى الحسن والكمال والثبوت . ولمـا كان السلطان المطلوب هو من عند الله ولا يكون الا سلطاناً بالحق سواء

أكان في العلم أم في الحكم فسرنا ، بالحجة والبرهان والعدل والاحسان .

ترجيح :

اذا نظرنا الى ما تقدم من قوله تعالى : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا » قيل ان المراد بمدخل الصدق هو المدينة ومخرج الصدق هو مكة وتكون مكة مخرج صدق لأنه يخرج منها على حق ويقين وبصيرة وباذن من الله تعالى وتأييده وتكون المدينة مدخل صدق لذلك كذلك . واذا نظرنا الى عموم اللفظ حملنا الآية على العموم اعتباراً بحكم اللفظ ولا يفوت اعتبار المناسبة لما تقدم فان الخروج من مكة ودخول المدينة يكون مما دخل في العموم دخولاً أولياً فالحمل على العموم – كما رأيت – محصل لاعتبار اللفظ واعتبار المناسبة ولذلك اخترناه .

تطبيق :

كل فرد من أفراد بني الانسان في كل لحظة من لحظات حياته لا ينفك عن المداخل والمخارج فكل ساعة يقضيها من حياته هي مدخل باعتبار دخوله فيها من غيرها ومخرج باعتبار خروجه منها الى سواها . فان قضاها صادق العقد صادق القول ، صادق العمل وفارقها كذلك فهي مدخل صدق ومخرج صدق . وان قضاها وفارقها سيء العقد سيء القول سيء العمل فهي ليست كذلك بل هي مدخل كذب وفجور ومخرج كذب وفجور . فالانسان محتاج في كل لحظة من حياته لتوفيق الله وتأييده ، وحفظه وامداده ، فجاء هذا الدعاء القرآني منبهاً على هذه العقيدة ، مشتملاً على سؤال ما يحتاج اليه الانسان في جميع شؤونه في حياته وأطواره فيه – من ألطاف ربه . ولما كان الانسان في كل لحظة من حياته – لا بد – واجداً معارضاً

وصاداً عن الخير والصدق وقاطعاً في طريق الحق ــ من نفسه وشياطين الانس والجن ــ قرن الدعاء السابق بالدعاء الثاني الذي فيه طلب التأييد من الله بالسلطان المبين ، فالدعاءان ــ على[1] اختصارهما وايجازهما ــ قد جمعا للانسان كل حاجته من تحصيل الخير ودفع الشر فهما من أعظم الأدوية الربّانية للانسان ومن أعظم وسائله الشرعية الى خالقه ، فما أحراهما بأن يلهج بهما في كثير من أوقاته .

استنباط :

اذا علّمنا الله تعالى دعاءً ففي ضمن ذلك التعليم تعليم آخر لنا كيف نعمل ما يناسب ذلك الدعاء وكيف نسلك السلوك الذي هو مظنة الاستجابة ، فلما علّمنا تعالى ــ مثلا ــ كيف ندعوه بقوله : « إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » كان في ذلك إرشاد لنا الى سلوك الطريق المستقيم والاهتداء بأهله والمباينة لغيرهم ، فكذلك هنا لما علمنا كيف ندعوه بالحفظ والتوفيق في المدخل والمخرج كان في ذلك ارشاد لنا الى ما ينبغي لنا أن نكون عليه في مداخلنا ومخارجنا وجميع مصادرنا ومواردنا من تحري ما فيه مرضاته واجتناب ما فيه سخطه ، ولما علمنا كيف ندعوه بالتقوية والتأييد بسلطان من لدنه مبين كان في ذلك ارشاد لنا أن نكون أهل قوة في الأيدي وقوة في البصائر ودفاع عن الحق بما استطعنا من قوة .

سلوك وامتثال :

فعلينا أن لا ندخل في أمر الا على بصيرة به وعلم بحكم الله تعالى فيه ، وان دخوله خير ، وان لا نخرج من أمر الا على بصيرة

---

(1) في الاصل : على ان اختصارهما وايجازهما .

وعلم كذلك ، لا فرق بين أمر وأمر من كبير وصغير وجليل وحقير ونكون — مع بذل غاية ما عندنا من نظر واختيار — معتمدين على ربنا واثقين بحسن اختياره لنا مسلمين له فيما اختاره ، ضارعين له مظهرين فقرنا وحاجتنا في كل حال . وعلينا أن نحصل من الأسباب ما يحصل لنا قوة العلم وقوة العمل لنكون أهلاً للدفاع عن الحق وحزبه ، ومقيمين لسلطان الله في أرضه بالحق والعدل والاحسان . معتمدين — مع تحصيل تلك الأسباب — على الله وحده ومنتظرين منه الفرج والتيسير .

هذان هما الأصلان الأساسيان في سلوك أهل الله : التمسك بالحق ومدافعة الباطل ، فاستمسك بهما تكن — باذن الله — من الفائزين .

مجيء الحق وزهوق الباطل واستجابة دعاء الصادقين :

« وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » (١)

المناسبة :

لما أمر الله تعالى نبيه أن يدعوه بحسن المدخل والمخرج والنصرة والتأييد أمره أن يعلن استجابته لدعوته بمجيء الحق وفي ذلك نصره ، وذهاب الباطل وفي ذلك هلاك أعدائه وذهاب دولتهم . هذا على النظر العام ، وأما على النظر الخاص فانّ الله تعالى بعد ما ذكر أن اعداءه كادوا يستفزونه من الأرض وأمره أن يتوجه الى عبادته ودعائه ذكر في هذه الآية ما كان من نصره على المشركين وفتح مكة عليه وتنكيس الأصنام التي هي باطلهم واعلان كلمة التوحيد

(١) ١٧/٨٢ الاسراء .

الذي هو دينه وهدايته • ولذلك كان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتلو هذه الآية عنـــدما كان يشير الى الأصنام فتسقط الى الأرض •

ففي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ دخل مكة (يعني عام الفتح) وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنهـــا بعود في يده ويقول : **جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبـــدئي الباطل وما يعيد •**

الحق الثابت الذي لا يعتريه زوال الباطل الذي لا ثبات له في نفسه • فالاسلام حق ويشمل كل ما هو طاعة • والشرك والكفر باطل" ومثله كل ما هو معصية • زهقت الروح : خرجت ، وزهق الباطل : ذهب واضمحل • الزهوق : الهالك الذاهب •

التراكيب :

جملة أن البـــاطل كان زهوقاً اطناب بالتذييل ، المخرج اخراج المثل لتأكيـــد منطوق الكلام السابق • وشبه البـــاطل الذي غلب بأدلة الحق فزالت شبهه من الأذهان وطواغيته من الأرض بالحيوان الذي صرع فذبح فزهقت روحه وذهب على طريق المكنية حيث حذف المشبه به ، وهو الحيوان المصروع المذبوح ، وذكر المشبه وهو الباطل المغلوب ، وأشير الى المحذوف بذكر لازمه وهو الزهوق •

المعنـــى :

وقل يا محمد ــ معلنـــاً بما أظهر الله على يدك وما قضى به من نصـــرك وما أجـــاب من دعائك ــ جـــاء الاسلام والتوحيد بأدلته وحججه وقوته وسلطـــانه ، وذهب الكفر والشـــرك فبطلت شبهه • واضمحلت دولته وأصبح الحق غالباً والباطل مغلوباً ، وكذلك كان الباطل شأنه الذهاب والاضمحلال •

صدق وعد الله جلّ جلاله :

نزلت هـذه الآية بمـكة والنبيّ - صلى الله عليه وآلـه وسلم — وأصحـابه رضوان الله تعـالى عليهم يلقون من المشركين ما يلقون ، والمسلمون في ضعف - من العدد — وقـلة ، والمشركون في قـوة وكثرة . فكانت هـذه الآية وعـداً بما سيكون مـن غلبتهم وقـوتهم وكثرة عـددهم فيبطل الشـرك ويذهب سلطانه . وقد صدق الله وعده ففتح عليهم مكة ، وتمت لهـم على المشركين النصرة ، وللاشارة الى انجاز هـذا الوعد وصدق الخبر قرأ النبي — صلى الله عليه وسلم — الآية يوم فتح مكة كما تقدم .

تفصيـل :

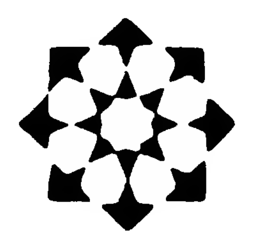
مجيء الحق هو بظهور أدلتـه وقيـام دولته ، وزهوق الباطل هو ببطـلان شبهه وذهاب دولته . فأما القسم الأول فانّ الأمر فيه ما زال ولن يزال كـذلك ولن تزداد على الأيام أدلة الحق الاّ اتضاحاً ، ولن تزداد شبه الباطل الا افتضاحاً . وأما القسم الثاني فانه مرتبط بأحوال أهل الحق وما يكون عليه من تمسك به وقيام فيه ؛ أو اهمال له وقعود عنه فيدال لهم ويدال عليهم بحسب ذلك .

عقيـدة :

يرتبـط قلب المسلم مطمئنا على أن ما هو عليـه من الاسلام حق لا شك فيه وانه يومئذ منصور ما تمسك به وانه اذا خذل فانما جاءه ذلك من ناحية نفسه ، وعلى أن ما عدا الاسلام هو باطل لا شك فيه ، وان صاحبه هالك عند ربه وان ما يكون له من سلطان لم يأته من جهة باطله وانما جاءه من أسباب عمرانية مما يقتضيه الحق وفرط فيه أهله فحرموا ثمرته .

سـلوك :

على أهل الحق أن يكون الحق راسخاً في قلوبهم عقائد ، وجارياً على ألسنتهم كلمات ، وظاهراً على جوارحهم أعمالاً يؤيدون الحق حيثما كان ، وممن كان ، ويخذلون الباطل حيثما كان وممن كان . يقولون كلمة الحق على القريب والبعيد : على الموافق والمخـالف ، ويحكمون بالحق كذلك على الجميع . ويبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل نشره بين الناس وهدايتهم اليـه بدعوة الحق ، وحكمة الحق وأسبابه ووسائله . على ذلك يعيشون وعليه يموتون . فلنجعل هذا السلوك سلوكنا ، وليكن من همنا . فما وفينا منه حمدنا الله تعالى عليه ، وما قصرنا فيه تبنا واستغفرنا ربنا . فمن صدقت عزيمته ووطن على العمل نفسه ــ اعين ويسر للخير . وربك التواب الرحيم[1] .



(١) ش : جـ ٤ ، م ٧ ، ص ٢٢٤ ــ ٢٣١ غرة ذي الحجة ١٣٤٩ هـ ــ افريل ١٩٣١ م .

القرآن شفـاء ورحمة

« وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً »[1] .

المناسبة :

لما جاء في الآية السابقة الاخبار بمجيء الحق ، وفي مجيئه صحة الأرواح والأبدان والأحوال ، وبزهوق الباطل وفي ذهابه ذهاب العلل والأمراض كذلك ــ جاء في هذه الآية بذكر القرآن والاخبار عما جاء فيه من الشفاء والرحمة تنبيهاً على أنه هو الشافي من أمراض الباطل وعلله ، وأنه هو مصدر الحق وحجة ناصره ، ومحصل الرحمة لأتباعه والمتمسكين به .

المفردات :

من : لابتداء الغاية أو للتبعيض ، لأنه نزل مبعضا ، فكل بعض نزل منه فهو شفاء ورحمة . الشفاء : البرء من المرض ، مرض الأبدان أو مرض النفوس . الرحمة : النعمة . الظلم : وضع الشيء في غير محله ، كوضع الكفر موضع الايسان . الخسار : النقص والضياع يكون في الأموال ، يقال خسر ماله اذا ضيعه ، ويكون في النفوس فيقال خسر نفسه اذا ضيعها ولم يستعملها فيما خلقت له من الطاعة والكمال ، ويكون في الدين فيقال خسر دينه اذا ضيعه ولم يعمل به . فخاسر القرآن هو من ضيعه ولم يؤمن به .

---

(١) ٨٢/١٧ الاسراء .

التراكيب :

قرنت جملة (نُنَزِّلُ) بالواو مع أن ما قبلها انشائية وذلك على وجهين : الأول أن تكون معطوفة على جاء الحق ، أي وقل ننزل ، فعطفت الخبرية على الخبرية التي لها محل ، وهو المفعولية بالقول . الثاني : أن تكون الواو للاستئناف وهي في الحقيقة صلة في الكلام لتقويته وقرنت جملة لا يزيد بالواو لأنها معطوفة على جملة الصلة ، وعبر بالمضارع في ننزل ويزيد قصدا لمعنى التجدد لأن الآيات كانت تنزل شيئاً فشيئاً وتنكير شفاء ورحمة للتعظيم . وقدم الشفاء لأنه برء من النقص على الرحمة لأنها حصول الكمال تقديم التخلية على التخلية وآيات القرآن الكريم سبب في حصول الشفاء فجعلت هي شفاء على طريق المبالغة تنبيهاً على تحقق حصوله بها .

المعنى :

وننزل عليك يا محمد بسبب الوقائع والمناسبات آيات من القرآن العظيم ، هي شفاء يستشفي بها المؤمنون ، ونعمة عظيمة أنعمنا بها عليهم ، يؤمنون بها ويحلون حلالها ، ويحرمون حرامها ، ويعملون بما فيها ، فينالون سعادة الدنيا والآخرة . أما الكافرون الظالمون الذين قابلوا بالكفر ما يجب أن يقابل بالايمان وقابلوا بالرد ما يجب أن يقابل بالقبول فان نزول تلك الآيات يكون سبباً في زيادة خسارهم وضياع الخير عليهم . اذ كل آية من تلك الآيات كانت كافية في شفائهم لو استشفوا بها ونزول الرحمة عليهم لو اهتدوا بها الى الاسلام لكنهم يقابلون كل آية بالكفر والجحود فيخسرون في كل مرة كنزاً عظيماً ، وهكذا يزداد خسارهم بقدر كفرهم المتجدد بنزول الآيات.

تنظير :

وصف الله تعالى القرآن بأنه شفاء في مواضع من كتابه منها هذه ،

ومنها قوله تعالى في سورة يونس عليه السلام :

«يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »[1]. ومنها في سورة فصلت .

«قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى »[2] .

وأفادت الآيات كلها أنه شفاء لأهل الإيمان الذين يؤمنون، دون غيرهم فانهم باعراضهم عنه كانوا من الخاسرين ، وجاءت آية يونس بتقييد الشفاء بها في الصدور الذي هو العقائد ، لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القرآن ، وأصل لغيره . فانه اذا شفيت الصدور من عقائد السوء ونزغات الشكوك واعتقدت الحق وارتبطت على اليقين زكت النفوس واستقام سلوك الانسان فرده وجماعاته ، ورقي درجات الكمال ، فلا ينافي ذلك أن القرآن شفاء أيضاً للنفوس من سيء الأخلاق كما هو مقتضى الاطلاق في آية الاسراء هذه وآية فصلت[3] لأن الأخلاق ناشئة عن العقائد ولازمة لها ولأنهما كليهما ــ العقائد والأخلاق ــ لا تكمل النفس الانسانية الا بالشفاء فيهما . ولا ينافي أيضاً حصول الشفاء للأبدان بالقرآن في بعض الاحوال كما هو مقتضى الاطلاق أيضاً ومقتضى ما سيأتي من الآثار ، وان كان هذا ليس هو المقصود بالقصد الأول من شفاء القرآن .

---

(١) ١٠/٥٧ يونس .

(٢) ٣١/٤٤ فصلت . وفي الاصل (السجدة) بدل (فصلت) .

(٣) اصلحنا (السجدة) .

تقسيم :

الأمراض الانسانية قسمان أمراض أرواح وأمـراض أبدان ، وكلاهمـا أنواع • وأمـراض الأرواح المقصـودة بالذات هنـا ترجع الى نوعين : مرض العقول ومرض النفـوس ، فالأول بجمود النظر وفساد الادراك وتقليد الآباء واعتقاد الباطل والشك في الحق • والثاني بفساد الأخلاق وانحطاط الصفات • أما الأعمال فهي تابعة لهما فتصلح بصلاحهما وتفسد بفسادهما ، والقرآن قد جاء داعياً الى النظر والتفكر والاعتبار والتدبّر ، مبيناً ــ بما ساق من حجج الله وحجج رسله ــ الطريق الأقوم في الادراك الصحيح • والسبيل الأشد في الفهم والتفهيم ناعياً على المقلدين تقليدهم ، كاشفاً لأهل البـاطل عن باطلهم ، ذاكراً من قواطع البراهين البينة الواضحة ما لا يبقى معه خفاء في الحق ولا ريب • وجاء أيضاً مبيناً للأخلاق الفاسدة وذاكراً سوء أثرها وقبح مغبتها ، مبيناً كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها وحسن عاقبتها فهذا شفاؤه للنفوس والعقول • وهو راجع الى تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق وبهما سلامة الأرواح وكمالهـا وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها • على أن القـرآن هو شفاء للاجتماع البشري كما هو شفاء لأفراده فقد شرع من أصول العـدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس ما فيه العلاج والدواء الشافي لأمراض المجتمع الانساني مع جميع أمراضه وعلله • شفاء العقائد والأخلاق ــ وهما أساس الأعمال ــ والمجتمع • هذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها وبيان ما هو شفاء لها • ولا شفاء لها الا بالقرآن ــ وبيان النبي راجع الى القرآن ــ ومن طلب شفاءها في غير القرآن فانه لا يزيدها الا مرضا ، فهذه الأمم الغربية بسجونها ومشانقهـا ومحاكمها وقوتها قد امتلأت بالجنايات والفضائح المنكرة التي تقشعر منها الأبدان ، وهذه الممالك الاسلامية التي تقيم الحدود القرآنيـة

كالمملكة النجدية الحجازية والمملكة اليمنية قد ضرب الأمن رواقه عليهما واستقرت السكينة فيها دون سجون ولا مشانق مثل أولئك ، وما ذلك الا لأنهم داووا الملك بدواء القرآن فكان الشفاء التام •

وأما الأمراض البدنية فقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : **(ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء)** رواه البخاري من طريق أبي هريرة وقال : **(لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله تعالى)** رواه مسلم من طريق جابر ، وثبت عنه أنه داوى وتداوى ، وروى الأئمة من ذلك عنه الكثير الطيب في كتاب الطب من صحيح البخاري وغيره • وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه استشفى واسترقى ببعض آيات القرآن العظيم ، وأقر على ذلك من فعله من أصحابه • روى البخاري من طريق يونس عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا أوى الى فراشه نفث في كفيه بـ : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » وبالمعوذتين جميعاً ، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده • قالت عائشة : فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به • قال يونس : كنت أرى ابن شهاب يصنع ذلك اذا أتى الى فراشه » وروى الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : (انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء ، فأتوهم فقالوا : يا أيها الرهط ان سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه ، فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم : نعم والله ، اني لارقي ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه

ويقرأ : الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ ، فكأنما أنشط [١] من عقال[٢]. فانطلق يمشي وما به قلبة [٣] . قال : فأوفهم جعلهم الذي صالحوهم عليه ، فقال بعضهم اقسموا فقال الذي رقي لا تفعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا له فقال وما يدريك [٤] انها رقية . ثم قال : قد أصبتم ، اقسموا واضربوا لي معكم سهما ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فثبت بهذين الحديثين ان في القرآن شفاء للأبدان ، وحصل عندنا من جميع ما تقدم انه شفاء للأرواح والأبدان للأفراد والمجتمع .

مداواة الابدان ، بالطب والقرآن :

ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم الأمر بالتداوي قولا وعملا ، وثبت عنه الاستشفاء بالقرآن ، ولا منافاة بينهما ، فان الانسان مركب من روح من عالم النور وجسم من عالم المادة المركبة . فمن الحكمة الالهية أن شرع الله لنا عند الأمراض على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الجمع بين الأدوية المادية التي هي المناسبة للبدن والآيات القرآنية التي هي المناسبة للروح مع ما في الأدوية القرآنية من اطمئنان القلب بالله وقوته به وانتعاشه بذكره وفي ذلك من تقوية الروح ونعيمها ما يهون عليها ألم المرض ويغلبها باذن الله تعالى عليه . ومثل الآيات القرآنية في ذلك كل ما ثبت من الرقي النبوية المأثورة .

---

(١) حل . .

(٢) حبل يشد به ذراع البهيمة .

(٣) بحركات ، اي علة .

(٤) تعجب من وقوفه على انها رقية واصابته في ذلك .

تحـذير :

فرط قوم فأهملوا الاستشفاء بالذكر المأثور واقتصروا على الدواء المادي فحَرموا أنفسهم من خير كثير اذا لم يكونوا له كالمنكرين ، وأفرط آخرون فاهملوا الدواء المادي وزهدوا الناس فيه وتزيدوا في جانب المأثور حتى خرجوا عنه واتخذوا لهم من ذلك حرفة وموردا للمعـاش ونسوا أنواع أشفية القرآن الروحية والاجتماعية التي هي المقصودة بالقصد الأول من تنزيله ، مقتصرين على الوجه الذي وجدوا منه سبيلا الى الاسترزاق على ما احدثوا فيه وما ابتدعواه فعكسوا الأمر وخالفوا السنة ووقعوا في المحظور من عدة وجوه . هذان الطرفان مذمومان . والعدل هو الوسط الذي لا يهمل هذا ولا ذاك ويقف في الوارد عندما ورد ويتناوله على ما ورد .

تطبيق :

نزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين لأن الوصف المذموم سواء أكان المتصف به مؤمناً أم كان كافرا . فالذين تتلى عليهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتوضح لهم الدلائل الشرعية وهم عنها معرضون وعن تدبرها غافلون وبها متهاونون ـ يزدادون بكل مرة اثماً بأعراضهم وغفلتهم وتهاونهم فيخسرون بقدر ما بقوتهم من الهداية على حسب حالهم ، واذا لم يكن خسارهم كخسار الكافرين فهو كخسار المعرضين الغـافلين المتهاونـين ، وكفى به خسارا يتنزه عنه المؤمنون ويأباه الراشدون .

سـلوك :

تتناول القرآن العظيم دواء من عند ربنا شفاء لأمراض عقولنا ، وأمراض نفوسنا ، وأمراض مجتمعنا ، فنتطلب ذلك منه بتدبر آياته

وتفهم اشاراته ووجوه دلالاته ، وشفاء أيضا لابداننا فنفعل كما كان يفعل النبي صلىاللهعليهوسلم اذا أوى الى فراشه على ما تقدم في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها . وعلى ما جاء من نحو ذلك مما ثبت عنه عليه وآله الصلاة والسلام وانتهى اليه علمنا . غير مقصرين ولا غالين وعلى ربنا متوكلين ، سائلين أن يشفينا بالقرآن الكريم أجمعين آمين يا رب العالمين [1] .



(١) ش : ج ٥ م ٧ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٥ .
محرم ١٣٥٠ ـ ماي ١٩٣١

صفتان من صفات النوع الانساني

الاعراض من النعمة ـ والياس من الرحمة

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ... » (١) .

تمهيــــد :

في النوع الانساني غرائز غالبة عليه لا يسلم منها الاّ من عصم الله أو وفق الى الايمان والعمل الصالح ؛ وفي آيات القرآن العظيم بيان الكثير من تلك الغرائز للتحذير من شرها والتنبيه على سوء مغبتها ؛ منها هذه الآية الكريمة .

المنـاسبة :

لما ذكر الله ـ تعالى ـ أن القرآن يكون شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الاّ خسارا ، بيّن تعالى سبب خسار أولئك الظالمين ، وهو اعراضهم عن الله وبعدهم منه وبأسهم من رحمته . وعلم منه أن المؤمنين الذين كان القرآن لهم شفاء ورحمة هم على الضدّ منهم ، فهم أهل اقبال على الله ـ تعالى ـ وقرب منه ورجاء فيه .

المفردات :

(أَنْعَمْنَا) : أوصلنا أنواع الاحسان . (الانسان) : المراد به النوع باعتبار مجموعه ، فلا ينافي خروج أفراد كثيرين بالعصمةوالتوفيق

---

(١) ١٧/٨٣ ـ ٨٤ الاسراء .

(أعرض) : صد بوجهه الى ناحية أخرى ، فأرى عرض وجهه ، أي ناحية وجهه • (نئا) : بعد • (بجانبه) : بناحيته ، بشقه الأيمن أو الأيسر ، والباء للتعدية ، أي أبعد جانبه • (مسه) : أصابه • (الشر) : البلايا والرزايا بأنواعها • (يئوسا) شديد اليئوس والقنوط وعدم انتظار الفرج •

التركيب :

جيىء بفعل الشرط وجوابه ماضين لتحقق وقوعهما ، ولذلك كان التعليق باذا ، وجواب الشرط والفعل والمعطوف عليه فيهما الصورة التامة للمعرض غاية الاعراض ، فانه يصرف عنك وجهه ، وهذا مفاد الفعل الأول • ويلوي عنك عطفه ويعد جانبه ويوليك ظهره ، وهذا مفاد الفعل الثاني • ثم هما كناية عن الاستكبار وعدم الاكتراث والالتفات الى مولى النعم ، سواء حصلت هذه الصورة بالفعل أو لم تحصل •

المعنى :

واذا أنعمنا على الانسان أعرض تمام الاعراض اما بعدم قبول تلك النعمة استكبارا أو تهاونا ، كما يكون من الذين يكفرون بالقرآن أو يخالفونه ، وهو من أعظم نعم الله عليهم ، واما بعدم القيام بحق الله في تلك النعمة وعدم شكره عليها ، كنعمة العقل والبدن والحال وغيرها اذا لم تستعمل في طاعة الله ولم يقم بحقه فيها • واذا مس الانسان الشر ونزلت به المصائب وحلت به النوائب استولى عليه اليأس والقنوط وانسدت في وجهه أبواب الرجاء •

توجيه :

يرتبط اليئوس من رحمة الله بالاعراض عن نعمته من جهتين : الأول أن من أعرض عن نعمة الله فقد قطع صلته بخالقه وذهب ممعنا في

بعده فاذا نزلت به المصيبة كان كالمنقطع به في البيداء يجد نفسه وحده فيأخذه اليأس والقنوط من كل جانب ، الثانية أن الاعراض عن النعمة ترك لها ولموليها ، والآيس متروك لوحده مغضوب عليه قد ترك فترك وكان جزاؤه من جنس عمله •

انتقال واعتبار :

هذه حالة أهل الاعراض ، أما أهل الاقبال على الله تعالى والقبول لانعامه فان قلوبهم عامرة بالله وصلتهم متينة به ، فاذا نزلت بهم المصائب رجعوا اليه وانتظروا رحمته ، فكان ذكره غناهم في الفقر وانسهم في الوحشة ، ونعيمهم في الألم • وكان لهم من الرجاء في أنواع رحمته ما يهون عليهم جميع المصائب •

تبصير وتحذير :

بصّرنا القرآن في هذين الوصفين الذميمين الاعراض عن النعمة ، واليؤس من الرحمة ، ونحن نراهما فاشيين في أكثر الناس على تفاوت بينهم على حسب ما عندهم من ايمان وعمل صالح • بصّرنا القرآن بهما ليحذرنا منهما ومن سوء عواقبهما ، فان الاعراض عن النعمة كفر بها ومقتض لسلبها،وأن اليئوس من رحمة الله جهل به وكفر بما هومتقلب فيه من نعمه وموجب لانطماس القلب وشلل البدن وانقطاع الأعمال • فليحذر المؤمن من هذين الوصفين الذميمين وليعمل على اجتنابهما واجتثاثهما من أصلهما •

سلوك :

على المرء أن يقبل نعم الله تعالى ويقبل عليها اقبال المستعظم لها ، العارف بحقها وعظيم الفضل بها ، ليقوم بشكرها وذكر الله عندها ، وليتفحصهما وليتأملها نعمة نعمة ، ليشكر الله عليها واحدة واحدة ، بالقلب واللسان ، والا كان حسب المستطاع حتى ما يكون من باب

المصائب والآلام فانه يتناوله على أنه نعمة من الله تعالى بها فيه من أجر وتمحيص ، وما يحصل به من رجوع وانابة ، وما يكون منه من تربية وتدريب على السلوك اللازم في الحياة الفردية والاجتماعية :

« وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » (١) .

وليكن دائماً متمسكاً بحبل الرجاء في الله في تسيير الأسباب وكشف الكروب ودفع المكروه ، فالرجاء حسن ظن في الرب وقوة في القلب وباعث على العمل ومخفف أو مذهب للألم . فياله من طاعة عظيم أجرها جليل نفعها في الدنيا والدين ، فهنيئاً للشاكرين الراجين ، ويا ويح الكافرين — كفر عقيدة أو كفر نعمة — القانطين .

مباينة سلوك اهل الحق لسلوك اهل الباطل :

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْدَى سَبِيلاً »(٢) .

المناسبة :

قد استفيد مما تقدم تقسيم الخلق الى قسمين : أهل ايمان ورجاء ، وأهل كفر وقنوط ، فجاء البيان في هذه الآية بأن كل فريق له مذهبه وطريقه الذي يكون عليه .

المفردات :

(شاكلته) : طريقته ومذهبه . المشاكلة له اللائقة به التي صارت له طبيعة وخلقا . (أهدى سبيلا) : أسد مذهباً وأقوم طريقا .

(١) ٤٢/٣٠ الشورى .

(٢) ١٧/٨٤ الاسراء .

التراكيب :

التعبير بالمضارع مع لفظة على يفيد تجدد العمل وانبناؤه على الخلق والطبيعة .

المعنى :

قل يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كل فريق منا ومنكم يعمل في حياته على طريقته ومذهبه . فأعمالنا مباينة لأعمالكم لأن طريقتنا مباينة لطريقتكم فربكم أعلم بمن هو أقوم طريقا وأسد مذهبا ، فيثبت المهتدين ويعاقب الضالين .

ومن فوائد الآية الكريمة استدراج الضال لقبول الهداية .

وذلك بمناصفته بأنك على ناحيتك وهو على ناحيته ، واظهار التساوي معه أمام علم الله وقدرته ، وهذا من أنفع الأسباب في نجاح الدعوة،وعليه في القرآن آيات كثيرة منها سورة : « قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ »[1]. فينبغي لدعاة الحق أن يلتزموه ولا يهملوه . والبراءة من أهل الباطل . وذلك باعلان المباينة والمخالفة لهم في عملهم وما انبنى عليه عملهم بأسلوب المناصفة الذي جاءت به الآية فتحصل البراءة مع الفائدة المتقدمة .

انبناء الاعمال على العقائد والاخلاق فان الآية ، وان كانت بالخطاب الأول للمشركين ثم لامثالهم من الكافرين فانها تفيد أن كل واحد تبنى أعماله على مذهبه وطريقته التي هي خلقه وطبيعته ، ونأخذ من هذا أن الذي نوجه اليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الاخلاق ، فالباطن أساس الظاهر . وفي الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله فعل

(١) ١٠٩/١ الكافرون .

المؤمن ما يناسب ايمانه : فان كل أحد يعمل على طريقته وطبيعته اللائقة به ، ولا يليق بالمؤمن ولا يشاكله الا الصدق في القول والعمل والعدل والاحسان والوفاء والامانة ، فلا يظلم من ظلمه ولا يخون من خانه ولا يكذب على من كذب عليه ، فلا تجرى أفعاله في مقابلة الناقص على ما يشاكل ذلك الناقص ، بل تجرى أفعاله على ما يشاكله هو في ايمانه وكماله .

مراقبة الله في السلوك :

فان علمنا بأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلا يدعونا الى المبالغة في تقويم سلوكنا حتى نكون على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ، فانه هو أهدى الطرق وأقربها ، وما ذلك الصراط المستقيم الا القرآن العظيم والهدى النبوي الكريم وسلوك السلف الصالح ، وذلك هو دين الاسلام .

نسأل الله تعالى أنْ لنا ولجميع المسلمين الاستقامة والنجاة يوم القيامة بمنه وكرمه آمين[1] .

● ●

(١) ش : ج ٧ م ٧ ص ٤٢٣ ـ ٤٢٨
ربيع الاول ١٣٥٠ ـ جويليه ١٩٣١

الود من اكرام الله لأولياء الله

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » (١) .

سبب النزول ، ووعد السابقين :

كان السابقون الأولون من المؤمنين أول الاسلام بمكة ــ مبغوضين من أهل مكة المشركين مهجورين منهم مزهودا فيهم . ومن أشد الآلام على النفس واشقها أن يعيش الانسان بين قومه مبغوضا مهجورا مزهودا فيه ، خصوصا مثل تلك النفوس الحية الأبية . فأنزل الله هذه الآية تأنيسا لأولئك السادة ووعدا لهم بأن تلك الحالة لا تدوم ، وأنه سيجعل لهم ودا فيصيرون محبوبين مرغوبا فيهم . وقد حقق الله وعده فكان أولئك النفر بعد السادة المقدمين من أقوامهم وعشائرهم لسبقهم وفضلهم وكانوا ــ وهم قادة الجيوش في الفتوحات الاسلامية ــ المحبوبين هم وجيوشهم المرغوب فيهم من الأمم التي فتحوها لعدلهم ورحمتهم ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوي الذي كانت تئن تحته تلك الأمم ، وأثبت التاريخ أن بعض الأمم الأجنبية دعتهم الى انقاذها من أيدي رؤسائها . فكانت هذه الآية من آيات الاعجاز بالاعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال فكان على وفق ما قال .

عموم الوعد لعموم اللفظ :

الايمان ــ وهو التصديق الصادق المثمر للاعمال ــ والاعمال

---

(١) ١٩/٩٦ مريم .

الصالحة ـ وهي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الايمان ـ هما اللذان جعلهما الله سببا في تحقيق جعل هذا الود لما قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » .

فيعم ذلك كل أهل الايمان والعمل الصالح . وهم أولياء الله و (ان أولياؤه الا المتقون) .

سبب الود وسبب الجعل :

تكسب مودة الناس بأسباب متعارفة بينهم ، منها القربة ومنها الصداقة ، ومنها صنائع المعروف ومآثر الاحسان . أما هذا الود الذي وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات فسببه جعل من الله له في قلوب العباد لهم دون تودد منهم ولا توقف على تلك الاسباب فيودهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة ولا وصل اليه منهم معروف فهذا نوع من الود خاص يكرمهم الله به وينعم عليهم به الرحمن من جملة نعمه التي يحدثها ويجددها لهم زيادة على ما يقتضيه الايمان والعمل الصالح ـ ومنه الاحسان ـ من مودة القلوب . أما سبب هذا الجعل والوضع والايجاد من الله لهذا الود والاكرام به فهو الايمان والعمل الصالح ، وهما سبب لإكرامات كثيرة من الله تعالى . هذا الجعل للود منها .

بشارة وتثبيت :

في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق وأنصار السنةومرشدي الأمم عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائرهم ويلقون منهم النفور والاعراض والبغض والانكار ويجدون أنفسهم غرباء بينهم ، يعاديهم من كانوا أحبابهم ويقاطعهم أقرب الناس قرابة اليهم ، ويصبح يؤذيهم

من كان يحميهم ويدافع عنهم ـ في الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم وأنهم سيكون لهم على كلمة الحق مؤيدون وفي الله محبون ، وسيكون لهم ود في القلوب ممن يعرفون وممن لا يعرفون . وفيها أيضا تثبيت لهم في تلك الغربة ووحشة الانفراد بما يكون لهم من أنس الود وأي ود هو . ود يكون من جعل الرحمن .

دفـع اشـكال :

الآية منظور فيها الى مجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات وغالبهم ، فلا يشكل علينا أن منهم من يموت في غربة الحق قبل أن يكون له على الحق انصاره ، ومنهم من يموت غير معروف من الناس . كما أن الود الذي يجعل لهم غير منظور فيه للعموم فلا يشكل ببغض من يبغضهم تعصبا لهوى أو تقليدا لضال أو حرصا على منفعة ومحافظة على جاه أو منصب أو مال .

تفسـير نبوي :

قال رسول الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم : **(ان الله اذا أحب عبد دعا جبريل فقال اني أحب فلانا فاحبه . فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء : ان الله يحب فلانا فاحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الارض . واذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول اني ابغض فلانا فابغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي (جبريل) في أهل السماء ان الله يبغض فـلانا فابغضوه فيبغضونـه ثم توضع له البغضاء في الارض)** رواه بهـذا اللفظ مسلم ورواه البخاري وغيرهما . وزاد الطبراني : **(ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) :**

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا »

فارتبط الحديث بالآية بزيادة الطبراني . وبين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

بقراءة الآية ان هذا القبول الذي يجعل لمن أحبه الله في أهل الارض — والمراد بهم من يعرفونه منهم — هو نوع الود المذكور في الآية ، وبين أن أهل القبول في الأرض محبوبون في أهل السماء قبل أهل الارض ، وبين أن سبب ذلك القبول هو محبة الله لهم ، فمن أحبهم حببهم لعباده .
ولما كان سبب القبول محبة الله لهم بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم ان بغض الله سبب في بغض الخلق لهم اذا ما تسبب عن أحد الضدين يتسبب عن الآخر ضده . ولما كانت محبة الله مسببة عن الايمان والعمل الصالح فبغض الله مسبب عن ضدهما ، اذ ما تسبب عنه أحد الضدين يتسبب عن ضده الضد الآخر . وكما كان ذلك الود والقبول يكون شيئاً زائداً على ما تقتضيه أسباب الود بين الناس ، كذلك تكون هذه البغضاء التي يهين الله بها ويعاقب من يشاء زيادة على ما تقتضيه أسباب البغضاء بينهم ، فيكون هذا الذي وضعت له البغضاء — والعياذ بالله — مبغوضاً حتى ممن لم يكن منه اليه شيء من أسباب البغض .

تبيـين وتعيـين :

قد يكون الاتباع والمحبون والراغبون لأهل الحق ولأهل الباطل لأئمة الهدى ولرؤوس الضلال لدعاة الاتباع ولدعاة الابتداع . ولكن أهل المحبة من الله والود والقبول من العباد هم أهل الحق وأئمة الهدى ودعاة الاتباع للكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالحون ، لا لانفسهم والتحزب لهم وجلب النفع لهم ، والذي يعينهم لهذه الكرامة دون غيرهم هو اتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم في سيرته ودعوته . وما كانت دعوته الا للقرآن وبالقرآن دون أن يسأل على ذلك من أجر . وهذا لأن الود والقبول عند العباد مسببان عن محبة الله للعبد ، ومحبة الله لا تكون الا للمتبعين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعـالى :

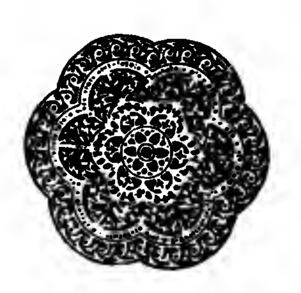
« قُلْ إنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ »(١) .

فكرامة الود والقبول انما هي للمتبعين له ـ صلى الله عليه وآله وسلم – فاما غيرهم فما يكون لهم من قبول عند أمثالهم فهو فتنة وبلاء عليهم .

ارشـــاد :

أفادت الآية الكريمة والحديث الشريف أن على المسلم أن يتمسك بالايمان والعمل الصالح والاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم ولو كان في قوم انفرد بينهم بذلك وحده . ولا يستوحش من انفراده بينهم . فحسبه رضى الله ومحبته وكفى بهما انسا وليثق بانه ـ ان صدق ـ ومد الله في عمره يكون له ود وقبول في عباد الله وأنس بمن يحبهم ويحبونه لله وتلك المحبة النافعة الدائمة والصلة المتينة الجامعة التي تجمع بين أهلها في الدنيا والآخرة .

جعلنا الله والمسلمين من العاملين له المتحابين فيه (٢) .



(١) ٣/٣١ آل عمران .

(٢) ش : ج ٤ م ١١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٣
ربيع الثاني ١٣٥٤ ـ ٣ جويلية ١٩٣٥

مــن آداب المتعــلم

حسن التلقي وطلب المزيــد

« وَلاَ تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [1] .

لا حياة الا بالعلم ، وانما العلم بالتعلم ، فلن يكون عالمًا الا من كان متعلماً ، كما لن يصلح معلماً الا من قد كان متعلما . ومحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي بعثه الله معلما ، كان أيضا متعلما . علمه الله بلسان جبريل ، فكان متعلماً عن رب العالمين ثم كان معلماً للناس أجمعين . أرأيت أصل العلم ومن معلموه ومتعلموه ؟ ثم أرأيت شرف رتبة التعلم والتعليم . لا جرم كان لرتبة التعلم آدابها ولرتبة التعليم آدابها . وكان محمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق في آدابهما بما أدبه الله وأنزل عليه من الآيات فيهما ، مثل آيتنا اليوم وغيرهــا .

لزوم الصمت عند السماع :

كان النبي صلى الله عليه وسلم اذ أنزل عليه جبريل ـــ عليه‌السلام ـــ بالوحي وقرأه عليه قرأ معه وساوقه في القراءة وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم لحرصه على حفظه وعدم نسيانه ، حتى يبلغه كما أنزل عليه . ولأن تعلق قلبه بما يسمع من جبريل وامتلاءه به واستيلاء ذلك المسموع على لبه يــدعوه الى النطق به لما بــين القلب واللســان

(١) ٢٠/١١٤ طه .

من الارتباط ، ولان شوقه الى ذلك المسموع ومحبته ورغبته فيه تبعثه على التعجيل بقراءته ، غير ان القراءة عند السماع وقبل تمام الالقاء تمنع تمام الوعي ، لان عمل اللسان بالنطق يضعف عمل القلب بالوعي والحفظ ، فلذا أوصى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يعجل بقراءة القرآن عند سماعه من جبريل من قبل أن يقضي ويتمم اليه وحيه فقال تعالى :

«وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ»

تاكيد الصمت بكف اللسان :

لا يتم تفرغ القلب للوعي الا بسكون اللسان فلا يكفي في تفرغه ترك القراءة الجهرية عند السماع حتى ينكف اللسان عن الحركة فلا تكون قراءة لا جهرا ولا سرا فلذا أكد الله تعالى طلب ترك القراءة بالنهي عن تحريك اللسان فقال تعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ »[1] ثم بيّن ان الله يجمعه في قلبه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بالحفظ وانه يطلق بقراءته لسانه بقوله : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ »[2] أي قراءتك إياه ، ثم أمره أن يتبع قراءة جبريل اذا قرأه عليه فيقرأه كما قرأه بعد فراغه بقوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »[3] أي فاذا قرأه جبريل وفرغ منه فاتبع قراءته فاقرأ كما قرأه . وانه تعالى يبينه بأقوال نبيه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وأفعاله بقوله : « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ »[4]

---

(١) ١٦/٧٥ القيامة .

(٢) ١٧/٧٥ القيامة .

(٣) ١٨/٧٥ القيامة .

(٤) ١٩/٧٥ القيامة .

هذا الادب ادب عام :

انما المقصود من الكلام البيان عن المراد ، وانما المقصود من السماع وعي الكلام ليفهم المراد . فكما كان على المتعلم أن يسكت حتى يفرغ معلمه من القدر المرتبط بعضه ببعض مما يلقيه اليه حتى يفرغ المعلم من القائه كذلك على المناظر أن يستمع لمناظره حتى يستوفي دعواه وحجته ، وعلى كل قارىء لكتاب أن يستوفي ما يرتبط بعضه ببعض منه ، ثم يبدي رأيه فيه وعلى كل مستمع لمتكلم كذلك فبهذا الأدب يتم وعي المتعلم فيحفظ وفهم المناظر فيرد ويقبل وفهم القارىء فيعرف ما يأخذ ويترك وفهم السامع لتحصل فائدة الاستماع ، وبترك هذا الأدب كثيراً ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم وفوات القصد من المناظرة أو القراءة أو الكلام .

دوام التعلم للازدياد من العلم :

يتعلم الانسان حتى يصير عالما ويصير معلما ، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه ، ومهما قضى من حياته في التعليم وتوسع فيه وتكمل به فلن يزال بحاجته الى العلم ولن تزال أمامه فيما علمه ، وعلمه أشياء مجهولة يحتاج اليها فعليه أبداً أن يتعلم وان يطلب المزيد . ولذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو المعلم الاعظم ـ أن يطلب من الله ـ وهو الذي علمه ما لم يكن يعلم ـ أن يزيده علما فقال :

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » .

تحذير واقتداء :

ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصلوا من علم عن العلم فوقف بهم عندما انتهوا اليه فجمدوا وأكسبهم الغرور بما عندهم فتعظموا وتكلموا فيما لم يعلموا فضلوا وأضلوا وكانوا على أنفسهم وعلى الناس شر فتنة وأعظم بلاء فبمثل هذه الآية الكريمة يداوي نفسه من ابتلى

بهذا المرض فيقلع عن جموده وغروره ويزداد مما ليس عنده ممن عنده علم ما لم يعلم • ويحذر من ان يقف عن طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة ، ويقتدي بهذا النبي الكريم – صلى الله عليه وآله وسلم – فلن يزال يطلب من الله تعالى أن يزيده علما بما ييسر له من أسباب وما يفتح له من خزائن رحمته وما يلقيه في قلبه من نور وما يجعل له من فرقان وما يوفقه اليه من أصل ذلك كله وهو تقوى الله والعمل بما عليه•

نسأل الله لنا وللمسلمين العلم النافع والعمل الصالح • فهو ولي الهداية والتوفيق[1] •



(١) ش: ج ٥ م ١١ ص ٢٧٥ – ٢٧٨
جمادى الاولى ١٣٥٤ – أوت ١٩٣٥

من وعـد الله للصالحـين

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ »[1] •

المنـاسبة :

لما مضى في السورة ذكر الأنبياء عليهـم السلام وأممهم وختـم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربهـا ومقدماتها وأحوال الخلق يوم القيامة ـــ جاء في هذه الآية ذكر الأمة التي جاءت بعد تلك الأمم كلها ، وهي أمة محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ •

توجيـه :

وانما كانت هذه الآية في أمة محمد ، لأنه لما تكلم على الأمم الخالية لم يبق الكلام إلاَّ عليهـا ، فخوطبت بما قضاه الله وكتبـه من ارث الصالحين الأرض • والمخاطبون بهـذه الآية المكية هم المؤمنون بالله الموحدون له المتبعون لرسوله محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ المصدق لجميع الرسل عليهم السلام ، وهم أصحاب النبي ـــ صلى الله عليـه وسلم ـــ وهم الصالحون الموجودون يوم ذلك على وجـه الأرض ، فكانت الآية اعلاما بما كتبه الله لهم ووعدا بارثهم الأرض •

الألفـاظ :

(الزبور) : بمعنى المزبور ، أي المكتوب • والمراد به جنس ما أنزله

---

(١) ٢١/١٠٥ الانبياء •

الله من الوحي على رسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر بكتابته .
وقرأ حمزة : الزبور جمع زبر ، أي كتاب فعيّنت هذه القراءة المراد بالزبور في القراءة الأولى الكتب المنزلة ، لا خصوص زبور داوود عليه السلام .

الذكر : المراد به هنا اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء قبل أن يخلق الخلق ، وجاء تسميته بالذكر فيما رواه البخاري في مواضع من صحيحه عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر شيء وخلق السموات والارض** ومما كتبه في الذكر ما أنزله على رسله عليهم السلام كما قال تعالى :

« بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » .

الارض : جنس الأرض الدنيوية ، لأن هذا اللفظ موضوع لها ، فاذا أطلق انصرف اليها ، وبهذا فسرها ابن عباس من طريق علي ابن طلحة ، وهي أصح طرقه .

يرثها : تنتقل اليهم من يد غيرهم ، وأصل الارث الانتقال من سالف الى خالف ، وقد يطلق في غير هذا الموضع على أصل التمليك مجازا .

الصالحون : الصالح من كل شيء هو ما استقام نظامه فحصلت منفعته ، وضده الفاسد وهو ما اختل نظامه فبطلت منفعته . ويظهر هذا من تتبع مواقع الاستعمال فاذا قالوا هذه آلة صالحة عنوانها محصلة للمنفعة المرادة منها لانتظام أجزائها ، واذا قالوا آلة فاسدة عنوانها لا تحصل المنفعة لاختلال في تركيبها . والصالح في لسان الشرع ـ قرآنا وسنة ـ لم يخرج عن هذا المعنى حيثما جاء . فالصالح

(٢) ٨٥/٢١ ـ ٢٢ البروج .

هو من استنار قلبه بالايمان والعقائد الحقة ، وزكت نفسه بالفضيلة والاخلاق الحميدة ، واستقامت أعماله وطابت أقواله ، فكان مصدر خير ونفع لنفسه وللناس . استقام نظامه في عقده وخلقه وقوله وعمله ، فعظمت وزكت منفعته ، وهذا هو معنى الصالحين حيثما جاء كما في قوله تعالى : « وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » وكما في التشهد : « السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ » وقد بين القرآن من هم الصالحون بياناً شافياً وكافياً بذكر صفاتهم مثل قوله تعالى : « مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ »[1] .

المعنى :

يخبرنا الله تعالى أنه كتب في الكتب التي أنزلها على رسوله من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ الذي هو أصل تلك الكتب أن الارض يرثها ويملكها عباده الصالحون أهل العقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة والأعمال المستقيمة الذين ينفعون العباد والبلاد .

تطبيق :

خاطب الله بهذه الآية المؤمنين بمكة وهم في قلة عدد وعدد يعدهم بذلك — لا بطريق صريح — أنهم يرثون الأرض ويكون لهم فيها القوة والنفوذ . ويبعثهم بتعليق الوعد بوصف الصلاح على التمسك به والازدياد منه والاستمرار عليه ، ثم صرح لهم بالوعد بعد في سورة النور وهي مدنية بقوله تعالى : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

---

(١) ٣/١١٣ — ١١٤ آل عمران .

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ »[1] .

وقد حقق الله لهم هذا الوعد ففتح لهم الفتوح وأورثهم ملك كسرى وقيصر ومد لهم ملكهم في الشرق والغرب ، وأولئك الذين كانوا في قلة وخوف يوم نزلت الآية المكية هم الذين شاهدوا ذلك النصر وتلك الفتوح وترأسوا ذلك الملك العريض .

تعميم وتقييد :

علق الوعد بالوصف ، وهو الصلاح ، ليعلم أنه وعد عام ، ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حظها ــ ولا محالة ــ من هذا الوعد . واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضاً تقييده بأهله ، فاذا زال وصف الصلاح من أمة زال من يدها ما ورثت . ونظير هذا التقييد قوله في آية النور :

« يَعْبُدُونَنِي وَلَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ » .

تنظير :

مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوي به قلوبهم ويثبت ايمانهم ويظهر به صدق نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما أعلمه به من غيب ــ أحاديث صحيحة[2] . كقول النبي ــ صلى الله

(١) ٢٤/٥٥ النور .

(٢) البخاري في باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من المشركين .

عليه وسلم ــ لخباب رضي الله عنه وقد لقي الصحابة من المشركين شدة فسأله أن يدعو فقال له النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : **لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق راسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هـذا الأمر حتي يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف الا الله** • وكقوله[1] ــ صلى الله عليه وسلم ــ لعدي بن حاتم : **(فان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف الا الله ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى)** وقد امتدت به الحياة حتى رأى ذلك ومثل هذا أحاديث أخرى في الصحيح • فقد تطابقت الآيات والأحاديث في هـذا الوعد وقد صدق الله وعده لعباده الصالحين • وصدق نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما لم يكن يعلمه أحد ولا يرى شيئاً من أسبابه بل لا يرى الا ما هو مناف له • ولكن العاقبة للمتقين •

اشكال وحله :

قال أناس ان أرض الدنيا كما يستولي عليها الصالحون يستولي عليها غيرهم ، والأرض التي لا يرثها الا الصالحون هي أرض الجنة ، فيجب تأويل الآية بها •

والجواب : ان هذا التأويل انما يحتاج اليه ان لو كانت الآية هكذا (ان الارض لا يرثها الا عبادي الصالحون) بطريق الحصر فيهم • اما لما كانت الآية لا حصر فيها فلا حاجة الى هذا التأويل بل في لفظ الارث وربطه بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم ، فانتقلت اليهم ، وانها تزول مع زوال وصف الصلاح • وقد جاء التنبيه على أن الارض يرثها الصالحون وغيرهم في قوله تعالى : « إِنَّ الأَرْضَ للهِ

(١) البخاري في باب علامات النبوة في الاسلام .

يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »[1]
فيرثها الصالحون نعمة ويرثها غيرهم فتنة ونقمة كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير .

ايراد وجوابه :

قد يقال : فما هي الفائدة اذاً في تخصيص الصالحين بالذكر في هذه الآية ؟ والجواب :

١ – ان هذه الآية خوطب بها أول الناس الصحابة بمكة ، وهم الصالحون في الأرض ليعلموا ما وعدهم الله به وليعلموا أن قوة الباطل الى ضعف ، وان ضعف الحق الى قوة .

٢ – ولأن شأن الصالحين – أنّى كانوا أن يكونوا – قليل سيما أول أمرهم فهم بحاجة الى أن يعلموا هذا الوعد ليزدادوا ايماناً وقوة وثباتاً.

٣ – ولأن الخلق مفتونون بالكثرة في العدد والعدة غافلون عن القوة الروحية والاخلاقية وما ينشأ عنهما من استقامة لا يحسبون لذلك حساباً ، فيحتاجون الى العلم بأن الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد ، وان كانوا قلة في الناس .

« وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » [2] .

تحذير من تحريف :

رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة على الأرض – وهي

---

(١) ١٢٧/٧ الاعراف .

(٢) ٢٤٩/٢ البقرة .

مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها ، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والاحسان — فقالوا ان رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم الله بارث الأرض • وزعموا ان المراد بالصالحين في الآية : الصالحون لعمارة الأرض • فيالله للقرآن وللانسان ، من هذا التحريف السخيف ، كان عبارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد ، وفسدت الأخلاق ، واعوجت الأعمال وساءت الأحوال ، وعذبت الانسانية بالازمات الخانقة ، وروعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة وهددت بأعظم حرب تأتي على الانسانية من أصلها والمدنية من أساسها ، هذه هي بلايا الانسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت الانسان ، ثم يريد هذا المحرف أن يطبق عليها آية القرآن : كتاب الحق والعدل والرحمة والاحسان ، واصلاح الانسان ليصلح العمران • فأما الصالحون فهو لفظ قرآني قد فسره القرآن كما قدمناه وقد شرّف أهله باضافتهم الى الله في قوله : (عِبادِي) فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلام عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين •

موعظة وارشاد :

فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد أن تصلح أنفسها الصلاح الذي يبينه القرآن ، فاما اذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلا حظ لها من هذا الوعد ، وان دانت بالاسلام • ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته في ملك الارض وسيادة الأمم يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت وبلغ بها الى ما قدر له من عز وذل وسعادة وشقاء وشدة ورخاء وكل محاولة لصدها عن غايتها — وهو آخذ بها — مقضي عليها بالفشل • سنة الله ، ومن ذا يبدلها أو يحولها ؟

« فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً »(1) ثم « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (2و3) .



(1) ٤٢/٣٥ فاطر .

(2) ٣٣/٧ الاعراف .

(3) ش : ج ٦ م ١١ ص ٣٣٩ ــ ٣٤٥
جمادى الثانية ١٣٥٤ ــ سبتمر ١٩٣٥

دفـاع الله عـن المؤمنـين

« إنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ »[1] .

الكلمـات :

دفع الشيء صده ورده ، والدفاع عن الشيء حمايته بصد ما يؤذيه عنه وقُرىء في المتواتر (يدفع) وقُرىء (يدافع) وهو بمعنى يدفع ، ولكنه أريد قوة الدفع ، فجيء بفاعل الذي يقتضي المغالبة في أصله ، لأن دفع المغالب أقوى وأبلغ . أو لأن ما يهيئه الله لهم من أسباب الدفع التي يباشرونها مقابلة لما يقصدُهم به أضدادهم ، فكان الدفع من الجانبين ، خان اذا ضيع ما جعل في حفظه وعهدته ، والخوان الكثير التضييع لما استحفظ . والكفور الكثير الجحود للنعم فلا يعترف بها أو لا يؤدي شكرها .

التراكيب :

عندما يكون المؤمنون في قلة وضعف وأعداؤهم في كثرة وقوة ــ كالحالة التي كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بعيد الهجرة ــ تشك النفوس في سلامتهم من كيد عدوهم ، فلذا جاء هذا الخبر مؤكدا بأن . ولكون هذا الدفع متجدداً جيء بالفعل مضارعاً . ولبيان سبب الدفع جيء بالجملة المستأنفة بعد الجملة الأولى وأكدت بأن لأن الأولى

(١) ٢٢/٣٨ الحج .

تحمل المخاطب على أن يسأل سؤال المتردد : هل هؤلاء المدفوعون أعداء مبغوضون ؟ فأجيب بالتأكيد • وحذف مفعول يدافع ليعم كل ما يدفع فشمل كيد جميع الكائدين •

التفسير :

هذا من الله تعالى خبر حق ووعد صدق للمؤمنين بأنه يرد عنهم كيد أعدائهم ويبطل مكرهم ويكف شرهم وان عظم ذلك منهم وكثر • وان هذا منه لهم متكرر متجدد • ذلك لأنهم بايمانهم حافظوا على أمانة الله عندهم وعهده لديهم واعترفوا بنعمه وشكروها ، فأحبهم الله ورضي عنهم فأيدهم ونصرهم ودافع عنهم ، ولأن أعداءهم ضيعوا أمانة الله عندهم بارتكاب المنهيات وترك المأمورات وجحدوا وحدانيته أو نبوة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أو ما جاءهم به من شرعه فابغضهم ورد كيدهم مغلوبين مدحورين •

تحرير في التعليل :

ان الحب من الله والبغض كسائر أفعاله لا تقع الا على وجه الحق والعدل والسداد ، وهذا أمر واجب لأفعال الرب الحكيم • فالمؤمنون أحبهم ونصرهم لايمانهم ، وأعداؤهم أبغضهم وخذلهم لخيانتهم وكفرهم• واقتضت هذه المقابلة ان الخيانة والكفر من صفات أضدادهم وليست من صفاتهم • فايمانهم مستلزم لأمانتهم بحفظ عهد الله عندهم في نفوسهم وعقولهم وأبدانهم وجميع ما لديهم على جميع أحوالهم ، ومستلزم لاعترافهم بنعم الله وشكره عليها باستعمالها في طاعته وطلب المزيد من بره ، وأمانتهم هذه وشكره هي مظهر ايمانهم الذي يميزهم عن أضدادهم ويدل على صدقهم في ذلك الايمان ورسوخه في قلوبهم • فاذا أعدمت منهم الأمانة فخانوا الله والرسول وخانوا أماناتهم وفشت الفواحش والمناكر والبدع فيهم وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه ،

واذا بطروا نعم الله عندهم فعطلوا منها ما عطلوا بجهلهم وكسلهم وقعودهم عن الخير وأسباب الحياة والسعادة ، واستعملوا منها ما استعملوا في الشر والفساد واتباع الشهوات ــ اذا كانوا هكذا فقد استوجبوا غضب الله وبغضه ونقمته وحرموا نصرته ودفاعه وكانوا هم الظالمين •

خيانة دون خيانة وكفر دون كفر :

الخيانة خيانتان خيانة عقيدة وخيانة أعمال ، وكذلك الكفر وكذلك النفاق وكذلك الشرك وانما يخرج المرء عن أصل الاسلام بما كان في أصل العقيدة ، لا بما كان في الأعمال الا عملا يدل دلالة ظاهرة على فساد العقيدة وانحلالها • وعلى هذا عقد البخاري رحمه الله في الجامع الصحيح أبوابا في ظلم دون ظلم وكفر دون كفر •

تطبيق :

لما كان المسلمون أهل الايمان والصدق والشكر والامانة دافع الله عنهم وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم ، فلما خانوا وكفروا تركهم ومكن منهم • ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل اسلامهم فأبقى لهم أصل وجودهم الذاتي • وهم لحم على وضم بين الأمم لايستطيعون دفعا عن أنفسهم • وأبقى لهم أصل وجودهم الروحي بكتابه المتلو بين ظهرانيهم رغم اعراضهم عن تدبره وهجرهم لما فيه ــ عساهم يرجعون •

تنبيه وتحذير :

كل عمل لا يحل فهو خيانة وان كان بأدنى اشارة ، وقد نبّه الله على هذا بقوله : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ » [1] وهي مسارقة النظر الى ما لا يحل والإشارة بطرف العين فيما يحرم •

---

(١) ٤٠/١٩ المؤمن .

وأعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة ، لأن الذنب يعظم بعظم أثره وانتشار ضرره • ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولي أمراً من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم • فحق على المسلم أن يحذر من الخيانة دقيقها وجليلها وخصوصا ما اتصل بالناس منها ويتنبه من أقل كلمة وأدنى اشارة توقعه في خطرها •

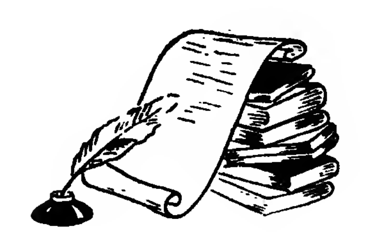
سؤال وجوابه :

فان قيل : قد نجد من عباد الله المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة فيعذب وقد يقتل وكأين من نبي قتل ، وقد أصاب المؤمنين يوم أحد ويوم حنين ما أصابهم • فالجواب : ان دفع الله يكون بأسباب وأنواع وعلى وجوه تختلف بحسب الحكمة ولا تخلو كلها من دفاع ، فان ما يصيب المؤمنين من البلاء في أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد ويقوي فيهم خلق الصبر والثبات وينبههم الى مواطن الضعف فيهم أو ناحية التقصير منهم ، فيتداركوا أمرهم بالاصلاح والمتاب ، فاذا هم بعد ذلك الابتلاء أصلب عوداً وأطهر قلوباً وأكثر خبرة وأمنع جانبا ، وان في صبر الصابر منهم وقد نزل به البلاء الذي لا يقدر على دفعه والظلم الذي لا يقدر على ازالته لبعثا للقوة في نفس غيره ممن يأتسي به ، وضعفا في قلب ظالمه • وفي كليهما دفع من الله عن المؤمنين •

مشاهدة وتوصية :

نعرف في حياتنا مواطن ما نجونا فيها الا بدفع الله وبطل كيد الكائدين فيها بمحض صنع الله ، وقد كنا فيها ــ فيما نرى ــ على شيء من العمل لله • فكيف بمن كانت أعمالهم كلها لله • وهذه المشاهدة التي شاهدنا ــ ولا نشك أن من غيرنا من شاهد مثلنا أو أكثر منا ــ توجب علينا أن نوصي بالايمان بالله والمحافظة على العهد

والثقة به ، فان ذلك يحقق وعد الله بالدفع وينيل أهله العزة والحفظ ، فعلى المسلم أن يعمل لذلك ويعتد به ثقة بالله وصادق وعده . والله لا يخلف الميعاد [1] .



(١) ش : جـ ٩ م ١١ ص ٤٩١ ــ ٤٩٥
رمضان ١٣٥٤ ــ ديسمبر ١٩٣٥

أكل الحلال والعمل الصالح

« يَـا أيّهَـا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَـاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً • إنِّي بِمَا تَعمَلُونَ عَلِيم » [1] •

الكلمات :

الطيب ما صلح واعتدل في نفسه وسلم من كل ما يفسده ويخرجه عن اعتداله وأصل خلقته ، فكان مستلذاً للنفوس سواءاً كان مـا يدرك بالسمع أو بالبصر أو بالذوق أو بالشم أو باللمس أو بالعقل • فالطيب هو اللذيذ لذة حسيية أو عقلية • ويقابله الخبيث وهو المستقذر حساً أو عقلاً وعلى هـذا جـاء قولـه تعالى : « وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ » [2] فمـا أحـلَّ الله إلا الطيب المستلـذ ، ومـا حـرم إلا الخبيث المستقـذر • فلهذا صار الطيب في لسان الشرع يجيء كثيراً بمعنى الحلال ويكون ضده الخبيث بمعنى الحرام • ومنه « كُلُوا مِنَ الطَّيبَات » أي المحللات ، فملك غيرك ، وإن كان مستلذاً في الحس فانه ليس طيباً لك شرعاً ، وذلك لأنه مستقذر في العقل بما فيه عند تناوله بدون اذن صاحبه من التعدي المستقبح في العقل • وقد يجيء الطيب بمعنـى الجيد ، والخبيث بمعنى الردىء ، وعليه قوله تعالى : « يَا أيّهَـا الّذِينَ آمَنُوا أنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا

(١) ٥١/٢٣ المؤمنون •

(٢) ١٥٦/٧ الاعراف •

َأخْرَجنَا َلكُمْ ِمنَ الأَرْضِ َولاَ َتيَمَّمُوا الخَبِيثَ ِمنهُ تُنفِقُونَ »(1) .

الصالح هو المستقيم النافع ، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات وتناول المباحات من حيث انها مباحات أو وسائل لفعل المأمورات وترك المنهيــات .

التراكيب :

للاهتمام بالمأمور به قدمت قبل الأمر جملة النداء . ولأن هــذا المأمور به مما يجب عليهم تبليغه نودوا بلفظ الرسل . ولأن كل واحد منهم أوحى الله اليه بهذا النداء والأمر في زمانه كان النداء والأمر للجمع ، وقد دخل في الجمع عيسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ الذي كان الحديث عليه في الآية التي قبل هذه وهي : « َوجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ »(2) . كما دخل في الجمع محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ الذي نزلت عليه هذه الآية . ولأن المقصود من الأكل ــ وهو الغذاء واللذة ــ يحصل ببعض قبل (من الطيب) بمن التبعيضية . ولما كان المخاطب بأكل الحلال والعمل الصالح شأنه ان تتشرف نفسه لتعيين ثمرة ذلك جاء الخبر مؤكداً بأن في « انِّي ِبمَا تَعْمَلُونَ َعلِيمٌ » وعلم الله مستلزم لجزائه للعاملين فكان كناية عن الجزاء وفي الكناية عن الجزاء بالعلم تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم فهو جزاء الله العليم وكفى به .

---

(1) ٢٦٧/٢ البقرة .

(2) ٥٠/٢٣ المؤمنون .

التفسير :

خلق الانسان مركباً من روح وبدن ، وانما بقاء بدنه بالغذاء ، وانما كمال روحه بالعمل ، فأمر الله بالأكل لبقاء البدن واشترط أن يكون من الطيبات لأنها هي التي تغذي ولا تؤذي . أما الخبائث ففيها الأذى ويتفه أو يعدم منها الغذاء . وأمر بالعمل الصالح الذي فيه زكاء للنفس ونفع لها في العاجل والآجل وخير للعباد والبلاد . وأخبر بعلمه بعمل العاملين ليجتهدوا في العمل ويخلصوا له فيه وينتظروا جزاءهم من عنده . والدّين كله عمل صالح وتوحيد خالص . وقد انتظمتهما الآية تصريحاً في العمل واستلزاماً في التوحيد . وبيَّن ـ تعالى ـ بهذه الآيتان هذا الذي اشتملت عليه هو دين الله لجميع الأمم أوصى به رسله ـ صلوات الله عليهم ـ ليبلغوه لخلقه فهو حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه .

توجيه الترتيب ·

تتوقف الأعمال على سلامة الأبدان ، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات ، ولهذا قدم الامر بالأكل على الأمر بالعمل ، فليس من الاسلام تحريم الطيبات التي أحلّها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم ، وليس من الاسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها كما يفعله متصوفة الهنادك ومن قلدهم من المنتسبين للاسلام . والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وقد بيَّن ذلك أئمة السنة والأثر رحمهم الله ، وقد جوده مالك ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الجامع من الموطأ . وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها ؛ لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن فتصلح الأعمال كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الاعمال .

بيـــان نبوي :

خرج مسلم في صحيحه من طريق أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

(ايها الناس ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الله تعالى امر المؤمنين بما امر به المرسلين فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »

وقال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ »

ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث اغبر . يمد يديه الى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فانىّ يستجاب لذلك) فبين الحديث الشريف ان الله طيب . أي منزه عـــن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله تنعم العقول والأرواح بمعرفته ــ كما يليق بـــه ــ ومحبته . وانه لا يقبل من الاعمال الا طيباً أي صالحاً في نفسه خالصاً من شوائب المخالفة والرياء والشرك وبيّن أن الشرع عـــام للرسل ولـــلامم ولا يستثنى من هـــذا الا مـــا دل الدليل على اختصاصه بالرسل وبيّن ان أكل الحلال هو الذي يثمر قبول الدعاء والدعاء هو مخ العبادة فاذا ردّ عليه فقد ردت عليه عبادته فكان هذا البيان النبوي على مقتضى ما أفاده ترتيب الأمرين في الآية .

تكميل :

في آية الرسل الأمر بالأكل من الطيبات والأمر بالعمل الصالح واستلزام الأمر بالاخلاص ، وفي آية المؤمنين الأمر بالأكل من الطيبات والأمر بالشكر والتصريح بلزوم توحيده تعـــالى في العبـــادة لان تمامها هكذا :

« وَاشْكُرُوا لله إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ » [1]

واقتصر في الحديث على الأمر بالأكل من الطيبات اما لأن الاكل كان في الحديث على أكل الحلال ، واما لأن الراوي اختصر الرواية •

الاهتداء :

على المؤمن أن يتحرى في مأكله ومشربه وكل ما فيه قوام ذاته الحلال الطيب يمتثل بذلك أمر الله ويقصد التوصل به الى العمل الصالح وعليه أن يتحرى في فعله وتركه أمر الله ونهيه حتى يكون عمله عملاً صالحاً طيباً متقبلاً • يمتثل بذلك أمر الله ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه • والمتحري للحق والخير جدير بالتوفيق اليه وكثرة اصابته •

رزقنا الله والمسلمين التحري لطاعته والتوفيق لمرضاته والتأدب بكتابه آمين[2] •



(١) ١٧٢/٢ البقرة .

(٢) ش : ج ١١ م ١١ ص ٥٨٧ ـ ٥٩٠.
ذو القعدة ١٣٥٤ ـ ففري ١٩٣٦

الاجتماع العام للأمر الهام

وارتباط الجماعة بامر الامام

– ١ –

القرآن العظيم :

« إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ • إنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ • فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ ، إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »(١) •

الالفاظ :

الأمر الجامع هو الحادث الذي يتطلب الاجتماع بطبيعته فيجمع الامام الناس من أجله ، من ذوي الرأي والمعرفة بمثله ، والخبرة والتجربة فيه ، من كل من يعم نفعه ، أو ضرره من أمور السلم والحرب وشؤون الحياة والاجتماع ، ليتشاوروا فيما بينهم ويستضيئوا بعضهم لرأي بعض • والاستئذان : هو طلب الاذن من الامام بمفارقة الاجتماع لعذر قاض بالمفارقة •

---

(١) ٢٤/٦٢ ــ ٦٣ النور •

المعنى :

يأمر الله المؤمنين اذا كانوا مع رسوله – صلى الله عليه وآله وسلم – على أمر جامع أن لا يفارقوا مجلسه كلهم أو بعضهم الا باذنه • وأكّد هذا الأمر بما وطأ له من ذكر الايمان بالله ورسوله تنبيهاً على انه من مقتضاهما ، وبقرنه بهما وجعله ثالثاً لهما تعظيماً لشأنه ، وتنبيهاً على ملازمته لهما ممن صدق فيهما [1] • حتى كأن غير المستأذنين لا ايمان لهم ، وباعادته في الجملة الثانية ببيان أن الذين يستأذنون هم دون غيرهم الثابتون في ايمانهم المستمرون عليه ، تعريضاً بالذين لا يستأذنون وتقبيحاً لحالهم ، بأنهم لا ثبات لهم في الايمان ولا استمرار منهم على العمل به ، فليسوا بالمؤمنين ولا بالذين يؤمنون •

ثم جعل الخيار لرسوله في الاذن وعدم الاذن لهم اذا استأذنوه لبعض شأنهم تعظيماً لأمر الاجتماع وتعظيماً للصالح العام وتوكيداً لحق الامام على الجماعة لحفظ الاجتماع وتتميم الأعمال •

ثم أمره أن يستغفر لهم فقد يكون العذر دون الاضطرار ، وقد يكون ما فاته من بركات الاجتماع وحسنات المشاركة فيه بالرأي والاهتمام ، وتكثير السواد – بسبب ذنب كان منهم في أمر غير الاجتماع – وأكد هذا الأمر بأنه الكثير المغفرة لعباده الدائم الرحمة بهم •

الأحكام :

لما كان الاجتماع شُرع للمصلحة ، والذهاب بدون استئذان حُرِّم للمفسدة ، فالمشروعية والتحريم دائمان بدوام المصلحة والمفسدة : فأحكام الآية مستمرة ، الاحكام عامة للمسلمين في كل زمان وكل مكان ، مع أئمتهم وقادتهم والمقدمين منهم فيهم في كل ما يعرض من اجتماع لصالح عام •

(١) كذا في الاصل ولعله (بهما) .

فمن أحكام الآية الكريمة – ان على أئمة المسلمين وذوي القيادة فيهم اذا نزل بهم أمر هام أن يجمعوا جماعة المسلمين الذين يرجى منهم الرأي والعمل فيما نزل ، فلا يجوز لهم أن يهملوا أمرهم ، ولا أن يستبدوا عليهم ، وان على المسلمين أن يجتمعوا اليهم ويكونوا معهم ، يظاهرونهم ويؤيدونهم وينصحون لهم ، فلا يجوز لهم أن يتخلفوا عنهم ، ولا أن يخذلوهم ، وأنَّ على المجتمعين أن لا يذهب واحد منهم الا باذن – وأن لا يستأذن الا لعذر ببعض الشأن ، وأن على الامام أن ينظر في الاذن وعدمه فيفعل ما هو أولى .

بيان مراد ، ودفع اغترار واعتراض :

تجد في آيات القرآن العظيم أخباراً ووعوداً من الله – تعالى – للمؤمنين ولربما حسب من لا يعلم أنها تشمل كل من كان على أصل الايمان من اعتقاده مع بعض أعماله ، وان فرط في كثير من أصول الأعمال . فيبين الله – تعالى – في هذه الآية وأمثالها مراده بالمؤمنين عند اطلاق لفظ المؤمنين في تلك الأخبار والوعود ، حتى لا يغتر المفرطون ولا يعترض الجاهلون .

توجيه وارشاد :

انما ينهض المسلمون بمقتضيات ايمانهم بالله ، ورسوله ، اذا كانت لهم قوة ، وانما تكون لهم قوة اذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر ، وتدبر ، وتتشاور ، وتتآزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة . ولهذا قرن الله في هذه الآية بين الايمان بالله ورسوله والحديث عن الجماعة وما يتعلق بالاجتماع ، فيرشدنا هذا الى خطر أمر الاجتماع ، ونظامه ، ولزوم الحرص ، والمحافظة عليه ، كأصل لازم للقيام بمقتضيات الايمان وحفظ عمود الاسلام .

موعظة :

ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به الاَّ باهمالهم لأمر

الاجتماع ونظامه ، امّا باستبداد أئمتهم وقادتهم واما بانتشار جماعتهم بضعف روح الدين فيهم وجهلهم بما يفرضه عليهم ، وما ذلك الا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين ، وتعليم الجاهلين ، وبث روح الاسلام الانساني السامي في المسلمين . فعلى أهل العلم ــ وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من ارث النبوة فيهم ــ أن يقوموا بما أرشدت اليه هذه الآية الكريمة ، فينفخوا في المسلمين روح الاجتماع الشورى ، في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم ، حتى لا يستبد بهم مستبد ، ولا يتخلف منهم متوان ، وحتى يظهر الخاذل لهم ، ممن ينتسب اليهم فينبذ ويطرح ويستغني عنه بالله وبالمؤمنين .

موازنة وترجيح :

هنالك المصلحة العامة وهنالك المصلحة الخاصة ، ومحال أن تساوي هذه بتلك ، انظر الى الذكر الحكيم كيف عبر عن الأولى بالأمر الجامع ، وفي هذا ما فيه من تفخيم ، وعبر عن الثانية ببعض الشأن وفي هذا ما فيه من التحقير والتقليل . وفي قرنها بالاستغفار تنبيه على ترجيح الأولى على الثانية وأنها ما كانت تعتبر الا على وجه الرخصة والاستغراق في الاهتمام والتدبير للمصلحة العامة أحق وأولى.

امتثال ورجاء :

لنجعل المصلحة العامة غايتنا ، والمقدمة عندنا حتى لا يكون ــ ان شاء الله ــ في مصالحنا الخاصة ما يصرفنا أو يشغلنا عنها ، راجين من الله تعالى أن يعيننا على ما قصدنا وأن يوفقنا الى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولاخواننا انه نعم الموفق ونعم المعين[1].

---

(١) ش : جـ ١ ، م ١٣ ، ص ١ ــ ٤
غرة محرم ١٣٥٦ هـ ــ ١٤ مارس ١٩٣٧ م .

- ٢ -

القرآن العظيم :

« لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ، قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [1] .

المناسبة والارتباط :

لما بينت الآية السابقة وجوب الاستئذان عند ارادة الانصراف من مجلسه عليه الصلاة والسلام بينت هذه الآية وجوب تلبية دعوته اذا دعا ، وفضحت حالة الذين يتسللون غير مستأذنين وحذرت من فعلهم وأوعدت الوعيد الشديد المخالفين أمثالهم .

الألفـــاظ :

الدعاء : النداء وطلب الاقبال للحضور . بينكم : في اعقادكم ومعاملتكم . يتسللون : يذهبون قليلا قليلا من الجماعة متخفين . لواذاً : ملاوذة بان يلوذ هذا بهذا ويلوذ هذا بهذا متستراً به حتى لا يرى عند خروجه . فليحذر : فليتيقظ ، وليتحرز . وذلك باجتناب المخالفة . يخالفون عن أمره : يصدون ويعرضون عن طريقته وسنته ومنهاجه وما كان عليه من سير في الحياة . الفتنة : البلاء بأنواع النقم أو بنعم تستدرج الى النقم ، هذا معنى الفتنة لأنها ذكرت في مساق الوعيد . عذاب أليم : في الآخرة .

المعنـى :

لا تنزلوا دعاء الرسول لكم اذا دعاكم الى الحضور عنده منزلـة

---

(١) ٦٣/٢٤ النور .

دعاء بعضكم بعضا للحضور ، فتحسبون أنفسكم مخيرين ان شئتم أجبتم وان شئتم تخلفتم ، فتارة تجيبون وتارة تتخلفون ، فاجابة دعوته والاسراع اليه واجب محتم عليكم ، والتخلف أو التباطؤ — لغير عذر واضح — محرم عليكم ، ذلك لأنه اذا دعاكم لا يدعوكم الا لمصلحة قطعية وخير محقق يعود عليكم في أمر الدين أو أمر الدنيا ، ففي تخلفكم أو تباطئكم تفويت أو تعطيل أو تثبيط•واذا حضرتم مجلسه فابقوا كلكم عنده ولا تذهبوا من مجلسه واحداً واحداً أو اثنين اثنين يتستر بعضكم ببعض عند الخروج حتى لا يراه الناس ولا يراه الرسول، فان الله يعلم قطعاً أولئك الذين يخرجون متسللين متسترين بعضهم ببعض ، فاذا نجوا من ملام الرسول فانهم لا ينجون من عذاب الله

واذا كان الله عالماً بصنعهم ومفارقتهم لمجلس رسوله وثلمهم لجماعته وصدهم واعراضهم عما هو عليه هو ومن معه — فهو معاقبهم على ما ارتكبوا بالبلايا ، يصبها عليهم في الدنيا ، أو العذاب الاليم ينزله بهم في الآخرة ، أو يجمع لهم ما بينهما ، فليتجنب أولئك المخالفون لأمره هذه الفتنة وهذا العذاب وليحذروا منهما • وما ذلك الا بترك المخالفة والاقلاع عنها والرجوع الى الموافقة والاتباع •

تنظير وتعميم :

أمراء المسلمين وقادتهم ومن يتولون أمراً من أمورهم العامة تجاب دعوتهم اذا دعوا لأمر عام وشأن مما يرتبط بما في عهدتهم من أمر الناس ، ويسرع اليهم ولا يتسلل من مجالسهم • ذلك لما لهم من حق الخلافة عن الرسول — صلى الله عليه وآله وسلم — فيما كان يقوم به من أمر الناس وتدبير شؤونهم وضبط نظامهم ورعاية مصالحهم •

ميـــزان :

كل الأقوال والأعمال توزن بأقواله وأعماله ، وكل الأحوال والسير

توزن بسيرته وحاله • فما وافقها فهو الحق والخير والهدَى ، وهو الذي يقبل من كائن من كان • وما خالفها فهو الباطل والشر والضلال ، وهو الذي يرد على صاحبه كائنا من كان • وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما انه صلى الله عليه وآله وسلم قال : **(من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ)** •

وجوه الفتنة وسببها :

مخالفة السنة النبوية والهدى المحمدي وما كان عليه رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في تنفيذ شرع الله وتطبيق أحكامه وتمثيل الاسلام تمثيلا عملياً ، تلك المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم بحكم صريح هذه الآية • وقد ذكر المفسرون في تفسير الفتنة أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد ، فذكروا الكفر ، والقتل ، والاستدراج بالنعم ، وقسوة القلب ، عن معرفة المعروف والمنكر ، والطّبع على القلب حتى لا يفقه شيئاً ، وكل هذا قد أصاب المسلمين بسبب مخالفتهم •

أعظم الفتنة :

غير أن أعظم الفتنة ــ فيما نرى ــ هو ما قاله الامام جعفر الصادق : (ان يسلط عليهم سلطان جائر) فانه اذا جار السلطان ــ وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصر في شؤونها ــ فسد كل شيء ، فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال ، وانحطت الأمة في دينها ودنياها الى أحط الدركات ، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك • ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه • هذا اذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين ــ بحسب ظواهره ــ بدينها ، فكيف اذا لم يكن من جنسها ولامن دينهافيشيء • حقاً ان أعظم ما لحق الأمم الاسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على

يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها . وهذا ما يشهد به تاريخها في ماضيها وحاضرها . فما أصدق كلمة جعفر الصادق وما أعمق نظره فيها ، ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة ؟ عليهم الرضوان والرحمة .

تطبيق وتحذير :

من أبين المخالفة عن أمره وأقبحها الزيادة في العبادة التي تعبد الله بها على ما مضى من سنته فيها واحداث محدثات على وجه العبادة في مواطن مرت عليه ولم يتعبد بمثل ذلك المحدث فيها . وكلا هذين زيادة وأحداث وابتداع مذموم . يكون مرتكبه كمن يرى انه اهتدى الى طاعة لم يهتد اليها رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – وسبق الى فضيلة قَصَّر رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – عنها . وكفى بهذا وحده فتنة وبلاء ، دع ما يجر اليه من بلايا أخرى ، وقد طبق الأمام مالك رضي الله عنه هذه الآية الكريمة ، على هؤلاء المتزيدين أحسن تطبيق وأبلغه وأردعه لمن كان له فهم وايمان .

روى الامام ابن العربي – رحمه الله – بسنده المتصل الى سفيان ابن عيينه رحمه الله قال : سمعت مالك بن أنس واتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله من أين أحرم ؟ قال : من ذي الحليفة[1] من حيث أحرم رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – فقال : (اني أريد أن أحرم من المسجد) فقال : لا تفعل . قال : اني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر . قال : لا تفعل فاني أخشى عليك الفتنة . قال : وأي فتنة في هذا ؟ انما هي أميال أزيدها . قال : وأي فتنة أعظم من أن ترى

(١) ذو الحليفة : تصغير حلفة ، وهي ماءة بين بني جشم بن بكر بن هوازن ، بينه وبين المدينة ستة اميال ، وهو كان منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرج من المدينة لحج أو عمرة (انظر البكري ٤٦٤ – ٤٦٥) .

انك سبقت الى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم •
اني سمعت‌الله يقول: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »
فليتأمل المسلمون — وخصوصا المنتسبين الى مذهب مالك — في فقه هذا الامام العظيم ووقوفه عند حدود الله وليحذروا من عاقبة المتزيدين المتغالين •

بوارق أمل :

لقد شعر المسلمون عموما بالبلايا والمحن التي لحقتهم وفي أولها سيف الجور المنصب على رؤوسهم ، وادرك المصلحون منهم أن سبب ذلك هو مخالفتهم عن أمر نبيهم — صلى الله عليه وآله وسلم — فأخذت صيحات الاصلاح ترتفع في جوانب العالم الاسلامي في جميع جهات المعمور • تدعوا الناس الى معالجة أدوائهم بقطع سببها واجتثاث أصلها• وما ذلك الا بالرجوع الى ما كان عليه محمد — عليه الصلاة والسلام — وما مضت عليه القرون الثلاثة المشهود لها منه بالخير في الاسلام ، وقد حفظ الله علينا ذلك بما ان تمسكنا به لن نضل أبداً — كما في الحديث الصحيح — الكتاب والسنة • وذلك هو الاسلام الصحيح الذي أنقذ الله به العالم أولاً ، ولا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم الا اذا أنقذه الله به ثانياً • وقد أخذ المسلمون يصيغون أسماعهم ويستجيبون — أفواجاً أفواجا — لداعي الاصلاح أينما دعاهم ، وفي ذلك — والحمد لله — ما يقوي الرجاء والأمل ، ويبعث على الجد والعمل • الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون [1]] •

---

(١) ش : ج ٢ ، م ١٣ ، ص ٧٢ — ٧٦
صفر ١٣٥٦ — افريل ١٩٣٧

الفــرقــان

« تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْهُ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً »(١) •

المفردات :

تبارك : مادة برك كلها ترجع الى معنى الثبوت ، منها بروك الابل استناختها ، والبركة كالقربة مثل الحوض يثبت فيها الماء ، والبراكاء الثبات في الحرب ، ومنها البركة بمعنى النماء والزيادة ولا ينمو ويزيد الا ما كان ثابت الأصل ، وشأن ثابت الأصل أن ينمو ويزيد ، فلم تخرج عن الثبوت ، وتبارك من البركة ، فمعناه تزايد خيره والله تعالى له الكمال ومنه الانعام فتبارك أي تزايد كماله وانعامه فلا تحصى انعاماته ولا تحد كمالاته • وثبوت الكمال ينافي وينفي ضده ، فيقتضي التنزه عن النقص • فانتظم اللفظ ثلاثة معاني : التنزه عن النقص ، والاتصاف بالكمال ، والافاضة للانعام • فتبارك : (تقدس وتعاظم) الفعل الأول مفيد للأول ، والفعل الثاني مفيد للثاني ، والثالث (نزل) مادة نزل كلها ترجع الى معنى الهبوط من عل والحلول في أسفل • ونزل المضاعف أبلغ في المعنى ، من أنزل ، وقد يفيد كثرة النزول كما هنا ، لأنه نزله مفرقاً على نيف وعشرين سنة ، وقد يفيد القوة في نزول

---

(١) ٢٥/١ ــ ٢ الفرقان •

واحد كما في « لَوْ لاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً » لان تنزيل الجملة أقوى من انزال التفصيل • (الفرقان) : أصله مصدر فرق بمعنى فصل وهو أبلغ في الدلالة على المعنى من فرق المصدر المجرد بما فيه من زيادة الألف والنون كما كان القرآن أبلغ من القراءة لذلك • وهو هنا اسم من أسماء هذا الكتاب الكريم • (نذير) : مادة نذر كلها ترجع الى الاعلام والتحتيم ، فمنها نذر على نفسه الصوم أوجبه وحتمه وأعلم به ونذر بالعدو كفرح علم به وأنذره أعلمه ، ولا يستعمل الا في ابلاغ ما فيه تخويف فهو اعلام بتأكيد وتحتيم • ونذير هنا بمعنى منذر من فعيل بمعنى مفعل •

التراكيب :

(الَّذِي نَزَّلَ) : عرف المسند اليه بالموصولية لزيادة تقرير الغرض الذي اليه سيق الكلام ، لأن الغرض بين كمالات الله تعالى وانعاماته وتنزيل الفرقان منها ، فهو من أعظم نعم الله على البشر ومن آيات الله الدالة على قدرته وعلمه وحكمته • (عبده) : اضافة تشريف لانه أكمل العبـــاد •

المعنـــى :

تقدس وتعاظم الرب الذي نزل الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال وحزبيهما من الناس مفصلاً آيات آيات على محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أكمل عباده ليكون بذلك الكتاب لجميع الأنس والجن منذراً لهم يعلمهم بعذابه ويخوفهم بشديد عقابه ان لم يعبدوه وحده ويخلعوا غيره من آلهتهم الباطلة ويدخلوا في الدين الذي جاءهم به وهو الاسلام •

توحيـــد :

هذا الفعل وهو (تبارك) لا يسند الا الى الله تعالى ، ذلك لأن

العظمة الحقيقية بالكمال والانعام والتقديس بالتنزه التام ليسا الا له وما من كامل من مخلوقاته الا وهو ــ جل جلاله ــ الذي كمله وما من منعم عليه منهم الا وهو ــ تعالى ــ الذي أنعم عليه وما من زكي منهم الا وهو ــ سبحانه ــ الذي زكاه .

سلوك :

هذا الرب الكامل المكمل المنعم المتفضل القدوس المقدس هو الذي أنزل هذا الفرقان ، فاذا أردت أن ترقى في درجات الكمال وتظفر بأنواع الانعام وتزكي نفسك الزكاء التام فعليك بهدى هذا الفرقان ، فهو بساط القدس ومعراج الكمال ومائدة الاكرام وقد سئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت كان خلقه القرآن .

تفقه واستنباط :

لما سمى الله كتابه الفرقان علمنا أنه به يفرق بين الحق والباطل وأهل هذا وذاك ، فهو الحكم العدل والقول الفصل بين كل متنازعين يدعي كل منهما انه على الحق فيما هو عليه من عقد أو قول أو عمل ، فما تقابل حق وباطل وما تعالجت حجة وشبهة الا وفي هذا الكتاب الحكيم ما يفرق ما بينهما وانما يتفاوت الناس في ادراك ذلك منه على حسب ما عندهم من قوة علم وصدق بصيرة وحسن اخلاص ، فعلينا ــ اذاً ــ أن يكون أول فزعنا في الفرق والفصل اليه ، وان يكون أول جهدنا في استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه . فاذا حكم قبلنا وسلمنا وكنا مع ما حكم له وفارقنا ما حكم عليه ، فالله سماه الفرقان لنعلم انه فارق بنفسه ولنعمل بالفرق به ولا يكمل ايماننا بانه الفرقان الا بالعلم والعمل .

ولما جعل ــ تعالى ــ غاية تنزيل الفرقان أن يكون عبده نذيراً

اقتضى ذلك أن نذارته تكون بالفرقان لتقوم الحجة وتتم الحكمة وتحصل الفائدة وتشمل النعمة • وقد صرح بهذا في قوله تعالى بالاعراف : « كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ » • وبالأنعام : « وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » • وبالنمل : « إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ »•وبق : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ »• وبالتوبة : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ » فعلينا ــ إذاً ــ أن نعلم أنَّ القرآن هو كتاب النذارة والهداية ، فنستخرج أصولهما وفنونهما من آياته ، وهذا حظ العلم ، وان يكون اهتداؤنا في أنفسنا وهدينا لغيرنا به ، وهذا حظ العمل ، وهما ركنا الايمان •

تطبيق وتحاكيم :

في العالم الاسلامي كله اليوم طائفتان من المؤمنين تتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير ، ولكل منهما في سلوكها للقيام بتلك الخطة سبيل ، وكل منهما تدّعي أنها هي التي على الصواب ، وأنها الأحق والأولى بنفع العباد • فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما وننظر كيف يفرق ما بينهما وبين المصيبة من المخطئة منهما ، وفي ضمن ذلك تحاكمهما اليه وفصل النزاع بينهما بحكمه • وانما اخترناهما للتطبيق والتمثيل لخطر الخطة التي تنازعا عليها ، وعظيم النفع والضرر الذي يحصل من خطأ المخطىء وصواب المصيب بها ، ولأن الهداية والنذارة والتذكير أمور لها أنزل القرآن فتنازعهما عليها تنازع عليه فأحق فصل نمثل بـه

لنعلمه هو فصله بين المتنازعين فيه • وها نحن نعرض بعض حال كل طائفة في قيامها بالخطة ثم نسوق آيات القرآن وننظر من أسعد الطائفتين بها •

حكم القرآن بين الطائفتين :

الطائفة الاولى : يذكرون من يدعونهم بغير القرآن بأحزاب وأوراد من وضعهم لا مما ثبت عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم الا قليلا : ولهم عليهم في أموالهم حق في أوقات من السنة معلومة •

والطائفة الثانية : يذكرون الناس بالقرآن فيأمرونهم بقراءته وتدبره ويبينون لهم معانيه ويحثونهم على التمسك به والرجوع اليه •

ويدعونهم الى الاذكار النبوية الثابتة في الكتب الصحاح لرجوعها الى القرآن بحكم قوله تعالى: «وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ»[1] ولا يطلبون عليهم في ذلك أجراً •

والله تعالى يقول في الحال الأول : « فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ » وغيرها من الآيات المتقدمة في هذا المجلس ويقول ــ تعالى ــ في الحال الثاني لنبيه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إلَى رَبِّهِ سَبِيلا »[2] « قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى »[3] • ويقول في آية صريحة صراحة تامة في بيان من يجب أن يتبع من الدعاة « اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً

(١) ٥٩/٧ الحشر .
(٢) ٢٥/٥٧ الفرقان .
(٣) ٤٢/٢٣ الشورى .

وَهُمْ مُهْتَدُونَ » (1) ومن هم المهتدون ؟ هم المتبعون للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم ــ لقوله تعالى في الاعراف : « فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (2) واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه في طريق دعوته الخلق الى الله • وقد ثبت بالقرآن انه كان يدعو بالقرآن ويذكر به وانه لا يسئل على ذلك أجرا •

بان ــ والحمد لله ــ بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين واتضح طريق الحق في الدعوة والارشاد لمن يريد سلوكه منهما • والله نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه والقوة والاخلاص في الصدع به والثبات عليه و « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ » (3 و 4) •



(1) 36/21 يس •
(2) 7/157 الاعراف .
(3) 14/27 ابراهيم .
(4) ج 12 ، م 7 ، ص 732 ــ 737
غرة شعبان 1350 هـ ــ ديسمبر 1931 م •

كــلام الظــالمــين

في الكتاب الحكيم ، والرسول الكريم ، وردّ رب العالمين

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً »[1] .

الألفــاظ :

كفروا ، غطوا الحق بانكاره وعدم الاعتراف والاعلان به . وكل من غطى شيئاً وستره فقد كفره ، وسمي الليل كافر لأنه يغطي الأشياء بظلامه ، والزارع كافر لأنه يغطي البذر بالتراب . إفك : كذب مصروف عن وجهه الحق من افكه يفكه أفكا أي صرفه . افتراه : اختلقهواخترع صورته . جاؤوا : وردوه وانتهوا اليه . ظلماً : وضع الشيء في غير موضعه . زوراً : شهادة بالباطل . أساطير : جمع أسطورة أي اخبار وحكايات مسطورة في كتب الأوائل ليست محل الثقة . اكتتبها : أمر بكتابتها له ، وافتعل يأتي للطلب كاحتجم واقتصد . تملى : تلقى عليه ليحفظها فيلقيها على الناس . بكرة : ما بين الفجر والطلوع . أصيلا : ما بعد العصر الى الغروب . السر : الخفي من كل شيء . غفورا : ستاراً للذنوب كثير التجاوز عنها . رحيما : دائم الافاضة للنعم.

(1) ٢٥/٤ ، ٥ ، ٦ الفرقان .

المعنى :

وقال الذين أنكروا الحق مع ظهوره ، وجحدوه مع وضوحه ، ما هذا الكلام الذي يتلوه محمد" علينا الا كلام كذب مصروف عن وجه الحق اخترعه وصوره واعانه عليه غيره من أناس آخرين ، فقد سموا الحق الصراح والصدق الخالص افكاً ، وجعلوا أخبار الأمين الـذي كانوا يدعونه هم أميناً ، افتراء وجعلوا القرآن الذي عجزوا عن معارضته كلاماً عادياً متعاوناً على تركيبه وتصويره ، فسموا الشيء بغير اسمه ووضعوا الوصف في غير موضعه ، فانتهوا بذلك الى ظلم عظيم أتوه ووقعوا فيه وقد شهدوا بالباطل ، فنسبوا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما هو بريء منه من الافتراء والاستعانة بغيره فانتهوا الى زور عظيم تحملوه .

وقالوا : ـ أيضاً ـ هذا الذي يتلوه علينا هو من أخبار الأوائل وكتبهم المسطورة التي سطروها من أعاجيب أحاديثهم مما يتلى به ولا يوثق بصحته توصل اليها من غيره ، أمر فكتبت له فكاتبها له يمليها عليه دائماً في طرفي النهار فيحفظها هو ويأتينا بها .

قل ـ يا محمد ـ أنزل هذا الذي أتلوه عليكم الخالق الذي يعلم الشيء الخفي والامر المكتوم في العالم العلوي والعالم السفلي . ومـا أمهلكم فلم يعاجلكم بالعذاب ، وبقي يجدد لكم التذكير مع اعراضكم وعنادكم وقبح صنيعكم وسوء ردكم الا أنّه من شأنه الصفح والتجاوز ودوام الانعام والتفضل ، فهل لكم أن ترجعوا الى هذا الرب الغفور الرحيم ؟

مزيد بيان :

بهر العرب ما رأوا ومـا سمعوا ، من رجل كـان بالأمس معرضاً عنهم تاركاً لهم وشأنهم يشهد موسم الحج معهم ويجتنب مشاهـد

وثنيتهم ولكنه لا يعاديهم ولا ينكر عليهم ويسير بينهم بالصدق والجد والعفاف وكمال المروءة سيرة تخالف سيرتهم فهم لذلك يحبونه ويعظمونه ويدعونه الأمين لقباً خصوه به فصار يدعى به بينهم • فأصبح اليوم — وقد جاوز الأربعين — ينكر عليهم ويسفه أحلامهم ويقبح عبادتهم وما يعبدون ويصبر على أذاهم ولا يقابلهم بالمثل ويستمر على دعوته غير مبال بهم ولا حاسب شيئاً لكثرتهم ولا لسطوتهم • ومن كلام مثل كلامهم في ألفاظه وفي تراكيبه ثم هم يعجزون عن معارضته بمثل أقصر سورة منه ثم يشهدون الفرق بينه وبين كلام محمد نفسه فهو اذا حدثهم بما اعتادوا من حديثه معهم حتى اذا تلى عليهم القرآن جاءهم بما هو فوق كلامه وكلامهم وما تقصر عن معارضته ألسنتهم •

بهرهم هذا وهذا وأخذ العناد بعقولهم واستحوذت عليهم شياطينهم فحاروا فيما يقذفون به هذا الرسول وهذا الكتاب ، فأخذوا يقولون عن الكتاب انه افك مفتري ورأوه أكبر مما كانوا يسمعون من كلام محمد ، فلم يكن ليأتي به وحده ، وهو فوق المعتاد من كلامه ، فاذاً هنالك أقوام يعينونه • ومن هم الأقوام ؟ وهو — بعد — في نفر قليل ممن آمن به ، وهم هم في كثرتهم وتساندهم وقد عجزوا عن الاتيان بشيء مثله فالقليل أحرى بالعجز من الكثير ويقولون انه أساطير الأولين وقد كان منهم من عرف شيئاً من أخبار الفرس وملوكهم وكان يحدثهم بها ويقصها عليهم ويزعم لهم انها مثل ما يأتي به محمد فقالوا — وقد علموا الفرق — هذه منها وهي مثلها ولكن محمداً عرفوه أميناً لا يقرأ ولا يكتب فكيف اتصل بهاته التي زعموها أساطير فاخترعوا وسيلة لذلك انه يكتبها له غيره ويميلها عليه وهو يحفظها ومن هو هذا الذي يكتب ويملي عليه وهم قد عرفوا مدخل محمد ومخرجه ومغداه ومجلسه وعرفوا بلدتهم ومن يساكنهم فكيف لا يرونه ولا مرة بين يدي هذا الكاتب المملي ولا يشاهدونه يوما في صحبته فاخترعوا لذلك

انه يمليها عليه في طرفي النهار في ظلام من الوقت وسكون من الناس • وقالوا في الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – انه مفتر يستعين على افترائه بغيره ، ويتظاهر باستقلاله وينسب لله ما هو حكايات الأوائل وأوضاعهم • فيكذب عليه – تعالى – لديهم •

رد الله عليهم كل ما قالوا فيهما بأنه ظلم وزور وأن ما يتلوه عليه هذا النبي الكريم من ذلك الكتاب الحكيم ليس مما يكون الا من خالق المخلوقات العالم بأسرارها •

اسلوب في البيان :

لقد جاؤوا الظلم والزور في قولهم الاول وقوله الثاني : « قل » أمر بما يرد قولهم الأول وقولهم الثاني • غير أنه قصد الى الايجاز وعدم التكرار فجعل مع قولهم الاول الوصف وهو الظلم واكتفى بـذكره هنا عن اعادته وجعل مع قولهم الثاني الدليل وهو انزال من يعلم السر واكتفى بذكره هنا عن ذكره مع الأول فحذف من كل ما أثبتمع الآخر • وجعل الوصف مع الاول والدليل مع الثاني ترقياً من الدعوى للدليل •

وجه الدليل :

القرآن أعجز العرب ببلاغته حتى عرفوا وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم انه ليس مثله من طوق البشر • هذه هي الناحية الظاهرة في اعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتى به صلى الله عليه وآله وسلم • وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعم وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كل ذي فهم من جميع الامم في كل قطر وفي كل زمن • وهذه الناحية هي التي احتج بها في هذا الموطن • فقد استدل على ان القرآن لايمكن أن يكون أتى به محمد من عنده ولايمكن أن يستعين عليه بغيره ولا أن يكون من أوضاع الاوائل – بانه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها الا خالقه فمن ذلك ما أنبأ به من أسرار الامم

الخالية وبين من أسرار الكتب الماضية وما أنبأ من أحداث مستقبلة وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة كالزوجية في كل شيء وسبح الكواكب في الفضاء وسير الشمس الى مستقر مجهول معين عند الله لها وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع وما تصلح عليه حياة الانسان مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء الى اليوم والى ما بعد اليوم • فكتاب اشتمل على كل هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق •

ترغيب :

قد دعانا الله الى العلم ورغبنا فيه في غير ما آية وأعلمنا انه خلق لنا ما في السموات وما في الارض جميعاً وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا ، وأعلمنا هنا ان في هذه المخلوقات أسراراً بيّنها القرآن واشتمل عليها وكان ذلك من حجته العلمية على الخلق فكان في هذا ترغيب لنا في التقصي في العلم والتعمق في البحث لنطلع على كل ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الاسرار : أسرار آيات الاكوان والعمران وآيات القرآن فنزداد علماً وعرفاناً ونزيد الدين حجة وبرهانا ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم ، فيعظم شكرنا للرب الكريم المنعم •

فقهنا الله في كتابه ، ووفقنا الى الاهتداء به ، والسير على سننه [1] •

● ●

---

(١) ش : ج ٣ ، م ١٣ ، ص ١١٦ ــ ١٢٠ .
غرة ربيع الاول ١٣٥٦ هـ ــ ٢ ماي ١٩٣٧ م .

منزلة الرسالة العلية والضرورات البشرية

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ... »[1] .

المناسبة :

لما طعنوا في رسالته بأنه بشر يفعل ما يفعله البشر بقولهم « مالِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ »[2] رد الله عليهم بان هذا هو حال جميع المرسلين من قبله ، واحتج عليهم بما يعملون من ذلك بما يسمعون من أهل الكتاب جيرانهم وبما عندهم من أخبار عاد وثمود من بني جلدتهم .

المفردات :

الارسال : هو البعث لتبليغ شيء أو قضائه . وفي لسان الشرع هو انزال الله تعالى الوحي على من اصطفاه من خلقه لينذر به من امره بانذاره من قوله تعالى :

« وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » [3] .

فالرسالة وحي مع أمر التبليغ .

---

(١) ٢٠/٢٥ الفرقان .

(٢) ٧/٢٥ الفرقان .

(٣) ١٩٢/٢٦ ــ ١٩٤ الشعراء .

التراكيب :

مفعول أرسلنا محذوف تقديره رجالا ، وعليه عاد الضمير في انهم ، وهو صاحب الحال ، والحال هي الجملة التي بعد الا ، والجملة الثانية حال بالعطف على الأولى ، والاستثناء مفرغ من الأحوال وتقدير الكلام : وما أرسلنا قبلك رجالا من المرسلين الا حالة أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق • أي ما أرسلناهم في حالة من الأحوال الا في هذه الحال • وان اللام والحصر بما والأكل هذه لتأكيد المعنى الذي سيق اليه الكلام ، وهو اثبات أن رسول البشر لا يكون الا بشراً رداً على منكري ذلك من المشركين ، وعبَّر بالمضارع في يأكلون ويمشون لأن ذلك من ضروريات بشريتهم ، فهو يتجدد ويتكرر منهم ، وأكل الطعام والمشي في الأسواق كناية من البشرية ، لأنهما وصفان لازمان لها •

المعنى :

وما ينكر عليك هؤلاء من أكلك الطعام ومشيك في الأسواق مع أنك رسول الله ، وقد علموا انه ما من رسول كان قبلك الا وهذه حالته ، وما أنت الا واحد منهم فلا عيب عليك في ذلك ولا حجة لهم عليك به •

تاريخ :

هذه المقالة شنشنة قديمة من الأمم التي أرسلت اليها الرسل فقابلتها بالجهل والعناد فقد قال لنوح قومه : « مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا »[1] وقال لهود قومه : « مَا هذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا

(١) هود ١١/٢٧ •

تَشْرَبُونَ » (١) ولصالح : « مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا » (٢) ولشعيب : « ومَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا » (٣) ولموسى وهرون : « أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا » (٤) وفي سورة ابراهيم عن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم انهم قالوا لرسلهم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا » (٥) فقال المشركون للنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ما قاله أمثالهم لاخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام .

تعليل :

ما اعترض المعترضون على الرسل ببشريتهم الا من جهلهم وسوء نظرهم وغباوتهم ، أما جهلهم فقد جهلوا ما في البشرية من استعداد لنيل أرقى الكمالات وجهلوا ما تقتضيه الرسالة منمشاكلة بين الرسول والمرسل اليهم لتحصل المفاهمة والاتصال . وجهلوا ما يؤهل به البشر لرتبة الرسالة من كمال في الروح والعقل ، والأخلاق والسلوك مما كان الرسل متصفين به كله أمام أعين أقوامهم ، واما سوء نظرهم فانهم نظروا الى بشرية الرسل فقاسوهم بهم وقالوا لهم أنتم مثلنا مع وجود الفارق الواضح بينهم وبين الرسل في الصفات النفسية التي بها كمال الانسان ، واما غباوتهم فانهم لغلبة الجسمانيات على حسهم واهمالهم استعمال عقولهم لم يتفطنوا للكمال المشاهد الذي امتاز به الرسل بين اقوامهم .

---

(١) ٣٣/٢٣ المؤمنون .

(٢) ١٥٤/٢٦ الشعراء .

(٣) ١٨٦/٢٦ الشعراء .

(٤) ٤٨/٢٣ المؤمنون .

(٥) ١٠/١٤ ابراهيم .

تعليـم :

هذه العلل التي تصدر أعتراض المعرضين عنها قد علمنا الله تعالى في كتابه العزيز ما يعصمنا منها ، فعلمنا ان الانسان مستعد لأن تخضع له العوالم بما فيه روح الله وانه يلتحق بعـالم الملائكة الاطهار بتلك الروح عندما تكون على أصل طهرها وقدسها ، علمنا هذا بقوله تعالى : « فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَـهُ سَاجِدِينَ » [1] فأخضع له ملائكته أشرف العوالم وبقوله تعالى : « قَـالَ يَـا آدَمُ أَنبِئْهُم بِـأَسْمَـائِهِمْ » [2] فاتصل بهم وخاطبهم وعلمهم ، فـلا عجب أن يـأتي المـاثلون لـه من أبنائه في طهره وعصمته على سنته في الاتصال بالملائكة ومخاطبتهم ، وعلمنا ان الرسول لا يكون الا من جنس المرسل اليهم ليحصل الاتصال ويمكن التلقي ، وان أهل الارض لو كانوا ملائكة لأرسل لهم ملك وأنهم لو أنزل عليهـم ملك وهم بشر لكسي حلة البشرية ولا التبس عليهم أمره ولقالوا فيه مثل ما قالوا في المرسلين من البشر . علمنـا بقوله تعالى : « قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً »[3] وبقوله تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » [4] . وعلمنـا أن البشر يؤهل للرسالة باصطفاء الله تعالى له ومن مقتضى ذلك الاصطفاء تطهيره من أول نشأته من أوضار البشرية وظلم الجسمانية وتسفلها فتبقى روحه

---

(١) ٢٩/١٥ الحجر و ٧٢/٣٨ ص .

(٢) ٣٣/٢ البقرة

(٣) ٩٥/١٧ الاسراء

(٤) ٩/٦ الانعام .

على غاية الطهر والعلوية النورانية مستعدة للاتصال بالملأ الأعلى حتى تستكمل قواها فيأتيها الملك بالوحي . علمنا هذا بمثل قوله تعالى : « اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ » (1) وقوله : « وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ » (2) . وقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ »(3) وقوله : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » (4) وغيره كثير . وعلمنا ان الرسل وان كانوا موافقين لنا في الخلقة البشرية فانهم مباينون لنا غاية المباينة في الخلقة النفسية من حيث الطهر والكمال . فنفوسهم بقيت على طهرها لم تدنس بشيء ونفوسنا لا تخلو من تدنس ، والموفق من داوم على غسلها بالتوبة وتحليتها بالصالحات ، وكمالهم فطري ويبلغون فيه بعملهم المتواصل وعصمتهم الربانية الى الغايات التي لا تنال وكمالنا ليس كذلك في الامور الثلاثة الفطرة والعمل المتواصل والعصمة .

علمنا هذه بقوله تعالى : « إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »(5) فبالنظر الصحيح فيما من الله عليهم به ندرك انهم ليسوا مثلنا وان ساوونا في الخلقة البشرية . وعلمنا ان لا ننظر الى ظواهر الامور دون بواطنها والى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية بل نعبر من

---

(1) ٢٢/٧٥ الحج .

(2) ٣٨/٤٧ ص .

(3) ٣/٤٢ آل عمران .

(4) ٦/١٢٤ الانعام .

(5) ١٤/١١ ابراهيم .

الظواهر الى البواطن وننظر من المحسوس الى المعقول ونجعل حواسنا خادمة لعقولنا ونجعل عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير •

وعلمنا هذا بقوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » (١) فلا ينظر الى بهرجة الكثرة ولكن الى حقيقة وحالة الشيء الكثير فيعتبر بحسبهما وبقوله : « فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ، كَلَّا » (٢) فلا يجوز أن نغتر بالمال والقوة والجاه وأنواع النعيم اذا سيقت الينا فنحسب انها هي نفس الكرامة الربانية التي دعينا الى العمل لنيلها بل انما نعدها كذلك اذا كان معها التوفيق الى شكرها بالقيام بحقوقها وصرفها في وجوهها •

ولا نغتر بحالة الضيق والعسر والضعف فنحسب انها اهانة من الله لصاحبها بل علينا أن ننظر الى ما معها من صبر ورجاء وبر أو ضجر ويأس وفجور فنعلم حينئذ انها مع الاولى للتمحيص والتثبيت ومع الاخيرة للزجر والعقاب بعدل وحكمة من احكم الحاكمين • وبقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ » (٣) فعلمنا انه بشر ولكنه خصص بالوحي اليه بتوحيد الله وبما يقتضيه من مقام الإيحاء إليه من طهر وكمال حتى لا تحجب عنا بشريته التي نشاهدها بابصارنا كمال حاله ومنزلته الذي ندركه ببصائرنا •

---

(١) ٥/١٠٣ المائدة .

(٢) ٨٩/١٥ ـ ١٧ الفجر .

(٣) ١٨/١١١ الكهف و ٤١/٦ السجدة .

عقيـدة :

الرسول انسان ذو روح طاهرة نورانية علوية بها تأتى له تلقي الوحي من الملائكة وذو جسد بشري عليه ضروريات البشرية الخلقية دون نقائصها الكسبية لأنه مصرف بتلك الروح العلوية الظاهرة التي لا يصدر عنها إلا الخير ، وبهذا الجسد البشري تأتي للبشر الأخذ عنه والاقتداء به ومأخذ هذه العقيدة من الآيات التي تلوناها في فصل التعليم المتقدم •

تحـذير :

علينا أن نحذر من أن نعترض أو نحكم بالأنظار السطحية دون بحث عن الحقائق أو أن نلحق شيئاً بشيء دون أن نتحقق انتفاء جميـع الفوارق • فقد انتشرت بعدم الحـذر من هـذين الأمرين جهالات وارتكبت ضلالات ، وبالنظر السطحي ازدرى ابليس آدم فامتنع من السجود له واعترض على خالقه فكانت عليه اللعنة الى يوم الـدين وبعدم النظر الى الفوارق قال أحد ابني آدم لأخيه لما تقبل قربـانه دونه هو (لاقتلنك) حتى ذكره أخوه بوجود الفارق فقال : « إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ »[1] وحقيقة الاول ترجع الى الجهل المركب وحقيقة الثاني ترجع الى القياس الفاسد وهما أعظم أصول الفساد والضلال •

سلوك :

الأنبياء والمرسلون أكمل النوع الانساني وهم المثل الاعلى في كماله وقد كان أصل كمالهم بطهر أرواحهم وكمالها فأقبل على روحك بالتزكية والتطهير والترقية والتكميل ولا سبيل الى ذلـك الا بالاقتداء بهم

(١) المائدة ٣٠/٥ .

والاهتداء بهديهم وقد قال الله تعالى لنبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » [1] فاقرأ ما قصه القرآن الكريم من أقوالهم وأعمالهم واحوالهم وسيرهم وتفقه فيه وتمسك به تكن — ان شاء الله تعالى — من الكاملين[2] .



(١) ٦/٩٠ الانعام .

(٢) ش : جـ ١ ، م ٧ ، ص ١ — ٧
غرة رمضان ١٣٥٠ هـ — جانفي ١٩٣٢ م .

فتنة العباد بعضهم ببعض

« وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً »[1] .

المناسبة :

أفاد ما تقدم من الآية ان الرسل يأكلون الطعام فيحتاجون للغذاء وتحصيله ، وأنهم يمشون في الأسواق للسعي والتكسب ، وأفاد آخر الآية الحكمة الربانية في ذلك ، وهو أن يكون بذلك فتنة واختبارا للعباد ، وتلك سنة الله تعالى في خلقه ، فقد جعل بعضهم لبعض فتنة .

المفردات :

قال في (لسان العرب) : الأزهري وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب اذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد اهـ ، ومنه قوله تعالى : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ »[2] و « إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ »[3] و « وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً »[4] و « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّر

---

(١) ٢٥/٢٠ الفرقان .

(٢) ٢٩/٢ العنكبوت .

(٣) ٨/٢٨ الانفال و ٦٤/١٥ التغابن .

(٤) ٢٠/٤٠ طـه .

وَالخَيْرِ فِتْنَةً »(1) . (أتصبرون) : الصبر حبس النفس على المكروه . والمكروه لها فعل ما فيه تعب ، وترك ما فيه لذة . ويكون في المشروع والمقدور ، ففي الأول بالقيام بالمأمورات والترك للمنهيات . وفي الثاني ـ وهو المصائب والبلايا ـ بالرضا والتسليم للخالق وعدم الاعتراض عليه وعدم السعي في ازالتها بغير الوجه المأذون فيه . و (الصبر) : هو المشاهد للأشياء ظاهرها وباطنها ، ذواتها ونعوتها وأحوالها ، مبادئها وغاياتها وعواقبها .

التراكيب :

الاستفهام في (أتصبرون) بمعنى الأمر ، أي اصبروا . وخرج الأمر في صورة الاستفهام تنبيهاً على قلة الصبر في الوجود فهو من الامر المعدوم الذي يسأل عنه هل يوجد ، وفي ذلك بعث للهمم على تحصيله والتمسك به . وجملة (وكان ... الخ) معطوفة على جملة « وَجَعَلْنَا » وعدل عن مقتضى الظاهر ، وهو وكنا بصراء بالاضمار الى « وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً » بالاظهار للتنبيه على أن فتنته لعباده من مقتضى ربوبيته لهم وحسن تدبيره فيهم . موقع هـذه الجملة بعد الجملة الأولى لبيان أن فتنته لهم هي من علم وبصر بصواب ذلك وحكمته ، وانه مطّلع على حقيقة ما يكون منهم عند الاختبار ليجازيهم عليه ، وفي هذا وعد ووعيد للمتحنين .

المعنى :

امتحنا بعضكم ببعض لتظهر حقائقكم عند الامتحان . جعلنا الرسل يأكلون كما يأكل البشر ويتكسبون كما يتكسبون لنمتحن العباد بهم فيظهر من يتبعهم بالايمان واليقين لما معهم من الحق والكمال

---

(1) 21/35 الانبياء .

ويصبر على ما يلحقه في أتباعهم من الجهد والبلاء ممن يحتقرهم ويعرض عنهم لما يرى من بشريتهم ، كما جعلنا الأمم فتنة لرسلها وامتحاناً لهم ليظهر صبرهم على ما يلاقون منهم من إذاية وشر ، فتعلو درجاتهم ويضاعف أجرهم • وجعلنا الغني امتحانا للفقير حتى يظهر صبره على حاله وكفه لعينْه ويده عن شيء غيره ، كما جعلنا الفقير امتحانا للغني حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه ، وجعلنا الصحيح فتنة للمريض حتى يظهر صبره على بلواه ورضاء بما أعطاه الله ، كما جعلنا المريض فتنة للصحيح حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه من العطف عليه وعيادته ومواساته : وجعلنا الرعية فتنة للراعي حتى يظهر صبره على القيام بواجب رعايتها ، كما جعلنا للراعي فتنة للرعية ليظهر صبرها على طاعته ، وهكذا في جميع أقسام الناس • أتصبرون على هذا الامتحان فان الصبر عليه عزيز شديد فاصبروا فانه لا يخرجكم من هذا الامتحان خالصين خلوص الذهب الإبريز الا الصبر ، وكان ربك يا محمد بصيرا عالما بعاقبة الامتحان في عباده ، مطلعا على كل ما يكون منهم عند الامتحان ليجازيهم عليه •

سؤال وجوابه :

الله تعالى عالم بما يكون من عباده بعد امتحانهم قبل ان يمتحنهم فما هي حكمة الامتحان ؟ والجواب : ان الله تعالى انما يحاسب عباده على ما عملوا وكسبوه واكتسبوه بما عندهم من التمكن من الفعل والترك وما عندهم من الاختيار لا على ما علمه منهم قبل أن يعملوه ، فلهذا يمتحنون لتظهر حقائقهم ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم ، ولا حجة لهم في تقدم علمه تعالى بما يكون منهم ، لان تقدم العلم لم يكن ملجئاً لهم على أعمالهم ، ففي هذا الامتحان قيام حجة الله على العاملين أمام أنفسهم وأمام الناس ، كما فيه اظهار لحقيقتهم لانفسهم ولغيرهم •

تطبيق :

كما يفتن الفرد بالفرد كذلك تفتن الأمة بالأمة ، من ذلك أننا ــ معشر الأمة الاسلامية ــ قد فتنا بغيرنا من أمم الغرب وفتنوا هم أيضا بنا . فنحن ندين بالاسلام وهو دين السعادة الدنيوية والاخروية ، ولكن حيثما كنا ــ الا قليلا ــ لسنا سعداء لا في مظاهر تديننا ولا في أحوال دنيانا ، ففي الأولى نأتي بما يبرأ منه الاسلام ونصرح بانه من صميمه . وفي الثانية ترانا في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد يرثي لها الجماد ، فلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الاسلام ويسخرون منه الا من نظر منهم بعين العلم والانصاف فانه يعرف ما نحن عليه هو ضد الاسلام ، فكنا فتنة عظيمة عليهم وحجابا كثيفا لهم عن الاسلام ، فكنا ــ ويا للأسف ــ فتنة للقوم الظالمين . وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة ، وتقدم علمي عمراني فننظر الى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء حتى معائبهم ومفاسدهم ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز الا من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير هو عندنا في ديننا وتاريخنا ، وان ذلك هو هو الذي تقدموا وسادوا به وان ما عندهم من شر هو شر على حقيقته وان ضرره فيهم هو ضرره وانه لا يجوز ان يتابعوا عليه فكانوا فتنة لنا حتى يظهر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر فتسلبه ادراكه فيغدو لا يفرق بين اللب والقشور .

اقتـداء :

علمنا من هذه الآية وغيرها ان الله تعالى يمتحن عباده ويختبرهم ليظهر حقائقهم ، فلنقتد به تعالى في هذا فنبني أمورنا على الامتحان والاختبار فلا نقرر علما ، ولا نصدر حكماً الا بعد ذلك وخصوصا في معرفة الناس والحكم عليهم ، فالظواهر كثيرا ما تخالف البواطن

والتصنع والتكلف قلما يسلم منهما أحد ولا يعصم من الخطأ مع هذه المغالطات كلها الا الامتحان والاختبار فاعتصم بهما •

اهتـداء :

كل من اتصل بك من أهلك وبنيك وأبيك وأمك وأصحابك وعشيرتك وقومك وكل من ترتبط به برباط من أبناء جنسك — هو فتنة وامتحان لك هل تقوم بواجبك نحوه من جانب خير له أو دفع شر عنه أو جلب خير منه لغيره أو دفع شره عن غيره • وهل تكف يدك عن شيئه وتكف بصرك عما متع به وتسأل الله مما عنده من فضله ؟ وانما تقوم بواجبك نحوه مما تقدم وتكف يدك وعينك عنه وتسأل الله مما عنده راضياً بما قسم لك معتقداً الخير كل الخير في قسمته — اذا تذرعت بالصبر على اتيان ما يطلب منك اتيانه وان كان عليك ثقيلا • والكف عما يطلب منك الانكفاف عنه وان كان منك قريباً وفي طبعك لذيذاً ، وانما يكون لك هذا الصبر اذا كنت دائم اليقين بعلم الله بك واطلاعه عليك وانه كان بك بصيرا •

هذه الحقائق كلها هدتنا هذه الآية الكريمة اليها : هدتنا الى أنّا امتحنا ببعضنا ، وان الذي يخلصنا في هذا الامتحان ويخرجنا سالمين هو الصبر ، وان حالتنا في الامتحان منكشفة لمن سيجازينا عليها • فلنهتد بهدايتها الى ما هدتنا اليه ، ولنتدرع في هذا الامتحان بالصبر المتين ولنستحضر في قلوبنا مراقبة الله لنا لتثبت قدمنا في مقام الصبر بروح اليقين ، فبذلك نخرج — إن شاء الله تعالى — من نار الفتنة ذهبا خالصا نقيا ، وجوهرا طيبا زكيا فنسعد في الدارين برضى رب العالمين ، والله ولي التوفيق [1] •

---

(١) ش: ج ١ ، م ٨ ، ص ٧ — ١٢
غرة شوال ١٣٥٠ — فيفري ١٩٣٢

ندامة الظالم

على تركه السبيل القويم وصحبته للمضلين

« وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسانِ خَذُولاً » [1] .

المناسبة :

لما سأل المشركون أن يروا الملائكة أخبروا بأنهم سيرونهم في يوم يكون شره عليهم عظيما . وذكر في الآيات السابقة ما يكون في ذلك اليوم من حبوط أعمالهم وتشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة وغير ذلك ، وذكر في هذه الآيات ما يكون في ذلك اليوم من ندم الظالم وسوء حاله .

المفردات :

الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، كوضع الكفر موضع الايمان ، ووضع المعصية موضع الطاعة . وحق الله تعالى أن يؤمن به ويوحد ويطاع ، فمن كفر أو أشرك به أو عصاه فقد ظلم . وهو هنا الكافر والمشرك لأنه الذي لم يتخذ مع الرسول سبيلا . الويلة : الهلكة كالويل بمعنى الهلاك ، فلان : يكنى به عن الأعلام كما يكنى بالهن

---

(١) ٢٥/٢٧ ـ ٢٩ الفرقان .

عن الأجناس • الخليل : فعيل بمعنى فاعل ، وهو من تخللت مودته القلب وامتزجت بالنفس فكانت له مكانة منهما وسلطان عليهما • هذا في جانب الخلق وأما في جانب الله تعالى فبالمعنى الذي يليق بقدسه وتنزيهه فابراهيم ــ عليه السلام ــ خليل الرحمن بما له عنده تعالى من عظيم المنزلة ورفعة الشأن وقبول الدعوة وما له عليه من جزيل الإنعام • الاضلال : الصد والصرف عن طريق الحق والنجاة • الذكر : القرآن العظيم ، وفسر بالشهادتين وبالاسلام ، والقرآن فيه ذلك كله وهو الذي سيأتي على الأثر ذكر هجرهم له ، ولذلك اخترناه في معنى الذكر هنا • الشيطان : الخبيث الشرّير الذي استولى عليه وتمكن منه خلق الافساد، والاضرار من الجن والانس • الخذول : الكثير الخذل أي التسليم والترك لمن نزل به البلاء في وقت الحاجة الى انقاذه •

التراكيب :

شأن من وقع في غيظ وحسرة وندامةٍ أن يعض يديه ويأكل بنانه كأنه لمّا لم يجد شيئا يطفىء فيه غيظه رجع على نفسه بذلك ، فعض اليد لازم لحالة الحسرة والغيظ والندامة ، فلذا يكنى به عنها من إطلاق اللازم وارادة الملزوم ، وذلك لا يمنع من وقوع العض منه حقيقة بل وقوع ذلك هو الشأن الغالب • وجملة (يقول يا ليتني) حالية فهو يعض حالة كونه قائلا يا ليتني فبينت هذه الجملة ما يقول كما بينت التي قبلها ما يعمل ، فصورتاه في حاله الشنيع الفظيع • ويوم : منصوب بأذكر أو معطوف على « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ » كما عطف عليه « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ » ويوم يرون : منصوب بأذكر أو بيمنعون البشرى كما يدل عليه « لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ » والتنكير في قوله « سَبِيلاً » للافراد أي سبيلا واحداً لا تعدد فيه ، بخلاف ما كان عليه الظالم من سبل أهوائه

المتعددة المتشعبة ، والألف في « يا ويلتى » منقلبة عن ياء المتكلم ، والأصل يويلتي ، نادى ويلته أي هلكته لتحضر في ذلك الوقت لأنه وقتها وليس نداؤها رغبة في حضورها ، فالهلاك لا يرغب فيه وانما نادى الهلاك ليحضر لما حصل له من اليأس والقنوط من أسباب النجاة ، فلم يبق له الا الهلاك ، كما يقول العليل للطبيب وقد آيس من معالجة جرح بيده مثلاً : اقطع فهذا وقت القطع ، وهكذا يخرج كل نداء في حالة شدة لما لا يخلص منها ، وانما يزيد في اشدادها كما ينادي الشقي (يا شقوتاه) والمفتضح (يا فضيحتاه) والمصاب (يا مصيبتاه) وكنى بفلان لأن لكل ظالم خليلا له اسمه الخاص فلا يمكن التصريح بأسماء الجميع ، فما بقي الا الكناية عنها بفلان ، وجملة « لَقَدْ أَضَلَّنِي » بيان لسبب تمنيه السابق وأل في الشيطان والانسان للجنس ، فيدخل في جنس الشيطان خليل الظالم الذي صده عن الذكر وقرين خليله من الجن الذي سول له ذلك وأعانه . وقرينه هو الذي زينه له ودعاه اليه ، والجملة من كلام الظالم لإعلان خيبته واظهار ألمه منها لما وجد نفسه وحده مخذولاً ممن أضله وأغواه .

المعنى :

ويوم يعض الظالم لنفسه بالكفر لربه أو الشرك على يديه ندماً وحسرة على تفريطه وعدم اتباعه لسبيل الحق مع الرسول الذي أرسل اليه وعلى توريطه لنفسه بصحبته لخليله وطاعته له حتى صرفه عن الايمان بالقرآن بعد ما جاءه وسمعه وتمكن من الإيمان به فأغواه ذلك الخليل وقرينه ، وقرينه[1] هو حتى أردوه ثم خذلوه في ذلك اليوم العظيم وفي وقت الحسرة والندامة فلم يجد منهم نصراً ولا معونة كما هو شأن الشياطين في خذلان من يغووه ويردوه[2] .

(١ و ٢) كذا في الاصل .

الحاق واعتبار :

كما علينا أن نتبع سبيل الرسول ـــ عليه وآله الصلاة والسلام ـــ التي جاء بها من عند الله ـــ تعالى ـــ وهي الإسلام كذلك علينا أن نتبع سبيله في القيام بشرائع الإسلام علماً وعملاً في أبواب العبادات وأحكام المعاملات ، وفي تطبيق أصول الاسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة ، وهذه هي سنته التي كان عليها وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثاني من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين ، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم . وكما أن من عدل عن الاسلام ولم يسلك سبيله وقع في ضلال الكفر كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل الاسلام يندم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان من تفريطه كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنّة اذ كل منهما قدظلم نفسه وفرط في سبيل نجاته . فالآية وان كانت في الكافر والمشرك فهي تتناول بطريق الاعتبار أهل الأهواء والبدع ، وبهذا كانت متناولة بوعظها وترهيبها جميع الخلق ممن لم يدخل في الاسلام أو دخل فيه ، ولم يلتزم سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم .

تحـذير :

عندما تتخلل محبة شخص من الناس قلبك وتمتزج بروحك ويستولي بسلطان مودته عليك تصير أقواله وأفعاله كلها عندك مرضية وعيوبه ونقائصه عنك محجوبة . فتمسي طوع بنانه ورهن اشارته ، يوجهك حيث شاء ، ويصرفك عما أراد . وهـذه حالة من أخطر الأحوال عليك لانك فيها قد سلبت تمييزك وخسرت ارادتك وصرت آلة في يد غيرك ، فقد ترى الخير وتدعى اليه فيصرفك عنه ، وقد ترى الشر وتحذر منه ويوقعك فيه ، وهب هذا الخليل كان مخلصاً لك وحدبا عليك فانه غير معصوم من الخطأ والضلال ، أما اذا كان شريراً مفسداً فهنالك الهلاك المحقق والوبال الشديد ، وقد ذكر لنا الله ـــ تعالى ـــ في

هذه الآية ما كان من سوء مآل الظالم بسبب انقياده لخليله واتباعه له عن غير روية وصدق تمييز يحذرنا من سلطان الخلة الذي يهمل معه شأن الإرادة والتمييز ويعلمنا أنّ علينا أن نحافظ على ارادتنا وتمييزنا ونظرنا لأنفسنا مع الصديق والعدو ، ومع الخليل وغير الخليل ، بل نحافظ عليهما مع الخليل أكثر لانه مظنة الخوف بما له من المكانة في القلب والسلطان على النفس •

ارشاد :

لما كان خليل المرء بهذه المنزلة فعليك أن تختار من تخال ، فلا تخال الا من حسنت سريرته واستقامت سيرته وغلب الصواب على أقواله وأعماله ليكون دليلك الى الخير وسائقك اليه ، مع محافظتك على ارادتك وتمييزك معه على كل حال •

علامة :

اذا أردت أن تعرف شر خلانك وأحقهم بهجرك له وابتعادك عنه فانظر فيما يرغبك هو فيه وما يرغبك عنه ، فاذا وجدته يرغبك عن القرآن وعما جاء به القرآن فاياك واياه فتلك أصدق علامة على خبثه وسوء عاقبة قربه ، فابتعد عنه في الدنيا قبل أن تعض على يديك على صحبتك له في الأخرى • واذا وجدته يرغبك في القرآن وما جاء به القرآن فذلك الخليل الزكي الصادق فاستمسك به وحافظ عليه • وان خلة أسست على الرجوع الى القرآن والتحاب على القرآن والتناصح بالقرآن لخلة نافعة دنيا وأخرى لانها أسست على أساس التقوى • وقد قال الله تعالى : « الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ »(١)(٢) •

---

(١) ٤٣/٦٧ الزخرف •

(٢) ش : ج ٢ ، م ٨ ، ص ٦٣ — ٧٥
غرة شوال ١٣٥٠ — فيفري ١٩٣٢

شكوى النبيِّ الكريم

من هجر القرآن العظيم

« وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً »[1] .

المناسبة :

لما ذكر تعالى ما قاله المشركون من الباطل في معارضة القرآن والاعراض والصد عنه وما قالوه من عبارات الحسرة والندامة يوم القيامة على ما كان منهم من ذلك في الدنيا ذكر ما قاله النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من الشكوى لربه بهم من تركهم للقرآن العظيم وهجره .

المفردات :

مهجورا : متروكا مقاطعا مرغوبا عنه . الرسول : محمد صلّى الله عليه وآله وسلم . وقومه : قريش .

التراكيب :

في قوله « يا رب » اظهار لعظيم التجائه وشدة اعتماده وتمام تفويضه لمالكه ، ومدبر أمره وموالي الإنعام عليه . وفي التعبير عنهم بقومه واضافتهم إليه ، وفي التعبير عن القرآن باسم الإشارة القريب ،

---

(١) ٢٥/٣٠ الفرقان .

بيان لعظيم جرمهم ، فتركهم للقرآن وهو قريب منهم في متناولهم وقد أتاهم به واحد منهم أقرب الناس اليهم • فصدوا وأبعدوا في الصد عمن هو اليهم قريب من قريب • وهذا أقبح الصد وأظلمه • وفي قوله : « اتّخَذُوا ••• الخ » بيان أنهم جعلوا الهجر ملازماً له ووصفاً من أوصافه عندهم ، وذلك أعظم من أن يقال هجروه ، الذي يفيد وقوع الهجران منهم دون دلالة على الثبوت والملازمة •

المعنى :

وقال الرسول شاكياً لربه إن قومي الذين أرسلتني اليهم بالقرآن لأتلوه عليهم قد صدوا عنه فتركوه وثبتوا على تركه وهجره •

استنتاج واعتبار :

في شكوى النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ من هجر القرآن دليل على أن ذلك من أصعب الأمور عليه وأبغضها لديه ، وفي حكاية القرآن لهذه الشكوى وعيد كبير للمهاجرين بانزال العقاب بهم إجابة لشكوى نبيه ، ولما كان الهجر طبقات أعلاها عدم الايمان به فلكل هاجر حظه من هذه الشكوى وهذا الوعيد •

تنزيل :

ونحن ــ معشر المسلمين ــ قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل وإن كنا به مؤمنين • بسط القرآن عقائد الايمان كلها بادلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة واشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة • وبيّن القرآن أصول الاحكام وأمهات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح

الخاص والعام فهجرناها واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر ، جافة بلا حكمة ، محجبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفني الأعمار قبل الوصول إليها ، وبيَّن القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوىء الأخلاق ومضارها ، وبيَّن السبيل للتخلي عن هذه والتخلي بتلك مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة بقدسيتها فهجرنا ذلك كلها [1] ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع، وعن السنة البيضاء الى الأحداث والتبدع ، وأدخلنا فيها من النسك الاعجمي ، والتخيُّل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الاسلام ، وألقي بين أهلها بذور الشقاق والخصام وآل الحال بهم الى الخروج من أثقال أغلالها والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها ومعارضة هداية القرآن بها . وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ونبهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة لننظر ونبحث ونستفيد ونعمل ، فهجرنا ذلك كله الى خريدة العجائب وبدائع الزهور والحوت والصخرة وقرن الثور ! ودعانا القرآن الى تدبره وتفهمه والتفكر في آياته ، ولا يتم ذلك الا بتفسيره وتبيينه ، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبينه ، فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير ، كتفسير الجلالين ، مثلاً بل ويصير مدرسا متصدرا ولم يفعل ذلك . وفي جامع الزيتونة عمره الله — تعالى — اذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير فانه — ويا للمصيبة — يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب انه فرغ منها من قبل ، فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهورا ، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه الا قليلا دون أن

(١) كذا في الاصل .

يحصل على شيء من حقيقة التفسير ، وانما قضى سنته في المماحكات بدعوى انها تطبيقات للقواعد على الآيات ، كأن التفسير انما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية • فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن •

وعلّمنا القرآن أن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ هو المبين للناس مانزل اليهم من ربهم ، وأن عليهم أن يأخذوا ما أتاهم وينهوا عما نهاهم عنه ، فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن ، فهجرناها كما هجرناه وعاملناه بما عاملناه ، حتى إنه ليقل في المتصدرين للتدريس من كبار العلماء في أكبر المعاهد من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها مطالعة فضلا عن غيرهم من أهل العلم وفضلا عن غيرها من كتب السنة • وكم وكم وكم بيّن القرآن وكم وكم وكم قابلناه بالصد والهجران •

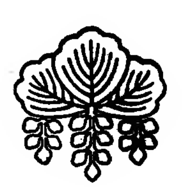
بيان واستشهاد :

شر المهاجرين للقرآن هم الذين يضعون من عند أنفسهم ما يعارضونه به ويصرفون وجوه النّاس اليهم والى ما وضعوه عنه ، لأنهم جمعوا بين صدهم وهجرهم في أنفسهم وصد غيرهم ، فكان شرهم متعديا وبلاؤهم متجاوزاً وشر الشر وأعظم البلاء ما كان كذلك ، وفي هؤلاء جاء ما ذكره الإمام ابن القيم في كتاب (أعلام الموقّعين) عن حماد بن سلمة ثنا ايوب السختياني عن أبي قلابة عن يزيد بن أبي عميرة عن معاذ بن جبل قال : **« تكون فتن فيكثر المال ويفتح القرآن حتي يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير والمنافق والمؤمن فيقرؤه الرجل فلا يتبع فيقول والله لأقرأنّه علانية فلا يتبع فيتخذ مسجداً ويبتدع كلاماً ليس من كتاب الله ولا من سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاياكم واياه فانه بدعة وضلالة »**

قاله معاذ ثلاث مرات اهـ فانظر في قطرنا وفي غير قطرنا كم تجد ممن بنى موضعا للصلاة ووضع كتباً من عنده أو مما وضعه أسلافه من قبله وروّجها بين أتباعه فأقبلوا عليها وهجروا القرآن • وربما يكون بعضهم قصد بما وضع النفع فأخطأ وجهه إذ لا نفع بما صرف عباد الله عن كتاب الله ، وإنما يدعى لله بكتاب الله ولذلك سمي صنيع هذا الواضع بدعة وضلالة ، وحذر معاذ منه وأكد في التحذير بالتكرير • وهذا الحديث وان كان موقوفاً على معاذ فهو في حكم المرفوع لانه اخبار بمغيب مستقبل ، وهذا ما كان يعلمه الصحابة — رضوان الله تعالى عليهم — الا بتوقيف من النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — وقد تحقق مضمونه في المسلمين منذ أزمان ولا حول ولا قوة الا بالله •

سبيل النجاة :

لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوّع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع الى القرآن • الى علمه ، وهديه ، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه ، والتفقه فيه وفي السنة النبوية شرحه وبيانه ، والاستعانة على ذلك باخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين ، وهذا أمر قريب على من قربه الله عليه ييسّر على من توكل على الله فيه ، وقد بدت طلائعه والحمد لله وهي آخذة في الزيادة إن شاء الله وسبحان من يحيي العظام وهي رميم •



التسلية والتثبيت

للنبي صلى الله عليه وآله وسلم

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً »[1] .

المناسبة :

لما شكا عليه الصلاة والسلام قومه سلاه الله تعالى وعزّاه وأمره بالصبر والثبات ووعده ورجاه .

المفردات :

العدو : وزنه فعول يكون للواحد والجماعة .

التراكيب :

كاف كذلك بمعنى مثل ، والاشارة [2] للجعل المفهوم مما تقدم ، أي مثل ذلك الجعل للاعداء لك جعلنا لكل نبي ... الخ .

المعنى :

مثلما جعلنا لك أعداء من قومك كفروا بك وهجروا كتابك وصدوا عنك وبالغوا في اذايتك جعلنا لكل نبيء مما نبأنا أعداء من أهل الذنب والاجرام ، فما أصابك الا ما أصابهم فاصبر كما صبروا وكفى بربك

---

(١) ٢٥/٣١ الفرقان .

(٢) في الاصل : الاشار .

هادياً يهديك الى طريق الحق ويبصرك الرشد ويعرفك بما تؤدي به رسالة ربك ، فلا تتحير في أمرك لما ترى من صدود قومك وناصراً ينصرك على أعدائك يأمره بالصبر ويثبته بالتآسي ، يعده بأنه يهديه في طريق التبليغ وينصره على معارضيه حتى يتم أمر الله على يده .

ترهيب :

هؤلاء الذي[1] سماهم الله ــ تعالى ــ أعداء لنبيه ووصفهم بالاجرام هم أولئك الذين هجروا القرآن وصدوا عنه فهذا تخويف عظيم ووعيد شديد لكل من كان هاجراً للقرآن العظيم بوجه من وجوه الهجران .

اقتداء وتاس :

حق على حزب القرآن الداعين به والداعين اليه أن يقتدوا بالأنبياء والمرسلين في الصبر على الدعوة والمضي فيها والثبات عليها وأن يداووا أنفسهم عند ألمها واضطرابها بالتآسي بأولئك السادة الأخيار .

بشارة :

قد وعد الله تعالى نبيه بعد ما أمره بالتآسي والصبر ــ بالهداية والنصر ــ وفي هذا بشارة للدعاة من أمته من بعده السائرين في الدعوة بالقرآن والى القرآن على نهجه أنه يهديهم وينصرهم كما قال تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » [2] معهم بالفضل والنصر والتأييد ، وهذا عام للمجاهدين المحسنين والحمد لله رب العالمين [3] .

---

(١) كذا في الاصل وصوابه الذين .

(٢) ٢٩/٦٩ العنكبوت .

(٣) ش : ج ٢ ، م ٨ ، ص ٦٨ ــ ٧٥
غرة شوال ١٣٥٠ ــ فيفري ١٩٣٢

تثبيت القلوب بالقرآن العظيم

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً » (1) .

المناسبة :

هذا اعتراض آخر من اعتراضاتهم الباطلة نسق مع ما تقدم منها ليجاب عنه ويبين خطؤهم فيه كما فعل تقدمة .

المفردات :

« لو لا » : مع المضارع للتحضيض نحو « لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ » (2) ومع الماضي للوم والتوبيخ نحو « لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء » (3) وهي هنا مع الماضي فتكون للوم على عدم حصول المذكور وحصول ضده ، والمقصود من اللوم هنا الاعتراض على عدم نزوله جملة واحدة ونزوله مفرقا ، فالمعترض عليه هو نزوله مفرقا . (نزل) : يأتي مرادفاً لأنزل ، والتضعيف أخو الهمزة ، ويأتي مفيداً للتكثير فيفيد تكرر النزول وتجديده . وخرج على هذا قوله تعالى « نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً

---

(1) ٢٥/٣٢ الفرقان .

(2) ٢٧/٤٦ النمل .

(3) ٢٤/١٣ النور .

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ـ من الكتاب ـ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ » (1) وأما هنا فلا يصح حمله على التكثير المفيد للتدريج لئلا يناقض قولهم جملة واحدة ، فيكون من التضعيف المرادف للهمزة . وعندي أن « نزّل » المضاعف يرد لكثرة الفعل ولقوته ، فجاء لكثرته في آية آل عمران المتقدمة ، وجاء لقوته في هذه الآية ، لأن إنزال الجملة مرة واحدة أقوى من انزال كل جزء من الاجزاء بمفرده . (كذلك) : الاشارة للانزال المفرق المفهوم من قولهم « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً » لأنه في معنى : لمه نزل عليه جملة ولم ينزل عليه مفرقا . (التثبيت) : ثبات الشيء إقامته ورسوخه دون اضطراب وذلك من قوته ، كما ان اضطراب المضطرب من ضعفه ، فتفسير تثبيت الفؤاد هنا بتقويته تفسير يلازم معناه ، على أنه مراد منه أيضا أصل المعنى ، وهو السكون وعدم الاضطراب . فتثبيته ـ إذاً ـ هو تسكينه وتقويته . (الترتيل) : مادة رتل كلها ترجع الى تناسق الشيء وحسن تنضيده ، منه ثغر رتل ـ بالتحريك ـ أي مفلج بين الأسنان فرج لا يركب بعضها بعضا ، وترتيل القرآن في التلاوة هو القاء حروفه حرفا حرفا وكلماته كلمة كلمة وآياته آية آية على تؤدة ومهل حتى يتبين للقارىء وللسامع ، ولا يخفى عليه منه شيء ، وأما ترتيله في نزوله وهو المراد هنا فانه (2) انزاله آية وآيتين وآيات مفرقا نجوماً على حسب الوقائع .

التراكيب :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » وصل لأنه قيل من أقوالهم فعطف على ما تقدم من مثله « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ » الأصل أنزلناه كذلك

(1) ٣/٣ آل عمران .

(2) كذا في الاصل .

فأوجز بحذف المتعلق لوجود ما يدل عليه في اعتراضهم وفصل لأنه جواب عن اعتراضهم • (وَرَتَّلْنَاهُ) : وصل لأنه معطوف على أنزلناه المحذوف ، والتنوين في (ترتيلا) تنوين تنويع وتعظيم أي نوعا من الترتيل عظيما •

المعنى :

وقال الذين كفروا ــ وهم قريش أو اليهود أو الجميع ، وهو الظاهر لأن قريشاً واليهود كان يتصل بينهم الكلام في شأن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وشأن القرآن ــ قالوا معترضين ومقترحين : لمه لم ينزل عليه القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة وغيرها ونزل عليه مفرقا • فقال الله ــ تعالى ــ جوابا لهم وأنزلناه كذلك الانزال مفرقا لنثبت به قلبك فيسكن ويطمئن وتقوية فيصبر ويتحمل • وأنزلناه مرتلا مفرقا تفريقا مرتبا منزلا كل قسم منه في الوقت المناسب لإنزاله والحالة الداعية اليه اللائقة به •

مزيد بيان للاعتراض والجواب :

أما اعتراضهم فكان لانهم سمعوا القرآن يذكر أن الكتاب أنزل على النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كما أنزلت الكتب على الأنبياء ــ عليهم السلام ــ من قبله بمثل قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ) فقالوا لماذا نزل هذا الكتاب مفرقا ولم ينزل مثل تلك الكتب جملة واحدة ؟ وهم لما عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه أخذوا يباهتون بالباطل ويعترضون بمثل هذا الاعتراض • وأما الجواب فكان ببيان حكمتين في انزاله مفرقاً : الحكمة الأولى تثبيت قلبه والحكمة الثانية تفريقه مرتبا على الوقائع وكان في تينك الحكمتين مزيتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب الله تعالى فكان ما اعترضوا به على انه نقص فيه عنها هو كمال له عليها •

شرح الحكمة الأولى :

كان كل نجم ينزل من القرآن العظيم ـ والنجم القسم الذي ينزل معا آية أو آيتين أو أكثر ـ يزداد به عجزهم وعنادهم ظهورا وتزداد به حجة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وصدقه وضوحا فيزداد بذلك سكون قلبه وطمأنينته بظهور أمره على عدوه وعلو كلمة الحق على كلمة الباطل وفي ذلك تقوية له وأي تقوية لا عن شك كان في قلبه أو تردد ولكن البراهين المتوالية والحجج المتتالية تزيد في سكون القلب واطمئنانه ، وان كان معقودا من أول أمره على اليقين فهذا وجه من تثبيت فؤاده بالآيات المتفرقات في النزول • وقد كان كل نجم من نجوم القرآن ينزل بشيء من العلم والعرفان مما يرجع الى العقائد أو الاخلاق أو الأحكام أو التذكير بالأمم الماضية واخبار الرسل المتقدمين أو باليوم الآخر أو بسنة الله في المكذبين الى غير ذلك من علوم القرآن فيتقوى قلبه عند نزول كل نجم بما يكتسبه منه من معرفة وعلم • وكان يلقى من الجهد والعناء في تبليغ الرسالة ما تضعف عن تحمله القوى البشرية ، فاذا نزل عليه القرآن واتصل بالملك الروحاني النوراني وقذف في قلبه ذلك الوحي القرآني تقوى قلبه على تحمله أعباء الرسالة ومشاق التبليغ ولما كان البلاء والعناء في سبيل التبليغ متكررا متجددا كان محتاجا الى تجديد تقوية قلبه وكان ذلك مقتضيا لتفريق نزول الآي عليه • فهذه ثلاثة وجوه من التثبيت •

حظنا من العمل بهذه الحكمة :

قلوبنا معرضة لخطرات الوساوس بل للأوهام والشكوك • فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم • ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم ، ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم ، فما ازدادوا الا شكا وما ازدادت قلوبهم الا مرضا حتى

رجع كثير منهم في أواخر أيامهم الى عقائد القرآن ، وأدلة القرآن ، فشفوا بعد ما كادوا ، كامام الحرمين والفخر الرازي . وقلوبنا معرضة لران المعصية الذي تظلم منه القلوب وتقسوا حتى تحجب عنها الحقائق وتنطمس أمامها سبل العرفان . فالذي يجلو عنها ذلك الران ويزيل منها تلك القسوة ويكشف لها حقائق العلم ويوضح لها سبل المعرفة هو القرآن العظيم . فقراؤه المتفقهون فيه قلوبهم نيرة مستعدة لتلقي العلوم والمعارف ، مستعدة لسماع الحق وقبوله ، لها من نور القرآن فرقان تفرق به بين الحق والباطل وتميز به بين الهدى والضلال ، وقلوبنا معرضة للضعف عن القيام باعباء التكليف وما نحن مطالبون به من الاعمال والذي يجدد لنا فيها القوة ويبعث فيها الهمة هو القرآن العظيم فحاجتنا الى تجديد تلاوته وتدبره أكيدة جدا لتقوية قلوبنا باليقين ، وبالعلم ، وبالهمة والنشاط للقيام بالعمل .

شرح الحكمة الثانية :

من محاسن هذه الشريعة المطهرة انها نزلت بالتدريج المناسب كما كان في تحريم الخمر وكما كان في العدد المفروض عليه الثبات للعدو في آيات الانفال وكما كان في مشروعية قيام الليل في آيات سورة المزمل وما كان ليكون هذا التدريج بغير تفريق الآيات في التنزيل . ومن محاسنها نسخ المحكم عند انتهاء المصلحة التي اقتضت تشريعه وانقضاء زمنها لحكم آخر أنسب منه للبقاء في الأزمان كما كان في آيتي المتوفي عنها في سورة البقرة وما كان ذلك ليتأتى الا بتفريق الآيات في الانزال . وكانت الوقائع تقع والحوادث تحدث والشبه تعرض والاعتراضات ترد فكانت الآيات تنزل بما تتطلبه تلك الوقائع من بيان وما تقتضيه تلك الحوادث من احكام وما تستدعيه تلك الشبه من رد وتلك الاعتراضات من ابطال الى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة باسباب النزول وفي بيان الواقعة عند وقوعها

وذكر حكم الحادثة عند حدوثها ورد الشبهة عند عروضها وابطال الاعتراض عند وروده ، ما فيه من تأثير في النفوس ووقع في القلوب ورسوخ في العقول وجلاء في البيان وبلاغة في التطبيق واستيلاء على السامعين وما كان هذا كله ليتأتى لولا تفريق الآيات في التنزيل وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب وهذا التنضيد الغريب الذي بلغ الغاية من الحسن والمنفعة حتى انه ليصح ان يعد وحده وجها من وجوه الإعجاز •

حظنا من العمل بهذه الحكمة :

أن نقرأ القرآن ونتفهمه حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا ومعانيه نصب أعيننا لنطبق آياته على أحوالنا وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع فاذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه واذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض طلبنا فيه الرد والابطال واذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال الى أقصى حد يمكننا •

اقتداء :

انظر الى هذه الحكمة في هذا التنزيل كيف تنزل آياته على حسب الوقائع في هذا قدوة صالحة لأئمة المجتمع وخطبائها في توخيهم بخطبهم الوقائع وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال • بلى والله بلى والله ، ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال ، واما هذه الخطب المحفوظة المتلوة على الأحقاب والأجيال فما هي الا مظهر من مظهر[1] قصورنا وجمودنا • فالى الله المشتكى وبه المستعان[2] •

---

(١) كذا في الاصل .

(٢) ش : ج ٣ ، م ٨ ، ص ١٣٣ ـ ١٣٩
غرة ذي القعدة ١٣٥٠ ـ مارس ١٩٣٢

الحق والبيان في آيات القرآن

« وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً »[1] •

المناسبة :

لما رد تعالى اعتراضاتهم وأبطل شبهاتهم أخبر تعالى بأنه لا يزال القرآن كذلك يدمغ باطلهم بحقه فيزهقه • ويصدع غشاء تمويههم بصادق بيانه فيمزقه لطمأنة قلب نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتثبيته ووعداً له بدوام النصر والتأييد •

المفردات :

(المثل) : هو الشبه ، هذا أصله ، ثم يطلق على الكلام الذي قيل أول ما قيل في مقام ، ثم لحسنه وايجازه حفظ وجرى على الألسنة وصار يقال في كل مقام يشابه مقامه الأصلي الذي قيل فيه أولا لمشابهة المقام الثاني للمقام الاول • ثم صار يطلق أيضا على كل كلام فيه بيان لشيء وتصوير له ، سواء أطابق ذلك البيان والتصوير الواقع وأتى بالحق أم لم يطابق الواقع ولم يأت بالحق ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، فان المشركين جاؤوا بكلمات في حق الله ـ تعالى ـ وفي حق كتابه وفي حق ملائكته وفي حق نبيه ، لم يطابقوا فيها الواقع ولا أتوا فيها بحق كقولهم في الله وملائكته : « لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا

---

(١) ٢٥/٣٣ الفرقان •

الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » • وفي نبيه : « مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ » • وفي القرآن : « أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا » ، « لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً » فهذه هي أمثالهم التي ضربوها فضلوا • وجاء القرآن بعد كلماتهم الباطلة بكلمات الحق الدامغة مثل قوله تعالى : « قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ » ، « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ » « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً » فهذه هي أمثال الله التي جاءت بالحق وأحسن تفسيراً ، التفسير : الكشف عن المعنى •

التراكيب :

وصلت الجملة لمشاركتها لما قبلها في الخبرية والمخبر عنهم والموضوع المتحدث عنه مما جاؤوا به من الباطل وما رد عليهم به من الحق ، وجملة (جئناك) حالية من كاف الخطاب المفعول في (لا يأتونك) والحصر بالنفي ، وإلا في تلك الحال والتقدير : ولا يأتونك بمثل في حال من أحوالك إلا في حال مجيئنا لك بالحق وأحسن تفسيرا ، والتعبير بالمضارع في يأتونك يفيد الحدوث وتجدد الاتيان منهم ، والتعبير بالماضي في جئناك مع انه في معنى المستقبل يفيد تحقق المجيء، وهو المناسب لمقام الوعد والتثبيت •

المعنى :

ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون وأمثالهم بكلام يحسنونه ويزخرفونه يصورون به شبهة باطلة أو اعتراضا فاسداً الا جئناك بالكلام

الحق الذي يدمغ باطلهم ويدحض شبهتهم وينقض اعتراضهم ويكون أحسن بيانا وأكمل تفصيلا .

اهتـداء :

اذا تتبعت آيات القرآن وجدتها قد أتت بالعدد الوافر من شبه الظالمين واعتراضاتهم ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوجز لفظ وأقربه وأبلغه ، وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدعوة والارشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة . ولا نحسب شبهة ترد على الاسلام إلاّ وفي القرآن العظيم ردها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة ، فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع الى آي القرآن ولا اخالنا اذا أخلصنا القصد وأحسنا النظر الا واجديها فيها وكيف لا نجدها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيرا .

اقتـداء :

لنقتد بالقرآن فيما نأتي به من كلام في مقام الحجاج أو مقام الإرشاد فلنتوج دائماً الحق الثابت بالبرهان أو بالعيان ولنفسره أحسن التفسير ولنشرحه أكمل الشرح ولنقربه الى الاذهان غاية التقريب وهذا يستدعي صحة الادراك وجودة الفهم ومتانة العلم لتصور الحق ومعرفته ويستدعي حسن البيان وعلوم اللسان لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه فللاقتداء بالقرآن في الاتيان بالحق وأحسن بيان علينا أن نحصل هذه كلها ونتدرب فيها ونتمرن عليها حتى نبلغ الى ما قدر لنا منها . هذا ما على أهل الدعوة والارشاد وخدمة الاسلام والقرآن ، فاما ما على عموم المسلمين من هذا الاقتداء فهو دوام القصد الى الاتيان بالحق وبذل الجهد في التعبير بأحسن لفظ وأقربه ومن أخلص قصده في شيء وجعله من وكده أعين — باذن الله تعالى — عليه .

حشر الكفار الى النار

« الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا » [1] .

المناسبة :

لما أبطل شبههم بين مآلهم وجزاءهم .

المفردات :

(الحشر) : السوق والجمع . (المكان) : المنزل . (والسبيل) : الطريق .

التراكيب :

فصلت الجملة لأنها بيان لحالهم في الآخرة وهو غير الموضوع المتقدم : عرف المسند اليه بالاشارة في قوله : « أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا » للتنبيه على ان المشار اليه وهو الذي[2] المتقدم حقيق بما بعد اسم الاشارة من قوله : « شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا » بسببما اتصف به المشار اليه المتقدم مما دلت عليه الصلة ، وهو حشرهم على وجوههم الى جهنم الذي ما أصابهم الا بما قدمت أيديهم ، ففي الحقيقة هم الحقاء بكونهم شراً مكانا وأضل سبيلا بسبب ما أداهم الى ذلك الحشر . فاكتفى بذكر المسبب عن السبب وافعل التفضيل لم يذكر

---

(١) ٢٥/٣٤ الفرقان .

(٢) كذا في الاصل .

معه المفضل عليه ليفيد ان مكانهم شر مكان من أمكنة الشر وسبيلهم أضل سبيلا من سبيل الضلال . واسناد الضلال للسبيل مجاز .

المعنى :

هؤلاء المشركون القائلون للمقالات المتقدمة ومن كان على شاكلتهم في الكفر ، والعناد الذين يجمعون ويساقون الى جهنم مقلوبين على وجوههم أولئك شر مكانا ومستقرا فانهم أهل النار وأضل طريقا فانهم سلكوا طريق الكفر الذي أداهم الى ذلك المستقر .

حـديث :

أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رجـلا قال : يا نبي الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : **أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .**

فقـه :

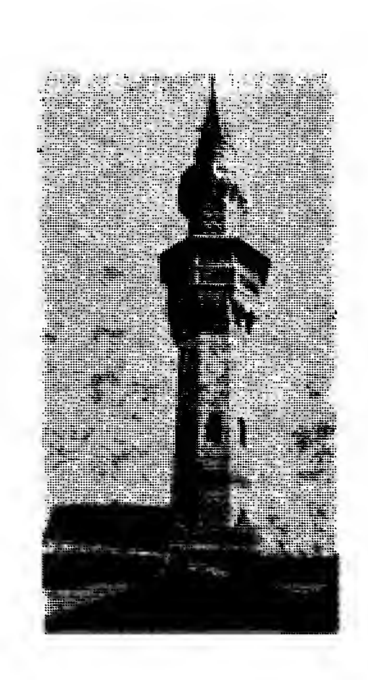
من هذا الحديث علمنا انه يجب فيما يرد من الأخبار عن اليوم الآخر أن يحمل على ظاهره ولو كان غير معتاد في الدنيا لأن أحوال العالم الآخر لا تقاس على أحوال هذا العالم .

توجيـه :

رفعوا وجوههم في الدنيا عن السجود لله فأذلّ الله تلك الوجوه فمشوا عليها في المحشر ، ورفعوا رؤوسهم كبرا عن الحق فنكّسها الله يوم القيامة ، ومشوا في طريق النظر والاستدلال مشيا مقلوبا فمشوا في الآخرة مشيا مقلوبا فكان ما نالهم من سوء تلك الحـال جزاءاً وفاقا لما أتوا من قبيح الأعمال . وما ربك بظلام للعبيد .

تحـذير :

فيما يذكره الله تعالى من هذا الجزاء العادل تخويف عظيم لنا من سوء الاعمال التي تؤدي الى سوء الجزاء وخصوصا من مثل مـا ذكر فيما تقدم من ترك السجود والكِبْر على الحق والنظر المقلوب . عصمنا الله والمسلمين أجمعين بالعلم والدين وهدانا سنن المرسلين آمين يا رب العالمين [1] .



(١) ش : ج ٣ ، م ٨ ، ص ١٤٠ ــ ١٤٢
غرة ذي القعدة ١٣٥٠ ــ مارس ١٩٣٢

من اكرام الله تعالى عبده

تحميله اعباء الرسالة وحده

« وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً »[1] .

المناسبة :

قد استفيد من الآيات المتقدمة ما كان يكابده النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — من اذاية قومه وما كان يلقاه من مكابرتهم للحق ، وتعنتهم بالباطل ، وما كان يعانيه من الجهد الجهيد في انذارهم وتبليغ دين الله — تعالى — اليهم وقد أحاط به الاعداء من كل جانب ، ولقيته العقبات من كل ناحية ، وهو في ذلك كله جاهد في القيام بتبليغ الامانة ، ناهض باعباء الرسالة في تلك السبيل ليس معه من نذير وقد كان ذلك مما تتفسخ له القوى البشرية لولا تأييد من الله ، فأراد تعالى في هذه الآية أن يثبته في مقامه ويؤنسه في انفراده ، فيبين له أن تخصيصه بالقيام هذا المقام العظيم هو لاجل تعظيمه ، وتكريمه ، وتخصيصه بالاجر الكثير ، والثواب الذي ليس له من مثيل .

المفردات :

البعث : الارسال . القرية : منازل الناس حيث يقيمون ويكونون مجتمعا كبيرا أو صغيرا . النذير : المخوف من الوقوع في الشر والهلاك .

---

(١) ٥١/٢٥ الفرقان .

التراكيب :

مفعول المشيئة محذوف قياسا ، وتقدير الكلام ولو شئنا أن نبعث ، والبعث في كل قرية منتف بحكم لوْ لأنَّها هنا تدل على امتناع شرطهـا .

المعنى :

لو أردنا لأرسلنا في كل بلدة ومصر رسولاً ينذرهم ويخوفهم من حلول نقمتنا بهم بكفرهم بنا ، ومعصيتهم لنا ، فيخف عنك عبء ما حملت ويسقط عنك بذلك تعب كثير ولكنا لم نرد ذلك وحملناك أنت وحدك أعباء واثقال النذارة لجميع القرى ليظهر فضلك بعموم رسالتك ويعظم أجرك بعظم جهادك وصبرك ويكثر ثوابك بكثرة من يؤمن بك ، ومن تودّ وتعمل ليؤمن بك .

حـديث :

صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : « **اعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلي ، كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل احمر وأسود . وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي . وجعلت لي الارض طيبة طهورا ومسجدا فايما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر . واعطيت الشفاعة** » .
وذكر اللونين الأحمر والأسود لقصد التعميم ، هكذا جاء هذا الحديث عن جابر بن عبد الله في صحيح مسلم وجاء فيه من طريق ابي هريرة زيادة « وختم بي النبيون » فتعميم رسالته وختم النبوة به في هذا الحديث الصحيح من طريقيه من مقتضى معنى الآية فانه لما عممت رسالته ولم يكن معه رسول في حياته وختمت به النبوة فلا يكون كذلـك بعد وفاته ثبتت له كرامة الخصوصية ، وعظمة المنزلية وجزالة المثوبة ، وهو ما كنا بيناه في معنى الآية ، وما أحسن التفسير تعضده الأحاديث الصحـاح .

تاسي ورجاء :

قد ثبت في السنة ما يكون من كثرة الجهل ، وموت السنة ، وانتشار البدعة ، وقد أيد ذلك الواقع والمشاهدة ، فاذا كان دعاة العام ، والسنة ، وخصوم الجهل ، والبدعة ، فلا بد أن يكونوا قليلا في العدد الكثير خصوصا في مبدأ أمرهم وأول دعوتهم ، ولا بد أن يلقوا ما يلقون ويقاسوا ما يقاسون ، ومما يثبت قلوبهم في عظيم مواقفهم تآسيهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء وحده بالحق والناس كلهم على الباطل فما زال يجاهد حتى لقي ربه ، ومما يثبت قلوبهم أيضا رجاؤهم ـــ اذا أخلصوا النية وأحسنوا الاقتداء ـــ فيما يكون لهم من الاجر العظيم ، والثواب الجزيل ، في جهادهم على قلتهم ، وفيما يكون لهم من الثواب كذلك فيمن اهتدى بهم وفيمن بذلوا جهدهم في هدايته ، وكانت لهم الرغبة العظيمة في ايصال الخير إليه ، وان لم يرجع اليهم .

عدم طاعة الكافرين . والجهاد بالقرآن العظيم

« فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً »(1) .

المناسبة :

لما بين ما خصصه به من الكرامة دعاه الى مقابلة ذلك بعدم طاعة أهل الكفر والثبات على جهادهم بالقرآن .

المفردات :

الفاء تعريفية ـــ الطاعة : الامتثال للطلب. والجهاد : بذل الجهد من

(1) ٢٥/٥٢ الفرقان .

ناحيتك في مقابلة من هو باذل جهده في الناحية المقابلة لك ، هـذا مقتضى صيغة فعال •

التراكيب :

جهاداً كبيراً مصدر مبين للنوع المطلوب بصفته وهي كبيرا •

المعنى :

لما أكرمناك بعموم رسالتك وختم النبوة بك فقابل هذه النعمة ، باخلاص الطاعة لربك ولا تطع الكافرين أعداء الله وأعدائك في أي شيء يدعونك اليه من مقتضيات كفرهم كالرجوع اليهم والسكوت عن بعض كفرهم ، وابذل كل جهدك في دعوتهم للدين الحق ، ومقاومة ما هم عليه من الباطل بالقرآن العظيم ، وجاهدهم بهذا القرآن جهاداً كبيراً بتحمل كل ما يأتيك من ناحيتهم من بلاء واذاية والصبر عليه والثبات على الدعوة والمقاومة •

تعميم :

كما لا تجوز طاعة الكافرين في شيء مما يمليه عليهم كفرهم كذلك لا تجوز طاعة العصاة في شيء مما تمليه عليهم معصيتهم لان الجميع فيه مخالفة لدين الله وكما يجاهد أهل الكفر بالقرآن العظيم الجهاد الكبير كذلك يجاهد به أهل المعصية لانه كتاب الهداية لكل ضال والدعوة لكل مرشد ، وفي ذكر الكافرين تنبيه على العصاة من التنبيه بالأعلى على الادنى لاشتراكهم في العلة وهي المخالفة •

اقتـــداء :

ما كان النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ليطيع الكافرين وانما جاء هذا النهي تهييجاً له على تمام مخالفتهم ومعاكستهم في جميــع

مناحي ومظاهر كفرهم ، والخطاب وإن كان له فالحكم شامل لأمته فلا يجوز للمسلم أن يطيع كافراً أو عاصياً في أيٍّ شيء من نواحي الكفر ونواحي المعصية ، وكما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه فكذلك هو فرض على أمته هكذا على الاجمال وعند التفصيل تجده فرضا على الدعاة والمرشدين الذين [1] يقومون بهذا الفرض الكفائي على المسلمين ، فالنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وقدوة لأمته فيما اشتملت عليه الآية من نهي وأمر .

استدلال :

هذه الآية نص صريح في أن الجهاد في الدعوة الى الله واحقاق الحق من الدين وابطال الباطل من شبه المشبهين وضلالات الضالين ، وانكار الجاحدين ، هو بالقرآن العظيم ، ففيه بيان العقائد وأدلتها ورد الشبه عنها، وفيه بيان الاخلاق،محاسنها ومساوئها، وطرق الوصول الى التحلي بالاولى والتخلي عن الثانية ومعالجتها . وفيه أصول الاحكام وعللها وهكذا فيه كل ما يحتاج اليه المجاهد به في دين الله فيستفاد منها كما يستفاد من آيات أخرى غيرها ان على الدعاة والمرشدين أن تكون دعوتهم وارشادهم بالقرآن العظيم .

ميزان :

عندما يختلف عليك الدعاة الذين يدعي كل منهم انه يدعوك الى الله تعالى فانظر من يدعوك بالقرآن الى القرآن ــ ومثله ما صح من السنة لانها تفسيره وبيانه ــ فاتبعه لانه هو المتبع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته وجهاده بالقرآن والمتمثل لما دلت عليه أمثال هذه الآية الكريمة من آيات القرآن .

---

(١) في الاصل « الذي » .

نعمة ومنقبة :

قد سمى الله تعالى الجهاد بالقرآن جهاداً كبيراً وفي هذا منقبة كبرى للقائمين بالدعوة الى الله بالقرآن العظيم وفي ذلك نعمة عظيمة من الله عليهم حيث يسرهم لهذا الجهاد حتى ليصح أن يسمّوا بهذا الاسم الشريف (مجاهدون) فحق عليهم أن يقدروا هـذه النعمة ويؤيدوا شكرها بالقول والعمل ، والاخلاص والثبات والصبر واليقين •

جعلنا الله والمسلمين منهم وحشرنا في زمرتهم أجمعين[1] •



(١) ش: ج ٤ ، م ٨ ، ص ٢٠٠ – ٢١٠
غرة ذي الحجة ١٣٥٠ – افريل ١٩٣٢

تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً » [1] .

المناسبة :

لما سأل المشركون بقولهم « وما الرحمن » كما يسألون عن المجهول ذكر لهم القرآن ما يعرفهم به من عظيم آياته وجلائل إنعاماته التي هي من آثار رحمته ، فذكر لهم بروج السماء والشمس والقمر ، ثم ذكر لهم تعاقب الليل والنهار .

المفردات :

(خلفة) : يقولون خلفت الفاكهة بعضها بعضا خَلَفا ــ بالتحريك ــ وخلفة اذا صارت خلفا ، من الاولى ، وخلف زيد عمرا يخلفه اذا جاء بعده في مكانه ، فالخِلْفة مصدر ، وهو لما كان على وزن فِعْلَة دال على الهيئة كالركبة ، بمعنى الهيئة من الركوب ، فالخلفة اذاً هيئة من الخلوف . فاذا قلت خلفه خلفا أو خلوفا فقد أردت مطلق الحدث ، واذا قلت خلفه خلفة فقد أردت هيئة خاصة من الخلوف . (التذكر) : قبول التذكير ؛ فان مخلوقات الله مذكرات للعبد بربه ، فتذكره هو قبوله ذلك التذكير واعتباره واتعاظه به . (الشكور) : مصدر شكر ، بمعنى القيام بعبادته وطاعته لاجل نعمه . (أو) : للتفصيل والتنويع ،

---

(١) ٢٥/٦٢ الفرقان .

لأن المستفيدين من اختلاف الليل والنهار هم المتذكرون والشاكرون ، فلا تمنع من أن يكون الشخص الواحد متذكرا شاكرا في آن واحد .

التراكيب :

خلفة : مفعول ثان لجعل ، على معنى جعلهما ذوي خلفة ، وفي الأخبار تقول الليل والنهار خلفة ، والرجلان خلفة على هذا المعنى ، أي يخلف أحدهما الآخر ، وكان مفردا عن الاثنين لانه مصدر والجار في (لمن أراد) يتعلق بجعل ، وكان الجعل لهما لأنهما المستفيدان منه . ولم يكرر الاسم الموصول لأن الشخص الواحد يمكن أن يتصف بالصلتين معا ، وكرر فعل الارادة لأنها لا بد منها في التذكر وفي الشكر ، وقيل (أن يتذكر) ليفيد المضارع الحدوث والتجدد فان الغفلة مستولية على الانسان والآيات المرئية ما تزال تحدث له التذكر وتجدده له . وقيل « شكورا » لمناسبة رؤوس الآي .

المعنى :

يقول تعالى : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » ووضعهما يختلفان ويتعاقبان على هيئة مخصوصة في التخالف والتعاقب ليستفيد من ذلك من العباد من أراد أن يتذكر فيعتبر بما فيهما من انتقال وتغير ونظام وتقدير ، ويستدل بذلك على وجود خالقهما وقدرته وارادته وعلمه وحكمته ورحمته بمخلوقاته ، أو أراد أن يشكر فيقوم بعبادة خالقه المنعم عليه بجلائل النعم ودقائقها التي منها هذا الاختلاف والتعاقب بين هذين الوقتين اللذين لا يصلح حال الانسان ولا تنتظم أعماله ولا يستقيم عمرانه الا به .

فقه لغوي :

اختيرت لفظة الخلفة هنا لدلالتها على الهيئة فتكون منبهة على

هيئة هذا الاختلاف بالطول والقصر المختلفين في جهات من الأرض وذلك منبه على أسباب هذا الاختلاف من وضع جرم الأرض وجرم الشمس وذلك كله من آيات الله الدالة عليه وبتلك الهيئة المقدر المنظم عظمت النعمة على البشر وشملتهم الرحمة فكانت هذه اللفظة الواحدة منبهة على ما في اختلاف الليل والنهار من آية دالة ومن نعمة عامة . وهكذا جميع ألفاظ القرآن في انتقائها لمواضعها .

فقه شرعي :

لما كان جعل الليل والنهار خلفة لأجل التذكر والعمل كان كل واحد منهما صالحا للعمل الذي يعمل فيه صاحبه ، فمن فاته عمل بالليل أتى به في النهار ، ومن فاته عمل بالنهار أتى به في الليل ، وهذا اذا كان من العادات فهو على سبيل التدارك ، واذا كان من العبادات فهو على سبيل القضاء . وقد روى ابن جرير بسند حسن : إن رجلا جاء الى عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فقال : فاتتني الصلاة الليلة ، فقال : أدرك ما فاتك من ليلتها في نهارك ، فان الله جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا . ومن هذا ما رواه مسلم والأربعة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل .**

فقه قرآني :

حياة الانسان من بدايتها الى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاث : الارادة والفكر والعمل ، وهي المذكورات في هذه الآية ، لأن التذكر بالتفكر والشكر بالعمل . فاستفادة الانسان مما خلقه الله له وجعله لأجله لا تكون الا بهذه الثلاثة ، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لا بد للانسان منها ، فالعمل متوقف على

البـدن ، والفـكر متوقف على العقـل ، والارادة متوقفـة على الخلق ، فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح ، والارادة القوية مـن الخلق المتين ، والعمل المفيد من البدن السليم ، فلهذا كان الانسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه وبدنه ، ودفع المضار عنها ، فيثقف عقله بالعلم ويقوم أخلاقه بالسلوك النبوي ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الاذى والتريض على العمل •

موعظة :

قال الامام ابن العربي : سمعت ذانشمند الأكبر — يعني الغزالي — يقول ان الله خلق العبد حيا عالما وبذلك كماله ، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلقة ، اذ الكمال للاول الخالق فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر في الطاعة فليفعل ، ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوا وينام نحو سدس النهار راحة فيذهب له ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون سنة ، ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية ولا يتلف عمره سهرة في لذة باقية عند الغني الوفي الذي ليس بعديم ولا ظلوم • اهـ

سلوك :

حافظ على العبادات في أوقاتها ، واقض ما فاتك واربط أعمالك باوقاتها ، وتدارك ما فاتك ووجه قصدك الى ما ترى من آيات الله متفكرا ووجه قصدك في جميع أعمالك لله سامعا مطيعا — تكن عبدا ذاكرا شاكرا سعيدا — ان شاء الله — في الدارين • وفقنا الله الى ذلك والمسلمين أجمعين [1] •

---

(١) ش : جـ ٥ ، م ٨ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٩
غرة محرم ١٣٥١ — ماي ١٩٣٢

القرآن يصف عباد الرحمن

الصفة الاولى والثانية :

« وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً »[1] •

المناسبة :

لما تجاهل المشركون الرحمن واستكبروا عن السجود له عرفهم القرآن بالرحمن بخلقه وتدبيره وانعامه كما مضى في الآيات المتقدمة ، ثم عرفهم بعباده الذين عرفوه بذلك فآمنوا به وخصوا له بما اشتملت عليه هذه الآيات من صفاتهم • وكما كانت مخلوقات الله المذكورة سابقا دالة عليه ومعرفة به بما فيها من آثار قدرته وآثار رحمته كذلك كان عباده المذكورون أدلة عليه ومعرفين به بأقوالهم وأفعالهم وهديهم وسلوكهم ومظاهر آثار رحمة الله عليهم ، فذكروا بعد ذكر تلك المخلوقات وذكرت هي قبلهم لأنها كانت أدلة لهم ، والدليل سابق على المستدل سبق المستفاد منه على المستفيد • وفي تعريف القرآن لعباد الرحمن بعد تعريفه بالرحمن تشريف كبير لهم وتبكيت لأولئك المتجاهلين المتكبرين ، ووجه آخر في المناسبة ، وهو انه لما ذكر التذكر والشكر في الليل والنهار في الآية المتقدمة ذكر صفات المتذكرين الشاكرين وما أثمره لهم تذكرهم وشكرهم ترغيباً في التذكر والشكر •

---

(١) ٢٥/٦٣ الفرقان .

وقولهم للجاهلين سلاما من مقتضى هونهم ورفقهم ، فلذلك قرن به وعطف عليه .

المفردات :

عباد : جمع عبد ، بمعنى المملوك الذليل الخاضع ، أو جمع عابد كصاحب وصحاب وتاجر وتجار بمعنى المطيع والقائم بما يرضي ربه ، والأول هنا أظهر ، الرحمن : المنعم الذي تتجدد نعمه في كل آن ، يمشون على الأرض : يتنقلون عليها . هونا : هان الأمر يهون هونا بمعنى سهل ، ومنه (هو عليَّ هيِّن) أي سهل ، وشيء هين على وزن فيعل ، أي سهل ، ويقال هين بالتخفيف . ومن صفات المؤمن أنه هين لين من الهون بمعنى السهولة في أخلاقه ومعاملته،وفي مسند أحمد عن ابن مسعود مرفوعا : **«حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس»** وهو على ما فسرنا من السهولة في أخلاقه ومعاملته وذلك هو الذي يقرِّبه من الناس ، وفسر الهون في الآية بالحلم والوقار والسكينة والتواضع والطاعة ، وكلها ترجع الى السهولة واللين ، وفسر بعدم الفساد في الأرض وعدم التجبر والتكبر لأنها كلها أضداد للسهولة واللين . خاطبهم : كالمهم . الجاهلون : السفهاء القليلو الأدب السيئو الأخلاق . والجهل ضد العلم ويطلق بمعنى السفه والطيش لأنهما عنه ينشآن ومنه قول الشاعر :

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينا[1]

ومنه الجاهلون في الآية . سلاما : السلام كالسلامة معناهما التعري من الآفات والمكروهات .

(١) من معلقة عمرو بن كلثوم ، وقوله : فنجهل فوق جهل الجاهلينا ، قال التبريزي : معناه فنهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله .

التراكيب :

وصلت الجملة بما قبلها بالواو لاشتراكهما في القصد وهو التعريف بالرحمن وبعباده . وعباد مبتدأ والذين خبر وأضاف العباد للرحمن تخصيصا لهم وتفضيلا وتقريبا وفيه تعريض بأولئك المتجاهلين المتكبرين المبعدين ، وهونا منصوبا على أنه مفعول مطلق والتقدير : مشياً هوناً ، أو على أنه حال من فاعل يمشون أي هينين ، ومجيء المصدر حالا كثير ولمصدريته أفرد ، والموصوف جمع [1] نظير الزيدون عدل . ويمشون على الأرض هونا تركيب كنائي أريد به معناه ولازم معناه ، فهم يمشون هينين برفق وتثبت ، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا . هذا أصل المعنى وهو مراد ومراد أيضا لازم وهو سهولتهم وتواضعهم وعدم تكبرهم ورفقهم في الأمور وبعدهم عن الافساد . ومراد لازم آخر أيضا ، وهو سيرهم في الحياة وتصرفهم في جميع الأمور ومعاملتهم للناس ، فاذا كانوا أهل رفق وسهولة في مشيهم في الأرض فكذلك هم أهل رفق وسهولة في الأمور الاخرى ، مما ذكرنا ، لأن الرفق والسهولة خلق فيهم فكما هو في المشي هو في غيره . وكانت الصلة بالمضارع ليفيد التجدد ، فان المشي في الأرض ضروري للانسان وكان المعطوف على الصلة بصورة الشرط لأن خطاب الجاهلين لهم ليس مما يكون دائما ، وكان التعليق باذا لأن مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء أمر محقق ، ومتى سلم أهل العلم والدين من الجاهلين ولم يذكر ما يخاطبهم به الجاهلون للعلم بأن خطاب الجاهل أي السفيه لا يكون الا سوءا مما يمليه عليه جهله وسفهه . ونصب سلاما على أنه مفعول مطلق ، والتقدير قالوا قولا سلاما ، أي ذا سلام ، فيشمل كل قول فيه سلامة من الأذى والمكروه ، كسلام عليكم

(١) في الاصل جميع .

ويغفر الله لكم وسامحكم الله ونحو ذلك • أو نصب على انه مفعول به ، أي قالوا هذا اللفظ سلاما نفسه •

المعنى :

يقول تعالى وعباد الرحمن ومماليكه القائمون بحق العبودة [1] اه هم أهل الرفق والسهولة الذين يمشون على الأرض هينين في مشيهم وفي معالجتهم لشؤون الحياة ومعاملتهم للناس لحلمهم وتواضعهم غير مستكبرين ولا متجبرين ولا ساعين في الأرض بالفساد • واذا خاطبهم السفهاء بما لا ينبغي من الخطاب قابلوهم بالحلم وقالوا لهم سلاما لأنهم سلموا من الجهل ، فسلم المخاطب لهم من أن يجهلوا عليه ولو جهل[2] أو قالوا لهم من الكلام ما فيه سلامة من الأذى والمكروه •

الاحكام :

في الآية استحباب الرفق في المشي وكراهية العنف والاضطراب ، ومن العنف الضرب بالرجل والخفق بالنعل ، فاذا كانا بعجب وخيلاء فهو حرام • وفيها الإغضاء عن الجاهل ومقابلة كلمته السيئة بالكلام الحسن • وكراهة مجاراته في خطابه ومماثلته ، واذا كان في ذلك فتنة أو مفسدة محققة كان حراما •

تمييز :

ليس من الهون في المشي التثاقل والتماوت فيه ، وروي أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قال لجماعة رآهم كذلك : « **لا تميتوا علينا ديننا اماتكم الله** » وأن عائشة — رضي الله عنها — رأت

(١) كذا في الاصل ولعله العبودية .

(٢) كذا في الاصل .

قوما يتماوتون فسألت عنهم فقيل لها هؤلاء قوم من القراء ، فقالت : لقد كان عمر من القراء ، وكان اذا مشي أسرع واذا تكلم أسمع ، واذا ضرب أوجع ، وكان مشيه — رضي الله عنه — الى السرعة خلقة لا تكلفا والخير في الوسط • وليس هون المشي وحده يعرفك بأن صاحبه من عباد الرحمن ، فرب ماشٍ هوناً رويداً وهو ذئب أطلس ، ولكن بالهون في المشي وبما ذكرنا في فصل التراكيب والمعنى من لوازمه •

بيان ورد :

اشتملت الآية على بيان الأدب في معاملة الجاهلين من أفراد الناس ، أكانوا مسلمين أم غيرهم ، وما اشتملت عليه من الأدب قد جاء في آيات كثيرة مثل : « وَاعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ »[1] و « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ »[2] فهو أدب مشروع مؤكد ، وحكم دائم محكم ، وهو في معاملات الأفراد كما ترى • فلا ينافي ما شرع من الحرب عند وجود أسبابها وتوفر شروطها بين الأمم والجماعات ، وهي من الأمور العامة كما ترى فبطل قول من زعم ان هذه الآية بالنسبة لغير المسلم منسوخة بآية السيف لأن هذه الآية ثابت حكمها في حالٍ وآية السيف ثابت حكمها في حال أخرى ، فلا تنسخ احداهما الأخرى • وما أكثر ما قتلت أحكام بآية السيف هذه ، وهي عند التحقيق غير معارضة لها لمباينة حالها لحالها •

---

(١) ١٩٨/٧ الاعراف .

(٢) ٥٥/٢٨ القصص .

تمثيل واستدلال :

جاء في الصحيح من طرق مجموع ألفاظها ان رهطا من اليهود دخلوا على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقالوا : السام عليكم (والسام الموت) ففهمتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت : عليكم السام واللعنة وغضب الله عليكم ، فقال لها رسول الله صلى الله عليهوآله وسلم : **مهلا يا عائشة ، عليك بالرفق واياك والعنف والفحش ، ان الله يحب الرفق في الامور كلها .** فقالت عائشة : أو لم تسمع ما قالوا ؟ فقال لها : **أو لم تسمعي ما قلت رددت عليهم . قد قلت « وعليكم » فيستجاب لي فيهم «لانه دعاء بحق » ولا يستجاب لهم فيي « لانه دعاء بباطل وظلم».** فقد خاطبه هؤلاء الجاهلون بالسوء فقال لهم كلمة سالمة من القبح ليس فيها لفظ الاذاية وهو السام بعيدة عن الايحاش خالصة للرفق ، فهي من القول السلام ، أي ذي السلام من مقتضى الآية على الوجه الأولى من وجهيها ، ففي الحديث مثال لقول السلام في خطاب الجاهل ودليل على عموم الحكم واحكامه .

سؤال وجوابه :

على الوجه الثاني في الآية ، وهو أنه يقول للجاهل سلاما ، يقال هل يسلم عليه اذا كان كافراً ، فيقال نعم كما قال إبراهيم لأبيــه « سَلاَمٌ عَلَيْكَ » وقد قال الله تعالى : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ »[1] ولم يستثن الا قوله لأبيه : « لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ » نعم هو سلام موادعة ومتاركة لا سلام تحية وكرامــة .

(1) ٤/٦٠ المتحنة .

لطيفة تاريخية :

قالوا إن إبراهيم بن المهدي العباسي كان منحرفا عن علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — فرآه في النوم قد تقدمه لعبور قنطرة ، فقال له إبراهيم : انما تَدَّعي هذا الأمر ، يعني الخلافة ، بامرأة ، يعني فاطمة رضي الله عنها ، ونحن أحق به منك ، وحكى ابراهيم رؤياه للمأمون وقال له : فما رأيت له بلاغة في الجواب كما يذكر عنه ، فقال له المأمون : فما أجابك به ؟ قال : كان يقول لي : « سلاما سلاما » ، فنبهه المأمون على هذه الآية وقال : يا عم ، قد أجابك بأبلغ جواب ، فخزي ابراهيم واستحيا اه ، فرضي الله عن الإمام الهاشمي ما أبلغه حيا وميتا .

توجيه وسلوك :

القول السلام محمود ومطلوب في كل حال ، وانما خصت حالة خطاب الجاهل لأنها الحالة التي تثور فيها ثائرة الغضب بما يكون من سفهه ومهاترته ، فعلى المؤمن أن يكون حاضر البال بهذه الآية عند ما تسوق اليه الأقدار جاهلا ، فيخاطبه بما لا يرضيه حتى يسلم من شره ، ويكسر من شرته ، فيسلم له عرضه ومروءته ودينه ويسلم ذلك الجاهل أيضا من اللجاج في الشر ، والتمادي فيه فيكون المؤمن بقوله السلام وتأدبه بأدب القرآن قد حصل السلامة للجميع وأعظم به من فضل وأجر في الدنيا والدين وفقنا الله لذلك والمسلمين أجمعين[1].

---

(1) ش : ج ٦ ، م ٨ ، ص ٢٩٩ — ٣٠٦
غرة صفر ١٣٥١ — جوان ١٩٣٢

الصفة الثالثة :

« وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً » [1]

المناسبة :

لما ذكر فيما تقدم سلوكهم مع الخلق ، ذكر في هذه الآية سلوكهم في القيام بعبادة الحق . وفيما تقدم بيان حالهم عند اختلاطهم بالعباد ، وفي هذه بيان حالهم عند تفردهم لرب العباد .

المفردات :

يبيتون من البيتوتة وهي أن يدركك الليل نمت أو لم تنم ، ويقابلها الظلول وهو أن يدركك النهار . السجد : جمع ساجد ، والقيام : جمع قائم ، وهو من الأوزان التي يشترك فيها المصدر والجمع .

التراكيب :

الذين عطف على الخبر الأول وأعيد لفظ الذين لاستقلال الحالة الثانية عن الأولى ، وقدم الجار ليفيد تخصيص عبادتهم بربهم ويفيد الكلام عبادتهم واخلاصهم ، وقدم سجداً لأن السجود أقرب أحوال العبد للرب لحديث : **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد** . ووقع قياما في موقعه مناسبا للفاصلة .

المعنى :

ومن صفات عباد الرحمن انهم يحيون الليل فيبيتون يصلون لربهم يوافون بين السجود والقيام .

---

(١) ٢٥/٦٤ الفرقان .

بيان وترغيب :

هذه الآية من آيات الحث على قيام الليل مثل قوله تعالى « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا »[1] وقد بينت السنة المطهرة مقداره فثبت في الموطأ من طريق أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على احدى عشرة ركعة ، يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثا والسلام بعد كل ركعتين لحديث : « **صلى الليل مثنى** » . وثبت عند مسلم من طريق سعد بن هشام عنها انه كان يفتتح صلاته بالليل بركعتين خفيفتين ، فتلك ثلاث عشرة ، وقد ثبت ذلك في الموطأ من طريق عروة عنها ، قالت : كان رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يصلي الليل ثلاث عشرة ركعة ، وهذا هو الغالب من أحواله ، وقد كان يصلي أقل منه في بعض الأحوال ، فقد ثبت عند البخاري من طريق مسروق عنها أن صلاته صلى الله عليه وآله وسلم بالليل سبع وتسع واحدى عشرة سوى ركعتي الفجر ، ومثل ما جاء عن عائشة من انتهاء ركعاته الى ثلاث عشرة . جاء في الموطأ من حديث ابن عباس ، وجاء فيه أيضا من حديث زيد بن خالد الجهني ، وفي هذه السنة العملية الثابتة بيان للقدر الأكمل الذي يكون به العبد ممن يصدق عليهم هذا الوصف من صفات عباد الرحمن .

الصفة الرابعة :

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا »[2] .

---

(١) ١٦/٣٢ السجدة .

(٢) ٦٥/٢٥ — ٦٦ الفرقان .

المناسبة :

لما ذكر حسن سلوكهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق ذكر خوفهم من ربهم واعتمادهم عليه في نجاتهم وعدم اغترارهم بأعمالهم ، فهم يأتون ما يأتون من محاسن الأعمال ولا يعتمدون الا على الكبير المتعـــال .

المفردات :

الغرام مادة (غ رم) تدور على معنى الملازمة مع الثقل والشدة ، ولذا فسر الغرام بالشر وبالعذاب وبالهلاك الملازم . ساءت : بمعنى قبحت مثل بئس لانشاء الذم ، المستقر : محل الاستقرار الى الثبوت ، والمقام : محل الاقامة أي البقاء .

المفردات :

ساءت : فاعله الضمير المخصوص بالذم ، ومستقراً ومقاما تمييز مفسر للضمير ، وجملة (ان عذابها) تعليل للجملة الدعائية ، وفصلت عنها لكمال الانقطاع بينهما لانشائية الأولى وخبرية الثانية ، وجملة (انها ساءت) مؤكدة لمضمون الجملة قبلها مع اختلاف في المعنى ، فان ما أفادته الاولى من فداحة عذابها وملازمته أكدته الثانية بما أفاده من مقامه ومستقرها ، ففصلت عنها لمابينهما من كمال الاتصال نظير : « ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ » . والتأكد فيهما بأن،لانه قد لوح وأشير في الكلام السابق الى هذا الخبر وشأن السامع لهذا أن يستشرف له استشراف المتردد الطالب ، فينزل منزلة المتردد ، فيؤكد له الخبر ووجه التلويح بهذا الخبر انه لما سئل صرف عذاب جهنم كان هذا مشيراً الى قبح هذا العذاب وشدته فهذا نظير : « وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ »[1]

(١) ١١/٣٧ هود و ٢٣/٢٧ المؤمنون .

المعنى :

ومن صفاتهم أنهم يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لأن عذابها عذاب شديد فادح ملح ملازم ، ولأنها بئست المستقر الذي يستقر ويثبت فيه وبئست المقام الذي يقام ويمكث فيه .

رد واستدلال :

زعم قوم أن أكمل أحوال العابد أن يعبد الله تعالى لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره ، وهذه الآية وغيرها رد قاطع عليهم ومثلها قول ابراهيم عليه وعلى آله الصلاة والسلام « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ »[1] في نصوص لاتحصى كثرة ، وزعموا أن كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه ، واخطأوا فيما زعموا ، فان العبادة مبناها الخضوع والذل والافتقار والشعور بالحاجة والاضطرار واظهار العبد هذه العبودية بأتمها ، ومن أتم مظهر لها أن يخاف ويطمع كما يذل ويخضع ففي إظهار كمال نقص العبودية القيام بحق التعظيم والاجلال للربوبية ، ولهذا كان الأنبياء — عليهم وآلهم الصلاة والسلام — وهم أشد الخلق تعظيماً لله ، ومن أكثرهم خوفا من الله وتعوذا من عذاب الله ، وسؤالا لما عند الله وكفى بهم حجة وقدوة ، وان هذه المقالة تكاد تفضي الى طرح الرجاء والخوف ، وعليهم مبني الاعمال لما فيهما من ظهور العبودية بالذل والاحتياج ، ومن دعاء القنوت الثابت المحفوظ **« واليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد »** وهذاضروري في الدين . ولكن مثل هذه المقالة انما يجر اليه الغلو وقلة الفقه في الدين في الكتاب والسنة وما كان عليه هدى السابقين الاولين .

---

(١) ٨٢/٢٦ الشعراء .

اعتبار ونصيحة :

ان جهنم هي أقبح مستقر وأقبح مقام ، وان الـدنيا هي مطية الآخرة ، فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا ساء كذلك مستقره ومقامه في الآخرة وان ملازمة العذاب في الآخرة على قدر ملازمة المعاصي في الدنيا فمن لازمها بالكفر ومات عليه دامت له تلك الملازمة ومن لازمها بالاصرار على الكبائر كانت له على حسب تلك الملازمة . فعلى العاقل أن يحسن مقره ومقامه وان يجتنب كل موطن تلحقه فيه الملامة وأن يجتنب مجالس السوء والبدعة ويلازم مجالس الطاعة والسنة وان يسرع بالتوبة مفارقا الذنوب وان لا يصر على شيء من القبائـح والعيوب وأن يكون سريع الرجوع الى الله ولو عظم ذنبه وبلواه فالله يحب التوابين ويغفر للاوابين جعلنا منهم اجمعين . آمين[1] .



(١) ش : ج ٩ ، م ٨ ، ص ٤٥٤ ــ ٤٥٨
غرة جمادي الاولى ١٣٥١ ــ سبتمبر ١٩٣٢

أيهمـا أكمل[1]

العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب

أم العبادة دونهما ؟

زيادة بيـان على قولـه تعالى : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا »[2] .

قد قال قوم إن العبادة دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب هي أكمل العبادات . وأنكرنا مقالتهم فيما كتبناه على قـوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا » في الجزء الصادر في غرة جمادى الأولى .

وقلنا في الانكار عليهم : « وزعموا ان كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه وأخطأوا فيما زعموا ». وذكرنا أثر ذلك بعض الادلة التي اعتمدنا عليها ، وبعد أن مضى على ذلك ثلاثة أشهر كاملة نشر الشيخ المولود الحافظي مقالا ردا علينا دون أن يذكر جميع أدلتنا ودون أن يتعرض لنقضهـا في سندها أو متنها أو عدم انطباقها أو افادتها لما سيقت لافادته ، ودون

---

(١) فيه رد على مقال الشيخ محافظي المدرج في جريدة البلاغ منذ بضعة أسابيع (المؤلف) .

(٢) ٢٥/٦٥ ــ ٦٦ الفرقان .

أن يعارضها بمثلها في الرتبة والدلالة • وأطال بما بعضه خارج عن محل النزاع ، وبعضه هو نفس الدعوى المحتاجة الى الاستدلال • فرأينا أثر اطلاعنا على مقاله أن نعود في هذا الجزء لذكر أدلتنا التي اعتمدنا عليها فيما اخترناه من ان وضع العبادة الشرعية على رجاء الثواب وخوف العقاب ، وبيان دلالتها على المدعي ، ثم نتكلم على بعض ما في مقاله ، فنقول :

إن العبادة هي غاية الذل والخضوع مع الشعور بغاية الضعف والافتقار ، ومن مقتضى الضعف أن يخاف ويوجل ، ومن مقتضى الافتقار أن يرجو ويطمع • فخوف العبد من عقاب ربه هو من مقتضى اعترافه بضعفه وقوة ربه وشهوده لعزته وقهره وعموم تصرفه في خلقه ، وانه لا معقب لحكمه وانه لا يؤمن من مكره ، وطمعه في ثوابه هو من مقتضى اعترافه بحاجته وفقره وغنى ربه وفضله وتصديقه بوعده فهو يعبده ويخاف أن لا يقبل عبادته ويخشى نقمته • ويعبده ويرجو رحمته وينتظر مثوبته ، وفي عبادته هذه اظهار لغاية العبودية بنقصها وحاجتها وقيام بحق التعظيم والاجلال للربوبية والاعتراف لذلك المقام بالقدرة والعزة والغنى والرحمة والكمال •

فوضعت العبادة في الدين على خوف العقاب ورجاء الثواب لما في ذلك من اظهار غاية عبودية العبد بضعفه وافتقاره أمام ربه الغني الرحيم القوي المتين • والدليل على هذا ستسمعه من الكتاب والسنة وأقوال السلف •

أما الكتاب فقوله تعالى : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ ، فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] . ووجه الدليل من الآية أن هؤلاء المذكورين فيها هم الكمل من عباد الله الصالحين بدليل حديث ابي هريرة ــ رضي الله عنه ــ المروى في الصحيح قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **يقول الله تعالى اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله ما اطلعتم عليه ثم قرأ :** « فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .
ومع كمالهم لم تتجردْ عبادتهم من الخوف والطمع . ووجه آخر : وهو ان الله تعالى ذكر لنا عبادتهم لنعرف العبادة الشرعية كيف تكون فذكرها مع الخوف والطمع فعرفنا ان العبادة وضعت في الشرع على ذلك ، ووجه آخر وهو انه تعالى ذكر لنا صفاتهم وعبادتهم لنقتدي بهم فيها فعلم ان العبادة التي يدعونا ربنا اليها هي العبادة خوفا وطمعا .

ومثل هذه الآية : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ــ الى ــ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّآتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » ووجه الدليل منها كالتي قبلها وتزيد

---

(١) ٣٢/١٥ ــ ١٧ السجدة .

(٢) ٣/١٩١ ــ ١٩٤ آل عمران .

عليها ببيان صريح دعائهم وطلبهم الوقاية من النار وغفران وتكفير السيئات .

ومثلها قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً » . ووجه الدليل منها كالتي قبلها . ومثلها قوله تعالى : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورا ، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً » [1] ووجه الدليل منها مثل ما تقدم وتزيد ببيان ان خوف اليوم العبوس لا ينافي الاطعام لوجه الله . ومثلها قوله تعالى : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » [2] .

(١) ٧/٧٦ ـ ٩ الدهر .

(٢) ٢١/١٣ ـ ٢٤ الرعد

ووجه الدليل كما تقدم وفيها أيضا بيان أن خوف سوء الحساب لا ينافي الصبر ابتغاء وجه الله .

ومثلها قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ »[1] .

ووجه الدليل ما تقدم ومعنى الآية انهم يعطون ما أعطوا من أعمال البر والطاعات وقلوبهم خائفة من انهم راجعون الى ربهم فيخافون أن لا تقبل منهم . ففيها بيان انهم كانوا يعملون راجين قبول الاعمال خائفين من عدم قبولها .

فهؤلاء هم الكمل من عباد الله وهذه هي عبادتهم في صريح هذه الآيات الكريمة التي ذكرت فيها صفاتهم وكلها بكثرتها وصراحتها دالة دلالة قطعية لما قلناه من ان العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب والخوف من العقاب اذ ذلك هو أظهر مظاهر العبودية بذلها وخضوعها وضعفها وحاجتها وفقرها وحالتها المباينة غاية المباينة لمقام الربوبية مقام ذي الجلال والاكرام .

ولا تجد في القرآن العظيم آية واحدة دالة صريحة على ذكر عباده ـــ هكذا ـــ دون خوف أو طمع . ونزيد على الآيات المتقدمة آية دالة على حال عباده المعصومين عليهم الصلاة والسلام ، وهي قوله تعالى[2] : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ

(١) ٢٣/٥٨ ـ ٦٢ المؤمنون .
(٢) ٢٦/٨٢ الشعراء .

الدّين » ووجه الدليل من الآية ان ابراهيم ـ عليه السلام – أخبر عن نفسه بصيغة المضارع المفيد للتجدد انه يطمع من الله أن بغفر لـه خطيئته ، فدل ذلك على انه كان في عبادته طامعاً ومعلوم أنه معصوم وانه مؤمن من العذاب ، وان ما سماع خطيئة هو بالنسبة الى مقامه الرفيع من باب (حسنات الابرار سيئات المقربين) ومع ذلك كله فالمقصود من الدليل حاصل وهو انه خاف المؤاخذة ـ المؤاخـذة اللائقة بمقامه ـ وطمع في الغفران وكانت عبادته على الطمع والخوف • ولا يقال انه كان معلما للناس لأنه اخبار عن نفسه وخبره صدق ثابت فلا بد أن يكون كما أخبر •

وأما السنة فمنها دعاء القنوت المشهور (**نرجو رحمتـك ونخـاف عذابك الجدّ**) ووجه الدليل منه أن الصلاة أشرف أحوال العبد وأجل مقاماته وأعظم عباداته وقد علم ان يدعو فيها هذا الدعاء الصريح في رجاء الرحمة وخوف العذاب وما كان ذلك الا لان العبادة الشرعية موضوعة عليهما •

ومنهـا حديث : (**وأما السجود فادعوا فيه،فقمن ان يستجاب لكم**) وهو حديث صحيح ، وفي الصحيح أيضا (**اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**) ووجه الدليل أن أقرب أحوال العبد من ربه هو محل المدعاء ، والداعي يرجى القبول ويخاف المنع ، فالعبادة في أقرب أحوال العبد موضوعة على الرجاء والخوف •

ومنها الحديث الصحيح : (**اذا أتيت مضجعـك فتوضـا وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت وجهي اليك وفوضت أمري اليك والجات ظهري اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجا ولا منجا منك الا اليك اللهم آمنت بكتابك الذي انزلت وبنبيك الذي أرسلت فان مت من ليلتك فانت على الفـطرة واجعلهن آخر ما تتكلم بـه**) ووجه الدليل منه انه تعليم لما يقوله المسلم فيما قد يكون آخر حال يلقى

عليه ربه ولا ينبغي أن يلقاه الا على أكمل حال • فعلمنا هذا الدعاء الصريح في الرغبة والرهبة ليقوله المؤمن ولو كان من أكمل الكمل فدل على ان الرغبة والرهبة عليهما وضعت العبادة في جميع الاحوال •

ومنها الحديث الصحيح : « قالت عائشة (رضي الله عنها) : كنت نائمة الى جنب رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ففقدته فلمسته بيدي فوضعت يدي على قدميه وهو ساجد يقول : **(أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا احصي ثناء عليك كما اثنيت على نفسك)** ووجه الدليل انه في الحال التي هو فيها أقرب ما يكون من ربه وهي حالة سجوده استعاذ برضى الله من سخطه وبعافيته من عقوبته ، ثم لما لم يستطع الاحاطة بافعاله رد الأمر لذاته فاستعاذ به منه وهو في الجميع مستعيذ والمستعيذ طالب والطالب راج وطامع في نيل المطلوب فلم يفارق عبادته الرجاء والطمع حتى في هذه الحالة التي هي بينه وبين ربه لانه كان ساجداً في جنح الليل دون حضور أحد من الناس الا عائشة التي كانت نائمة واستيقظت ففقدته فاطلعت عليه في تلك الحال •

ومنها الحديث الصحيح عن ابن عباس الذي كان يعلمهم رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — اياه كما يعلمهم السورة من القرآن رواه مالك وفيه : **(اللهم اعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر واعوذ بك من فتنة المسيح الدجال واعوذ بك من فتنة المحيا والممات)** ووجه الدليل منه انه علمهم هذه الاستعاذة الصريحة في الخوف والرجاء كسائر ما علمهم من الدعوات المبنية عليهما •

وهكذا تجد جميع دعواته المأثورة على الرغبة والرهبة والرجا والخوف ولا تجد دعاء واحداً علمهم فيه أن يتوجوا الى الله تعالى دون رغبة ولا رهبة ولا رجاء ولا خوف ، ولو كانت العبادة الخالية

من الطمع والخوف هي أكمل العبادة لكان بينها لهم بيانا شافيا صريحا كعادته في بيان الكمالات ، وهو الحريص على دلالتهم على كل خير ، فكيف لم يدلهم على هذا المقام بصريح المقام لو كان من الكمال بحيث يدعى لها بعض الناس •

فقد بان لنا بما ذكرناه توارد آيات الكتاب وأحاديث السنة في صراحة وجلاء على مشروعية العبادة مقرونة بالرغبة والرجاء والخوف ، ولم نظفر بآية واحدة أو حديث واحد فيه التصريح بمشروعيتها مجردة منهما فضلا عن أنها أكمل منها معهما ، وما كنا لنترك أدلة الكتاب والسنة الصريحة لرأي أحد كائنا من كان ، واننا نورد فيما يلي حدبثا من صحيح البخاري يبين لنا كيف كان الصحابة سادة هذه الأمة يعبدون الله تعالى يرجون قبول أعمالهم لديه : (قال أبو بردة ابن ابي موسى الاشعري ، قال لي عبد الله بن عمر : هل تدري ما قال أبي لأبيك ؟ قال قلت لا قال فان أبي قال لابيك يا أبا موسى هل يسرك اسلامنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وهجرتنا معه وجهادنا وعملنا كلنا معه بَرَدٌ لنا وإن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافا رأساً برأس قال أبي (يعني أبا موسى) لا والله قد جاهدنا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ــ وصلينا وصمنا وعملنا خيراً كثيراً وأسلم على أيدينا بشر كثير وانا لنرجو ذلك فقال أبي (يعني عمر) لكني أنا والذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك برد لنا وان كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفافا رأسا برأس فقلت ــ أبو بردة ــ ان أباك والله خير من أبي) ووجه الدليل عملهم على الرجاء وخوفهم من عدم القبول والعقاب على المخالفة وان اختلفا فيما اختلفا فيه ولا تجد في كلام واحد منهم انه كان يجرد عبادته عن الطمع والخوف وما كان المقام الاكمل ليفوتهم وهم أفقه الناس في الدين وأحرصهم على الخير •

هذه هي أدلتنا فيما ذهبنا اليه ورددنا على مخالفيه وهي أكثر من

هذا عدا في كتاب الله وسنة رسوله وفيما ذكرناه كفاية ــ ان شاء الله ــ لمن نصح وأنصف وأخلص الايمان بقوله تعالى [1] : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » .

والآن نعطف بالكلام على مقال الشيخ ونحْصره في مواضع :

١ ــ أنكرنا على من زعموا أن مرتبة العبادة العليا أن يعبد الله تعالى لذاته دون الطّمع في ثوابه ولا الخوف من عقابه ونسبنا اليهم الخطا ولما وجدنا آيات الكتاب وأحاديث السنة طافحة بان عبادة الكمل من عباد الله مقرونة بالخوف والطمع كما قدمنا نسبنا خطاهم الى قلة التفقه في الدين أي في أدلة الدين وهي الآيات والاحاديث المذكورة ، وما عسى أن يقال فيمن لم تكفه تلك الآيات والاحاديث كلها على صراحتها واتفاقها الا انه لم يتفقه فيها . ولما لم نجد آية واحدة ولا حديثا واحداً يصرح بمدعاهم حملناهم على الغلو هذا كله دون أن نصرح بشخص ولا بطائفة لان الكلام مع القول والدليل . فأبى حضرته الا أن يحمل كلامنا على طائفة مخصوصة يحب هو اليوم التظاهر بالدفاع عنها ثم تطرق من ذلك الى رمينا بما يناسب غرضه من الجرأة وقلة النصيحة والتطاول على الأئمة الى ما يريد ان يصفنا به ليقول القارىء ان حضرته موصوف بضده . وربك أعلم بتلك الاوصاف وأهلها .

٢ ــ كان استدلالنا بآية (وعباد الرحمن) على الوجه الذي بيناه فيما تقدم دون أن نذكر الحصر ولا أن نشير اليه ولا من مقتضى

(١) ٤/٥٨ النساء .

موضوعنا أن نقصر عباد الرحمن على تلك الصفات ، لكن حضرته أخذ يقرر في قواعد الحصر الضرورية عند المبتدئين وخرج من ذلك الى ان الآية لا حصر فيها واننا تسرعنا وما تدبرنا ولم نحسن تطبيق قواعد العلوم على موضوع النزاع . وفي الحق ان حضرته هو الذي لم يحسن تنزيل ما طولب به في الحصر على كلام لم ندَع فيه الحصر ولم نستدل به وانما استدللنا بالآية مثل ما استدللنا بغيرها على الوجه الذي تقدم وعلى ما معه من الوجوه .

٣ — ما في كلام الإمام الرازي من ان الله مستحق للعبادة لذاته وانه لو أمرنا بالعبادة بلا ثواب ولا عقاب لوجبت فهو حق مسلم وليس هو موضوع النزاع ، كان موضوع النزاع هل العبادة مع الخوف والرجاء أكمل أم العبادة دونهما وما فيه من ان **(من عبد الله للثواب والعقاب فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب والله واسطة)** — اذا كان يعني به انه عبد الله للثواب من حيث ذاته والعقاب من حيث ذاته دون الامتثال للامر وتوجه للرب ، فهذا ليس كلامنا فيه ، وان كان يعني انه يعبد للثواب والعقاب من حيث ان العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب وخوف العقاب فهو يعبد الله امتثالا لأمره — فكلامه منوع لان العبادة هي التوجه بالطاعة لله امتثالا لأمره وقياما بحقه مع الشعور بالضعف والذل أمام قوة وعز الربوبية وذلك يبعث على الخوف المأمور به ، ومع الشعور بالفقر والحاجة أمام غنى وفضل الربوبية وذلك يبعث على الرجاء المأمور به ، فالمعبود في الحقيقة والواقع هو المتوجه اليه بالطاعة وهو الله تعالى لا الثواب الذي تعلق به الرجاء ولا العقاب الذي تعلق به الخوف. وكيف يكون الثواب وهو المعبود والعقاب هو المعبود والله هو الذي شرعهما، فهل يشرع عبادة غيره ، وما هذا الا من عدم التأمل في مثل قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ

رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً » (١) . أي شأنه ان يحذر ومن حقه أن يحذر وهل هذا إلاّ من عدم التفقه في قوله تعالى – في أم القرآن والسبع المثاني التي يناجي بها المصلي ربه وهو في أعظم عبادة – : « إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ » فان المستعين طالب للاعانة والطالب راج قبول طلبه خائف من عدم قبوله . وقوله تعالى فيها : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ » طلبا كذلك فليتفقه المتفقهون في كلام رب العالمين .

٤ – ونقل كلام الامام الرازي في باب المحبة قوله : **(وأما العارفون فقد قالوا قد يحب الله تعالى لذاته واما حب خدمته وحب ثوابه فدرجة نازلة)** ونحن نقول ان الذات اقدس الموصوف بالكمالات المفيض للانعامات تتعلق به قلوب المحبين موصوفا بكمالاته وانعاماته التي منها ثوابه وجزاءه وتلك المحبة تبعث على خدمته بطاعته والتقرب اليه بأنواع العبادات وأما عبادة الذات مجرداً عن الانعامات فهو نوع من التعطيل في الاعتقاد والتقصير في الشهود واذ كانت المحبة عملا من أعمال العبد القلبية التي يتقرب بها الى الله فهي عبادة . وقد بينا بالادلة المتقدمة ان العبادة في الاسلام موضوعة على مصاحبة الرجاء والخوف والمحب للرب ذي الجلال والاكرام والبطش والانعام لا يغيب عن اجلاله بالخوف والتذلل له بالطمع كحاله في سائر العبادات .

٥ – ونقل من كلام النيسبوري قوله : **(المحققون نظرهم على المعبود لا على العبادة وعلى المنعم لا على النعمة)** فان كان مراده ان نظرهم على المعبود أي اعتمادهم في القبول على المعبود لا على العبادة فهذا حق وليس كلامنا فيه ، وان كان مراده ان نظرهم على المعبود أي توجههم

(١) الاسراء ٥٧/١٧ .

الى المعبود دون العبادة فهذا أيضا حق لان العبادة متوجة بها لا اليها وليس كلامنا في هذا . وان كان مراده دون تقرب بالعبادة فهذا باطل لأن الله تعالى قال : « وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ » أي ما يقربكم اليه من طاعته وان كان مراده دون شعور بالعبادة فهذا أيضا باطل لان العابد ينوي العبادة ويقصد بها القربة ويتوجه بها مخلصا فيقول : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » فكيف يكون لا شعور له بها وأما قوله (وعلى المنعم لا على النعمة) فان أراد أن المتقرب اليه هو الله المنعم دون النعمة ، فهذا حق وليس كلامنا فيه ، وإن أراد أن رجاء نعمة الثواب حين التوجه لله والتقرب اليه بالطاعة ينافي التقرب الى المنعم ويعد تقربا للنعمة فهذا هو الذي أبطلناه بالادلة السابقة ونقضناه في الموضع الثالث . وان أراد ان ذكر العبد لنعم الله عليه مخل بكمال عبادته فهذا باطل أيضا لان عبادة الله شكرا على ما أتى من النعم وطلبا للزيد من أرفع المقامات وقد قال الله تعالى : « اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً »[1] « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً — الى — شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ »[2] « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ »[3] « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ »[4] و « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »[5] .

٦ — استدل النيسبوري : (بانه قيل لبني اسرائيل اذكروا نعمتي

---

(١) ١٣/٣٤ سبأ .

(٢) ١٢٠/١٦ — ١٢١ النحل .

(٣) ١٩/٢٧ النمل و ١٥/٤٦ الاحقاف .

(٤) ١٤/٣١ لقمان .

(٥) ٧/١٤ ابراهيم .

ولأمة محمد اذكروني) وهذا منقوض بقوله تعالى : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ »[1] ، « اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ » [2] .

٧ ـ نقل من كلام النيسبوري ما يفيد أن عبادة الله لكونه إلاهاً وكون المخلوق عبداً لا يكون معها رغبة في الثواب ولا رهبة من العقاب وانها هي أعلى الرتب ونحن نقول من مقتضى شعورك بعبوديتك شعورك بضعفك وفقرك وان من مقتضى علمك بالله شهودك لقوته وفضله وذاك الشعور وهذا الشهود يبعثان فيك الرجاء والخوف فتكون وأنت تعبده لانه إله ولانك عبد راجيا خائفا . ودعوى تجرد العبادة عنهما قد أبطلناها بالادلة السابقة .

٨ ـ نقل قول الامام ابن العربي « **امر الله عباده بعبادته وهي اداة الطاعة بصفة القربة وذلك باخلاص النية بتجريد العمل عن كل شيء الا لوجهه وذلك هو الاخلاص الذي تقدم بيانه** » ثم زعم هو من عنده ان من مقتضى تجريد العمل عن كل شيء تجريده من رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الاخلاص هو ما كان لوجه الله لكونه إلاهاً لا غير . وهذا صريح منه في ان رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الاخلاص وهو باطل لقوله تعالى : « إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ..[3] » الآية ، وقد تقدمت فخافوا وعملهم لوجه الله بنص القرآن . وروى الأئمة في الصحيح ان أبا طلحة قال : يا رسول الله ، اني أسمع الله

(١) ٣/١٠٣ آل عمران .

(٢) ٣٣/٩ الاحزاب .

(٣) ٧٦/٩ الدهر .

تعالى يقول: « لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وان أحب أموالي إليَّ بيرحاء وانها صدقة الله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح . فأقره على قوله أرجو برها وذخرها ولم يقل له ان هذا مناف للاخلاص كما يقول الشيخ ، وهو يسمبط ويشنبط في كلام الامام ابن العربي ثم مالك — ياخي — ولابن العربي حسبك ابن سينا وأمثاله الذين يحاولون تطبيق العبادة الاسلامية على الفلسفة اليونانية والآراء الافلاطونية ، أما ابن العربي فهو حكيم اسلامي وفقيه قرآني وعالم سني — حقيقي — لا يبني أنظاره الا على أصول الاسلام ودلائل الكتاب والسنة . وهاك كلامه في ارادة المأذون فيه مع العبادة من أمور الدنيا بله الرجاء والخوف والسمع كلامه الصريح من الدليل الصحيح في الرد على مثل زعمك قال على قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » .

المسألة الثانية : قال علماؤنا : (في هذا دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع اداء العبادة ، وان القصد الى ذلك لا يكون شركا ولا يخرج به المكلف عن رسم الاخلاص المفترض عليه ، خلافا للفقراء ان الحج دون تجارة أفضل أجراً) وقال على قوله تعالى : « وإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ » [1]: (وهذا يدل على ان العبد يعمل محبة في الله ورسوله لذاتيهما وفي الدار الآخرة لما فيها من منفعة الثواب) .

٩ — ونقل كلاما للامام الغزالي في المحبة وقد قدمنا في الموضع

(١) ٣٣/٢٩ الاحزاب .

الثامن الكلام على مثله وبين ان المحبة عبادة وانها موضوعة كسائر العبادات الشرعية على الرجاء والخوف بالادلة المتقدمة ٠

١٠ ــ وقال : وكـان من دعائه صلى الله عليه وآلـه وسلم : **(اللهم اجعل حبك أحب الاشياء إلي ، واجعل خشيتك اخوف الاشياء عندي واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق الى لقائك)** وقد تقرر ان خوفه خوف اجلال وتعظيم لا خوف النار والعقاب اه ، ونقول ان خوف الاجلال لا يخرج به العبد عن ضعف وذل العبودية ومشاهدة قوة وفضل الربوبية فلا يتجرد خوفه الاجلالي عن خوف المؤاخذة : المؤاخذة التي ليست ناراً ولا عذاباً ولكنها مؤاخذة مناسبة لذلك المقام العالي بدليل ان ابراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ وهو مثل نبينا عليه الصلاة والسلام في العصمة وعدم النار والعقاب وقد خاف المؤاخذة فقال : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » ولا خطيئة له ولجميـع الانبياء والمرسلين لا مـن الكبائر ولا من الصغائر على كل حال ، وبدليل انه هو عليه الصلاة والسلام قـال : **(والله اني لاستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)** رواه البخاري ، وليس هذه لذنب لا صغير ولا كبير وانما هو لعلمه بالله وعظيم حقه وشدة تعظيمه لربه فيخاف المؤاخذة فيطلب المغفرة فبان بهذا ان خوف الاجلال لا يتجرد عن خوف المؤاخذة ٠ وبعد هذا البيان نقول لحضرته لا تستدل بالحديث دون بيان رتبته ولا ذكر لمخرجه ، وما هكذا يكون استدلال الامناء من العلماء وانه يرمي الاحاديث هكذا مهملة اختلط الحق بالباطل وتجرأ على السنة النبوية الغبي والجاهل حتى بلغ الأمر الى نسبة الأحاديث الى كتب الاسلام المتفق عليها ولا وجود لها فيها ، اما نحن فلا نعرف هذا الدعاء في الصحاح المتداولة عندنا فليتك تبين من أين جئت به حتى نعرف مقدار ما تعتمد في احتجاجك عليه ٠

١١ ــ وقال : فللأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ حالتان : حالة مع الله ــ تعالى ــ لا يرون فيها غير جلاله وعظمته : وحالة مع الخلق يستغفرون ويستعيذون من النار وسوء المنقلب وفتنة القبر والدجال ، ويطلبون الرحمة والثواب والجنان اهـ ، ونقول قد بينا ان رؤية جلال الله مما يبعث على الخوف من المؤاخذة كما مضى عن ابراهيم ومحمد ــ عليهما الصلاة والسلام ــ فلا يتجردون عن الخوف خوف الاجلال وخوف المؤاخذة في حالتهم مع الله وقد دل حديث عائشة الذي قدمناه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في سجوده في جوف الليل والناس نيام فيما بينه وبين ربه استعاذ برضا الله من سخطه وبمعافاته من عقابه فكانوا يستعيذون ويرجون ويخافون في حالتهم مع الله واما حالتهم مع الناس فانهم كانوا يعلمون وكانوا يخبرون عن أنفسهم بخوفهم وطمعهم كما أخبر ابراهيم ــ عليه السلام ــ بطمعه وأخبر محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أصحابه بأنه اتقاهم لله وأخوفه له وأخبر عن استغفاره لربه واخبارهم حق صدق لا شك فيه ولا يجوز أن يقال انهم قالوه لمجرد التعليم وهو في الواقع لا حقيقة له اذ الاخبار عن النفس بشيء انه كان وهو لم يكن هو الكذب الذي عصمهم الله منه ونزههم عنه ولو تفطن حضرته لهذا لما قال ما قال •

١٢ ــ وذكر حديث الاحسان (**أن تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك**) • وهذا الحديث يقتضي دوام المراقبة لله عند كل حركة وسكون حتى لا تكون من العبد مخالفة فيهما وحتى يأتي بعبادته على غاية الاتقان في صورها وأتم الاخلاص بها وقد علمت ان من مقتضى العبادة الشرعية الشعور بضعف وذل وفقر العبودية أمام عزّ وقوة وفضل الربوبية فينبعث الرجاء والخوف في العابد وهما مما يحملانه على تمام الاحسان في العبادة باتقانها والاخلاص

فيها • ثم من مقتضى مراقبة الله تعالى مشاهدته ، أي مشاهدة جلاله وجماله : بصفات القهر والبطش والملك والسلطان ، وجماله بصفات الفضل والرحمة والاحسان وبصدق المشاهدة لصفات الجلال يخاف العبد ويخشى وبصدق المشاهدة لصفات الجمال يرجو ويطمع فصدق الشهود لا بد معه من الرجاء والخوف واذا غاب العبد عن الشعور بالموجودات فانه لا يغيب عن مشاهدة جلال وجمال الذات الباعثين للخوف والرجاء واذا لم يشهدهما وزعم انه يشهد الذات مجردا فانه لم يكن في الحقيقة مشاهدا بل غافلا معطلا جامدا واما غيبوبة العابد عن نفسه — ان كانت — فانها حالة عارضة غير ثابتة وليست مشروعة لا بنص من آية ولا من حديث عن أن تكون فاضلة كاملة • فالحديث دل على المراقبة والمشاهدة الشرعيتين اللتين يكون فيها العبد عابدا العبادة الشرعية الموضوعة على الرجاء والخوف حسب الادلة المتقدمة •

١٣ — ونقل كلام ابن سينا في كتاب الاشارات وكلام شراحه وهو مثل ما تقدم لنا ابطاله بأدلة الكتاب والسنة والشرح بهما لمعنى العبادة المشروعة • واذ كنا نبحث عن العبادة التي شرعها الله لعباده على لسان رسوله فاننا لا نعرفها الا من الكتاب والسنة وقد قدمنا من أدلتهما ما جلى المسألة للعيان وأغنى فيها عن كل كلام •

وتلخص وتبين لنا مما تقدم ان العبادة المشروعة هي القصد الى الطاعة مع الشعور بضعف العبد وذله ، وحاجته وفقره ومشاهدته لجلال ربه وقدرته وعزته ، وجماله وفضله ورحمته فيكون بتلك المشاهدة خائفا من عقابه أو مؤاخذته ، راجيا لثوابه وانعامه ، وان هذه العبادة هي عبادة الكمل من عباد الله الذين وصفهم بأفضل صفاتهم في كتابه وهي عبادة أنبيائه ورسله الذين ذكر عبادتهم القرآن وهي عبادة محمد — صلى الله عليه وآله وسلم — التي دلت عليها صحاح الآثار وعبادة أصحابه الثابتة في النقول ، وخلصنا من هذا الى ان

العبادة المجردة عن الخوف والرجاء منافية لصدق مشاهدة الجلال والجمال مخالفة لعبادة الانبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين وانه لم يرد فيها نص صريح من كتاب أو سنة مثل واحد من الادلة المتقدمة المتكاثرة وانها ما دامت كذلك ليس لنا !ن نعدها مشروعة فضلا عن ان نعدها كاملة فضلا عن أن ندعى انها أكمل لان مشروعية الشيء لا تثبت الا بدليل صحيح صريح • وانى لنا ذلك في العبادة المجردة عن الرجاء والخوف والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والحمد لله رب العالمين[1] •

الصفة الخامسة :

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » [2] •

المناسبة :

مضى وصفهم بأنهم يبيتون لربّهم سجداً وقياماً ، والصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر وتربي النفس على استصغار الدنيا وما فيها ، وعلى تعظيم الرب والوقوف عند حدوده ، فلا يعظم شيء من الدنيا عند أهل الصلاة فيمسكوا عن بذله في الحق ، ولا يستهويهم شيء منها فينتهكوا لأجله حدود الله وحرماته • ولما كان المال هو أعز شيء من هذه الدنيا ، وهو أعظم سبب لنيل مبتغياتها ، وصفوا بأنهم في تصرفهم فيه على أكمل حال ، وهي حالة العدل التي أثمرتها لهم الصلاة ، فلا يمسكونه عن حق ولا يبذلونه في باطل •

---

(١) ش : ج ١ ، م ٩ ، ص ١ ــ ٨
غرة رمضان ١٣٥١ ــ جانفي ١٩٣٣

(٢) ٢٥/٦٧ الفرقان .

المفردات :

أنفقوا : بذلوا المال في وجه من الوجوه • الاسراف : مجاوزة الحد المشروع • الاقتار والتقتير : التضييق • القوام : العدل بين الشيئين ، أي المعتدل ما بينهما ، وسمي العدل بين الشيئين قواما لاستقامة طرفيه واعتدالهما فلا الى هذا ولا الى ذاك •

التراكيب :

وكان : أي هو ، أي انفاقهم المفهوم من أنفقوا • بين ذلك : خبر كان ، وقواما : حال مؤكدة ، فلو قيل : وكان بين ذلك لكان كافياً ، ولكن أكد بِقَواماً لما فيه من صريح اللفظ المفهم للعدل • والانفاق يكون ولا يكون ، والشأن أن يكون ، ولهذا علق وكان التعليق باذا ، وقدم نفي السرف على نفي التقتير لأن الاسراف شرهما ، ففيه مجاوزة الحدود وضياع المال ، وفي التقتير مفسدته مع بقاء المال ، فينفقه في الخير وقد يبقى لغيره فينتفع به •

المعنى :

اذا أنفقوا أموالهم لم يتجاوزوا الحد المشروع ولم يضيقوا فيقصروا في القدر المطلوب ، وكان إنفاقهم بين التجاوز والتضييق عدلا مستويا لا افراط فيه ولا تفريط ، وصفهم بالقصد الذي هو وسط بين الغلو والتقصير وهو الحالة بين الحالتين والحسنة بين السيئتين •

تحديد :

الاسراف مذموم فهو ما كان في منهي عنه نهي تحريم أو كراهة ، أو في مباح قد يؤدي اليهما • فالأول كمن أوْلَمَ وليمة أنفق فيها جميع ماله ، وأصبح بعدها هو وأهله للضيعة والحاجة ، والثاني كمن أوْلَمَ وليمة دعته الى الاستدانة وان كان يظن القدرة على الأداء

لان الدّين محذر ومستعاذ منه ، والثالث : كالاستمرار على ايلام الولائم مع القدرة عليها في الحال مما قد يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين في المآل •

والتقتير مذموم أيضا ، فهو ما كان امساكا عن مأمور به أمر وجوب ، أو استحباب أو عن مباح يؤدّي اليهما ، فالأول : كمن يمسك عن أهله شحاً حتى يذيقهم ألم الجوع والبرد ، والثاني : كمن لا يذيقهم بعض الطيبات التي يخص بها نفسه من السوق • والثالث : كمن يمسك عن تطييب خاطر زوجته ببعض الكماليات مع قدرته عليها مما قد يفسد قلب زوجته عليه أو يحملها على ما لا يرضيه •

والقوام العدل هو الممدوح ، فهو أن ينفق في الواجب والمندوب وما يؤدي اليهما ويمسك عن المحرم والمكروه وما يؤدي اليهما ويتسع في الحلال دون مداومة في الأوقات واستيفاء لجميع اللذات واستهتار بالمشتهيات •

تطبيق :

حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها الذي يؤدي الى التقتير من بعدها فيكون الاثم قد أصاب صاحبها بنوعيه وأحاط به من ناحيتيه والشر يجر الى الشر والاثم يهدي الى مثله ، وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علق كثير ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة آمالهم في معالجتها خصوصا في المآتم حقق الله الآمال • وثم نوع آخر موجود في غالب القطر ويكثر في بعض الجبال ، وهو أن بعض المأمورين من بعض شيوخ الطوائف يأتون بثلة من أتباعهم فينزلون على المنتمين اليهم من ضعفاء الناس فيذبح لهم العناق إن كانت ويستدين لشرائها ان لم تكن ويفرغ المزاود ويكنس لهم ما في البيت ويصبح معدما فقيرا مدينا ويصبح من يومه صبيته يتضاغون

ويمسي أهل ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس ويميتهم الشقاء ميتات متعددة في اليوم وشر ما في هذا الشر انه يرتكب باسم الدين ويحسبه الجهال انه قربة لرب العالمين ، فاما اذا جاء وقت الرحال الى الأحياء والأموات وتقديم النذور والزيارات فحدث هنالك عن أنواع السرف والتكلفات والتضييع للحقوق والواجبات .

نصيحة :

فياليت الذين تأتيهم تلك الوفود يسألونهم فردا فردا عن حالهم ومن أين جاؤوهم بما جاؤوهم به من أموالهم فعساهم أن يطّلعوا على بؤس أولئك المساكين فترق لهم قلوبهم ويرجعوا اليهم مالهم أو يزيدوهم من عندهم وليقتصروا على من يجدونهم أهل قدرة على ما دفعوه لهم من أموالهم فهذه نصيحة اذا عملوا بها خففت من الشر والبؤس عن الزائرين ومن الاثم واللوم عن المزورين . فهل بها من عاملين ، وفقنا الله والمسلمين[1] .

الصفة السادسة والسابعة والثامنة :

« وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ »[2] .

سبب النزول :

ثبت في الصحيحين ــ واللفظ لمسلم ــ ان عبد الله بن مسعود قال : قال رجل : يا رسول الله ، أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تدعو الله ندًّا

---

(١) ش : ج ١٠ ، م ٨ ، ص ٤٩٧ ــ ٥٠٣
غرة جمادى الثانية ١٣٥١ ــ اكتوبر ١٩٣٢

(٢) ٢٥/٦٨ الفرقان .

وهو خلقك • قال : ثم أي ؟ قال : ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك • قال : قلت : ثم أي ؟ قال : ان تزاني حليلة جارك • فأنزل الله تصديقها : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ — الى — أثَاماً » •

المطابقة بين الآية وسبب نزولها :

تواردت الآية والحديث في الاثم الأول على شيء واحد • وتوارد أيضا في الثاني والثالث ، إلاّ أنّ في الحديث ذكر فرد من العام هو شر أفراده وأكبرها اثماً ، وفي الآية ذكر العام ، ولا شك أنّ شر قتل الولد لما في ذلك زيادة على قتل النفس من الخروج عن حنان الفطرة وارتكاب ضد ما توجبه الرعاية والكفالة ، وسوء الظن بالله المتكفل برزق الخليقة • كما ان الزنى بحليلة الجار هو شر أفراد الزنى لما فيه زيادة على الزنى من انتهاك حرمة الجار وخيانة الامانة ، فانهم ما تجاوروا حتى أمن بعضهم بعضا وأدخل الفساد على أساس التكوين الاجتماعي في الناس ، وهو التجاور والتقارب •

المناسبة :

لما اثبت لهم أصول الطاعات في الآيات المتقدمة نفى عنهم أمهات المعاصي في هذه الآية تنبيها على أن الايمان الكامل هو ما تثبت معه الطاعات وتنتفي المعاصي ، وذلك هو غـاية الامتثال للاوامر والنواهي ، وفيه تعريض بما كان عليه المشركون من الاتصاف بهذه المعاصي من دعائهم آلهتهم مع الله وقتلهم النفس وارتكابهم فاحشة الزنى • وقدم اثبات الطاعات على انتفاء المعاصي تنبيها على أن من راض نفسه على الطـاعة ودانت نفسه ، والانقيـاد للاوامر الشرعية ضعفت منه أو زالت دواعي الشر والفساد فانكف عن المعصية •

نكتة استطرادية :

فمن هنا نعلم أن على المسلم الذي يعمل لتزكية نفسه أن يواظب على الطاعات بأنواعها وأن يجتهد في حصول الانس بها والخشوع فيها ، فان ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه ٠

وجه ترتيب هذه الصفات المنفيات :

قامت الشريعة على المحافظة على حقوق الله وحقوق عباده ، وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، فمن دعا مع الله غيره وأشرك به سواه فقد أبطل حق الله وأعدم عبادته ، ومن قتل النفس فقد تعدى على أول حق جعله الله لعباده بفضله وهو حق الوجود وعمل على ابطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم ٠ فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير الله معه ٠ ولما كان الزنى فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد وذلك مؤد الى الاضمحلال والزوال والشرور والأهوال قرن بقتل النفس فذلك قتل حقيقي وهذا قتل معنوي ٠

المفردات :

الدعاء : هو النداء لطلب أمر أو تنبيه عليه ٠ الإله : هو المعبود ٠ حرم الله النفس : جعل لها حرمة ومنعة فلا يجوز التعدي عليها ومادة (ح رم) تفيد المنع في جميع تصاريفها ، الحق : هو الثابت من مقتضيات القتل في الشرع ٠

التراكيب :

وصف النفس بالاسم الموصول المعروف الصلة ، لأن تحريم الله لها أمر مركوز في النفوس معروف للبشر بما جاءهم من جميع الشرائع ، وكان النفي للفعل بصيغة المضارع للاشارة الى استمرار ذلك النفي ٠

المعنى :

والذين لا يدعون ولا يعبدون مع الله إلهاً آخر فيشركون به سواه في عبادتهم اياه ولكنهم يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة ويوحدونه في ربوبيته وألوهيته ، ولا يقتلون النفس التي جعل الله لها حرمة وحرم قتلها بالسبب الا الحق الثابت في دين الله المعارض لحرمتها المقتضي لقتلها بالزنى بعد الإحصان أو الكفر بعد الايمان أو القتل للنفس العمد العدوان ، ولا يزنون فيأتون ما حرم الله عليهم اتيانه من الفروج .

مزيد بيان لتوحيد الرحمن

من دعا غير الله فقد عبده . ما يزل الذكر الحكيم يسمي العبادة دعاء يعبر به عنها . ذلك لأنه عبادة فعبر عن النوع ببعض أفراده ، وانما اختير هذا الفرد ليعبر به عن النوع لأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها فان العابد يظهر ذلك أمام عز المعبود وفقره أمام غناه وعجزه أمام قدرته وتمام تعظيمه له وخضوعه بين يديه ، ويعرب عن ذلك بلسانه بدعائه وندائه وطلبه منه حوائجه . فالدعاء هو المظهر الدال على ذلك كله ، ولهذا كان مخ عبادته . وقد جاء التنبيه على هذا في السنة المطهرة ، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **الدعاء هو العبادة ثم قرأ :** « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي اسْتَجِبْ لَكُمْ » . رواه أحمد والترمذي وأبو داوود رحمهم الله والنسائي وابن ماجة . وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **الدعاء مخ العبادة** رواه الترمذي ــ رضي الله عنه ــ فتطابق الأثر والنظر على أن الدعاء عبادة . فمن دعا غير الله فقد عبده ، واذا كان هو لا يسمي دعاءه لغير الله عبادة فالحقيقة لا ترتفع بعدم تسميته

لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها ، والعبرة بتسمية الشــرع التي عرفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته .

من دعا شيئا فقد اتخذه إلها :

لما ثبت أن الدعاء عبادة فالدّاعي عابد والمدعو معبود والمعبود إله ، فمن دعا شيئا فقد اتخذه إلهه لانه فعل له ما لا يفعل الا للاله ، فهو وان لم يسمه إلهاً بقوله فقد سماه بفعله . ألا ترى الى أهل الكتاب لما اتبعوا أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم ــ وهما لا يكونان الا من الرب الحق العالم بالمصالح ــ قال الله تعالى فيهم : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله[1]. وان كانوا لايسمونهم أربابا فحكم عليهم بفعلهم ولم يعتبر منهم عــدم التسمية لهم أربابا بألسنتهم) . فكذلك يقال فيمن دعا شيئا أنه اتخذه إلهاً نظرا لفعله وهو دعاؤه ، ولا عبرة بعدم تسميته له إلها بلسانه . وفي حديث عدي بن حاتم الذي رواه الترمذي وغيره أنه قال للنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لما سمعه يقرأ هذه الآية ، انهم لم يكونوا يعبدونهم ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : أليس كانوا اذا حرموا عليهم شيئا حرموه واذا أحلوا لهم شيئا أحلوه ! قال : قلت : نعم ، فتلك عبادتهم اياهم . قال الامام الجصّاص : ولما كان التحليل والتحريم لا يجوز الا من جهة العالم بالمصالح ثم قلد هؤلاء أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم وقبلوه منهم وتركوا أمر الله تعالى فيما حرم وحلل صاروا متخذين لهم أربابا اذ نزولهم في قبول ذلك منهم منزلة الارباب اه وعلى وزانه نقول : لما كان الدعاء عبادة والعبادة لا تكون الا للاله كان الداعي لشيء من المخلوقات متخذا اياه إلهاً لما نزلــه

---

(١) ٩/٣٢ التوبة .

بدعائه اياه منزلة الاله ، سواء دعاه وحده دون الله أو دعاه مع الله والعياذ بالله .

تحذير وارشاد :

ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس « يا ربي والشيخ » ، « يا ربي وناس ربي » ، « يا ربي والناس الملاح » وهذا من دعاء غير الله مع الله فاياك أيها المسلم واياه . وادع الله ربك وخالقك وحده وحده ، وحده ، وأنف الشرك راغم .

الوعد بالعذاب الشديد :

« وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا »(١) .

المناسبة :

إذا أمر القرآن بشيء ذكر فائدته وثمرته للعباد في الدارين ، وكذلك اذا نهى عن شيء ذكر مضرته وسوء عاقبته عليهم فيهما ، فلما ذكر في صدر الآية نفي تلك المعاصي عن عباد الرحمن الذي يفيد النهي عنها ذكر هذا الوعيد لبيان سوء عاقبتها وقبح أثرها .

نكتة استطرادية :

هذه هي سنة القرآن في التربية وهي أنجح الطرق في جعل المأمور والمنهي يمتثل للأمر والنهي من كل نفسه ويعمل لتنفيذهما بعقله وارادته ، فالتربية التي تنبني على امتثال الأمر والنهي من غير المعصوم

---

(١) ٢٥/٦٩ الفرقان .

والانقياد لهما انقيادا أعمى ، مخالفة لتربية القرآن ، والخير كله في اتباع القرآن في جميع ما يفيده القرآن •

المفردات :

اسم الاشارة راجع للثلاثة المذكورة من قبل • يلق : يقابل ويصادف وينال ، أثاما : عقابا جزاء على اثمه ، فالاثام جزاء الاثم • يضاعف : يزاد له على الاصل فيعذب عذابين أو أنواعا من العذاب ، يخلد : يلقى ، وطول البقاء يسمّى خلودا كما قالت العرب في أثافي الصخور خوالد لطول بقائها بعد دروس الاطلال لا لدوام بقائها اذ لا دوام لها ، وعلى هذا قول المخبّل السعدي (1) :

إلاّ رَمَاداً هَامِداً دَفَعَتْ
عَنْهُ الرِّيَاحَ خَوَالِدٌ سُحْمُ

المهان : الذليل المحتقر الذي يفعل به ما يذله ويحقره •

التراكيب :

يضاعف بدل من يلق ، بدل كل من كل ، قال الخليل : لأن مضاعفة العذاب هي لقي الاثام ، وعندي أنه بدل بعض من كل لان لقي العذاب جزاء على تلك الاثام يكون في الدنيا والآخرة ، ومضاعفة العذاب والخلود فيه تكون في الآخرة ، وبهذا تكون الآية قد أفادت أن المرتكب لما تقدم من المعاصي الشرك وقتل النفس والزنى ينال جزاءه دنيا وأخرى ، وعذاب الآخرة المضاعف المستمر أشد وأبقى ، وهذا هو الجاري على سنة القرآن في التخويف بسوء عاقبة المعصية عاجلا وآجلا ، والتنبيه على أن الآجل أشد وافدح من العاجل •

---

(1) من مفضليته ، وانظر المفضليات للانباري ٢٠٩ .

المعنى :

ومن يأت هذه الأفعال فدعا مع الله إلها آخر أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق أو زنى فانه يلقى وينال جزاء معصيته في دنياه وجزاءها في أخراه ويكون عذابه عليها في الآخرة مضاعفا مزيدا عليه أنواع ويستمر فيه باقيا مذللا محقرا .

توجيـــه :

انما ضوعف لأهل هذه الكبائر العذاب ، لأن كل كبيرة منهـا مضاعفة المفاسد والشرور ففي دعاء غير الله الجهل بالله والكفر بنعمة الله والابطال لحق الله ، وفي قتل النفس تأييم وتيتيم وتأليم لغير من قتل وفتح لباب شر بين أولياء القاتل والمقتول وتعد على جميع النوع وتهوين لهذا الجرم الكبير ، وفي الزنى جناية على النسل المقطوع وعلى من ادخل عليهم من الزنى من ليس منهم ، وعلى أصحاب الارث في خروج حقهم لغيرهم وغير ما ذكرنا في جميعها كثير ، فكانت المضاعفة من باب جعل الجزاء من جنس العمـل وهو من مقتضى الحكمة والعدل .

تذكـير :

يذكرنا القرآن بمضاعفة العذاب على كبائر الآثام لنذكر عندما تحدثنا أنفسنا بالمعصية سوء عاقبتها وتعدد شرورها وتشعب مفاسدها ومضاعفة العذاب بحسب ذلك عليها لنزدجر وننكف فنسلم من الشر المتراكم والعذاب المضاعف ونفوز باجر التذكر وثمرة التذكير .

جعلنا الله والمسلمين ممن انتفع بالذكرى وسلم من فتن الدنيـا والاخرى بمنه وكرمه آمين(١) .

---

(١) ش : ج ١١ ، م ٨ ، ص ٥٥٢ ــ ٥٦٤
غرة رجب ١٣٥١ ــ نوفمبر ١٩٣٢

استثناء التائبين من المذنبين

« إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً » (١) .

سبب النزول :

أخرج الشيخان عن ابي عباس – رضي الله عنهم – واللفظ لمسلم ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية بمكة « وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ » الى « مهانا » . فقال المشركون : وما يغني عنا الاسلام وقد عدلنا بالله وقد قتلنا النفس التي حرم الله ، وأتينا الفواحش ، فأنزل الله عز وجل : « إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَملاً صَالِحاً » الى آخر الآية .

المناسبة :

لما ذكر تعالى عظائم الذنوب وأكبر كبائرها وتوعد بالوعيد الشديد عليها ، عقبها بذكر التوبة منها ورغب فيها لينبه عباده على طريق الرجوع اليه ، وان من تاب منهم الى الله تاب الله عليه .

المفردات :

التوبة : الرجوع الى الله ، أي الرجوع من معصية الله الى طاعته ،

---

(١) ٢٥/٧٠ الفرقان .

وذلك بالندم على ما فات والعزم على عدم العود اليه وهذان من عمل القلب • وبالاقلاع عما هو متلبس به وهذا من عمل الجوارح ، الايمان عندما يذكر مع الأعمال يراد به تصديق القلب ويقينه واطمئنانه بعقائد الحق ، والعمل الصالح هو العمل الطيب المشروع من طاعة الله على العباد سواء كان من عمل الباطن ، وهو عمل القلب ، أو من عمل الظاهر ، وهو عمل الجوارح ، والعمل الصالح من ثمرات الايمان الدال وجودها على وجوده وكمالها على كماله ونقصها على نقصه وعدمها على اضطرابه ووشك انحلاله واضمحلاله • التبديل : التحويل فتجعل الحسنة مكان السيئة • الغفور : الستار للذنوب المتجاوز عنها • الرحيم : المنعم الدائم الانعام •

التراكيب :

إلا مَنْ تَابَ : استثناء من يفعل استثناء متصلا لأن الذي يتوب من جملة من فعل والفاء في (فأولئك) تفريعية لتفرع التبديل على التوبة وعاطفة لجملة اولئك على جملة استثني التي قامت مقامها الا ، كما عطفت عليها الجملة الأخيرة جملة وكان ، ونظير هذا : من يقم منكم فله درهم الا زيدا فله درهمان •

المعنى :

يستثني من ذلك الوعيد الشديد بمضاعفة العذاب والخلود فيه مهانا من رجع الى الله من الشرك وقتل النفس والزنى بالتوبة الصادقة وشفع توبته بالعمل الصالح الدال على صدق تلك التوبة ، فهؤلاء بتوبتهم وعملهم الصالح يقبلهم الله ويجعل مكان سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا يتجاوز عن ذنوب عباده فقد تجاوز عما كان منهم من شرك أو قتل أو زنا رحيما منعما على عباده فقد أنعم عليهم بالحسنات مكان ما تقدم من سيئاتهم •

ترتيب وتوجيه :

يكون العاصي في غمرات معصيته فاذا ذكر الله ووفقه الله أسف على حاله ورجع الى ربه ، وهذه أول الدرجات في توبته فاذا استشعر قلبه اليقين واطمأن قلبه بذكر الله صمم على الاعراض عن المعصية والاقبال على الطاعة ، فاذا كان صادقا في هذا العزم فلا بد ان يظهر أثر ذلك على عمله ، فلهذا روعيت الحالة الأولى فذكرت التوبة والثانية فذكر الايمان والثالثة فذكر عمل صالح .

تأييد واقتداء :

روى الأئمة عن كعب بن مالك ـــ رضي الله عنه ـــ أحد الثلاثة الذين خلفوا انه لما جلس بين يدي النبي ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ بعد ما تاب الله عليه قال : يا رسول الله ، ان من توبتي أن انخلع من مالي الى الله والى رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ ، فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ : امسك بعض مالك فهو خير لك ، قال : فقلت : فاني أمسك سهمي الذي هو بخيبر . فهذا الصحابي الجليل رأى أن من توبته ان يعمل هذا العمل الصالح ليكون دليلا على صدق توبته كما اقتضته الآية ، فتأيد بفهمه ما قدمنا وكان خير قدوة للتائبين .

وجوه التبديل :

لما كانت السيئة لا تنقلب حسنة كان معنى التبديل هو جعل الحسنة مكان السيئة وهذا على وجوه أولها محق السيئات الماضية بالتوبة وكتابة حسنة التوبة وما فيها من عمل باطن وظاهر كما تقدم . وثانيها تركه المعصية واتيانه بالعمل الصالح ، فصار يعمل الصالحات بعد ما كان يعمل السيئات . وثالثها ان نفسه كانت بالمعصية مظلمة شريرة

فتصير بالتوبة والعمل الصالح منيرة خيرة فالتبديل في الكتب والعمل وحالة النفس •

مسالتان أصوليتان :

الاولى : هل يخرج غير التائب من النار : استثنى الله التائب من مضاعفة العذاب والخلود فيه مهانا ، فبقي غير التائب للخلود • والخلود كما قدمنا في الآية السابقة طول البقاء ، ولا يقتضي التأبيد فقد يكون معه التأبيد وقد لا يكون ، فمع التأبيد لا خروج ومع عدمه الخروج • وغير التائب الذي بقي للخلود المطلق في الآية هو المشرك والقاتل والزاني ، فاما المشرك فلا خروج له من النار لقوله تعالى : « إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » وأما القاتل والزاني اذا كانا من أهل الايمان فانهما يخرجان بعد شديد العذاب بما معهما من الايمان لأحاديث صحيحة منها ما رواه الشيخان البخاري والمسلم عن أنس — رضي الله عنهم — :

يخرج من النار من قال لا إله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله الا الله وكان في قلبه من الخير ذرة ، زاد البخاري في رواية قتادة عن أنس : من ايمان مكان خير • وهذا من عدل الله ورحمته ، فانه أذاقهم من العذاب الشديد والهوان المخزي جزاءهم ، ثم أخرجهم من النار وما أضاع عليهم ايمانهم • ان الله بالناس لرؤوف رحيم •

الثانية : هل لقاتل النفس ظلماً وعدوانا من توبة : ذهب ابن عباس في المشهود عنه الذي رواه الشيخان وغيرهما انه لا توبة له ، وقال في هذه الآية انها نزلت في المشركين ، وذكر سبب نزولها كما تقدم وقال — اثره — : فأما من دخل في الاسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له

وقال في هذه الآية انها آية مكية نسختها آية مدنية وهي آية الفرقان[1] : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » . ومراده بالنسخ التخصص ، يعني ان لفظة من في « إلاَّ مَنْ تَابَ » عامة تشمل القاتل فتقتضي بعمومها ان له توبة وان آية الفرقان (النساء) التي جاءت في القاتل خصصتها وأخرجته من عمومها . قال ابن رشد ــ بنقل الابي ــ : والى هذا ذهب مالك لانه قال : « لا يؤم القاتل وان تاب » قال ابن رشد : وهذا لأن القتل فيه حق لله وحق للمقتول ، وشرط التوبة من مظالم العباد ردُّ التبعات أو التحلل ، وهذا لا سبيل للقاتل اليه الا بان يعفو عنه المقتول قبل القتل . وذهب جمهور السلف وأهل السنة الى أنَّ للقاتل توبة ، ونظروا في هذه الآية الى عموم لفظها لا الى خصوص سبب نزولها ، وجعلوا عموم « وَمَنْ يَقْتُلْ » في آية الفرقان (النساء) مخصصا بمن تاب المستثنى في هذه الآية فابن عباس خصص من تاب بمن يقتل ، وهم عكسوا فخصصوا من يقتل بمن تاب، ويرجح تخصيصهم العمومات الدالة على قبول التوبة من كل مذنب مثل قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً » [2] وقوله : « يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ » [3] وقوله : « قَابِلِ التَّوْبِ » [4] .

---

(١) كذا في الاصل ولكنها آية « النساء » .

(٢) ٤/١٠٩ النساء .

(٣) ٤٢/٢٥ الشورى .

(٤) ٤٠/٣ المؤمن وتمام الآية : « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله الا هو اليه المصير » .

وحديث التائب من الذنب كمن لا ذنب له في عمومات كثيرة ، والظواهر اذا كثرت تفيد القطع •

قدوة في الفتوى :

قال ابن رشد : كان ابن شهاب اذا سئل يستفهم السائل ويطاوله فان ظهر له انه لم يقتل يفتيه بانه لا توبة له وان تعرف بانه قتل افتاه بان التوبة تصح • قال ابن رشد : وانه لحسن من الفتوى • فهكذا ينبغي مراعاة الأحوال في تنزيل الأقوال ، فان من لم يقتل يجب التشديد عليه وسد الباب في وجهه ، ومن قتل ينبغي ترغيبه في الرجوع الى الله ، وفي مراعاة هذا الأصل والاقتداء بهذا الامام فوائد كثيرة في الحث على الخير والكف عن الشر والحكيم من ينزل الاشياء في منازلها كانت أعمالا أو كانت أقوالا •

ترهيب :

ما أعظم هذا الذنب وما أكبره • ونعوذ بالله من ذنب اختلف أئمة السلف في قبول توبة مرتكبة ، وقد أجمعوا على قبول توبة الكافر ، ولعظم شأن الدماء كانت أول ما يقضي فيه يوم القيامة بين الخلق فأيّاك أيها الأخ أن تلقي الله تعالى مشاركة في سفك قطرة من دم ظلما ولو بكلمة ، فان الأمر صعب والموقف خطير •

بشارة التائبين الى رب العالمين :

« وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلى اللهِ مَتَاباً » (١) •

---

(١) ٧١/٢٥ الفرقان .

المناسبة :

لما أفادت الآية السابقة ان التوبة تمحو السيئات ، جاءت هـذه الآية اثرها تبين ما لأهلها من جزيل الانعامات وعظيم الدرجات •

المفردات :

المتاب : مصدر كالمرجع •

التراكيب :

خالف جواب الشرط وهو يتوب فعل الشرط وهو تاب بمتعلقه وهو الى الله ومعموله وهو متابا ، وعبر بالمضارع في الجواب ليفيد التجدد باعتبار تجدد المثوبات للراجعين الى الله ، وتنوين متابا تنوين تفخيم وتعظيم •

المعنى :

ومن تاب التوبة الصادقة وعمل عملا صالحاً دليلاً على صدق توبته فانه يرجع الى الله الذي يحب التوابين ويحب المتطهرين ، ويحسن لقاءهم ويجزل ثوابهم ، رجوعا وأي رجوع رجوع العز والتكريم الى الحليم الكريم •

ترغيب :

دعا الله بهذا عباده المذنبين حتى لا يتسرب القنوط الى قلوبهم ، وهو محرم عليهم ولا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب ، وان عظم ، ورغبهم في التوبة بانها رجوع اليه وكفى ، وان الرجوع اليه فيه من الخير والشرف فوق ما تصوره الألفاظ ، فما أحلمه من رب كريم وما أرحمه بعباده المذنبين ، فهذا داعي الله فأجيبوه وهذا باب الله فلجوه فانكم مهما رجعتم اليه لا تطردون ومهما قصدتم اليه تقبلوا وتكرموا •

اللهم فكما فتحت لنا بابك فوفقنا اليه وتب علينا لنتوب انك أنت التواب الرحيم [1] .

الصفة التاسعة :

« وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ... » [2] .

المناسبة :

لما وصفهم بالصفات المتقدمة الدالة كلها على كمال أخلاقهم ، واستقامة أعمالهم في ظواهرهم وبواطنهم ، بانبائها على قوة إيمانهم ، وصحة علمهم ، فكانوا أهل الحق المتصفين به في علمهم وعملهم ، القائمين عليه في جميع أحوالهم ، وصفهم هنا ببعدهم عن الباطل ، ومشاهده ، ومجانبتهم لاهله .

المفردات :

الشهود : هو الحضور الذي يكون فيه ادراك بالحواس أو البصيرة . والشهادة هي الاخبار عن علم حصل عن شهود . ولا يشهدون : يحتمل أن يكون من الشهود وأن يكون من الشهادة . والزور : أصله الميل ويطلق على الكذب لانه ميل عن الحقيقة وعلى كل باطل من الاقوال ، والاعمال ، لانه ميل عن الحق .

التراكيب :

اذا كان « لَا يَشْهَدُونَ » بمعنى لا يحضرون فالزور مفعول به ، واذا كان بمعنى لا يخبرون فالزور مفعول مظلق بعد حذف المضاف ، والاصل : ولا يشهدون شهادة الزور .

(١) ش : ج ١٢ ، م ٨ ، ص ٦٠٨ — ٦١٥
شعبان ١٣٥١ — ديسمبر ١٩٣٢
(٢) ٧٢/٢٥ الفرقان .

المعنى :

ـ على الاحتمال الاول ـ والذين لا يحضرون مشاهدة الباطل والاثم من كل من مجلس تتعدى فيه الحدود ، أو تنتهك فيه الحرمات أو يحكم فيه بالجور ، أو تعظم فيه الطواغيت أو يدعى فيه بدعوى الجاهلية ، أو تحيا فيه معالم الوثنية أو تطمس فيه السنة النبوية أو يدعي فيه أحد مع الله ، أو يضرع الى سواه . وعلى الاحتمال الثاني ـ والذين لا يشهدون شهادة الزور ولا يخبرون الا بالحق الواقع .

ترجيع وترجيح :

يلزم من أنهم لا يشهدون مشاهدة الباطل أنهم لا يشهدون بالزور لوجهين : الأول لأنهم اذا كانوا لا يحضرون مجالس الباطل فبالاحرى أنهم لا يقولونه . والثاني ان يشهد شهادة الزور من مشاهد الباطل التي لا يحضرونها . فيكون الوجه الأول أولى لانه أشمل .

توسع في البيان :

على انه من بلاغة القرآن أن تأتي مثل هذه الآيات بوجوه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كأنها آيات نظير مجيء الآية بقراءتين : فتكون كآيتين مثل قوله تعالى : « إنْ جاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَاءٍ فَتَبَيَّنُوا ـ فتثبتوا »[1] وقوله تعالى في آية الوضوء : « وَأَرْجُلَكُمْ »[2] بالنصب عطفاً على الوجه فيفيد غسل الأرجل ، وتلك هي الحالة

(١) ٦/٤٩ الحجرات .

(٢) ٧/٥ المائدة ، وتمام الآية : « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين .. » .

الأصلية العامة • وبالخفض عطفا على الرؤوس فيفيد مسح الأرجل وتلك هي حالة الرخصة عند لبس الخفاف • فتكون هذه الآية باحتمالها مفيدة تنزههم عن شهود الباطل وعن شهادته •

موعظة :

قال جار الله في الكشاف عن هؤلاء الموصوفين من عباد الرحمن : انهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها تنزها عن مخالطة الشر وأهله ، وصيانة لدينهم عما يثلمه ، لأن مشاهدة الباطل شركة فيه ، ولذلك قيل في النظارة الى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعلية في الاثم لأن حضورهم دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم في النظر اليه • وهذا كما قال فان حضور مشاهد الباطل اقرار لاهلها عليها وترك للنهي عن المنكر ، وقد قال الله تعالى : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ »[1] وقال : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[2] فتعم الآية كل ظالم فلا تجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم ، ولا

(١) ٥/٨١ ــ ٨٢ المائدة .

(٢) ٦/٦٨ الانعام .

يكفي أن ينكر ويجلس لانه يكون ببقائه معهم ، قد أظل مـا يدل⁴
على الرضا بفعلهم ونقض بالفعل انكاره عليهم بالقول ، وروى الطبراني والبيهقي باسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : **(لا يقفن احدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه ولا يقفن احدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه)** . فاخبر أن اللعنة تنزل على الحاضرين لعدم دفعهم ، واقتضى أنهم غير راضين بقلوبهم ، وأحرى اذا رضوا فلا يجوز مـن هذا الحديث وغيره حضور الظلم والقبائح مع عدم دفعها ، ولو مع عدم الرضا بها . وروى الشيخان عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ ان رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال لاصحابه : لما وصلوا الحجر ديار ثمود ــ **((لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا ان تكونوا باكين فان لم تكونوا باكـين فـلا تـدخلوا عليهم لا يصيبكم مـا أصـابهم))** فاذا كان هذا فيمن ماتوا من أهل العذاب فمثلهم مجالس أهل السوء والفساد ، فاذا نزلت اللعنة والعذاب عمتهم ومن كان معهم ، وشهادة الزور المرادة بالنص على الوجه الثاني أو اللزوم على الوجه الاول من أكبر الذنوب اثما ، وشر الكبائر مفسدة تنقلب بها الحقائق وتضيع بها الحقوق وتبطل المعاملات وتزول الثقة بين الناس وتتعرض النفوس والأموال والأعراض للأذى والشر، وتنعدم طمأنينة الناس على مايعلمون من أنفسهم . وصح عنه عليـه وآلـه الصلاة والسلام انـه قال : **(الا انبئكم باكبر الكبائر الا انبئكم باكبر الكبائر الا انبئكم باكبر الكبائر ؟ الاشراك بالله وعقـوق الوالدين ، الا وشـهادة الزور وقول الزور)** وكان متكئا فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا (شفقة عليه) ليته سكت. فجلس لها وبقي يكررها لعظم شرها وكبر مفسدتها وعظم الاثم فيها

(٤) ٦٨/٦ الانعام .

على حسب ذلك منها • أعاذنا الله والمسلمين منها ومن كل زور وذي زور•

الصفة العاشرة :

« وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً »[1]

المناسبة :

نفى عنهم فيما تقدم حضور مشاهد الزور وأخبر هنا انهم لا يقفون عند اللغو عندما يمرون عليه ترقيا في وصفهم بالبعد عن الباطل والاثم والعبث ومجانبة أهله •

المفردات :

اللغو : مصدر لغا يلغو ، أي قال باطلا فهو القول الباطل ومثله الفعل الباطل من كل ما لا فائدة فيه ولا نتيجة له مما شأنه ان يلغى ويطرح•والكريم : الخالص العنصر فهو الزكي غير المتدنس،ومن مقتضى ذلك حسن أخلاقه واستقامة أعماله وسلامته من الرذائل •

التراكيب :

كراما حال من فاعل مروا الثاني ليبين وصفهم عند المرور •

المعنى :

واذا مروا في طريقهم بقول يقال أو فعل يفعل مما لا فائدة فيه جاوزوه معرضين عنه أزكياء غير متدنسين بشيء ولا متلفتين لاهله •

موعظة :

في الاقبال على اللغو شغل للباطل به وتكدير للخاطر بظلمته ،

---

(١) ٢٥/٧٢ الفرقان .

وتضييع للوقت فيه ، ولكل كلمة تسمعها أو فعلة تشهدها أثر في حياتك، وان قلّ ، وقد يعقبها ضدها فتزول بعد ما شغلت وعطلت، وقد يردفها مثلها فتثبت وتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين ، وبقدر ما تلتفت الى اللغو تلتفت عن كرمك ، وبقدر ما يعلق بك منه ينقص من زكائك وبقدر ما تتساهل بالوقوف عليه تقرب من الدخول فيه واذا دخلت فيه واستأنست بأهله جرك الى الزور وعظائم الأمور وللشرّ أسباب متواصلة وأنساب متصلة يؤدي بعضها الى بعض فينتقل المغرور الغافل من خفيها الى جليها ، ومن صغيرها الى كبيرها ، فالحازم من لم يسامح نفسه في قليلها ، وتباعد كل البعد عنها ، وعن أهلها ، وقد هدتنا هذه الآيات لنهتدي وذكرت عباد الرحمن لنقتدي والله المستعان ولا توفيق الا به[1] .

الصفة الحادية عشرة :

« وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا » [2] .

المناسبة :

لما وصفهم فيما تقدم باعراضهم عن الباطل ، ومجانبتهم لأهله ، وبعدهم عنه وصفهم هنا باقبالهم على الحق، واكبابهم عليه متفهمين مستبصرين .

الالفاظ :

ذكروا : وعظوا ونبهوا . بآيات ربهم : هي آيات القرآن ، وفيها

---

(١) ش : ج ٢ ، م ٩ ، ص ٦٦ ـ ٧٠
غرة شوال ١٣٥١ ـ فيفري ١٩٣٣

(٢) ٢٥/٧٣ الفرقان .

التذكير بآيات الأكوان التي ترى بالعيان • الخرور : هو السقوط كسقوط الساجد ، الاصم : فاقد حاسة السمع أو الـذي لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به وهو المراد هنا • والاعمى : فاقد حاسة البصر ، أي الذي لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به ، ويكون الأعمى بمعنى فاقد الادراك القلبي ، وهو عمى البصيرة وما هنا يحتمل الوجهـين الاخـيرين •

التراكيب :

عبر باذا لأن التذكير مما هو واقع محقق كالذي يسمع من القرآن في الصلاة من الخطب في الجمع • وبنى الفعل للنائب لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكر كان • وصما وعميانا : حال من الواو ضمير الجماعة في لم يخروا ، والنفي منصب على الحال التي هي قيد في الكلام واذا كان الكلام مقيدا بقيد كما هنا فان النفي ينصب على ذلك القيد في غالب الاستعمال العربي ، ونظيره ما رأيت زيدا راكبا نفيا للركوب لا للرؤية ، ولا يلقاني مسلما نفيا للسلام لا للقاء ، فلم ينف عنهم الخرور وانما نفى عنهم الصمم والعمى عند الخرور •

المعنى :

ومن صفات عباد الرحمن أنهم اذا ذكرهم مذكر بآيات ربهم التي أنزلها على نبيهم ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بما فيها من ذكر مخلوقاته وانعاماته وأيامه في أوليائه وأعدائه ووعده ووعيده وترغيبه وترهيبه ، أقبلوا عليها وأكبوا على سماعها بآذان واعية ، وأبصـار راعية ، وقلوب حاضرة ، وعقول متدبرة ، لا كمن يقبلون عليهـا ويكبون على سماعها ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون لانهم لا يعقلون ولا يتدبرون •

عموم الحاجة للتذكير :

بعد ما ذكر تعالى من صفات عباد الرحمن ما ذكر ذكر استماعهم للتذكير تنبيها على ان التذكير محتاج اليه في كل حال فاذا كان الموصوفون بتلك الصفات يحتاجون اليه فغيرهم اولى وذلك لان الغفلة من طبع الانسان ودوام الغفلة صدأ القلوب وصقالها هو التذكير •

قبول التذكير من كل مذكر :

كما تقبل كلمة الحق من كل قائل كذلك يقبل التذكير من كل مذكر ولو كان المذكر من كمل العباد والمذكر من أوساطهم أو أدناهم وفي عباد الرحمن المذكورين في استماعهم اذا ذكروا من أي مذكر ، القدوة الحسنة •

ما يكون به التذكير :

قال الله تعالى : « فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ »[1] « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »[2] « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »[3] فالتذكير بآيات القرآن والاحاديث النبوية هذا هو التذكير المشروع المتبوع والدواء الناجع المجرب ولذلك تجد مواعظ السلف كلها مبنية عليه راجعة اليه ، والنصح لله ولرسوله وللمسلمين في لزوم ذلك والسير عليه •

---

(١) ٥٠/٤٥ ق .

(٢) ٥٤/١٧ القمر .

(٣) ٥٩/٧ المجادلة .

اقسام الناس عند التذكير :

الناس عند تلاوة القرآن على قسمين معرضين ومقبلين • فالمعرضون غير المؤمنين • والمقبلون على قسمين مقبلين بظـاهرهم دون باطنهم ومقبلين بظاهرهم وبـاطنهم ، فـالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون ، والمقبلون بظاهرهم وباطنهم على قسمين : مستمعين مستبصرين حاضرين متدبرين ، وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصـرين ، والاقسام كلها مذمومة الا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم المستمعين المستبصرين ، وهذا القسم هو الذي وصف به عباد الرحمن فكانوا مباينين لاهل الاعراض من الكافرين والمنافقين ولاهل الغفلة وعـدم التدبر من المؤمنين •

تحذير وتنبيه :

قد صورت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه ويتلقاه بالقبول ثم لا يتفهمه ولا يتدبره بحالة الاصم الاعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه تقبيحا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات وتحذيرا منه وتنبيها على ان الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر وتتسع به المدارك وتتهذب به الاخلاق وتتزكى به النفوس وتتقوم به الاعمال وتستقيم به الاحوال انما يكون بتفهمه وتدبره دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر •

امر وارشاد :

الآيات الدالة على طلب التدبر والتفهم لآيات القرآن العظيم كثيرة منها هذه الآية ومنها قوله تعالى : « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ » (١)

---

(١) ص ٣٨/٢٩ •

فعلينا أن نحضر قلوبنا عند سماعها ونستعمل عقولنا في فهمها ونحمل أنفسنا على الاتّعاظ بها ، فاذا صدقت النية وأخلص التوجه فتح على العبد من وجوه العلم والعمل — باذن الله — بما لم يكن له في بال ، وان الله وصف هذا الكتاب بانه مبارك لزيادة خيراته وتيسيره للذاكرين — ترغيبا لنا في فهمه وتدبره واستنزال الخيرات واستزادة البركات منه ، فأقبل — يا أخي على القرآن على استماعه وعلى تفهمه والزم ذلك حتى يصير عادة لك وملكة فيك — تر من فضل الله واقباله عليه ما يدنيك — ان شاء الله — ويعليك ويعود بالخير الجزيل عليك .. والله نسأل لنا ولكم الاقبال على الله بتلاوة وتدبر كتابه ، والتأدب بجميع آدابه حتى نحشر في زمرة أحبابه ، بمنه وكرمه آمين (١) .

الصفة الثانية عشرة :

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا » (٢) .

المناسبة :

لما وصفهم في الآيات المتقدمة بما دل على أنهم أهل خير وكمال في أنفسهم وصفهم في هذه بما دل على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم أزواجهم وذريتهم ومن سواهم ، وقدم الازواج على الذرية لانهم الصق ولأنهم الأصل .

---

(١) ش : ج ٣ ، م ٩ ص ١٢٠ — ١٢٥
غرة ذي القعدة ١٣٥١ — مارس ١٩٣٣

(٢) ٢٥/٧٤ الفرقان .

فقه هذه المناسبة :

فطر الانسان على محبته لنفسه لتحمله هذه الفطرة على المحافظة عليها والدفاع عنها وتكميلها بكل وجوه الكمال . وكان من مقتضى هذه المحبة رغبته في الوجود والبقاء ومما هو قوة في وجوده ومظهر لبقائه أن يرى الناس على فكره وصفاته وأحواله ، فيرى نفسه ممثلة في غيره ، وأفكاره وصفاته وأحواله باقية ببقاء الناس ، فالخير الكامل من طبعه ومن مقتضى فطرته انه يجب انتشار الخير والكمال في الناس . والشرير الناقص من طبعه ومن مقتضى فطرته انه يحب انتشار الشر والنقص فيهم فلذا كان لازما لتتميم وصف عباد الرحمن ذكر محبتهم الخير والكمال لغيرهم .

ميزان هذه المناسبة :

قد تخفي عليك دخيلة نفس الانسان فيمكنك أن تعرفها بما يجري به لسانه فاذا جرت كلماته بمحبة انتشار الخير والكمال ، فهو من أهلهما واذا جرت بالضد فهو على الضد . فما يحب الانسان انتشاره هو الدليل على صفات نفسه وهو ميزان تزنه به في الشر والخير والنقص والكمال .

المفردات :

الهبة : العطاء من غير عوض ، ولا تكون على الحقيقة التامة الا من الله ، فهو الغني الوهاب . من : ابتدائية فمن ناحية الأزواج والذرية تكون قرة الأعين ، الازواج : جمع زوج ، وهو يصدق على الرجل والمرأة ، والنساء شقائق الرجال ، وهذا الدعاء كما يكون من المؤمنين يكون من المؤمنات ، كما تصدق الآيات المتقدمة على الموصوفين من الصنفين بتلك الصفات . الذرية : ما تناسل منهم من أبنائهم وبناتهم ، وقرئت بالافراد لاتحادها في أصل النسل ، وبالجمع

لاختلافها في الفروع والانساب . قرة الاعين : بردها إن كانت من القر وهو البرد . وسكونها ان كانت من القرور ، بمعنى الاستقرار ، الامام : هو المتبع المقتدى به وأفرد لأن المراد به الجنس ، وحسن الافراد من جهة اللفظ لوقوعه فاصلة على وزان ما قبلها وما بعدها ومن جهة المعنى ، ان أئمة الهدى كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم بالسير على الصراط المستقيم واتحاد وجهتهم بالقصد الى الله تعالى وحده .

التراكيب :

قرة أعين : تركيب كنائي ، فاذا كان القرة من القر فهو كناية عن السرور ، لأن العين في حالة السرور باردة ، واذا سالت منها دموع في حالة الفرح كانت باردة ، واذا كان الانسان في حالة حزن فالعين تكون سخنة بسبب ثورة النفس وآلامها التي تثير الحرارة ، فاذا سالت منها دموع الحزن كانت سخنة ومما يقال على هذا أقر الله عين المحق وأسخن عين المبطل وجاء عليه قول ابي تمام[1] :

فَأمَّا عُيونُ العَاشِقِينَ فَأُسْخِنَتْ
وأمَّا عُيونُ الشامِتينَ فَقَرَّتِ

فقرة أعينهم على هذا كناية عن سرورهم بازواجهم وذريتهم ، بما يرونهم عليه من الخير والكمال ، واعانتهم لهم عليهما . واذا كانت القرة من القرور فهي كناية عن سكون النفس بحصولها على مايرضيها من الأزواج والذرية ، ومعنى هذا ان النفس اذا لم تحصل على مايرضيها تعلقت بما عند غيرها وتشوقت اليه ، فتمتد اليه العين ويطمح اليه

(1) من قصيدة يمدح حبيش بن المعافي قاضي نصيبين وراس العين مطلعها :

نسائلها اي المواطن حلت   واي ديار اوطنتها وانت

البصر ، واذا حصلت على ما يرضيها زالت عن ذلك التعلق وانكفت عن التشوف فسكنت العين فلم تمتد الى غير ما عندها ولم يطمح البصر اليه ، ولهذا كما كان قرور العين كناية عن رضى النفس وسكونها كان امتداد العين كناية عن اضطراب النفس وتشوفها وتعلقها وعليه قوله تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى »[1] • فقرة أعينهم على هذا كناية عن رضى أنفسهم بما يكون لهم من أزواج وذرية موصوفين بالصفات المرضية من طاعة الله في القيام بوظائف الدين والدنيا واعانتهم لهم على القيام بها •

المعنى :

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم يسألونه أن يهب لهم أزواجا وذرية تقر بهم أعينهم بأن يكونوا موصوفين بمثل صفاتهم سائرين على منهاجهم معينين لهم على ما هم عليه ، ويسألونه أن يكونوا على أكمل حال في العلم والعمل والاستقامة يقتدي بهم فيها المتقون •

الاحكام :

الاول : التزوج وطلب النسل هو السنة ، سنة النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وسنة أصحابه عليهم الرضوان ، وسنة عباد الرحمن ، وليس من شريعته الحنيفية السمحة الرهبانية والتبتل ، وقد رأى قوم من الزهاد رجحان الانقطاع الى العبادة على التزوج والاشتغال بالسعي على الزوج والذرية فرد عليهم أئمة الدين والفتوى بأنَّ في التزوج

---

(١) طه ١٣١/٢٠ .

اتباعا للسنة ، وفي السعي على الأهل ما هو من أعظم العبادة ، وفي التزوج تكثير سواد الأمة والمدافعين عن الملة والقائمين بمصالح الدين والدنيا ، وفي هذا ما فيه من الأجر والمثوبة • وفي التبتل مخالفة السنة وانقطاع النسل وضعف الأمة وتعطيل المصالح وخراب العمران وكفي بهذا كله شرا وفسادا •

الثاني : سؤال العبد من ربه أن يهب له من الزوج والذرية ما تقرّ به عينه ،يقتضي سعيه بقدر استطاعته لتحصيل ذلك فيهما ليقوم بالسببين المشروعين من السعي والدعاء ، فعليه أن يختار ويجتهد عندما يريد التزوج ، وأن يقصد الى ذات الدين ، وفي اختياره واجتهاده في جانب الزوجة سعي في اختيار الولد ، فان الزوجة الصالحة شأنها أن تربي أولادها على الخير والصلاح • ثم عليه أن يقوم بتعليم زوجه وأولاده وتهذيبهم وارشادهم فيكون قد قام بما عليه في الابتداء والاستمرار مع دوام التضرع الى الله تعالى والابتهال •

الثالث : ما تقرّ به الأعين يحصل به الفرح والسرور فالفرح والسرور بما هو خير وطاعة من حيث انه نعمة من الله وفضل محمود ومشروع •

الرابع : طلب الرتب العليا ، في الخير والكمال ، والسبق اليها والتقدم فيها مما يدعونا اليه الله ، ويرغبنا بمثل هذه الآية فيه كما قال تعالى : « فاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ » لأن طلب الكمال كمال ولأن من كانت غايته الرتب العليا إنْ لم يصل الى أعلاها لم ينحط عن أدناها ، وإنْ لم يساو أهلَها لم يبعد عنهم • ومن لم يطلب الكمال بقي في النقص ومن لم تكن له غاية سامية قصر في السعي وتوانى في العمل ، فالمؤمن يطلب أسمى الغايات حتى اذا لم يصل لم يبعد وحتى يكون في مظنه الوصول بصحة القصد وصدق النية •

الخامس : من الدين الاقتداء بأهل العلم والعمل والاستقامة في الهدى والسمت •

السادس : لا يكون الامام الا تقياً فاق غيره في التقوى •

السابع : ان اقتداء المتقين بأئمتهم إنما هو في التقوى لأنهم ما كانوا أئمة إلاّ بها • فالآية أفادت إن المتقين يقتدون بأئمتهم وإن أئمتهم متقون مثلهم وأكمل منهم في التقوى ، وان اقتداءهم بهم في التقوى لا في غيرها فمن حاد عنها فلا إمامة له •

تمييز :

الخير الكامل المقدم في الخير والكمال المقتدى به فيهما اذا طلب الإمامة من حيث الخير والكمال نفسهما ومن حيث حمل الناس عليهما بالقدوة الصالحة فيهما ، لأن فعل الخير والاتصاف بالكمال دعوة اليهما بالعمل وهي أبلغ من الدعوة بالقول ، ومن حيث انتشارهما في الناس وسعادة الناس بهما ، اذا طلب الإمامة من هذه الحيثيات فطلبه مشروع محمود وهو طلب عباد الرحمن المذكور في الآية ، واذا طلب الإمامة والتقدم لأجل الترأس والتقدم فهذا طلب مذموم من عمل المتكبرين لا من عمل المتقين ، فعلى الداعي ان يميز هذا التمييز ليخلص القصد في دعائه ويكون على صواب فيه •

كلمة عظيمة من امام عظيم :

قال مجاهد ـ التابعي الجليل الثقة الثبت المفسر الكبير ـ : **« ائمة نقتدي بمن قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا »** ذكره البخاري ورواه ابن جرير بسند صحيح • يعني ان الذين يقتدي بهم الناس من بعدهم هم الذين كانوا يقتدون بسلفهم الصالح من قبلهم ، فالذين أحدثوا في الدين ما لم يعرفه السلف الصالح لم يقتدوا بمن قبلهم فليسوا أهلاً

لأن يقتدي بهم من بعدهم فكل من اخترع وابتدع في الدين ما لم يعرفه السلف الصالح فهو ساقط عن رتبة الامامة فيه .

سلوك واقتداء :

كان الأعرابي الجاهل المشرك يأتي للنبي — صلى الله عليه وآله وسلم — فيؤمن به ويصحبه يتعلم منه الدين ، ويأخذ عنه الهدى ، فيستنير عقله بعقائد الحق وتتزكى نفسه بصفات الفضل ، وتستقيم أعماله على طريق الهدى ، فيرجع الى قومه هادياً مهدياً ، أما ما يقتدي به ، ويؤخذ عنه كما اقتدى هو بالنبي — صلى الله عليه وآله وسلم — وأخذ عنه . فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك فيحضر مجالس العلم التي تذكره بآيات الله وأحاديث رسوله ما يصحح عقده ويزكي نفسه ويقوّم عمله وليطبق ما يسمعه على نفسه وليجاهد في تنفيذه على ظاهره وباطنه وليداوم على هذا حتى يبلغ الى ما قدر له من كمال فيه فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره ، في حاله ، وسلوكه ، وطلبة العلم الذين (1) وهبوا نفوسهم لله وقصروا أعمارهم على طلب العلم لدعوة الخلق الى الله هم المطالبون على الاخص بهذا السلوك ليصلوا الى امامة الحق . وهداية الخلق ، على أكمل حالة ومن أقرب طريق . فاللهم وفقنا واهدنا الى سنة نبينا اذا اقتدينا واذا اقتدي بنا آمين يا رب العالمين (2) .

●

(1) في الاصل : الذي .

(2) ش : ج ٦ ، م ٩ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٩ .
غرة محرم ١٣٥٢ هـ — ماي ١٩٣٣ م .

جــزاء عباد الرحمن

« أُولئِكَ يُجزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُستَقَرّاً وَمُقَاماً » (١) •

المناسبة وفقهها :

لما ذكر في الآيات المتقدمة صفاتهم وأعمالهم ذكر ما أعدّ لهم من عظيم الجزاء على تلك الاعمال تنبيها على ما وضعه تعالى بمشيئته وحكمته ورحمته من الارتباط بين هذه الأعمال ، وهذا الجزاء ، وافضائها اليه افضاء السبب لمسببه ليسعى الراجون لهذا الجزاء من طريق هذه الصفات وهذه الاعمال كما يسعى لسائر المسببات من طريق أسبابها وتوقي جميع الأمور من أبوابها • وفي هذا حث لاهل هذه الاعمال على التمسك بما هم به عاملون • وتنبيه لأهل الغرور على بطلان ما هم به مغترون « والكيس من دان نفسه (قهرها على الطاعة وحاسبها) وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمـاني » •

المفردات :

يجزون : يعطون في مقابلة أعمالهم ، الغرفة : البيت الأعلى فوق بيت ، وأل : فيه للجنس فيصدق بالمتعدد • صبروا : حسبوا نفوسهم •

---

(١) ٢٥/٧٥ ـ ٧٦ الفرقان .

والباء : فيه سببية • يلقون : من لقي بمعنى يجدون • ويلقون : من لقي بمعنى تلقيهم الملائكة أي تقابلهم وتتلقاهم • تحية : دعاء بالحياة • سلاما : دعاء بالسلامة • خالدين : باقين • مستقراً : هو المكان الذي ينتهي اليه من غيره ويثبت فيه • مقاما : هو المكان الذي يقام ويمكث فيه •

التراكيب :

جملة أولئك مستأنفة بيانيا ، فانّ تلك الصفات والأعمال تشوق السامع الى معرفة مآلهم وثمرة أعمالهم فيسأل عنهما ، فكانت الجملة جواباً لذلك السؤال المقدّر وعرف المسند اليه بالاشارة تنبيها على أن استحقاقه للمسند كان بما تقدم من صفات • وجملة (حسنت) مستأنفة بيانياً ، لأن من عرف حالتهم من الحياة والسلامة والبقاء يتشوف لمعرفة حال مكان هذه الحياة السالمة الباقية فيسأل عنه فوقعت جملة حسنت موقع الجواب عن هذا السؤال المقدّر • وهي أنشائية أفادت إنشاء مدح الغرف، بالحسن ، وتعظيم ذلك الحسن وقدم المستقر لان أول الحلول استقرار ، والمقام بقاء الاستقرار واستمرار المكث •

المعنى :

أولئك الذين ذكرت صفاتهم وأفعالهم يعطون جزاء أعمالهم البيوت العلالي في الجنة بسبب صبرهم وحبسهم لأنفسهم على الطاعات والمجاهدات وكفهم لها عن المعاصي والشهوات ، وتتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام ، باقين في هذا النعيم المقيم وسكنى علالي الجنة التي هي أحسن مستقر ينتهي اليه الانسان ومقام يمكث فيه •

تطبيق حديث وفقهه :

« روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنهم — إن رسول

الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: **ان اهل الجنة ليتراءون اهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى ـ والذي نفسي بيده ـ رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ...** » فهذا الحديث بيَّن أن أهل الغرف هم أكمل المؤمنين وأعلاهم درجة في الجنة بهذا المقدار من البعد ، فهم الموصوفون بالصفات المذكورة في الآيات المتقدمة على أتمها ، ومن لم يكن مثلهم فيها لم يكن في منازلهم التي جوزوا بها عليها وكان على حسب حظه من الايمان في منزلة من منازل أهل الجنة الذين يتراءون أهل الغرف . فدرجات أهل الجنة في منازلهم على حسب سلوكهم في أعمالهم : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ، وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ » [(١)] .

دلالة :

دلت الآية على السبب الذي أفضى بهم الى هذا الجزاء العظيم وهو أعمالهم ، ودلت على السبب الذي تمكنوا به من القيام بهذه الأعمال وهو الصبر لقوله تعالى : « بِمَا صَبَرُوا » ومن أعظم الحكمة معرفة الأسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض ، فلا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات إلاّ من صبر ، والصبر خلق من الأخلاق التي تتربى وتنمو بالمران والدوام ، فواجب على المكلف أنْ يجعل تربية نفسه عليه وتعويدها به من أكبر همه ، إذ لا يقوم بالتكاليف

---

(١) ٤٥/٢٠ ـ ٢١ الجاثية .

الشرعية إلاّ به بل ولا يستطيع الحياة في هذه الدار الدّنيا الموضوعة على المحنة والابتلاء الا اذا تمسك بسببه .

بيان القرآن للقرآن :

في هذه الآية انهم يلقون تحية وسلاما وقد بيّن من يتلقاهم بذلك في قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » (1) . فالملائكة هم الذين يتلقونهم بالسلام والدعاء لهم بالطيب وهو مما يدخل في التحيــة ، لأن من طيبهم طيب حياتهم ، وما أكثر ما تجد في القرآن بيان القرآن ، فاجعله من بالك تهتد ــ إن شاء الله ــ اليه .

اقتداء ورجاء :

هؤلاء هم السالكون وما ذكر من أعمالهم وأحوالهم هو سلوكهم ، ولما سلكوا الصراط المستقيم بالعمل المستقيم انتهى بهم السير الى أحسن قرار ومقام،الىدار النعيم المقيم في جوار الرحمن الرحيم، فاذا اشتقت الى نهايتهم فتمسك ببدايتهم وزن أعمالك بأعمالهم وأحوالك بأحوالهم ، فاذا جعلت ذلك من همك ، وحملت عليه نفسك بصادق عزمك وصبرت كما صبروا رجوت أن تظفر بما ظفروا ، فالله نسأل لنا ولك وللمسلمين صحة الاقتداء وصدق الرجــاء ، وحسن الجزاء : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (2) . (3)

---

(1) 39/73 الزمر .

(2) 16/97 النحل .

(3) ش : ج 7 ، م 9 ، ص 263 ــ 267
غرة صفر 1352 هـ ــ جوان 1933 م

قيمة العباد عند ربهم بقدر عبادتهم

« قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا »[1] .

المناسبة :

قد أفادت الآيات السابقة كمال حال عباد الرحمن في نفوسهم وعقولهم وأخلاقهم وأعمالهم ، وأفادت عظيم منزلتهم عند ربهم ورفيع ما أُعدّ لهم من درجاتهم جزاء على صالحاتهم وحسناتهم ، وجاءت هذه الآية تفيد أن ذلك المقام العظيم الذي كان لهم عند ربهم انما هو بسبب عبادتهم ، وتعلن للناس أن عبادتهم هي الشيء الوحيد الذي يكون لهم به قدر وقيمة عند ربهم وبدونها لا يكون لهم وزن عند خالقهم ولا يكونون شيئا يبالي به . وان من كذب وخلع بتكذيبه ربقة العبادة فقد حقّت عليه كلمة العذاب ، وهو واقع به لا محالة .

المفردات :

ما يعبؤ بكم : ما يبالي بكم ، العبء : هو الثقل فما عبأت به بمعنى ما كان له عندي وزن ولا مقدار ، وعبأت به كان له عندي وزن ومقدار ، وعدّي بالباء لانه بمعنى ما باليت ، دعاؤكم : عبادتكم من اطلاق الجزء على الكل . كذبتم : كفرتم فلم تعبدوا . لزاما : ملازما واصل اللزام مصدر لازم واختير هنا للتنبيه على أن بين المكذبين

---

(١) ٢٥/٧٧ الفرقان .

والعذاب ملازمة من الطرفين فهم بتكذيبهم قد الزموا أنفسهم العذاب فلازمهم العذاب •

التراكيب :

جواب لولا محذوف لدلالة ما تقدم وتقدير الكلام : لولا دعاؤكم ما عبأ بكم ، وجملة فقد كذبتم واقعة موقع التعليل لكلام مقدر تقديره ــ والله أعلم ــ لا يعبأ بكم فقد كذبتم ، أي لأنكم قد كذبتم فالفاء تعليلية واما جملة فسوف يكون فمتسببة عما قبلها فالفاء فيهـا سببية • وضمير يكون عائد على العذاب المفهوم من المقام •

المعنى :

قل للذين أرْسِلْتَ إليهم ما يبالي بكم ربِّي ولا يعبأ بكم ولا يكون لكم عنده وزن لولا ايمانكم وعبادتكم ، فاذا كذبتم وكفرتم فهو لا يعبأ بكم وسوف يكون العذاب ملازما بسبب تكذيبكم •

تحرير في المخاطب :

المخاطبون هم الذين كذبوا ، ثم ان ما لحقهم بسبب التكذيب من العذاب الملازم ، فهو خاص بهم وبالمكذبين أمثالهم ، وما كان موجها لهم من جهة أنهم عباد ــ وهو ان الله لا يعبأ بهم لولا دعاؤهم ــ فهو عام لجميع العباد لمماثلتهم لهم في العبودية لله واستغناء الله عنهم وفرض العبادة عليهم وعدم التقدير لهم الا بها •

تفسير أثري :

أخرج البخاري في كتاب التفسير ، عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام • ورواه في مواضع أخرى من صحيحه • وعنى بالدخان

المذكور في قوله تعالى: «يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ»[1] وبالقمر المذكور في « وَانْشَقَّ القَمَرُ » وبالبطشة المذكورة في « يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى »[2] وباللزام المذكور في هذه الآية . وفسّر ابن مسعود البطشة الكبرى بيوم بدر ، وفسر اللزام به أيضا فهي في الحقيقة أربع وعدها خمسا باعتبار الوصفين البطش والملازمة . وفسر الحسن اللزام بعذاب يوم القيامة ومن عادة السلف أنهم يفسرون اللفظ بما يدخل في عمومه دون قصد للقصر عليه ولا منافاة حينئذ بين التفسيرين فيكونون قد توعدوا تكذيبهم بلزوم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

ترهيب :

رتب لزوم العذاب على التكذيب فأعظم العذاب لأكمل التكذيب وهو تكذيب الكفر ثم أصناف العذاب لازمة لتكذيب العصيان بالعدل والحكمة في التفسير والترتيب .

استنباط :

لما كانت مقادير العباد عند ربهم بحسب عبادتهم فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ أعلى الناس منزلة عند الله هم أعظمهم عبادة لله ، وهم أتقاهم له ، وأشدهم ، خشية منه . وقد قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما رواه مالك وغيره « **والله اني أرجو ان أكون اخشاكم لله واعلمكم بما أتقي** » . وقال أيضا : « **والله اني لاتقاكم لله واعلمكم بحدوده** » .

(١) ٤٤/١٠ الدخان .

(٢) ٤٤/١٦ الدخان .

سؤال استطرادي وجوابه :

كيف يخشى وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ أجاب العلماء عن هذا بأجوبة منه انه لا يخشى العقاب ولكنه يخشى العتاب ومنها — وهو قول الأكثر — انه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بشرط امتثاله لما أمر به . ذكر هذين ابن العربي في « القبس » ومنها انها خشية الاجلال ومشاهدة عظمة الربوبية وانه لا يجب عليه تعالى شيء . وهذان[1] الحديثان الصحيحان من الأدلة الصريحة عند أهل العلم على أن العبادة الشرعية الاسلامية لا تتجرد من الخوف حتى عبادة أفضل الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين .

تعليـــل :

الانسان مهيأ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي وهـــو روحه ، ومعرض للسقوط والنقصان بما فيه من أخلاط عناصر جزئه الأرضي الظلمائي وهو جسده ، ولا يخلص من كدرت جثمانه ولا ينجو من أسباب نقصانه إلا بعبادة ربه التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه فبعبادة ربه يكمل فيرقى في مراتب الكمال ويدنو من الملأ الأعلى عند الرب الأعلى ذي الجلال والاكرام فالله طيب لا يقبل الا الطيب وإليه يصعد الكلم الطيب ، ولا طيب ولا كمال الا للعابدين فلا قيمة ولا قبول لغيرهم عند رب العالمين .

ارشاد وتحذير :

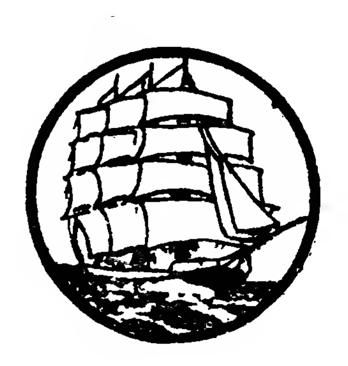
قد بيّن لك الطريق الذي يوصلك الى مولاك ، ويرقيك في مراتب كمالك وعلاك ، وما هو إلاّ عبادة ربك . فكن عبدا له في اختيارك واضطرارك وفي جميع أحوالك ، واحذر أن تعتمد على شيء

---

(١) في الاصل : هذا .

غير عبادته ، واحذر أن تتوجه بشيء من عبادتك لغيره ، ومن عبادتك بل هو مخ عبادتك ، ودعاؤك وسؤالك واستغاثتك فاياك إياك أن تتوجه بشيء منه لغيره ، فكن دائما عبداً لله وكن دائما عبدا له وحده فذلك حقه عليك وذلك السبب الوحيد الذي ينجيك ويعليك .

والله نسأل أن يقصرنا على عبادته ، ويديمنا على الاخلاص في التوجه اليه حتى نلقاه على ملة الاسلام وهدى عباده الصالحين آمين يا رب العالمين (١) .



(١) ش : ج ٨ ، م ٩ ، ص ٣٠٣ — ٣٠٧
غرة ربيع الاول ١٣٥٢ — جويليه ١٩٣٣

انتهى الجزء الأول من المجلد الأول من هذا الكتاب ، وقد اشتمل على مدخل الحياة العقلية والثقافية للمغرب الاسلامي ، وعلى حياة الاستاذ الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وعلى آثاره المتعلقة بالتفسير وشرح الحديث . ويليه الجزء الثاني من المجلد الأول ، وفيه تتمة دروس التفسير وشرح الأحاديث .